



أبو علاء منصور  
(محمد يوسف)

ذاكرة فلسطين

# رحلة لم تكتمل

## محطات على طريق المقاومة



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات  
Arab Center for Research & Policy Studies



# رحلة لم تكتمل محطات على طريق المقاومة

=====

أبو علاء منصور  
(محمد يوسف)

=====

# الفهرسة في أثناء النشر إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

منصور، أبو علاء

رحلة لم تكتمل: محطات على طريق المقاومة/ أبو علاء منصور (محمد يوسف).

(سلسلة ذاكرة فلسطين)

يشتمل على فهرس عام.

ISBN 978-614-445-208-0

1. الفلسطينيون - تراجم. 2. النزاع العربي الإسرائيلي. 3. فلسطين - تاريخ - الاحتلال الإسرائيلي، 1948 - 4. القضية الفلسطينية. 5. المقاومة الفلسطينية - تاريخ. 6. السياسيون الفلسطينيون - تراجم. 7. فتح (منظمة) أ. العنوان. ب. السلسلة.

956.94054092

العنوان بالإنكليزية

An Incomplet March: Landmarks on the Path of Resistance

By Abu Ala'a Mansour (Mohamed Yousif)

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة

السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

شارع الطرفة - منطقة 70 وادي البنات - ص. ب: 10277 - الطعائن، قطر

هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174 ص. ب: 11 4965 رياض الصلح بيروت

لبنان 1107 2180

هاتف: 8 1837 1 99 00961 فاكس: 39 1839 1 99 00961

البريد الإلكتروني:

[beirutoffice@dohainstitute.org](mailto:beirutoffice@dohainstitute.org)

الموقع الإلكتروني:

[www.dohainstitute.org](http://www.dohainstitute.org)

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2018

=====

## غداً تشرق الشمس

ستظلّ راية «كبار العالم» مدنّسة بعار احتلال فلسطين.

الاستعمار جرح مفتوح ونافورة ظلم تتدفق دمًا وألمًا.

لم ينسَ الصغار ما أصاب الأجداد، لكنّهم لم يتوقفوا عند الألم.

إلى نفحات الياسمين، تلك الأرواح الزكية التي فاضت قبل أوانها.

إلى براعم فلسطين الذين ينرون درب تحرير وطنهم بقناديل دمائهم.

غداً ستخفق رايات النصر ... إنّ الفجر آتٍ.

# المحتويات

تقديم: رحلة «منصور»

بين الذكريات النقدية والشهادة..... أحمد جميل عزم

دليل

الفصل الأول

هدير الذكريات

الفصل الثاني

اصطادوا الصقر

الفصل الثالث

عجز الكبار

ملحق

وثائق وصور

## تقديم: رحلة «منصور» بين الذكريات النقدية والشهادة..... أحمد جميل عزم

لأبو علاء منصور أسماء عدة يُعرف بها، وهي ظاهرة ليست نادرة لمن انخرط في العمل النضالي الفلسطيني، فالأسماء الحركية تتعدد وتختلف باختلاف المرحلة، وإذا ما عُرف اسم كثيرًا وعُرف صاحبه وجب تغييره، فهو أبو علاء منصور، وهو منصور، وهو محمد يوسف «اسمه الحقيقي». وأحيانًا استخدم هو أو غيره أسماء لمرة واحدة للإشارة إليه وللتخفي، مثل «نتشة» و«دعيس».

هذا ليس الكتاب الأول الذي يكتبه أبو علاء عن تجربته، ويجدر ألا يكون الأخير، فقد وثّق في كتب سابقة، خصوصًا عبور النهر، وعلى ضفاف النهر، وسيف، وانتفاضة المقهورين، وبلعين في المقاومة الشعبية، جزءًا من تجربته، ولا تزال هناك أجزاء تجدر كتابتها. ولعل من المفيد أن يعرف القارئ أن من قرأ مسودات هذا الكتاب، وجّهوا أسئلة متعددة عن معلومات ومراحل بدت ناقصة، فأتمّها أبو علاء، بعد أن صبّ تركيزه على نقاط أخرى. ويدلّ هذا على صعوبة أن يحوط الكاتب بالتفصيلات كلها، على أهميتها، وذلك لغزارتها.

ما يعقد مهمة أبو علاء، ولكن يزيد أهميته وقيمة، أنّه توّاق، عدا عن التوثيق، إلى أمرين مهمّين تفتقر إليهما الكتابات الفلسطينية إلى حدّ ما؛ أولهما، النقد الذاتي، وثانيهما، المقارنة بين الحقب الزمنية المختلفة.

لقد انخرط أبو علاء بالحركة الوطنية، وتحديدًا في حركة «فتح»<sup>(1)</sup> إبان دراسته الرياضيات، في العراق، حيث تعرّف إلى الحركة والتحق بها في نهاية الستينيات ومطلع السبعينيات من القرن المنصرم ثمّ عاد إلى فلسطين، إلى بلدته بلعين<sup>(2)</sup>، وعمل أستاذًا للرياضيات في مدرسة برام الله الثانوية للبنات. عاد محمّلًا بالانتماء السياسي والفكرة والدافع والحماسة، ولكنّه كان يفتقر إلى أي اتصال تنظيمي مع جهات في داخل حركة «فتح»، أكان ذلك داخل فلسطين أم خارجها، الأمر الذي لم يمنعه من البدء في تنظيم خلايا لحركة «الثورة» (الثورة) تضع نصب عينيها المقاومة المسلحة للاحتلال، فحينها لم يكن واضحًا في ذهنه إلا هذا النمط.

هذه القصة، عن إعطاء شخص نفسه الحق في أن يكون مرجعية تنظيمية تضم آخرين، لم تكن حالة نادرة على الأغلب، وهناك أمثلة عديدة متكررة شبيهة تنتظر من يروونها ويوثّقها. ففكرة الثورة الفلسطينية، وخصوصًا «فتح»، كانت في ذلك الوقت تفتح الأيدي للجميع، ليكون هو «فتح»، كلّ على طريقته، شريطة أن تكون البوصلة، هي مقاومة الاحتلال. ثمّ عندما كُشف أمر خلية أبو علاء التي نفّذت عملية كبرى بمقاييس ذلك الزمن (رواها في كتابه عبور النهر)، في رحلة أقرب إلى الخيال، وهناك تبدأ علاقته التنظيمية، (روى المرحلة المبكرة منها في كتابه على ضفاف النهر)، ثمّ بدأ مشواره في «القيادة عن بُعد» لشؤون الأرض

المحتلة، متنقلاً بين الأردن وسورية ولبنان وتونس، وأصبح مسؤولاً عن قيادة منطقة الوسط في جهاز القطاع الغربي، المسؤول عن الأرض المحتلة في داخل حركة «فتح»، ومديرًا لمكتب الانتفاضة عام 1990. وبينما كان جهاز الأرض المحتلة يركّز جلّ نشاطه على العمل العسكري في السبعينيات، فإنّ حركة «فتح»، ومنذ مطلع الثمانينيات، باتت تولي العمل الشعبي والمقاومة المدنية كثيرًا من الاهتمام.

عاد أبو علاء إلى الأرض المحتلة، بعد اتفاق أوسلو<sup>(3)</sup>، ليؤدي دورًا مهمًا في محاولات بناء مؤسسات الدولة الفلسطينية، فعُين مديرًا عامًا لوزارة الداخلية في رام الله، ولعلّ هذه المرحلة هي من الصفحات التي لم يذكر أبو علاء تفصيلاتها بعد، فما حدث في عملية «بناء السلطة» بسببها وإيجاباتها، وبأحلامه وإخفاقاته، بما أدّى إلى مآزق وطنية عديدة وما لم يؤدّ، بل كان سبيلًا عاد عبره كثير من المناضلين إلى الوطن، وبذلوا الكثير في أثناء انتفاضة الأقصى، لا تزال بحاجة إلى المزيد من «السرد». ولكن، تنظيميًا، أصبح أبو علاء عضوًا في اللجنة الحركية العليا لحركة «فتح» في الضفة الغربية، وأمينًا لسرّ إقليم رام الله في الحركة. وهذا الإقليم لم يكن بالتأكيد كأي إقليم آخر، فرام الله باتت عاصمة الأمر الواقع الفلسطينية الموقّعة، وإليها عاد عشرات الآلاف من الكوادر والمقاتلين والمناضلين، أصحاب التجربة، من الشتات.

في هذا الكتاب يختار أبو علاء ثلاث محطات للحديث عنها، هو «بطل» اثنتين منها، وشاهد عن قرب على الثالثة. يعرض هذا الكتاب مرحلة دوره القيادي في الإسناد الخارجي للأرض المحتلة، منذ أواسط السبعينيات وحتى منتصف التسعينيات، ثمّ يعرض في الجزء الثاني تجربته داخل الأرض المحتلة، خصوصًا دوره القيادي في مرحلة انتفاضة الأقصى وما قبلها، والفترة الوجيهة بعدها. ولعلّ هناك مرحلة لا يغطّيها الكتاب تلت انتفاضة الأقصى، هي مرحلة المقاومة الشعبية، خصوصًا في بلعين، التي وثّقها أبو علاء في كتاب منفصل.

في هاتين المرحلتين اللتين يغطيهما هذا الكتاب، يبدأ أبو علاء، إضافة إلى سرد التفصيلات والتوثيق، مشروعه الذي يتحدّث عنه باستمرار، وهو أن يكتب نقدًا عن أخطاء «القيادة عن بعد»، ومشكلاتها، وعن بعض الأخطاء التي تعثرت بها قيادة الخارج، وهو من ضمنها، في بعض ملفات الوطن المحتل ومحطاته.

لقد كانت العملية التي نفّذها أبو علاء وأعضاء خليفته عام 1973، تعتمد على طعن جنود الاحتلال بالأسلحة الأبيض، ومن هنا عندما حدثت الموجة الانتفاضية عام 2015، وتخلّلتها عمليات طعن، (من دون غض النظر عن حالات كثيرة حاول فيها الإسرائيليون تلفيق محاولات طعن بفلسطينيين لتبرير قتلهم)، فإنّ هذه الانتفاضة التي لا يوجد لها قيادة أثارت لدى أبو علاء العديد من الأسئلة، بدءًا من محاولة استعادة مشاعره وأفكاره قبل 43 عامًا عندما نفّذ عملية طعن، أراد أن يتذكّر دوافعه المباشرة ليقوم بما قام به، ليُسقط ذلك على الحالات الجديدة، ليفهم روح من يقومون الآن (2015-2018) بالهجوم وأفكارهم، ولكنه لم يستطع أن يتذكّر إلا أنّه كان يعتقد أنّ ما يفعله هو على طريق تحرير فلسطين.

لكنّ أسئلة أخرى ثارت لديه عمّا يجري، الأمر الذي حوّلته إلى باحث استقصائي يتنقل بين بيوت العزاء ومواقع الشبان الذين فجّروا الموجة الانتفاضية، فيلتقي ذويهم ومحيطهم الاجتماعي، (وكثير منهم كانوا معه



وكان قائدهم في زمن مضى)، ويلتقي الشبان، ويسألهم ويسجل، فضلاً عن متابعته ومشاركته في الندوات واللقاءات التي جرت على هامش الانتفاضة في محاولة لفهمها، ليسجل ذلك كله.

جاء تسجيل أبو علاء لذكرياته في الفصلين الأول والثاني بهدف التوثيق والتحليل، أمّا الفصل الثالث الذي يسجل فيه شهادته، فقد قدّم فيه عملاً كُتب بطريقة غير شائعة، فهو أقرب إلى التقاطات لصور متناثرة، يشكّل بعضها مع بعض كلاً متكاملاً، تماماً كما يقدم كل جزء منها مشهداً منفصلاً لما جرى. وإذا كانت ذكريات الفصلين الأول والثاني تتضمن التفاصيل المتكاملة والعمق النقدي والمراجعة، مع إدراك أنّها لا يمكن أن يغطيا تفصيلات التجربة كلها، فإنّ الفصل الثالث هو على العكس من ذلك، أنه صورة مهمة جداً عن قرب، كمقدمة للمزيد نحو فهم المرحلة الراهنة.

هذا الكتاب إضافة نوعية مهمة لتوثيق مراحل أساسية في العمل الفلسطيني، ممّن عاشها وشارك في صنعها، والأهم أنّ فيها رؤية نقدية وتحليلية.

---

(1). أعلنت حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح). انطلاقها المسلحة في الأول من كانون الثاني/يناير 1965.

(2). قرية فلسطينية تقع شرق مدينة الرملة وتتبع محافظة رام الله والبيرة.

(3). اتفاق عُقد بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل في 13 أيلول/ سبتمبر 1993، وهو ما عُرف بـ «إعلان المبادئ الفلسطينية-الإسرائيلي في شأن ترتيبات الحكم الذاتي والانتقالي».

## دليل

كثيراً ما ترددت وأنا أخط ذكرياتي. شطبت وأضفت، كرّرت ذلك مراراً. إنّ من صعوبات الكتابة أن يضطر الكاتب أحياناً إلى استبعاد قصص مهمة كي يمنح الكتاب فرصة للتنفس، فليس كل ما يُعرف يُكتب. وكثيراً ما يغفل الذهن عن تقدير دور المشاعر وردّات الفعل، وأثرها في تطاير الشرر ساعة وقوع الحدث. وللذاكرة تشوّهاتها كذلك. لكن ليس لكتاب أن يحظى بصديقٍ من دون وجع فتح الجروح. هل لك أن تكون منصفاً إن اقتصرت كتابتك على العوم في الشاطئ المشرق للتجربة؟ أبداً. أعتذر لمن لن يجد اسمه أو اسم عزيز عليه في هذا الكتاب، ولمن توقّع أن يرى شيئاً ولم يجده، فالكتاب لا يتّسع للبطولات كلها، هذا يحتاج إلى مجلدات. وأعتذر لمن قد يشعر بأن جرأة الكتابة مسّت كبريائه الثورية، فالكتابة أمانة.

هذا الكتاب رحلة في ثلاث محطات: صورٌ من تجربتي في «لجنة التنظيم 77»<sup>(4)</sup> التابعة لحركة «فتح»، بصحبة الشهيدين أبو حسن قاسم<sup>(5)</sup> وحمدي<sup>(6)</sup> ورفاقهما خلال الأعوام من 1977 إلى 1988، وأخرى من انتفاضة الأقصى عام 2000 برفقة الأسير مروان البرغوثي<sup>(7)</sup> ورفاق آخرين. في هاتين المحطتين كنت في خضم الحوادث، أمّا المحطة الثالثة، وهي تقتصر على الأشهر الستة الأولى من «الهبة/ الانتفاضة» التي اندلعت في خريف عام 2015، فقد كنت فيها مراقباً ومحلاً.

ذكريات مضت، وآمال تتجدّد. أسئلة كثيرة تحرق القلب، تحتاج لإجابات تجلي غباش الصورة: أليست القضية الفلسطينية من أعدل قضايا العالم؟ ألا يكافح الفلسطينيون ببسالة منذ عقود؟ لماذا جاءت غلال بيدرهم شحيحة على هذا النحو حتى الآن؟ ما السبب؟ أين المشكلة؟ هل هي تعقيدات القضية الفلسطينية أم أنّه قصور القادة، أم أنّ هناك أسباباً أخرى؟ قيل إنّ ماو تسي تونغ<sup>(8)</sup>، زعيم الصين العظيم، قال لخليل الوزير (أبو جهاد)<sup>(9)</sup>، وهو يصف له تعقيدات المشهد الفلسطيني عشية انطلاق الثورة الفلسطينية، وقد التقاه الوزير للاستئناس برأي الثائر المخضرم: «تداخل في قضيتكم العوامل المحلية والدولية كتداخل أسنان القرش، ما أن تنطلقوا بالثورة حتى تجدوا أنفسكم وسط غابة أعداء، بما في ذلك من أبناء جلدتكم، أنتم في بؤرة تقاطع حساسة جداً لمصالح دولية وإقليمية كبرى».

لقد شكّلت الانتفاضة الأولى - على سبيل المثال - تحوّلاً جذرياً في مفهوم الثورة، حيث هبّت الجماهير الغفيرة ونزلت إلى الشوارع؛ رجالاً ونساءً، صغاراً وشيوخاً. قبل ذلك كادت الثورة أن تنحصر في النخبة المسلحة في الخارج «الفدائيين»، وكاد هذا المفهوم القاصر أن يلغي دور الجماهير، وأن يشطب الأرض المحتلة من لوحة الفعل الثوري. لقد أعادت الانتفاضة الاعتبار لمفهوم الثورة الشعبية، ولدور الداخل تحديداً، وأيضاً للمؤسسات المدنية.

بالنسبة إلى تجربة الأسر، ربما ليس من المبالغة القول إنّ الفلسطينيين شعب أسير، فمن ليس أسيراً منهم فوالده أو والدته أو شقيقه أو شقيقته دخلوا السجن، أو عمه أو ابن عمه أو ابن عمته، أو خاله أو خالته أو

ابن خاله أو ابن خالته أو بناتهم، أو جارتها أو جاره، أو زميله أو زميلته في العمل أو على مقاعد الدراسة. وبالنسبة إلى جامعة بيرزيت فدورها الرائد في محطات المقاومة يقتضي توثيق تجربتها. نعم هناك كتابات، لكنّها لا تلبي الحاجة التوثيقية والتعبوية المطلوبة، فالمعركة ما تزال مستعرة والموت يغيب الشهود يوميًا. لذا أأمل أن يشكّل هذا الكتاب محفّزًا لتوثيق تجربة الأسر، ودور المرأة في المقاومة، ودور جامعة بيرزيت بل الطلبة عمومًا، وغيرها من التجارب في الخارج وفي الداخل.

يتضمن الكتاب يتضمن هوامش للتعريف بالأسماء والأمكنة، باستثناء الأشخاص المعرفين بشكل أو بآخر في سياق النص، وهم كثر. الكتاب يروي تجربة واقعية، وهو ثري بالأسماء والوقائع والأماكن والتواريخ، لكنّه ليس كتابًا توثيقيًا ولا تأريخيًا. أمّا بالنسبة إلى المترجمات من العبرية إلى العربية فهي منقولة من الصحف الفلسطينية الصادرة في الأراضي المحتلة. ولا بد من الإشارة إلى أنّني ألتزمت حالة الرفع في الاسم «أبو» على اختلاف موقعه من الإعراب، ضمن إطار ما يُعرف بـ «الإعراب عن الحكاية».

ختامًا، أتقدّم بالشكر إلى المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات الذي أصدر الكتاب ضمن سلسلة «ذاكرة فلسطين». وأشكر الأستاذة منى عوض الله التي اجتهدت في تحريره، والشكر موصول للمرحوم الدكتور تيسير العاروري أستاذ الفيزياء في جامعة بيرزيت، والأستاذ زياد عزّت مدرّس الفيزياء في الجامعة ذاتها، والأستاذ عزّام أبو الحام، والسيدة نديّة عزيز، والأستاذ رياض عطاري والشاعر ياسين جابر، والروائي الدكتور أحمد رفيق عوض أستاذ الإعلام والعلوم السياسية في جامعة القدس، والدكتور أحمد جميل عزم أستاذ العلاقات الدولية في جامعة بيرزيت، والأستاذ أحمد غنيم، والأستاذ معين الطاهر الذين تفضلوا بمراجعته.

إنّني مدين لكثيرين بهذا الإنجاز، فربما لم يكن الكتاب ليرى النور على هذا النحو وفي هذا الوقت لولا مراجعاتهم النقدية واقتراحاتهم المهمة.

أبو علاء منصور

(4). تشكّل القطاع الغربي في حركة «فتح» من لجانٍ مناطقية، مثل لجنة نابلس ولجنة القدس ولجنة غزة ولجنة الخليل .. إلخ، ولاحقًا اضيف إليه لجنة سُمّيت بـ«لجنة التنظيم 77»، وعُيّنت هذه اللجنة بتجنيد الطلبة الدارسين في الخارج بشكل رئيس.

(5). محمد بحيص (1941-1988). عضو المجلس العسكري لحركة «فتح»، وعضو قيادة جهاز الأرض المحتلة. اغتيل في قبرص بتاريخ 14/2/1988.

(6). محمد باسم سلطان التميمي (1953-1988). عضو المجلس العسكري لقيادة حركة «فتح»، وعضو قيادة جهاز الأرض المحتلة. اغتيل في قبرص بتاريخ 14/2/1988.

(7). مروان البرغوثي (1958 -). عضو المجلس التشريعي الفلسطيني، وأمين سرّ تنظيم حركة «فتح» في الضفة الغربية وعضو لجنّتها المركزية. كان أحد قادة الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام 1987 والانتفاضة الثانية عام 2000. اعتقل مرات عدة، آخرها عام 2002. ولا يزال معتقلًا حتى هذا التاريخ (2018)، حيث حُكم عليه بخمسة مؤبدات.

(8). ماو تسي تونغ (1893-1976). قائد الثورة الصينية ورئيس جمهورية الصين الشعبية بين عامي 1954 و1959، والأمين العام للحزب الشيوعي الصيني بين عامي 1945 و1976. قدم أطروحات نظرية في الماركسية اللينينية في جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لتتلاءم مع الوضع الصيني، وكتب أفكاره عنها مؤسسًا بذلك لما يُعرف بالماوية.

(9). خليل الوزير «أبو جهاد» (1935-1988). أحد مؤسسي حركة «فتح»، ونائب القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية، اغتيل في تونس بعملية نفذها الموساد الإسرائيلي بتاريخ 16/4/1988.

# الفصل الأول

## هدير الذكريات

## المسار الثوري

منذ النكبة والفلسطيني مصاب بما يمكن تسميته «داء الارتياب»؛ هوس أمني، إحساس دائم بالشك. يتخيّل نفسه ملاحقًا، وأنّه مطلوبٌ لأجهزة أمن الكون! ما عاد اللجوء بالنسبة إليه مجرد شتات وضياح وطن. تغلغل الضعف والخوف قلقلًا عميقًا في المشاعر والأحاسيس. مأساة تتلبّسه في المطارات، وعلى نقاط الحدود، وحيثما حلّ. فيروس فتاك استوطن روحه حتى كاد أن يصبح من مكوناته الجينية. لقد أُعتقل وأُهين على يد الصديق قبل العدو، فما عاد يثق بأحد. بانطلاق الثورة عام 1965، تحرّر الفلسطيني من عقدة ضعفه، استعاد جانبًا مهمًا من شخصيته المفقودة.

مع بزوغ فجر الثورة الفلسطينية في منتصف الستينيات من القرن العشرين، تخلّى كثير من الشبان الفلسطينيين عن جامعاتهم وأعمالهم، والتحقوا بقواعد الفدائيين. يقول من عايش تلك الأيام الملتهبة بالأمل: «في تلك الأيام امتلك الفدائي همّة جعلته يحمل مدفعًا يحتاج أربعة ليحمله، كان يغضب إن تأخّر تكليفه المشاركة في دورية عسكرية، هذا في الخارج، أمّا في الوطن المحتل الذي لم تكن شعلة الثورة قد وصلته بعد، فقد كانت المبادرة الفردية سلاح الفدائي الأعزل». هل لمناضل قادته خطاه إلى «معسكر الهامة»<sup>(10)</sup> في ضواحي دمشق أن ينسى أبو علي إباد<sup>(11)؟</sup> ذاك القائد الذي علّم الفدائيين، بسلوكه وانضباطه الثوري، دروس الثورة. أيام حلم، وملاحم عزّ.

شرقت بدموعي وأنا أستعيد ذكرياتي مع رفاقي في «لجنة التنظيم 77». في دوامة العمل كنا مستغرقين بمهمّاتنا. لم يكن للعمل ساعات محددة، ولم تكن نحظى بإجازات أو نساءل عن مكافآت. ولدت دوافعنا القوية من رحم أحلامنا العظيمة. كان أغلبنا «عزّابًا»، ورسمت فينا ثقافة الجماعة روحًا متألّفة، تلاشى معها الشأن الشخصي في مجرى نهر الهدف العام. كان ذلك مبعثًا للتضحية الفردية، وكانت القدوة القيادية رافعة تشدّنا للأعلى.

في ستينيات القرن المنصرم وسبعينياته كان المناخ الثوري العالمي يساريًا؛ الصين، كوريا، كوبا، فيتنام وغيرها. وتأثرت الثورة الفلسطينية بذلك المناخ. في تلك الآونة كان يتشكّل تيارنا في «فتح»؛ «تيار منير شفيق»<sup>(12)</sup> أو «الماويين»<sup>(13)</sup>، من نخبة شبّان يساريين، أغلبيتهم طلبة جامعيون.

حمدي الذي كان من أبرز رموز التيار، أصيب في «المرحلة اليسارية» بطلق ناري، وقع ذلك في اشتباك مع مسلحي حزب الكتائب<sup>(14)</sup> في حيّ البرجاوي في بيروت. كادت الإصابة أن تكون قاتلة، لولا انحراف الرصاصة ملمترين عن القلب. قال لي حمدي وهو يصف الصراع الذي تأجج في داخله يومها: «وأنا محمولٌ على نقالة الموت، أرهقني صراع ذاتي: أتشهد<sup>(15)</sup>! لا، لن أتشهد. أتشهد! لن أتشهد. في النهاية حُسم الأمر لمصلحة العناد. تعلّمت من هذه التجربة أنّ علينا أن نتفهّم مواقف الشبان، وأن نحترم آراءهم ومعتقداتهم. هناك أوانٌ للنضج، وعلينا ألاّ نملّ الحوار، الحوار أولاً وأخيرًا ودائمًا. قال كثيرون قبل إسلام عمر بن

الخطاب: إن أسلم حمار ابن الخطاب سيسلم عمر. وأخيرًا أسلم عمر». هذا ما قاله حمدي الذي أسس ورفاق له «سرايا الجهاد الإسلامي» بعد أعوام.

## العزيمة

فور تخرجي في الجامعة عام 1972، عدت إلى الأرض المحتلة مفعماً بالأحلام. عام على العودة وقدت خليتي في عملية عسكرية جريئة وسط مدينة رام الله. في تلك العملية التي اشتهرت باسم «عملية بنك لثومي»<sup>(16)</sup> هاجمنا بالسكاكين جنديين إسرائيليين يجرسان البنك، واستولينا على أسلحتها. بعد ستة أشهر انكشفت الخلية. إعصار هز أركان أحلامي، ماذا أفعل وحُكم المؤبد غول يتربص مصري؟ شاب في مقتبل العمر، وقدر انتحاري. لا يوجد قواعد للثورة في الداخل لأجلًا إليها، وإنه والله لحلم عزيز المنال أن أعبر نهر الأردن شرقًا وأنا لا أتقن السباحة. لحظات رابعة انهمك فيها دماغني بالبحث والتساؤل، كانت الأفكار علقًا.

يوم الإثنين، الثاني والعشرين من نيسان/ أبريل 1974. نهار ربيعي لطيف، أمّا أنا فأحترق بنار المجهول. وسط لهيب الأزمة، همس لي هاتف من داخلي بعفوية لم أدرك عبقريتها في حينه: «حاول كسب ما تستطيع من الوقت خارج السجن؛ أسبوعًا، أسبوعين، أو.... ولعلك في أثناء ذلك تعثر على من يساعدك في عبور النهر؛ مزارع، راعي أغنام، فكرة، مصادفة». من رحم الخوف والتصميم ولدت ماكينة إرادات نشلتنني من التخبُّط في حفرة العجز، فتدفقت طاقات يناعي إصرار وجداول تحذ، وكان للأقدار تداعياتها. كان عليّ أن أغادر دائرة الخطر في مدينة رام الله أولاً، أن أذهب إلى مكان أكثر أمنًا وقريبًا من الحدود.

ظهيرة اليوم التالي كنت أجلس مهمومًا في ظلّ شجرة سدر قرب نبع عين السلطان في مدينة أريحا. في غمرة شرودي لاح لي راعي أغنام بقطيعه من بعيد. همست لنفسي فرحًا: «اقرب الفرج». تهيأت لتلمّس مساعدة لدى الراعي. في اللحظة الحرجة، فاجأني من خلفي رجل أسمر البشرة معتدل القامة. حيّاني، فدهمته بعد حديث قصير: «أنا فدائي، أطلب مساعدتك في عبوري النهر». ردّ بعينيه: «احذر الراعي، إنّه عميل للاحتلال». ماذا لو لم يبعث إليّ المولى بالرجل الطيب؟ ماذا لو كان هو نفسه عميلًا؟

كان نهر الأردن في خيالي «واديًا» يمكن مراوغته لعبوره، لكنّ ما شاهدته عند انتصاف ليلة بعد أسبوع من هذه الحادثة شيء يصعب تخيُّله، بساط مائي يرتعش تحت ضوء القمر، وصوت الماء كفحيح أفعى. إنّه الموت، لا شيء غير الموت. «الجنون» نعمة أحيانًا، سرّ يولد مع التحديات. رحت أهذي: «أصعد فوق الشجرة! أراقب المنطقة!». أي صعود وأي مراقبة! هذا كلام مجانين. مشيت بخطى متثاقلة صوب شجرة تنتصب على حافة النهر، انزلت قدمي فسقطت في النهر، كان يجثم في طريقي ألف مجهول، لكنني مضيت بعزم. دقائق وكنت على الضفة الشرقية للنهر، «مش معقول!» أمر يكاد لا يُصدّق!



لم تنجح أغلبية لجان القطاع الغربي بتزويد خلاياها في الداخل بالسلاح. ظل الطابع العام للعمليات العسكرية يقوم على متفجرات بدائية الصنع، لكنّ لجنة القدس، بقيادة مصطفى عيسى (أبو فراس)<sup>(18)</sup>، حقّقت اختراقاً في هذا المجال عبر مراقبين دوليين في جنوب لبنان، وفي سيارات شخصيات مهمة كالمطران كابوجي، مطران القدس.

اعتاد المطران هيلاريون كابوجي نقل السلاح بسيارته للمقاومة الفلسطينية في الأرض المحتلة من لبنان عبر معبر الناقورة على الحدود اللبنانية الفلسطينية. نقل سلاحاً وذخائر ومتفجرات وصواريخ أطلق أبناء عائلة الملاعبة بعضها على مبنى الكنيسة الإسرائيلي في القدس. ومن المتفجرات التي جلبها المطران من لبنان نفذ أحمد أبو السكر ورفيقه أبو علاء طييلة «عملية الثلاثية»<sup>(19)</sup> في شارع محانية يهودا في القدس كذلك. ظلّ المطران المناضل يكرّر للمقربين منه: «أنا أسير على درب المسيح عليه السلام، إنّه الفدائي الأول».

طوبى لهذا الفهم الثوري للرسالات السماوية التي حملها الرسل والأنبياء من أجل الحرية وتحقيق العدالة البشرية وحفظ الكرامة الإنسانية. في عام 1974 كشفت المخابرات الإسرائيلية المطران، فاعتُقل وحُكم بالسجن لاثني عشر عاماً، أمضى منها أربعة أعوام في السجن. إلى أن توسّط بابا الفاتيكان للإفراج عنه، فاشترطت إسرائيل إبعاده عن الوطن. استقر في روما ومن هناك واصل رحلة نضاله.

تمثّلت قوة لجنة القدس بعلاقة مسؤولها بأبو عمّار الذي وفّر له المال، كما أنّ عمره الكبير نسبياً أتاح له التعاطي مع الشخصيات والتجار. مشكلة هذه اللجنة أنّ كادرها كاد أن يقتصر على مسؤولها أبو فراس ونائبه أبو حسن الكاشف وسمور ووليد مظهر، وعلى عبد السلام التميمي الماهر في التقاط الآتين من الداخل. تمكّن الموساد الإسرائيلي من اختراق اللجنة عبر عملائه الذين عرضوا بيعها سلاحاً مسيطراً عليه.

أمّا «لجنة التنظيم 77»، الفقيرة بالسلاح والثرية بكادرها، فقد دفعت ثمناً باهظاً لاقتصار عملياتها على عبوات شعبية انفجر بعضها بمُصنّعيها. على هذا الطريق استشهد جورج ثيودوري ورفيقه الحاج عبد الله، وأبو صابر، وجُرح صقر إلياس، وصفوت طهوب الذي انفجرت عبوة بين يديه فاعتُقل وأمضى في السجن أربعة عشر عاماً، وأحمد شعبان وماهر دعنا اللذان أُعتقلا كذلك في إثر انفجار عبوات بين أيديهما.

## يا للهول

أوقعني عضو تنظيمنا، محمود، بارتباك شديد حين دهمني بالقول، وقد انعطفنا إلى شارع معتم في منطقة توب كابي في مدينة اسطنبول: «هل تشكّ في أنّي جاسوس؟».

اخترقت الكلمات أذنيّ كرصاصة مُحكمة التصويب. «اصطادوني!» هذا ما هجست به، واكتنفتني ذعر. تخيلت عميلاً للموساد الإسرائيلي يطلق النار على رأسي، أو أنّ محمود نفسه سيفعلها.

«ماذا؟ لماذا؟». هذا ما تساءلت به مضطرباً وأنا أتلّفت حولي غير واثق أنّي ما زلت حيّاً.

كدت أصفعه حين أجاب ببرود: «يشكّ الشباب أنّي عميل لإسرائيل».

تنفست عميقاً، لكنني احتجت إلى وقت حتى هدأت.

في ذلك الوقت كان محمود قد أنهى سنته الجامعية الثالثة في جامعة اسطنبول. بدأت تظهر عليه علامات تراجع دراسي واجتماعي، من دون أن ينتبه رفاقه إلى أنه مريض. انقطع عن الجامعة، وتوفي بعد عام. كان -رحمه الله- شاباً رائعاً.

## يقظة

بعد ثلاثة أعوام من عبوري النهر إلى الأردن، تخلّلتها اعتقال دام حوالى عامين في سجن المحطة في عمّان، انجلى غبار الخوف عن مفاجآت الطريق لحظة اجتياز بي أبو سليم<sup>(20)</sup> الحدود الأردنية السورية متسلسلاً باتجاه سورية. كان ذلك فجر يوم خريفي من عام 1977. همس لي أبو سليم فرحاً: «أربع ساعات وتكون في بيروت». صمت قليلاً ثم قال حزيناً: «استشهد القائد الحاج حسن<sup>(21)</sup> في المكان الخطأ، في الحرب الأهلية في لبنان. كان -رحمه الله- طريقي للثورة». أضاف: «دروب حياتنا قرارات نتخذها أو نخشاها، أشخاص نحبههم أو ننفر منهم، مَهَن نهواها وأخرى لا نرغب فيها. خطوة أخرى وربما ينقلب الوضع لمصلحتنا أو ضدنا. الحياة قصة مثيرة».

وسط مهرجان فرحنا باجتياز الحدود بسلام عاكسنا القدر فاعتقلنا في مدينة درعا.

جميلٌ أن إقامتنا في السجن لم تدم طويلاً، أسبوعان وكنا في شقة حمدي الواقعة في الطبقة السادسة في «ساحة أرض جلّول» في بيروت. انتحيت بحمدي جانباً، وهمست له: «سأغيّر اسمي الحركي من طارق إلى منصور، من الآن أنا منصور وليس طارق. ستتوه أجهزة الأمن الإسرائيلية طويلاً في زوارب تعقبها لي، وهم يحاولون الربط بين منصور وطارق، ليكتشفوا بعد حين أنّهما الشخص ذاته». أثني حمدي على الفكرة، وقال وهو يناولني ملفاً: «هذه رسائلك التي أرسلتها من سجن المحطة في عمّان، أعجبتني فاحتفظت بها». رسائل تفيض وجعاً وعزّة، في كل سطر ذكرى شدة، ومبعث فخر.

في سياق حديث الألم، عرض حمدي تجربته في السجن السوري: «سجن الضابطة الفدائية<sup>(22)</sup> في دمشق غرفة تزدهم بالفدائيين، تكتم أنفاسها خيمة دخان السجائر، وحمّامٌ غير مستخدم، في داخله بانيو، وفوقه سدة صغيرة، هذا هو السجن كله. كنت محظوظاً أنّني أمضيت فترة سجن في البانيو، صحيح أن الساقين تتيبسان داخله، لكنّه يوفر مساحة مستقلة. كنت أردّ على المحقق الذي أصرّ على معرفة أسماء تنظيمنا في الأرض المحتلة: 'مالك ومال هؤلاء يا أخي؟ نحن في سورية، وهم في الداخل'. كان يردّ مستفزاً: 'أحضر من القبو دولاباً يلائمك'. كنت أنزل ثم أعود بإطار سيارة يلائم خصري، يدخل الجنود ساقياً فيه ويقلبونه، فتغدو قدماي في السماء، وينهاون ضرباً. هذا التعذيب يُسمّى التعذيب بالدولاب».

بعد أيام من وصولي إلى بيروت، ردّ مسؤول الإدارة المالية على كتاب تفريغي في حركة «فتح»: «المقابلي». انفجر حمدي غضباً: «ما علاقة المسؤول المالي بتقويمك والكتاب موقع من أبو جهاد؟ لن

نرسلك لمقابلته، سنصرف لك مخصصًا شهريًا من موازنة اللجنة. مخصصي ستمئة وخمس وعشرون ليرة لبنانية، سيكون مخصصك كذلك».

كثيرًا ما أحكم الصراع القيادي قبضته على رقاب المناضلين. هذا المسؤول من جماعة القائد «فلان»، وذاك من جماعة القائد «علتان». في حينه، لم نكن ندرك بما يكفي معادلة الصراعات الداخلية، ولا أثر المصالح في المواقف. هناك من داخل لجنتنا أيضًا من احتج على مرتبتي التنظيمية المقترحة: «أنا أحق من منصور. لم يمضِ على التحاقه بلجنتنا سوى ثلاثة أعوام». كان هذا تحدّيًا آخر. «عن أي أقدمية تتحدّث يا رجل؟ علاقة منصور بالحركة أقدم من التحاقه بلجنتنا. قبل أن نعرفه بنى تنظيمًا في الأرض المحتلة، وقاد عمليات عسكرية في الداخل، هل نسيت؟». هذا ما هبّ به حمدي في وجه المحتج من غير أن يبلغني ذلك.

أيام وكنت في موقع كتبية الجرمق<sup>(23)</sup> ببلدة رشاف<sup>(24)</sup> المحاذية للشريط الحدودي في جنوب لبنان، ومعني صفوت طهوب، الطالب في جامعة حلب. هناك استقبلنا قائد الفصيل أبو حديد، الذي عرفنا بعد عقود أن اسمه الحقيقي سليمان عمران، وأنه من قرية دير الخطب شرق مدينة نابلس. شبّان بعمر الزهور، بلهجات جنوبية، بقاعية، عكّارية، بيروتية، وقروية فلسطينية، وأخرى من دول عربية متعددة.

قال أبو حديد وهو يشير إلى البلدات اللبنانية جنوبًا: «رميش، دبل، وعين إبل، قرى محاذية للحدود الفلسطينية، تسيطر عليها قوات سعد حداد<sup>(25)</sup> العميلة لإسرائيل. نحن حريصون على نسج وترسيخ علاقات طيبة مع المواطنين. نحرض على عدم تنفيذ عمليات عسكرية من المناطق المأهولة تجنبًا لانتقام العدو الإسرائيلي وعملائه من المواطنين العزل، لكنهم يقصفون المنطقة بين الحين والآخر، يحاولون جعل الثورة عبئًا على الناس. من دون العلاقة الجيدة بالأهالي لا نستطيع أن نستمر في أداء دورنا الثوري، إنهم حاضنتنا. نحن لسنا وحدنا في المنطقة، هناك غيرنا يتمون إلى فصائل فلسطينية وأحزاب لبنانية مختلفة. كثيرًا ما تتسبب اجتهاداتنا المتباينة في التأثير سلبيًا في حالة الانضباط كما تقتضيها المصلحة العامة».

## ماكينة مُفككة

قال حمدي وهو يعرّفني إلى واقع جهاز الأرض المحتلة التابع لحركة «فتح»: «يتألف الجهاز من لجان تحمل أسماء المناطق الجغرافية التي تعمل في نطاقها: لجنة القدس، لجنة نابلس، لجنة الخليل، لجنة الجليل، ولجنتان لقطاع غزة. وهناك مكتب مسؤول عن الدوريات العسكرية التي ترسل عبر الحدود والبحر، وإدارات مالية وتسليحية وإعلامية وأمنية، وغير ذلك. أمّا لجنة التنظيم التي ننتمي إليها، والتي أُستحدثت في وقت متأخر نسبيًا، فنشأتها مختلفة».

في المؤتمر العام الثالث للحركة الذي عُقد عام 1971، أُنتخب كمال عدوان<sup>(26)</sup> عضوًا في اللجنة المركزية للحركة، وأصبح مفوضًا لجهاز القطاع الغربي. بدا أنّ الرجل مصمّم على إحداث تغيير في عقلية العمل السائدة التي سماها 'عقلية المقولة'، كلّف عمر الخطيب (أبو شامخ) الذي كان نائبًا للمفوض، بترؤس إطار ضمّ اللجان المناطقية، وأطلق عليه اسم اللجنة العسكرية، واستعان بنخبة كوادر معظمهم مثقفون

ذوو ميول يسارية لتأليف نواة التغيير، اختار عضو المجلس الثوري للحركة، صخر حبش<sup>(27)</sup>، نائباً له، وكلّف عبد الفتاح القلقيلي (أبو نائل) بشؤون التدريب، ومنير شفيق (أبو فادي) بالدراسات والبحوث، وتولى صبحي أبو كرش (أبو المنذر)<sup>(28)</sup> الشؤون الإدارية والمالية. وكلّف الدكتور حنا ميخائيل (أبو عمر)<sup>(29)</sup> بتأليف لجنة باسم 'لجنة التنظيم الطلابي'، واختار لعضويتها د. راجي مصلح، محمد بحيص (أبو حسن قاسم)، مرعي عبد الرحمن (أبو فارس) وآخرين. لم ترق هذه التغييرات لقادة لجان المناطق، ظنّوها مقدّمة لخطوات أخرى ربّما تطلّ مواقعهم القيادية. وفي أوج عملية التغيير استشهد كمال عدوان، فعاد الوضع إلى ما كان عليه سابقاً. تعامل خليل الوزير (أبو جهاد) الذي خلفه في الموقع مع لجنة التنظيم باعتبارها إضافة لا مدخلاً إلى التغيير كما خطّط سلفه.

في عام 1976 فقد الرجل الرائع أبو عمر في الحرب الأهلية بلبنان، فانشقت لجنة التنظيم إلى لجتين، أُطلق على إحدهما اسم لجنة التنظيم 77، وسُمّيت الأخرى لجنة التنظيم 100. جاء الانقسام على خلفية تباينات فكرية في الأساس، يومها كانت الثورة بمنزلة حديقة أزهار فكرية. شكّل التيار الذي وُصف بأنّه يعتمد الفكر الماوي للجنة الأولى، فيما شكّل التيار الذي اعتُبر أنّه يعتمد الموقف السوفيّاتي للجنة الثانية، وتعامل أبو جهاد مع اللجتين كهيئتين مستقلتين. جاء نصيبي أن أكون من بين من عملوا في لجنة التنظيم 77.

أضاف حمدي: «نخوض في جهاز القطاع الغربي حرباً ضرورياً مع مخابرات إسرائيلية يهيمن فيها العدو على الأرض ومعابرها، ويفرض قوانينه التي تساعد في ابتزاز الأهالي في نواحي حياتهم ومعاشهم وتنقلهم. مع الوقت اكتشف العدو ثغرة تعطينا للسلاح، فأرسل عملاءه عارضين علينا السلاح والعتاد. في غياب الإطار القيادي الجامع للجهاز، حرمتنا خشية بعض قادة اللجان من انكشاف أخطائهم أمام بعضهم من الاستفادة من تجارب بعضنا بعضاً. وتسبّب هذا بتكرار الأخطاء وبسقوط المزيد من الضحايا.

لاحقاً نجحت المخابرات الإسرائيلية في ابتكار ما أطلق عليه الأسرى غرف العصافير، أو غرف العار، تلك التي تضم عملاء أسقطتهم المخابرات الإسرائيلية في حبائلها بعد اعتقالهم. في هذه الغرف أفضى أبطال بما افتخروا أنّهم أعجزوا محققهم عن انتزاعه منهم تحت التعذيب. أخطر ما في هذا النوع من العملاء أنّهم جاءوا من خلفيات فصائلية، أي أنّهم ملّمون بتفصيلات كثيرة عن اللجان؛ أسماء مسؤوليها، صفاتهم، مواقع المعسكرات والمكاتب. بهذه المعلومات يدخلون إلى المناضل من بوابة أنّهم فدائيون مكلفون من القيادة في الخارج.

قليل إن رجلاً من منطقة جنين أُعتقل مرتين ولم يعترف، في المرة الثالثة وُضع في زنزانه مع عصفور. بدا أنّ العصفور عاد متورماً من جلسة تحقيق! عملية تضليل. ولما كانت لدى المناضل رغبة في أن يسلم سلاحه للثورة، فقد وصف له مكان السلاح متوهماً أنّه فدائي. ساعات وطلّب للتحقيق، أصابته هستيريا حين فاجأه المحقق بما باح به للعصفور. في مثال آخر قال المحقق لأسير: 'سنبعدك إلى جنوب لبنان'. بعد أيام نُقل الأسير من السجن بطائرة هليكوبتر، وحين هبطت الطائرة، وُجّه إلى ما قيل له إنّها قاعدة فدائيين، اكتشف

الأسير بعد فوات الأوان أنّه في موقع للعميل سعد حداد، وأنّ هذه خدعة نفذها رجال المخابرات. هناك أفضى بما لم يعترف به في التحقيق ظاناً أنّه يتحدّث إلى فدائيين».

أضاف: «كما تعرف، قبل عامين اتخذت سلطات الاحتلال قراراً يقضي بمنع سفر الفلسطينيين من الداخل ممّن هم دون السادسة والعشرين، إلّا إذا مضوا تسعة أشهر في الخارج. قرار جائر أريد به وضع حدّ لاحتكاك شبان الداخل بالثورة في الخارج؛ بناء جدار يعزلهم عن ثورتهم. ومن خلال سيطرتها على الجسور والمعابر، أتاحت تلك السلطات لرجال مخابراتها فرصة الضغط على المغادرين والعائدين لتجنيدهم، لكشف من سافر منهم إلى بيروت أو دمشق.

وأضاف ضعف التنسيق بين لجان القطاع الغربي في فتح، ومع الأجهزة المشابهة في الفصائل الأخرى نقطة لمصلحة العدو، اللجان والفصائل أشبه بجُزر معزول بعضها عن بعضها، ماكينة مفككة، جهات متخصصة، تكتّم على الإخفاق، ومبالغة في الحديث عن النجاح إلى حدّ الكذب. من جانب آخر لم يحظَ رؤساء اللجان وكوادرها بدورات تأهيلية ترفع كفاءاتهم عبر التعرّف إلى تجارب ثورات الشعوب الأخرى، واقتصرت معارفهم على اجتهاداتهم الفردية وخبراتهم الشخصية. ويخلو جهاز الأرض المحتلة من مركز للدراسات والبحوث والتحليل، في ما عدا مكتب متواضع للمعلومات لم تتحّ له صراعات اللجان وتكتّمها أن يصبح فاعلاً. في غياب ذلك، كيف للمسؤولين أن يطوروا وعيهم؟ على أي أساس سيقيسون نجاحاتهم وإخفاقاتهم ويرسمون خططهم وبرامجهم؟».

طوال أعوام انتسابي إلى الثورة لم نفكر، في الدائرة المحيطة بي، في تجنيد «عميل مزدوج» لاختراق صفوف العدو. لم يكن ينقصنا الذكاء أو الجدية، لكنّ الفكرة لم تكن ضمن نطاق ثقافتنا أساساً. وفي تلك السنّ المبكرة من عمرنا، كنّا نشعر بأننا لسنا مؤهلين لذلك، بأننا لسنا بمستوى عدونا في هذا المجال بالغ الخطورة والحساسية، وأظنّ أنّنا كنّا محقّين في ذلك. وفي القطاع الغربي عموماً، كنّا نتحرّك فرادى أو ضمن جماعات صغيرة مبعثرة، وكانت تنقصنا المؤسسة والدليل المرشد، لهذا السبب أضعنا فرصاً ثمينة، ولم نتعلّم من التجارب كما يجب، ما عدا البطولة الفردية والإبداع الشخصي. هذا على عكس حال العدو الذي امتلك ميزة السيطرة على الأرض والتحكم بحياة الناس، وعمل ضباط مخابراته ضمن مؤسسة بإمكانات ضخمة، ووفق خطط وبرامج أتاحت لهم الإبداع والتكامل.

قال حمدي، وهو يحدّثني عن الموقع الذي سأشغله: «في دمشق نعاني مشكلة مستعصية بين اثنين من إخوتنا الأساسيين. أقترح أن يكون موقعك هناك، لعلّك تستطيع حلّ المشكلة. أنت لك مكانة عند الاثنين». سافرت إلى دمشق، ولأنني كنت أعرف أحد الخصميين فقد اقتربت من خصمه، محاولاً خلق معادلة ثقة تساعدني في جسّر الهوة بينهما. بعد أيام أذهلني الرجل الذي اقتربت منه حين قال: «إن ظننتما أنّكما سترثاني فأنتما مخطئان!». لم أتخيّل، أنا الخارج للتو من السجن، والناجي قبل ثلاثة أعوام من احتمال حكم مؤبد، أن أسمع مثل هذا الكلام من مناضل! بدلاً من الغرق في وحل الجدل العقيم اتجهت إلى العمل.

استأجرنا شقة في حيّ ركن الدين<sup>(30)</sup> لاستخدامها كمكتب. أيام قليلة واكتشفنا أنّ جارنا في الشقة

المحاذية مسؤول في المخابرات السورية، وأتته طلب اثنين من شبابنا لمراجعته في مكتبه. طرقت باب شقته مستوضحاً: «نحن من جهاز الأرض المحتلة في حركة فتح، وأنا المسؤول». ردّ بكياسة: «طلبت من زميليك أن يشربا القهوة عندي. إن أردت الحضور أهلاً بك». لم أتحمس للفكرة.

عاد رفيقاي، وأبلغاني أنّ الرجل احترامهما، فاعتنمتها فرصة لشكره. طرقت باب شقته، ففاجأني بدعوته لي لتناول القهوة في بيته، وبعد انفتاحه بالحديث قال: «اسمي غيّاث، أنا مسؤول قسم بيروت في المخابرات السورية. عمري خمسة وثلاثون عاماً، برتبة رائد، رتبة أكبر من عمري. حصلت على ترفيع ميداني لأنني قدت سرية تميّزت بالقتال في حرب تشرين الأول/ أكتوبر عام 1973. بعد الترفيع نُقلت إلى المخابرات». أضاف: «نحن نختلف مع حركة فتح، لكننا نحترمها. أكثر ما يعجبني فيكم أنّكم تبدرون سلاحاً حيث تحلون. حافظوا على سرّية عملكم، لا يضلّلكم شعوركم بالأمان». هذا ما قاله الرجل الرائع، ودعاني لزيارة مكتبه بالقرب من حديقة السبكي.

التقيته بعد يومين. قال وأنا أحدثه عن عملنا في الأرض المحتلة: «ماذا لو تضمّن جانب من تكليفاتكم لمناضليكم في الداخل جمع معلومات عن معسكرات جيش العدو؟ ربما هذه لا تفيدكم، لكنّها مهمة لنا». جفّلت، تخيلته يحاول تجنيدي، شلّت الريبة إرادتي. وعدته خيراً لكنّي لم ألتقه ثانية. أسابيع ونقلنا مكتبنا من العمارة. كلما تذكّرت موقعي البائس أشعر بالأسف. كان بإمكانني أن أقدم خدمة وطنية جليّة، لكنّي نظرت إلى النصف الفارغ من الكأس.

في آذار/ مارس عام 1978، غزا الجيش الإسرائيلي جنوب لبنان، فتدفّق الشباب الفلسطيني والعربي على لبنان للدفاع عن الثورة. اقترح حمدي أن نقيم معسكراً لفرز من يفيدنا من المتطوعين للعمل في الداخل، واختارني قائداً للمعسكر. أقمنا معسكرنا شرق بلدة الدامور<sup>(31)</sup>. هذه أول مرّة أتبوأ فيها موقعاً عسكرياً كلاسيكياً.

في أحد الأيام كان العشاء بيضاً مسلوقاً. من خبرتي المتواضعة أعرف أن نضج البيضة يحتاج لغلبيها لدقائق قليلة. وضعنا مئتي بيضة في طنجرة، وأشعلنا النار تحتها. حين ورّعنا البيض لم يكن نضج بعد! هناك فرق بين سلق بيضة أو اثنتين وعلق مئتي بيضة. ذكرني هذا ببيوتر فيرشيغورا في «رواية ضمائر حية»<sup>(32)</sup>، أراد الرجل تقطيع 688 سمكة لتوزيعها بواقع 82 غراماً على 985 مقاتلاً. لم يعرف كيف يوزّع الرؤوس والذبول بحيث تصبح القسمة عادلة. كان نصيب البعض الجانب اللذيذ من السمك، ونصيب الآخر غير اللذيذ. قال له قائد الفوج حانقاً: «ماذا سأفعل بك؟ هل خدمت في الجيش سابقاً؟». أجاب: «أجل، كنت طبيباً!». قال له رئيس عرفاء التموين: «كان ينبغي أن تعطي لكل فرد نصف سمكة، ثمّ تضيف إليها إمّا رأساً أو ذيلًا، عندها كان سيكتفي الجميع، وستوفر مئة أو مئتي حصة احتياطية». يقول فيرشيغورا الذي أضحي جنراً: «عند ذلك أدركت أنّني لم أولد مموتاً».

عرّفتني تجربة المعسكر إلى جوانب مهمة في شخصيتي. وتعمّقت معرفتي بالمناضل كمال مدحت الذي كان ضمن الكادر القيادي للمعسكر، ذاك البطل الذي همّشته صراعات القيادة، وجعلتنا في اللجنة نرتاب

به، ظاتين أنّه مبعوث من أحد القادة لاختراقنا. كمال قائد فذّ، قتلته الصراعات الداخلية، وبعد ثلاثة عقود سقط شهيداً على أرض لبنان.

## حظ عاثر

ذُهل حسن الخطيب<sup>(33)</sup>، الطالب في جامعة بيروت العربية، حين قال له صهره سامي الحلو المقيم في الداخل يوم التقاه في العطلة الصيفية: «تعرفت إلى فدائي، زوّدته بملح بارود». ردّ حسن: «كان عليك ألاّ تفعل ذلك. ربما يُعتقل ويعترف عليك». اعتُقل الرجل واعترف على سامي بالفعل. اعتُقل سامي فألقى بكامل حمل اعترافه على ظهر حسن متيقناً أنّه في بيروت. كيف له أن يعلم أنّ حمدي كلّف حسن بالعودة إلى الوطن في اليوم الذي اعتُقل هو فيه؟ وصل حسن إلى الداخل، ويا لحظّه العاثر، وجد سامي معتقلاً!

عند منتصف الليل دهم جنود الاحتلال منزل عائلته، واقتادوه ووالده إلى السجن. قبل بزوغ شمس اليوم التالي، نزلت والدته «كافية» لتفقد زريبة الأغنام لاهجة بالدعاء لزوجها ولابنها: «الله يصبركم. الله يفرج عنكم». تمتّ المسكينة بذلك، وتساءلت حين لفت انتباهها أمر غريب: «لماذا المعالف مقلوبة؟ لم قلبها الجنود؟». راحت تعدّل المعالف، وتلعن الاحتلال، ثمّ همست لنفسها باعتزاز حين فوجئت بأسلحة تحت أحدها: «طول عمرك صاحي يا أبو حسن. هيك ضللتهم». كادت تبسم وقد مرّ بخيالها كيف انفتح قلبها لعارف (أبو حسن) يوم جاء طالباً يدها من والدها، شاب طويل أشقر بملامح فارس وعيون صقر. همست في أذن ابنتها سهيلة، ذات الاثني عشر عاماً، وهي تطلعها على السرّ: «يجب أن يظلّ الأمر سرّاً بيني وبينك». أضافت: «من الآن سأعتني أنا بالبيت، وأنت ترعين القطيع. علينا أن نتعلّم كيف نتحمل المسؤولية في غياب رجالنا، وأن نساعد شقيقتك زوجة سامي».

قال لي حمدي ونحن نناقش خططنا المستقبلية: «كما تعرف، وُجّهت لنا ضربات في العظم في العامين الأخيرين، استشهد محمود الحلو وأبو الراتب. اعتُقل صقر إلياس وشقيقه محمد ومجموعتهما. ثمّ أُعتقلت أنت ورفاقك في الأردن، وها قد أُعتقلت خلية حسن الخطيب. وهناك مشكلة تتمثل في أنّ قدراتنا البشرية في اللجنة تفوق كثيراً إمكانياتنا المالية. العشرون ألف ليرة لبنانية (حوالي ثلاثة آلاف دينار أردني)، موازنتنا الشهرية، تكاد لا تسدّ رمقنا. المال والسلاح في جهة، والطاقات البشرية في جهة أخرى! ولا تسمح عقلية اللجان المتصارعة بالتكامل».

علّق قاسم: «الضربة التي لا تُميت تُقوّي، سنكون إزاء انطلاقة قوية إن شاء الله». قال ذلك وقرأ مقطعاً من رسالة أرسلها تيسير أبو سنيّة<sup>(34)</sup> من الداخل: «جَهّزت القاعدة لاستقبال الدورية....». علّق حمدي: «تيسير فدائي». قلت مزهواً: «أستاذ رياضيات يا عم». انفجرنا ضحكاً حين ردّ قاسم: «وهل يشهد للعروس أكثر من ابنة خالتها؟ تيسير أهبل مثلك، ألسنت مدرّس رياضيات كذلك؟ الرياضيات تأخذ عقول أصحابها لدرجة قيل فيهم تندّرًا: 'مدرّس الرياضيات يقول أويقصد ب والحقيقة ج'».

قال عدنان جابر<sup>(35)</sup>: «انفتح قلبي لتيسير مذ جاني أول مرّة للتدرب في المعسكر. شاب جاد، يفيض بساطة وطيبة، ذكي ويتقن التعلم بسرعة. في وجهه براءة طفل، وفي نظراته حدة عين صقر، لكنّ الرياضيات أخذت عقله، كما قال قاسم، جعلته يبدو كمجنون، حتى ليصعب فهم كلامه الذي ينطلق من بين شفثيه كرشاش بلكنة خليلية موغلة في القدم، لكنة تجعلك تحاله جاء إلى مدينة الخليل مع سيدنا إبراهيم عليه السلام».

قال حمدي: «حين التقيت تيسير قبل عامين، وكان طالبًا في الجامعة الأردنية، شعرت بأنني عثرت على كنز، لكنني مثل عدنان أجد صعوبة في فهم ما يقوله، يبدو مشوشًا أحيانًا، لكنك لن تلبث أن تدرك سريعًا أنّه يعرف ما يريد».

## الكهف

منذ عام 1975 والخطّة الاستراتيجية لـ «لجنة التنظيم 77» تقوم على إنزال ثلاث دوريات إلى الأرض المحتلة؛ تتمركز إحداها في الشمال، والثانية في الوسط، والثالثة في الجنوب. وبهدف إنجاح هذه الخطّة تعاونت اللجنة مع قائد قطاع الجولان، عبد الإله أبو محسن الملقب «الحاج حسن»، الذي كان هذا الحلم محور تفكيره. تعرّثت الخطّة مرارًا، وكان آخر العثرات استشهاد أبو الراتب الذي كان من المفترض أن يقود أولى هذه الدوريات. كانت اللجنة تسعى لإقامة ثلاث قواعد عسكرية تُعنى بتدريب مناضلي الداخل وتأهيلهم عسكريًا، ليصبحوا قادرين على مواجهة جنود الاحتلال بكفاءة. لم يكن الأمر سهلًا بالطبع، لكنّه حلم ظلّ يراود قادة لجنة 77. بناءً عليه تقرّر أن يقود عدنان جابر الدورية التي سُمّيت «دورية الدبويّا»، تلك التي اكتسبت اسمها من عملية عسكرية قادها عدنان ضدّ البؤرة الاستيطانية المسماة «الدبويّا» وسط مدينة الخليل.

بدا عدنان مهمومًا وهو يعبر زقاق بيته في «شارع لوبيا» في مخيم اليرموك<sup>(36)</sup>: «من سيعتني بالمسكينة في غيابي؟ ربما تُصاب بجلطة قاتلة لو أبلغتها أنّي سأقود دورية عسكرية إلى الداخل». جفّ ريقه، كاد يتلعثم وهو يفتح زوجته نصف المشلولة بما ينويه وهما يحتسيان الشاي بعد الغداء: «حدثتك يا ابنة عمي عن حلم ذهابي بدورية إلى الأرض المحتلة. ها قد حان الوقت، لن تطول غيبتني إن شاء الله. أثق بصبرك، ولن يقصّر رفاقي معك». ردّت الزوجة بعيون ذابلة: «لم أكن لأتردد بموافقتك الرأي لو أن عندي ولد أو أهل. لو لم تكن صحتي كما ترى». قالت ذلك وانهمرت دموعها، فاحتضنها متظاهراً التماسك.

أمضى عدنان أيامه الأخيرة إلى جانب زوجته ثمّ غادر متخفيًا وزميله عزيز إلى الأردن. في عمّان استقبلها قاسم الذي سبقها إلى هناك قبل شهرين، زوّدهما بهويتين إسرائيليتين مزوّرتين، وبمئتين وأربعين دينارًا. أسبوع وحملها فؤاد السروجي إلى «مزرعة الملاحّة» المحاذية للنهر. حلّ الليل فعبر بهما أبو سليم النهر غربًا، كان ذلك في الأول من حزيران/ يونيو عام 1979.



أمضى الفدائيان يوماً غرب النهر، وبعد الغروب اجتازا «خط الأثر»<sup>(37)</sup>. عند الثانية بعد منتصف الليل كانا في بيت حسن عبد الفتاح إخميس (أبو فيصل)<sup>(38)</sup> في قرية مرج نعجة<sup>(39)</sup>. أمّا عمر الحروب<sup>(40)</sup> المكلف بنقلهما إلى الخليل، فكان قد غادر المكان بسبب تأخرهما عن الموعد، فوجوده المتأخر في منطقة حساسة يجلب الشبهة لسيارة ترخيصها صادر من بيت لحم. كيف سيتصرفان وقد كشف العدو عبورهما لخط الأثر؟! «علينا أن نسرع إلى قرية تياسير»<sup>(41)</sup> قبل أن يكشفنا الجيش»، هذا ما اقترحه عدنان.

انتشر جيش الاحتلال، وراحت طائرات الهليكوبتر تجوب السماء. اختفيا في مغارة حتى حلّ ليل اليوم التالي. في الطريق صعوداً إلى القرية استضافتهما عجوز بدوية. انتفضت المرأة غاضبة حين ناولها عدنان عشرة دنانير بدل الطعام الذي قدمته لهما. «مالك يا رجل؟! انجنيت؟!».

على أطراف قرية تياسير التي وصلها بعد صلاة العشاء، توقّف عدنان أمام منزل ابن عمه حسين ونادى بصوت خافت: «حسين». أضيء مصباح يدوي، ووجّه صوب المنادي فهمس عدنان: «أطفئ المصباح، أخفض صوتك، أنا عدنان ابن عمك جبر». تلعثت شقيقة حسين وقد صدمتها المفاجأة: «عدنان ابن عمي جبر!..».

أمضى الفدائيان ثلاثة وعشرين يوماً في جبال تياسير، ثم نقلهما عمر الحروب إلى الخليل. ظلّت الأمور طبيعية في مخبئهما الذي جهّزه لهما تيسير أبو سنيّة حتى انزلت قدم «عنزة» في باب مغارة تغمرها شجرة عنب. لن يخطر في بال الراعي أنّ تلك «الدالية» التي يعرفها منذ أعوام تحتضن قاعدة فدائيين. رفع الرجل حجراً محاولاً تخلص عنزته من مأزقها ففوجئ بالمغارة! هبط باحثاً عن «أنتيكة» يتاجر بها. بدلاً من «الذهب» وجد نفسه في مواجهة اثنين من المسلّحين: «بسم الله الرحمن الرحيم! أنا معي سكين، أنا معي شبرية». هذا ما راح يهذي به وقد تخيل نفسه أمام جنّيين.

هدأ عدنان من روعه، وأوصاه بحفظ السرّ. لكنّ من أذهلته المفاجأة لم يتحمّل ثقلها. أخبر الراعي والده بما جرى، فهمس له الأب بلكنة خليلية محاولاً محو صورة الفدائيين من ذهنه: «تردّش يا بنيّ، يو! إنت مصدق إنّ هه دول فدائية! منين بدهم ييجو الفدائية هون؟ هه دول يهود يا عمي! عليّ الطلاق يهود. اليهود شياطين، هه دول يهود زي ما بقلك، أبصر شو بعملوا هناك، تجيبش سيرة لحدا». ردّ الولد مرتبكاً: «بس بحكوا عربي زيّنا، معهم كلاشنات وقالوا إنّهم فدائية». أجاب الأب بصرامة: «يعني اليهود بعرفوش يحكوا عربي! ما عندهم كلاشنات!». في الليلة التالية فوجئ الفدائيان بشخص يهمس من باب المغارة: «افتحوا. عليكم أمان الله، أنزل ولا تطلعوا؟». كرّر الرجل الهمس: «ابني حكى لي عنكم، ما تخافوش، جاي أخدمكم». همس عدنان وقد تهيأ ورفيقه للمواجهة: «أدخل».

بعد أعوام قال تيسير أبو سنيّة، وقد استضافني على الغداء، وهو يحدثني عن علاقته بلجنة 77: «في صيف عام 1973 أرسلني حمدي لأتدرب في قاعدة لحركة فتح قرب درعا. هناك سألني أحدهم: 'من أي بلد أنت؟ ما دراستك؟ لماذا التحقت بفتح؟ من جنّدك؟'. قلت مستهجنًا الأسئلة: 'الآن عرفت ليش

الشباب بينمسكوا على الجسر وهم راجعين للداخل! ليش الأسئلة الي ما الهاش لزوم؟ لأي جهاز مخبرات بتجمع هاي المعلومات؟'. ابتسم الرجل الذي عرفت لاحقاً أنه الحاج حسن قائد قطاع الجولان وقال: 'أنت فدائي'.

عن ملاحظات استقباله «دورية الدبوا»، قال تيسير: «رتب لي حمدي لقاءً أمام دائرة البيطرة بمدينة الخليل مع جميل الذي عرفت في ما بعد أنه عمر الحروب. كانت بيننا كلمة سرّ، وأن عليّ أن أحمل بيدي جاعد [جلد ماعز]، وأن أكرّر الذهاب ثانية إلى الموعد إن لم يحضر في اليوم الأول. انتظرت ولم يأت الرجل، ولأنني معروف في المنطقة، كلما مرّ بي شخص سألني مستغرباً: 'ليش حامل الجاعد؟'. وللتخلّص من حرج السؤال قرّرت ترك جلد الماعز في البيت. في اليوم التالي راح شاب يحوم حولي، اقتربت منه وهمست بكلمة السر. ارتبك فقلت له: 'ما تقلقش، الجاعد في البيت'.

أضاف تيسير: «أمضى عدنان ورفيقه عامًا كاملاً في المغارة. طوال هذه المدة كنت مسؤولاً عن تدبير شؤونهما، وتلبية احتياجاتهما. كنت أحمل فضلاتهما وبولهما في 'أكياس نايلون'، وألقي بها بعيداً في حاويات قمامة قرب الحسبة [سوق الخضراوات]. كنّا نأخذ في الاعتبار كل صغيرة وكبيرة، لا نترك شيئاً للمصادفات. كان الوضع شديد القسوة في الشتاء، ليس بسبب شدة البرد، فقد زوّدتها بالبسة شتوية دافئة، بفراش وحرّامات ثقيلة. كانت مشكلتي في صعوبة الوصول إلى المغارة، كيف أمضي إلى هناك من دون أن أترك أثراً؟ كنت أمشي فوق السناسل [الجُدُر] الحجرية والصخور. في إحدى الليالي جفّلت حين سمعت حديثاً بجهاز لاسلكي وقد اقتربت من المغارة. ارتعبت وقد لمحت جنوداً خلف سنسلة. تواريّت متخيلاً أنّهم كشفوا القاعدة. بدا لوني مخطوفاً وقد هبطت داخل المغارة بعد انسحابهم. لم يكن وجها عدنان ورفيقه أقلّ شحوباً وهما يستفسران عن صوت اللاسلكي. ذهلا حين عرفا أنّ الجنود كانوا على بعد أمتار قليلة منهما».

دخل محمد الشوبكي الذي شاركنا الغداء على خط الحديث: «طلب إليّ ابن عمي جمال<sup>(42)</sup> الذي يدرس في جامعة بيروت العربية أن أسافر إلى لبنان. سافرت، وهناك التقيت حمدي الذي وجد فيّ مقاتلاً مميّزاً ولديّ سلاح. بالتنسيق بين تيسير وجمال ربّطت بالمجموعة المطاردة؛ دورية الدبوا. في أول مرّة دخلت فيها المغارة التي يتخفى فيها عدنان وعزيز، كدت أختنق من شدة الرطوبة. ما عاد بابور الكاز الذي يهدر طوال الوقت يكفي لإزالة الرطوبة، الأسوأ أنّّه زاد المكان تلوثاً. شجعتهما على الخروج. حين شاهدنا الشمس، تنفّسنا هواءً صحياً وتحركت عضلاتهما. أيام ونقلتهما إلى الجبل بالقرب من قرية إذنا<sup>(43)</sup>. يبدو أنّ الفترة الطويلة التي قضياها في المغارة، تركت أثراً نفسياً سيئاً فيهما، ففي حين أنّهما جاءا إلى البلاد بهدف تأليف نواة قيادية عسكرية، فقد وجدا نفسيهما عبئاً على من أتيا لتشغيلهم من أبناء التنظيم».

أضاف الشوبكي: «طلب منّي عدنان تحديد هدف لتنفيذ عملية عسكرية. استطلعنا موقعاً في منطقة قرية بيت جبرين<sup>(44)</sup> المحتلة منذ عام 1948. قال عدنان ونحن نناقش الأمر: 'بعد العملية يمكنك أنت مغادرة الموقع بأمان، أمّا أنا ورفيقي، بوضعنا الصحي الراهن، فلن نقوى على قطع مسافة طويلة وسط الوعر».

أقترح أن نفجر عبوة في الموقع بدلاً من مهاجمته. هذا ما حصل بالفعل. شهران وأعدت عدنان وعزيز إلى مغارتهما في الخليل. في هذه الأثناء استقر الرأي على تنفيذ عملية في الموقع الاستيطاني 'الدبوا' وسط المدينة. ليلة الثاني من أيار/ مايو كمنت وعدنان وعزيز وتيسير على طريق النقطة الاستيطانية. في اللحظة التي تجمع ما لا يقل عن مئة مستوطن أغليتهم مسلّحون، فتحنا عليهم نيران رشاشاتنا. ومن دون أن تطلق صوبنا رصاصة واحدة، قتلنا سبعة وأصبنا ثمانية عشر بحسب اعتراف العدو.

ردًا على العملية أبعدت سلطات الاحتلال رئيسي بلديتي الخليل وحلحول؛ فهد القواسمي<sup>(45)</sup> ومحمد ملحم<sup>(46)</sup>، وقاضي القضاة الشيخ رجب بيوض التميمي<sup>(47)</sup>. ووضع مستوطنون قنابل في سيارات بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس، وكريم خلف<sup>(48)</sup> رئيس بلدية رام الله، فبُرت سيقانها، أما حسان الطويل رئيس بلدية البيرة فنجا. في إثر إخفاق أجهزة الأمن الإسرائيلية في اكتشاف المجموعة استقال وزير الدفاع الإسرائيلي عيزر وايزمان<sup>(49)</sup> من منصبه، وخلفه مردخاي تسيبوري<sup>(50)</sup>.

أضاف: «قبل اتصالي بحمدي، كنت نفذت عملية أسفرت عن مقتل البروفسور الإسرائيلي باراك وزوجته الصحافية. لم أكن أبغي قتلها، كنت أقصد اختطافها لمبادلتها بأسرى فلسطينيين. حين التقطت لي المرأة صورة بكاميرتها، قرّرت إطلاق النار عليها حماية لنفسي. أعتقلت بعد العملية ولم أعترف، على الرغم من وضعي أمام جهاز كشف الكذب، لكنني أصبحت مشبوهًا عند المخابرات. حين أعتقل عدنان وعزيز في أثناء محاولتهما عبور النهر شرقًا عائدين إلى الخارج، قالوا إنهما تركا سلاحيهما عند شخص له إصبع مقطوع في إحدى يديه. بالطبع كنت أنا صاحب الإصبع المقطوع. في أثناء التحقيق معي قابلني رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي رفائيل إيتان<sup>(51)</sup>، مردخاي تسيبوري، واثان من ضباط الموساد هما أبو نهاد الذي ترأس لجنة التحقيق، وجادي. سألني الأخير: 'كم راتبك؟'. أجبت: 'ليس لي راتب'. ثم سألني: 'ما راتبك؟'. قلت: 'مناضل'».

في اللقاء ذاته قال تيسير عارضًا أحد المواقف: «مساء الثلاثين من كانون الثاني/ يناير عام 1980، طقس شتوي قارس وعتمة مطبقة. يومها كان موعدي مع عدنان وعزيز في منطقة وادي القف<sup>(52)</sup> لنقلها إلى الخليل. في تلك الليلة قُتل المستوطن سلّومة، فانتشر الجيش بكثافة. بدا وضعي مأساويًا وأنا أتحرك في المنطقة من دون ساتر يحميني. حمّنتي إرادة المولى. انتظرت حتى الفجر ولم يحضر».

ابتسم الشوبكي وتحدّث عن واحدة من نوادر شقيق تيسير الملقّب بـ«عُزّز»: «كان وسط المدينة القديمة في الخليل موحشًا يخلو من البشر حين خرج عُزّز من الحرم الإبراهيمي بعد صلاة الظهر. سمع همسًا: 'لو أنّ القاتل يهودي لنقلوه بطائرة هليكوبتر، أما وأنّه عربي فقد تُرك ليموت!'. هبّ عُزّز لإنقاذ المصاب. صاح تحت وقع الارتباك: 'هذا ابني عبد المعين'. انطلق بالجثة إلى المستشفى الأهلي، ثم فرّ بها إلى منزله حين طلب الأطباء تشريحها. تجمع الناس لمواساة العائلة. قال الحاج محمود والد عُزّز، وقد لمح الرقم العسكري وفصيلة الدم معلقة برقبة القاتل: 'منين جبّلتنا هالبلية يا عُزّز؟ هذا مستوطن'. وقت قصير وطوّق جيش الاحتلال

المنطقة. اقتادوا عَزَز وابنه عبد المعين إلى السجن بتهمة اختطافهما الجثة، لمبادلتهما بشقيقه تيسير الأسير في سجون الاحتلال. كانت هذه جثة المستوطن أهارون جروس».

## اضبطوا أحذيتكم جيداً

في شتاء عام 1980، حان وقت عودتي إلى الساحة الأردنية التي غادرتها مضطراً قبل عامين. سألتحق بقاسم ومن سبقوني من رفاقي، لأكون معهم في الخندق الأول من الجبهة الأمامية. تناولنا العشاء في منزل الفدائي أبو فواز من قرية صانور بالقرب من مدينة نابلس، والمقيم بمدينة درعا، وانطلق بنا الفدائي السوري طعمة العليمي باتجاه الحدود الأردنية.

قال هارون غنيم قائد الدورية وهو يعطينا التعليمات: «اضبطوا أحذيتكم جيداً، السير في الأرض الطينية صعب. سنمشي بحدود ساعة ونصف الساعة داخل الأراضي السورية. المنطقة منطقة تهريب، والأمر لا يخلو من مفاجآت. عندما نقرب من الحدود سأعطيكم تعليمات أخرى».

لم أدرك قيمة شدّ الأحذية جيداً إلا حين اختبرت بالملموس ما عناء هارون.

سماء صافية والقمر بدر. نسمة شمالية غربية لافحة تهبّ من سفوح جبل الشيخ<sup>(53)</sup> الذي تكسوه الثلوج، وجليد يتكسر كقطع زجاج تحت أقدام تغوص في الطين، والسهل يضيئه انعكاس شعاع القمر على صفحة الماء المتجلّد. كاد الدم يتجمد في شراييني.

بعد حوالي ساعة توقف هارون: «سنرتاح قليلاً. ليدخّن من يرغب بالتدخين، أخفوا لهب السجائر بأكفكم، نصف ساعة ونجتاز الحدود. عندما نبدأ باجتيازها سيروا خلفي، التزموا طريقي».

دخّن اثنان من رفاقنا، ثمّ مشينا.

قال هارون بعدما اجتزنا الحدود وأصبحنا في مكان آمن: «الأضواء أمامكم هي مزارع دجاج في بلدة البويضة<sup>(54)</sup>». استدار نحوي وأضاف: «تذكرها يا أخ منصور؟». أجبت: «عبرت هذا الطريق مع أبو سليم آتياً من الأردن قبل عامين». قال: «أسرعوا، سيبتظروننا السائق فوق العبّارة». همس في أذني: «سيبتظروننا محارب إلياس بسيارته».

كاد البرد يقتلنا ونحن نجلس القرفصاء في عبّارة يتدفق فيها سيل ماء. برَدَ العرق على جلودنا فكدنا نتجمد. نصف ساعة وألقي حجر نحونا. نهض هارون: «الحقوني، إنّها الإشارة المتفق عليها».

بعد ساعة أنزل محارب رفاقي وسط مدينة عمّان، وحملني إلى وجهة أجهلها. نصف ساعة ونقَر بخفة على باب شقة أرضية في عمارة في منطقة مرج الحمام<sup>(55)</sup>. انفتح الباب عن قاسم ورفيقه أبو حديد (سليمان عمران)، وأبو العز (نسيم عبد الجليل). كان ذلك عند أذان الفجر. اقتصر الاحتفاء بي على بسمات أشرفت على شفاه الفدائيين. لا مجال للضحيج، الوقت مبكر، والمهمة تقتضي الحذر.

ظهر اليوم التالي اصطحبنني قاسم مبتدئاً رحلة العمل. كيف لمن لا يعرف قاسم ألا يخطر بباله أن من يقود سيارة «البك أب» معتمراً «شاعاً أحر» ومتنعلاً صندلاً ليس سوى حجار أو تاجر أغنام؟ لن يخطر ببال أحد أنه قائد كبير في الثورة. من أي نبع كنّا نستمد هممنا لنُقدم على المغامرات؟ كيف لجماعة أن تدفع بنخبة قادتها خلف الخطوط؟ كان يقتضي مشروعا يومئذ أن يقف على رأسه من يملكون إطلالة على الإمكانات، ومقدرة على تحريكها وتجميعها والتحكّم بها، فضلاً عن أن وجود القادة على خط المواجهة يبعث في رفاقهم الثقة. أيام مزدهرة بالأمل، وشبان مشبعون بطاقة التضحية.

شهر وجاءنا حمدي في وفد مع خليل الوزير (أبو جهاد)، فحلّقنا بآمال أطللنا من فوق ذراها على أحلام عظيمة. أيام وانتقلت وقاسم للسكن في حيّ «الجلب الأبيض» بمدينة الزرقاء. بيت إسمتي من غرفتين، وحمام خارجي. كنت أبتسم متمماً كلما ألقى قاسم تحية الصباح على صاحب المنزل: «من يظنّنا الرجل يا ترى؟ حجارين أم تاجر أغنام!». كنت أضحك حين نظرك باب منزل خالد الديك في حيّ «وادي الحجر» بمدينة الزرقاء، فيركض طفله خلدون مستبشراً: «جاء أبو سليمان وابنه!». لماذا أعطانا هذه التسمية؟ كثيراً ما أظهر اللباس الذي يرتديه قاسم أنه أكبر من عمره.

ذات عصر كنت أنتظر الباص في «الساحة الهاشمية» وسط مدينة عمّان. اجتاحتني هبة فخر قوية حين لمحت فؤاد يسلم «بضاعة» لأبو سليم! وسط حشد المتدفقين على كراج الحافلات. كنت وحدي أعرف أنّهما ينقلان سلاحاً. المقاومة السريّة رواية جراءة ومفاجآت. ذات ليلة كنّا ننقل في سيارتنا سلاحاً إلى منزل في جبل اللوييدة<sup>(56)</sup>. همس قاسم، اليقظ بطبعه، وقد لاحظ سيارة شرطة تتبعنا: «يبدو أنّنا مراقبان! إنهم يتعقبوننا». ناور، غير اتجاه السير، وما زالت السيارة خلفنا! كادت قلوبنا تتوقف عن الخفقان لحظة توقفت السيارة بجوارنا. ترجّل منها شرطي واستفسر عن عنوان في الجبل فتنفسنا الصعداء.

في مشوار آخر وصلت وقاسم مبكرين عن موعدنا مع فؤاد. على باب المنزل فوجئنا بضيوف مغادرين. قال فؤاد بسرعة بديهيته العجيبة وهو يُعرّفنا: «الإخوة نشة ودعيس». من أين استوحيّت هذه الأسماء يا فؤاد؟ كيف اخترعتها؟ تسلّلت مرّة لزيارة بيت شقيقتي فاطمة في جبل فيصل<sup>(57)</sup>. قالت شقيقتي لطفلتها هيام: «هذا صديق خالك محمد». همست الطفلة لوالدها وقد لحقت بها إلى المطبخ: «يشبه خالي، كأنّه هو». ربما أنّها عرفتني لكنّها تكتمت على السر.

في مغامرتي التي استمرت ستة أشهر في الأردن، كتب لي القدر أن أتعرف إلى زوجتي زهرة القيسي. تردّد والدها كثيراً قبل أن يوافق على اقتراني بها. ليس سهلاً على والد أن يلقي بمصير ابنته بين يديّ شاب في مهب الثورة. صمّمت على الاقتران بزهرة، ووجدت من يزكّيني عند والدها. في هذه الرحلة كنت تواقاً لرؤية العديد من الأصدقاء في عمّان، لكنني نادراً ما التقيت أحداً خارج نطاق مهمتي السريّة المباشرة. كسرت القاعدة مع سامي القيادي في فصيل سياسي يساري على خلاف دائم مع «فتح». رجل وطني صادق وصاحب مبدأ، النقيته. لم يكن موقفي عفويّاً، كان يقوم على ثقة عميقة رسّختها أعوام الاعتقال المشتركة بيننا، وأنا شخص أُقيم علاقتي مع الآخرين بناء على القيم، وليس على الانتماءات الحزبية والمواقف

السياسية.

حين التقيت سامي، لم يكن مضى على خروجه من السجن غير بضعة أشهر. بدا أنه مهموم، لكنه تحدّى قسوة الحياة بصلابة مقاتل. بعد ثمانية أعوام اعتقال، أمضى ثلثها في الزنازين، كان عليه أن يبدأ حياته من تحت الصفر. اشتغل موزّع مواد تموينية لحساب شركة تجارية تعود لأحد زملائه في الاعتقال. قال متألماً وأنا أساعده في نقل بعض صناديق البضاعة لأحد الدكاكين: «نظرياً أنا مسوّق، لكنني عتّال في الواقع. المفترض أن أشغل معي عاملاً للتحميل والتنزيل، لكن حاجتي الماسة للستين ديناراً التي عليّ أن أعطيها له شهرياً تحول دون ذلك».

أشهر قليلة، بعد عودتي إلى دمشق، وتزوجت. عام بعد ذلك وصرفت لنا اللجنة الأردنية الفلسطينية المشتركة ثلاثة آلاف دينار تعويضاً عن بيتنا الذي هدمه الاحتلال. قلت لوالدي متردداً: «الثورة في وضع سيء، ومستقبلي على كف عفريت. ليس لديّ وثيقة أتحرّك بها، ولا يوجد لي منزل، وأنا أب لطفل، هل تسمح لي باستثمار المبلغ؟». وافق الوالد فأعطيت المبلغ لعلي زوج شقيقتي فاطمة وتشاركنا في محل حدادة. قال علي حين عدت إلى عمّان مع أبو جهاد بعد عام: «ربحتم ستمئة دينار هذا العام، وأنا لم أصرف إلا نصف المبلغ الذي أعطيتني إياه». شيء رائع! أخذت الربح وباقي المبلغ؛ ألفين ومئة دينار، وبعث مصاغ زوجتي بسبعمئة دينار. اشتريت بالمبلغ شقة صغيرة غير مكتملة البناء في بلدة جوبر قرب دمشق. هبّ رفاقي لمساعدتي في تشطيب الشقة، جاء «أحمد دبك» متسللاً من الأردن لتبليطها، اشتغل شقيق عبد السلام عبد الله الكهرباء، وتكفّل شقيق أبو قاسم بالطراشة، واشتغل محمود قاسم (أبو خالد الصغير) المنخول جسده بعشرين رصاصة عاملاً. التكافل من صلب القيم الثورية.

## بين فكّي الموت

ظّل اجتياز «خط الأثر» الذي أقامته قوات الاحتلال الإسرائيلي على الحدود غرب نهر الأردن عقبة كأداء أمام الفدائيين الداخلين إلى الأرض المحتلة. بعضهم حاول اجتيازه بإلقاء جبل فوق «الشيك» الحدودي<sup>(58)</sup>، وآخرون فكّروا بالدخول من العبّارات، وهناك من تزوّد بمكنسة لإزالة آثار الأقدام، وغيرهم حاول اجتيازه بسُلّم.

في أثناء محاولة أبو سليم ورفاقه تجاوز الخط غرباً، ارتطم طرف السُلّم الذي يحمله بالتراب الناعم داخل الخط. اكتشف العدو الأثر، فأضاءت قنابل الإنارة المنطقة وأطلق رصاص كثيف. انسحب أبو سليم برفاقه شرقاً، والتقطهم فؤاد الذي كان يراقب الوضع من الجانب الأردني. اجتاز بهم الحواجز العسكرية الأردنية لا عنّا الإسرائيليين الذين اضطروه إلى الهرب «بعماله» كما ادّعى وهو يشير إلى رفاقه الفدائيين.

قال فؤاد ونحن نستذكر عظمة العطاء في تلك الأيام: «كنّا ننهض لمهماتنا بروح الفريق المتكامل، بثّ فينا الأمل ومشاعر الجماعة روحاً قوية. كنّا أنقياء ومتفانين، لا نخشى شيئاً. كنّا شديدي الحرص على أداء مهماتنا

بإتقان. كان النجاح خطوات صغيرة لشبان عاديين، وهذه صنعت بتراكمها وتعاقدنا مجداً سنظل نعتر به، مقتنعين أننا مع كل خطوة نخطوها نقرب من لحظة النصر. كان هذا ينعكس شعوراً رائعاً جعلنا نتفهم نقاط قوة وضعف بعضنا بعضاً. في سبيل تحقيق الإنجاز جميعنا مهمون. لم يكن العمل بسيطاً، لكن الإنجاز والتكاتف بثاً فينا الأمل باستمرار. في إحدى المرات كنت وماجد نفرغ شحنة سلاح من 'براد' خليل شوحة. كدنا نتجمد برداً حين اضطر شوحة إلى إغلاق البراد علينا وقد توقفت سيارة شرطة بالقرب منا».

تنهد فؤاد وأضاف: «لم تحقق الثورة أهدافها، تغيرت الحال وتزوجنا، أصبح لنا أسر، لكن الثورة العميقة في الأنفس وفي عدالة القضية ماضية في طريقها. حلم التحرير حقيقة نجتليها في عيون أطفالنا».

مساء يوم جمعة من كانون الثاني/يناير 1981، وكان ذلك بعد مرور عشرين شهراً على نجاح دورية الدوبيا في عبور النهر. طقسٌ عاصف حين عبر أبو سليم وخالد الديك والنمرود النهر في مهمة استطلاعية تمهيداً لإنزال دورية الاستقرار الثانية. استهتروا، مشوا على خط الأثر آملين أن يتكفل المطر بإزالة آثار أقدامهم. حين انسحبوا عائدين شرقاً فوجئوا بفيضان النهر جراء الأمطار الغزيرة. عبر النمرود النهر ليعود بحبال وإطارات تساعد رفاقه في العبور. بزغت الشمس ولم يظهر للنمرود أثر.

«تهياً، لكن لا تطلق النار»، هذا ما همس به أبو سليم لخالد وهو يشير إلى جنود ظهرُوا فجأة. ضرب خالد جبهته بيده وقد لمح جندياً يلوح بجاكيت. همس مرعوباً: «هذه سترقي! خلعتها لتجفيفها ونسيتها».

«مخرب سَلَم نفسك»، هذا ما نعتت به سماعه، وانهمر الرصاص. واصل الجنود التقدم وأيديهم على الزناد. فتح خالد أمان بندقيته، فأمسك رفيقه بشعره طالباً منه التريث. ساعات قليلة قاسية وانسحب الجنود، لكن النمرود لم يعد. شدّ أبو سليم حبلًا إلى جذع شجرة. أمسك بطرفه، وألقى نفسه في الماء قاصداً عبور النهر. أراد إحضار ما يمكن أن ينقذ به رفيقه الذي لا يتقن السباحة. جرفته المياه المجنونة. دفعته حلاوة الروح للتشبث بنبتة «فُصَّيب»، كاد يهلك قبل أن يلتقطه فؤاد الذي كان يتابع مشهد الموت من المزرعة. حلّ الليل ولا أثر للنمرود ولا لأبو سليم! ماذا يفعل خالد؟!

دقائق رعب قبضنا فيها على قلوبنا ظهر اليوم التالي وأبو سليم يسرد لنا تفاصيل ما جرى: «فوجئنا بفيضان النهر، شيء يستحيل تخيله. النهر هائج أماننا، والعدو يتعقبنا، ولا مجال للبقاء في المنطقة بعدما عبنا بخط الأثر. كاد خالد يطلق النار على الجنود، لولا أنني وضعت إبهامي على شفتيّ محذراً وأنا أتطلع في عينيه. تجمدت عينا في محجريهما حين رفع جندي حاجبيه، وأطلق تجاهنا نظرة لحظة صفق عصفور بجناحيه في الجوار، تخيلت أن الجندي كشفنا. كنت سأطلق النار لولا أن أدار الجندي وجهه باتجاه آخر. ليس من السهل التغلب على عفوية السلوك فيما يصبّ السلاح نحوك من على بُعد خطوات، أن تقتل أو تُقتل، هذه هي الخيارات. حين انسحب الجنود، اتفقت مع خالد على أن أعبر النهر لأعود له بحبال، كاد الماء يبتلعني حين ألقيت نفسي وسط التيار المجنون».

أجهش أبو سليم بالبكاء. ملأت الدموع عينيّ فؤاد وهو يقول: «عبرت النهر مع النمروذ، بقينا ننادي على خالد بلا جواب أو أثر!».

ما الذي جرى لخالد؟!

يومان وأرسلنا أم جلال إلى الضفة الغربية لتعقب أخباره. بعد أسبوع، شرقنا بدموعنا وقاسم يقرأ رسالة جلبتها المرأة من خالد: «... ظلّ أبو سليم يصارع مياه النهر حتى غاب عن عينيّ، كان يهبط ويعلو ثم غاب فجأة. لحظات قاسية وأنا أحرق في الموت الممسك بخناق رفيقي قبل أن يغيب عن عينيّ. يا إلهي إنه يغرق! حلّ الليل فحملت بندقيتي وبندقيته وقنبلتينا اليدويتين ومضيت غرباً. وسط سطوة مشهد الموت لاحت في خيالي صورة ابتسام غرايبة<sup>(59)</sup>، عضو خيلتنا السابقة من قرية طمون<sup>(60)</sup>، لم ألتقها سابقاً لكنّ ندرة الخيارات جعلتها خياراً. قبل الفجر بقليل اهتديت إلى بيتها في بلدة طمون. يا لها من فارسة وقد غامرت باستقبالي وهي لم تلتق بي سابقاً إلا في حلمنا الثوري. نصف ساعة بعد وصولي وصدمت أذاننا سماعة لجيش الاحتلال: 'على الرجال فوق الخامسة عشرة التجمع في ساحة المدرسة'. لقد كشفوا أثري. زودتني ابتسام بلباس نسائي. حملت سلاحي على رأسي في قدح، واخترقت صفوف الجند كأنني امرأة في طريقها إلى الحقل».

نجح خالد في بناء قاعدته العسكرية في الداخل. تواصلنا معه ونظرنا إليه باعتباره دورية الاستقرار الثانية التي كنّا نخطط لها، تلك التي كان من المفترض أساساً أن يكون هو قائدها، الفارق أنّه دخل إلى الوطن بلا مال، ومن دون قاعدة آمنة مسبقة التجهيز. معضلة كبرى ومخاطر شتى أن يضطر خالد إلى تأمين ذلك كله معتمداً على نفسه. أمّا بالنسبة إلينا في الخارج فقد نظرنا إلى ما تحقق باعتباره نجاحاً كبيراً. الآن أصبحت لنا قاعدتان عسكريتان في الداخل، لقد قطعنا ثلثي مشوار إنزال الدوريات.

في أحد الأيام، كنت وقاسم نركب السيارة من مدينة الزرقاء إلى مدينة عمّان عبر «شارع ياجوز». كنّا نناقش بفخر وبقلق ما جاء في رسالة خالد الأخيرة التي وصلتنا قبل يومين: «أخطط لقتل جندي إسرائيلي لمبادلته بأسرى. جهّزت حفرة لدفنه». كان جوابنا حاسماً: «انتظر تعليلنا».

خطونا القاتل، في التعاطي مع خطط خالد، أنّنا قيّدناه بنجاحنا في إنزال الدورية الثالثة «دورية تياسير»<sup>(61)</sup>. هدفٌ لا نملك تحديد مواعده، ولا التيقن من نجاحه. انطلقنا من أولوياتنا التي لم تنضج ظروفها بعد، فيما ثمار خالد ربما يفوت أو ان نضجها وتفسد. هذه بعض مآسي «القيادة عن بُعد». في الخارج كنّا نفكر انطلاقاً من واقع مختلف عن أوضاع من نفودهم في الداخل. ماذا لو لم ننجح في إنزال الدورية التي نخطط لها أو تأخر نزولها؟ سنحرم خالد فرصته. ومن دون أن ننتبه أضحى نزول «دورية تياسير» قيداً كبّل معصميّ الفدائي، فيما قاعدة تعاملنا مع خلايا الداخل يجب أن تقوم على أساس إبقائها خارج الاعتقال لأطول مدى، واستثمار طاقاتها بأكفأ قدر ممكن.

قال لي قاسم مطمئناً حين اعترضت على سياستنا المتبعة تجاه خطط خالد الذي مرّ على استقراره في



الداخل ستة أشهر: «لم يبقَ إلّا القليل ونعطي خالد الضوء الأخضر للعمل». قلت: «علينا مراعاة حساسية وضعه كمطارد». ردّ بعصبية: «إن كان لك موقف مغاير خذ مكاني في قيادة العمل». ذكرني هذا الموقف بما كتبه المارشال غيورغي جوكوف<sup>(62)</sup> (Georgy Zhukov) في مذكراته عن نقاش جرى بينه وبين جوزف ستالين<sup>(63)</sup> (Joseph Stalin): «قال لي ستالين: 'أنا و[بوريس] شابوشنيكوف<sup>(64)</sup> (Boris Shaposhnikov) نرغب في القيام بهجوم مضاد لهجوم العدو'. قلت: 'من الخطأ استخدام احتياطنا الوحيد في هجمات كهذه'. أصرّ ستالين، وأقفل المكالمة. ترك ذلك أثرًا بالغًا في نفسي، ليس لأنّ ستالين لم يعر رأبي اهتمامه، بل لأنّ موسكو باتت مهددة. بعد ربع ساعة دخل عليّ نيكولاي بولغانين<sup>(65)</sup> (Nikolai Bulganin) وكان متأثرًا للغاية. سألته: 'ما الخبر؟'. أجاب: 'قال لي ستالين إنك أنت وجوكوف تعتدّان بنفسيكما أكثر من اللازم، سأعرف كيف أعالجكما معًا'. أمرنا بالهجوم، فباء هجومنا بالإخفاق، عندها اقتنعت القيادة العليا برأينا».

حين قرأت لحسن الخطيب ما كتبه جوكوف قال متألمًا: «التحقت في أثناء الحرب الأهلية في لبنان بالسرية الطلابية، كنت أنقل متطوعين إلى جبل صنين<sup>(66)</sup>. في أحد الأيام التوت ساقي، وما عدت أقوى على المشي. في هذا الوقت العصيب جاءني قاسم بمجموعة متطوعين: 'ستنقل هؤلاء إلى صنين'. قلت: 'لا أستطيع المشي، انظر قدمي'. ردّ بعصبية: 'إن لم تلتزم سأطلق النار على رأسك'. ربما استوحى قاسم موقفه ممّا كان يفعلُه القادة السوفيات في معركة الدفاع عن مدينة ستالينغراد<sup>(67)</sup>، كانوا يطلقون النار على رؤوس من يهربون من المعركة، لكنني لم أهرب! كنت مريضًا. شعرت بأنّ كرامتي جُرحت. فزعت وقد تحيّلت قاسم وقد ظنّ أنني أتمارض. تحاملت على نفسي وقدت الدورية، ربما أسعفتني برودة الطقس، تحدّرت ساقي فما عدت أشعر بالألم».

تسبّب تضارب أولوياتنا في الخارج مع أولويات خالد في الداخل بإرباكه. دفعته قسوة الفراغ والتزامه رأينا لمحاولة تجنيد صديق له. أبلغ الأخير والده بالأمر من دون أن يعرف أنّ أباه عميل للاحتلال؟ أسرع العميل بالخبر لمن يعمل معه في مخابرات العدو. بدا الأمر ككنز بالنسبة لمن أنهكهم البحث عن خالد. أرسلوا عميلهم إلى قرية كفر نعمة<sup>(68)</sup> «بلدة خالد» لتقصّي أخباره. شكّ ذوو خالد بالرجل، لم يتعاونوا معه، لكنّ المخابرات لم تيأس. كان العميل يعرف الشيخ صالح، ويا لفضاعة المصادفات أحيانًا، كان الشيخ حلقة اتصالنا بخالد في عمّان، أرسلت المخابرات عميلها إلى عمّان. ولأنّ الأمر حسّاس ويستدعي التشاور معنا في دمشق، أرسله الشيخ إلينا. حين قابلت الرجل بدا كهديّة ثمينة بالنسبة لفدائي مطارّد في الجبال كخالد. رجل كبير السن، لديه حصان ويمضي معظم وقته في الخلاء كما ادّعى. ربما خائنه الإجابة حين ردّ على سؤاله إن كان له سابق علاقة بالثورة:

- لي ارتباط مع لجنة القدس، ومكتب شؤون الأردن.

- لماذا جئنا إذاً؟

- أريد أن أكون فدائيًا حقيقيًا.

## إجابة مربية!

لم تسمح حساسية الوضع أن أثق بكلامه بسهولة. عليّ أن أتأكد من وضعه. قلت لصديقي المسؤول في مكتب شؤون الأردن التابع لـ«فتح» الذي التقيته بعد ساعات: «جاءنا فلان من قرية كذا، يقول إنّه على صلة بكم، لن أحدثك عن حاجتنا له. إن كان سيئاً سيجلب كارثة، وإن كان جيّداً سيكون له دور مهم في عمل مميّز لن أفصح لك عنه الآن. أريد رأيك فيه بدقّة». تردّد صاحبي قبل أن يقول: «نحن لا نستغني عنه». قلت: «أفهم من كلامك أنّك تثق به. بناءً عليه سأضمه لعملنا».

لا أدري لماذا لم يطمئن قلبي لما قاله صديقي! إحساس داخلي. قلت لصديقي في اتصال تلفوني استفزازي في اليوم التالي: «سنخضع الرجل للتحقيق». ردّ سريعاً: «أشركونا بالتحقيق». غريب! أمس قيل إنّه مهم. الآن يريدون إشراكهم بالتحقيق! ماذا أفعل والرجل لقطة؟ اكتشفت وأنا أقلب أوراق جواز سفره أنّه أخفى عليّ إحدى سفراته إلى سورية! ساورني الشكّ تجاهه! لماذا؟ لا أدري! أخضعناه للتحقيق فاعترف أنّه عميل للاحتلال. ماذا لو وثقت بموقف صديقي؟ ماذا لو خانتني اليقظة فأهملت ملاحظة تبدو هامشية؟

كان قد مضى شهر على تسليّ عائداً إلى سورية، حين جاءني أبو سليم متسلّلاً من الأردن، كان يفيض غضباً من نقاشات اختلف بشأنها مع قاسم: «سأترك اللجنة، ما عدت أقوى على تحمّل أخطائكم، واستخفافكم بآراء رفاقكم، بل ازدراؤها أحياناً». قلت حزيناً: «أحترم رأيك، لكنّك لن تجد من يقدر قيمتك مثلنا». تلقفت القيادة البطل. صرف له أبو جهاد سبعمئة وخمسين ديناراً موازنة شهرية، في حين كانت موازنته عندنا أربعين ديناراً. قياساً على التقدير الذي لقيه أبو سليم لدى القيادة، وهو يستحقه بالطبع، كان يجب ألا تقلّ موازنة لجنّتنا الشهرية عن سبعة آلاف دينار، وليس ثلاثة آلاف كما هو حاصل. لم نحسن إدارة علاقتنا بالقيادة فظلمنا شبابنا. من سوء حظ أبو سليم أنّه أُعتقل في أول مهمة تسلّل فيها عبر الحدود السورية الأردنية، كانت الجهة التي التحق بها مخترقة من جانب المخابرات الأردنية. بدلاً من أن يقرّ المسؤول بمسؤوليته عمّا جرى وجّه إصبع اتهامه لأبو سليم.

## نبأ مروّع

يوم السابع عشر من نيسان/ أبريل عام 1981، استضافني وزوجتي قاسم وعائلته في رحلة إلى نهر الأولي في الجنوب اللبناني. جو ربيعي، وصوت خرير مياه النهر يبعث روحاً جميلة، ونحن نجهّز الشواء ونتبادل أحاديث عن تطلّعاتنا. عدنا مساءً مشحونين بالأحلام. في منطقة الأوزاعي جنوب بيروت، جاء في إذاعة العدو: «قتلت قوات الأمن مخرباً مسلحاً غرب قرية بلعين يدعى.... الديك». لم يكن الاسم واضحاً، لكنّ الرسالة وصلت: «خالد الديك هو المقصود. إنّه المطارّد المسلّح الوحيد في الضفة الغربية». لم يتفوه أحدنا بكلمة. صمت وذهول ونظرات غضب.

تلكأنا في إطلاق يد خالد فسبقنا إليه العدو، إنّه تضارب الأولويات، ومنطق القيادة عن بُعد. ماذا

سنكتب في سيرة البطل؟ أنه قتل عميلاً وأصاب بالرصاص عميلين؟ هذه سيرة لا تليق بخالد. في لحظة الألم تذكرت حوارى مع قاسم على طريق ياجوز. جاء في أوراق خالد التي وصلتنا بعد استشهاده: «وأنا في طريقي من مدينة رام الله إلى بلدة بيرزيت<sup>(69)</sup> قبل مدة، فوجئت بحاجز لقوات الاحتلال. طلب جندي هويتي، فسحبت أمان قبيلتي وصرخت في وجهه من دون أن ألقها. فرّ الجندي عاصراً رأسه بين كفيه وهو يصيح: مخرب مخرب، انبطح زميلاه على الأرض من غير أن يطلق أيّ منهما ولو رصاصة واحدة، كبّلت المفاجأة أياديهما، فأطلقت ساقى للريح».

لم يسمح نبل خالد له باستخدام هوية صديق. ظلّ يتحرّك بلا هوية. حين كنّا نعلّق على ذلك محتجّين كان يردّ: «لو فعلت ذلك لجلبت المعاناة لصاحب الهوية الحقيقي في حال اعتقالي أو استشهادي». الروح الإنسانية الشفافة خلّقت فطري في شخصية الفدائي.

بعد أعوام قالت لي أم جلال وهي تروي حكاية لقائها الشهيد خالد في الأرض المحتلة: «أذهلني ما سمعته منكم يوم كلّتموني النزول للداخل لتقصي أخبار خالد. الرجل الذي كان يجلس على هذا الفراش قبل ثلاث ليالٍ موجود الآن في الأرض المحتلة! يومها كنت في العشرين من عمري، ولم أكن رزقت أطفالاً بعد. حين وصلت إلى قريتي كفر نعمة جاءني شقيقته، طلبتُ إليّ مرافقتها إلى منزلها، هناك فوجئت بخالد!».

في السياق ذاته قالت أم خلدون، زوجة الشهيد خالد، في حديثي معها بعد ثلاثة عقود على استشاده: «شو بدك تكتب يا أبو علاء؟ خليني في غلبي، أرجو ألا يكون الآتي أسوأ». ما قالته السيدة تعبير عن مرارة فلسطينية عامة أكثر ممّا هو همّ شخصي؛ انقسام فتحاوي حمساوي ينخر العظم، القيادة في وادٍ والشعب في وادٍ بعيد، والأفق السياسي مسدود. بطالة مستشرية، لا رواتب منتظمة للموظفين، وفساد متجذر. الاستيطان أفعى تلتف حول القرى، وقطعان المستوطنين يحرقون الأطفال والبيوت والمساجد، ويعيشون تخريباً في كروم زيتون الفلاحين ومزارعهم. امتلاً وجه السيدة بضحك أليم وهي تروي حكاية عمرها مع الشهيد: «كان عمري خمسة عشر عاماً عندما تزوجنا، كان خالد يومها عامل قصارة. بعدما أنجبت طفلي كثر بسبعة عشر يوماً، وهي الثانية بعد خلدون، جاءني قائلاً: اعتقلوا محمد إلياس، أنا ذاهب إلى الخليل لأشتري خشباً. عند منتصف الليل دهم جنود الاحتلال منزلنا باحثين عنه. بعد أيام عرفت أنّه عبر النهر إلى الأردن برفقة الأستاذ كمال. ستة أشهر والتحقت به. أسكنني غرفة في جبل الهاشمي الشمالي<sup>(70)</sup>، كنت أغسل ألبسة طفلي على المغسلة في صينية الشاي. بعد ثلاثة أشهر أُعتقل هو وكمال وهارون معك في الأردن».

أضافت أم خلدون: «في عام 1980، فوجئت بدخوله إلى الأرض المحتلة. قرّرت العودة إلى الداخل، كنت أعرف أنّ في ذلك ثغرة أمنية، ربما أصبح فخاً لو انكشف سرّ تردّده إلى البيت. حاولتم ثني لكنّي كنت مصممة وغلبتني العاطفة. التقيته في منزل في قرية مزارع النوباني<sup>(71)</sup>، ولما استقرت حالي في قريتنا بعد مدة راح يتردّد إلينا سرّاً. كان يأتي بعد انتصاف الليل ويغادر عند الفجر. في إحدى الليالي استيقظ خلدون على صوته وهو يتسلّل بسلاحه خارجاً من المنزل، ولما كان الطفل لا يعرف والده فقد نهض باكياً: 'سأقول

لوالدي أنك تستقبلين جنودًا إسرائيليين'. بماذا أردت؟ ذات مرة استيقظ الطفل وأنا خارجة من البيت بصحن ملوخية وملعقة. سألتني: 'لمن الأكل؟'. قلت: 'للكلب'. نظر إليّ بابتسامة متواطئة: 'وهل يأكل الكلب بملعقة؟'. حين كان يحضر خالد إلى البيت، كان يكتفي باختلاس نظرات سريعة إلى وجوه أطفاله الغارقين في النوم. في مثل هذه الأحوال على المرء أن يتخلّى عن قلبه، لا مجال للعاطفة».

فاضت دموع أم خلدون: «يوم السابع عشر من نيسان/ أبريل عام 1981، كنت على موعد مع خالد في كرم زيتون في منطقة الطيرة من ضواحي رام الله، كان موعدنا عند التاسعة صباحًا. ارتعبت وقد فوجئت برجل يقترب من المكان، انسحبت عائدة إلى القرية، حين وصلت هدّني نبأ استشهاد خالد، لم يكن لي نصيب أن أودعه. بعد استشهادي بمدة وضعت طفلي فداء التي حرصت على إخفاء حملي بها كي لا يتسبب ذلك بكشف سرّ لقائي به». فاض دمع السيدة مجددًا: «الأقسى بالنسبة إليّ وقع بعد ثلاثة عشر عامًا، يوم استشهد ابني إبراهيم في الانتفاضة الأولى، كان في الرابعة عشر، لفظ أنفاسه في حضني ونحن ذاهبون به إلى مستشفى رام الله بعد إصابته بطلق ناري إسرائيلي. اعترض الاحتلال طريقنا فعدنا به شهيدًا. ما زالت رائحة دمه تعبق بأنفي كلما مررت بتلك الذكرى أو عبرت ذلك المكان. قدر فلسطيني قاسٍ، شهيد وابن شهيد، وعلينا الصبر».

قال خلدون الذي شاركني الجلسة مع والدته: «لم يعيش والدي معنا حياة اجتماعية. لا أذكر أنّه اصطحبني يومًا إلى السوق، أو اشترى لي لعبة، أو أنّه حملني على ظهره كما أفعل مع أولادي، ولا توجد صورة تجمعنا كعائلة. شاهدت هيكله العظمي وجمجمته حين أعاد الاحتلال رفاته من مقابر الأرقام قبل أعوام. هذه هي الصورة المتبقية لوالدي في ذهني». أضاف وهو يحدّق في عينيّ والدته: «تقول الوالدة إنّها اصطحبتني يومًا لزيارته في سجن المحطة في عمّان، وإنّني قلت لها يومها: 'لماذا لم يعطني والدي قرشًا؟'. وحين غادرنا سألتها: 'لماذا لا يذهب معنا؟'. ما استقر في ذاكرتي عن والدي، صور جنود الاحتلال يدهمون بيتنا بحثًا عنه. كنّا نستيقظ فزعين ونحن نتعلّق بأطراف ثياب أمّنا المرعوبة».

قال عارف أبو حلو (أبو حسن) وهو يستعيد ذكرياته مع خالد: «جاء خالد إلى منزلنا في قرية حزم<sup>(72)</sup> بحجة شراء فرس. وقتها كنت في المحجر، استقبلته أم حسن وأكرمته. انشرح صدري حين عدت إلى المنزل فتلفظ بكلمة السرّ. تعاضم سروري حين عرفت أنّه مطارد. أراد أن أوفّر له نقطة ارتكاز في المنطقة، وافق ذلك حلماً اختزنه طويلاً في صدري، فكثيرًا ما تمنيت أن نقيم قاعدة فدائيين في منطقة عين فارة شرقي القرية. بقي خالد عندنا لمدة أسبوعين متنكرًا بهيئة راعي أغنام. كان ينام في البيت السفلي (الراوية)، وأحيانًا في الخلاء».

خنقت عارف الدموع: «في آخر لقاء مع خالد اتفقنا على أن نلتقي في كرم زيتون في منطقة الطيرة غرب رام الله. ذهبت بحسب الموعد، فزعت حين انسلّت امرأة من خلف شجرة زيتون في المكان المحدّد للقاء. ما الذي أتى بها؟ من هي؟ اكتشفت لاحقًا أنّها زوجة خالد. كانت الأخرى على موعد معه، لكنّه كان قد

استشهد في ذلك اليوم. لم يكن لكلينا نصيب في رؤيته». استدرك: «قبل شهرين من استشهاده التقيته على عَجَل في بيتنا. كدت أضحك حزناً حين جاءني أحد الجيران بصرّة وسألني: 'أين القَصَاد؟'. قلت: 'أخذ نصيبه ومشى'. ظنّ جارنا أنّ خالد متسول، فأتى له بنصيب من عنده».

قال عطا الله التميمي وهو يروي حكايته مع خالد: «قال لي أبو خلدون في آخر لقاء: 'قد أغيب يومين أو ثلاثة'. ظهر اليوم التالي فجعلنا نبأ استشهاد. أسرّت إحدى نساء القرية المجاورة لقربتنا لصديقتها: 'ألي قتل شقيقي قُتل الليلة بين قريتي دير نظام وبيت إلو<sup>(73)</sup>'. استشهد أبو خلدون وذهب سرّه معه.

قال محمد عطايا الذي أمضى خمسة أعوام في سجون الاحتلال: «يوم استشهد أبو خلدون، فرضت قوات الاحتلال منع التجوّل على قربتنا كفر نعمة. طلبوا من الرجال الذين أعمارهم فوق السادسة عشرة التجمع في ملعب مدرسة الذكور، كنت في الثالثة عشرة، تخيّلت أنّ جثمان الشهيد في إحدى آليات الجيش التي عبرت القرية».

## جبابرة

حين تعرّفت إلى نسيم عبد الجليل (أبو العز) في معسكر الدامور عام 1978 كان شاباً يافعاً؛ شعرٌ أسود كثيف، روح متوثبة، وعينان متفرّستان. أمّا عندما التقيته في عمّان بعد أكثر من عقدين، وقد خرج من سجون الاحتلال في صفقة لتبادل الأسرى، فكان الشيب قد غزا رأسه. ازدان وجهه بابتسامة عريضة وهو يعرض ذكرياته عن «دورية تياسير» التي قادها إلى الداخل عام 1982 برفقة جمال دراغمة ومروان زلوم<sup>(74)</sup>: «بعد عامين من تأخر عبور دوريتنا إلى الداخل، استطلعت وأبو سليم الحدود، وشاركنا علي أبو طوق<sup>(75)</sup> ذلك. أخفقنا في العبور، فعدت إلى قاعدتي في قلعة الشقيف<sup>(76)</sup> في جنوب لبنان. أشهر وعدت إلى الأردن ثانية. استطلعت الحدود برفقة جمال دراغمة ومروان زلوم ثمّ عبرنا النهر، فيما زرع اثنان من رفاقنا ألغاماً على الحدود لإيهام العدو أنّ المهمة تقتصر على زراعة ألغام. أردنا تضليلهم وتوجيه أنظارهم شرقاً. قطعنا شارع الغور الغربي الرئيس وصعدنا التلال، اختفينا في مغارة. بعد مغيب شمس اليوم التالي وصلنا إلى حرج بالقرب من قرية تياسير. كنّا نشاهد الجنود وهم يمشّطون الحرج، اقتربوا كثيراً منّا. فجأة صاح مروان: 'الله أكبر'. وألقى قنبلة. فتحنا النار على الجنود، اختفى صوت مروان وظلّ جمال يئن. جُرحنا ثلاثتنا ووقعنا في الأسر».

أضاف أبو العز عن مأساة وضعه بعد تحرّره من السجن: «بتدخّل من السفير الفلسطيني في عمّان حصلت على رخصة قيادة أردنية، صحيح أنّها لعام واحد، لكنني الآن أجوب البلاد باطمئنان، وأقدم أوراقتي للشرطة بثقة. أكثر ما كنت أخشاه قبل ذلك، أن أعتقل بتهمة التزوير، فعلى مدى عشرة أعوام بقيت أقود السيارة مستخدماً رخصة شقيقي الذي يشبهني شكلاً، كان ذلك بعدما سُحبت جنسيتي الأردنية. كنت أموت خوفاً حين أمرّ بحاجز للشرطة».

أخذني شريط الذكريات، وأنا أستمع لأبو العز، إلى مشوار قادني فيه أحمد دبك من قريته تياسير إلى الأغوار عبر وادي المالح ذي الينابيع الساخنة. كانت هذه طرق فدائيينا، من هنا عبرت دوريات كثيرة. كان الدبك يقصّ وأنا أنصت متخيلاً فظاعة الأهوال التي واجهها المناضلون؛ نهر، عتمة وخوف، رصاص وحقول ألغام. قطعوا عشرات الكيلومترات مشياً، تُثقل ظهورهم أحمال السلاح والعتاد، في أوضاع أمنية وجوية بالغة القسوة والخطورة. إنهم جبابرة.

أبو سليم، خالد الديك، هارون غنيم، محارب إلياس، صالح الديك، أحمد دبك، نافذ دراغمة، حسين الحلبي، بدر، النمروذ، أحمد المغربي، ماهر التميمي (أبو فؤاد)، ويوسف نصّار. هؤلاء نخبة أبطال لجنة 77 في تهريب السلاح والدوريات العسكرية إلى الداخل. الإيمان قوتهم، العتمة رداؤهم، وهم مستنفرون دائماً. إنهم في اشتباك دائم مع المجهول. حياة مخوفة بالموت والاعتقال وقسوة الطبيعة. بلا رُتب ولا رواتب. أعطي بعضهم مراتب تنظيمية غير قابلة للترقية، تتجمد حيث تبدأ.

كانت حُجّة مسؤول التنظيم والإدارة: «هؤلاء ليسوا عسكريين». ما العسكرية إن لم يكن هؤلاء في قلبها؟ إن شكوت الظلم يردّ باستخفاف: «هل تقيسون أنفسكم بأبو الجماجم؟». تخرس لأنك ترفض المقارنة أساساً. أبو الجماجم الذي فاز بالرتب ربما لم يسهر ليلة على الحدود، أمّا عدنان جابر الذي قاد «دورية الدبوا» إلى الأرض المحتلة، وهو برتبة ملازم أول في قوات العاصفة، فبدلاً من مكافأته بترفيه استثنائي جُمِدَت رتبته! الأمر ذاته ينطبق على محمود أبو دنهش الذي قيل إن وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه ديان<sup>(22)</sup> أدّى له التحية في المعركة التي فقد فيها الفدائي بصره. في ذلك الاشتباك قتل أبو دنهش ضابطاً إسرائيلياً برتبة كولونيل وثلاثة جنود.

محارب إلياس الذي فقد ساقه وهو يقود دورية عسكرية، والشيخ صالح الذي فقد ساقه كذلك في دورية ثانية، ظلّا يتقاضيان راتب نقيب متضرر حتى عام 2010، إلى أن تمكّنا بعلاقاتهما الشخصية من الحصول على رتبة عقيد متقاعد، وهما يستحقان ذلك وأكثر. أمّا هارون الأقدم منهما في «فتح»، فلم ينصفه «النظام»، ولم يجد وسيلة تنجيه من الظلم، تقاعد برتبة رائد. هذه مجرد أمثلة بسيطة على ما حاق بالمناضلين من مظالم. سيكتب التاريخ لهارون أنّه بطل، أنّ ابنه علاء حُكِمَ بالمؤبد في انتفاضة الأقصى، وأنّ ولده مصطفى حُكِمَ بخمسة عشر عاماً. لم يُجَلِّ الظلم الذي لحق بالوالد بين الأبناء والمقاومة. ورث الأبناء الثورة لا الشعور بالظلم.

يوسف نصّار الذي يسكن مدينة إربد، يعرفه جيرانه وأصدقاؤه ومن يعمل معهم في ورشات البناء كإنسان بسيط، صادق وحسن العشرة، الكهربجي أبو محمد، أمّا أبو نصّار المقاتل، هذا لا يعرفه إلا من رافقه في التسلّل وعبور النهر؛ هؤلاء وحدهم يعرفون أبو نصّار الفدائي. الجميع يعرف فؤاد السروجي كمهندس زراعي ثري، أمّا عماد «الاسم الحركي له»، الذي استأجر المزارع في الغور بهدف إدخال الدوريات، وأنزل دوريات الدبوا، خالد الديك، والتياسير وغيرها، هذا لا يعرفه غير رفاقه.

هل سيخطر ببال أحد أنّ تأخره عن احتفال زفافه جاء لكونه عائداً بدورية من الغور؟ أنّه نفسه الذي

شغل أكثر من عشرة مناضلين في مشروعاته يوم توقفت رواتب منظمة التحرير الفلسطينية؟ هذا لا يعرفه إلا القلة عن أبو إلياس الذي تبرّع بمخصصه الشهري للطلاب في المعهد يوسف عثمان من قرية صفا، ذاك الشاب الصامت الذي جاء من الأرض المحتلة عام 1975 حاملاً رسالة من ابن خالته يوسف فضل، يومها كان طالباً في المرحلة الثانوية. كذلك الأمر بالنسبة للنمرود، إنه مجرد مزارع بسيط في نظر عموم الناس، أمّا الفدائي «النمرود»، الذي يعبر النهر بالفدائيين، هذا لا يعرفه غير رفاقه المعنيين.

آن أو أن إمطة اللثام عن صنّاع التجربة الحقيقيين. أولئك الأبطال الذين منعنا الحرص الأمني عليهم من تسجيل أسمائهم في السجلات الرسمية. بعضهم سجلناهم بأسماء حركية، ومع ذلك لم يُعترف بها حين أفل نجم الثورة. في هذه المرحلة وجد المناضلون أنفسهم بلا حقوق ودون تاريخ يوثق بطولاتهم. لم يتطّلع هؤلاء يوماً لمكتسبات شخصية، لكنّ تقدّم العمر ومسؤوليات الأبناء تكسر الظهور. ما زاد ألامهم أنّ حلم التحرير لم يتحقق، وأنّ غيرهم فازوا «بالغنائم».

## صرامة القرار

شهران بعد تسلّلي من الأردن عائداً إلى سورية عاد قاسم إلى هناك متسلّلاً كذلك. قلت له ولحمدي مغتاطاً من سلسلة أخطاء وقعت في مكتب لجنتنا في دمشق: «لا أريد أن أكون ضمن الإطار القيادي للجنة في دمشق، أريد تكليفي بالمسؤولية عن خلايا محددة». ردّ قاسم بصرامة: «يجب أن تكون أنت مسؤول المكتب. لن نضحي بالعمل لسواد عيون فلان وعلتان. غداً نعتقد اجتماعاً ونتخذ قراراً بذلك».

في اليوم التالي افتتح قاسم الاجتماع: «كلكم تدركون أهمية ما تطوّر إليه وضعنا بعد دخولي والأخ منصور إلى الأردن. لقد حدثت نقلة نوعية في عملنا، هذه تستلزم إعادة هيكلة وضعنا في الخارج بما يتلاءم ومستجدات العمل بناء عليه قرّرنا أن يكون الأخ منصور مسؤولاً عن مكتب اللجنة في دمشق».

في موقعي الجديد توافرت لي مرونة اختيار من أردت العمل معهم. لكنّ تجاوز الحساسيات تحدّ كبير. في وقت قياسي اشترينا سيارة للمكتب، انفتحنا على مكتب التعبئة والتنظيم، وحصلنا على تموين للعاملين، وعلى ماكنتي طباعة، وتبرّع لنا إخوة في دولة الإمارات العربية بسيارة «لاندروفر» حصلنا لها على رقم عسكري، رقم 85. أصبح بمقدورنا التنقل عبر الطريق العسكري من وإلى لبنان. لماذا لم ينجح من سبقوني في تحقيق مثل هذه الإنجازات؟ ربما شغلهم صراعاتهم الداخلية فعميت عيونهم.

بعد مدة أثار بعض العاملين معي في المكتب لغطاً: «منصور يُجرئ صغار الكوادر علينا نحن القادة، ويحابي محمد نعمان». قلت في أحد الاجتماعات: «نحن نقود غيرنا بسلوكنا، لا نستطيع فرض أنفسنا على الآخرين بعيداً من ثقتهم بنا». حشّرتني أحدهم قائلاً: «وضّح ما تريده». قلت مستفزاً: «أنت تأتي إلى المكتب بعد العاشرة صباحاً، تتناول فطورك، تدخن، وتجري اتصالاتك التلفونية الشخصية ثم تغادر، هل تريد مكافأة على ذلك؟». عرّجت على اللغط الدائر بخصوص موقفني من محمد نعمان: «أبو نعمان مريض، لكنّه

وحمودة كفارنة أكثر الملتزمين بالعمل. ألا يستحق الرجل أن توصله سيارة المكتب إلى بيته؟ هذا بعض ردّ للجميل».

كان عبد السلام عبد الله، طالب الهندسة في جامعة دمشق، يعاني وضعًا ماليًا قاسيًا للغاية، وضع اضطره إلى النوم أحيانًا في مداخل العمارات. كانت تقارير تنظيمنا في الجامعة سلبية بحقه، خلافًا لتقارير كتيبة الجرمق التي أشادت بانضباطه وشجاعته في أثناء وجوده في قواعدها بجنوب لبنان خلال العطل، كان تقويم الكتيبة أكثر صدقية.

نظرًا للوضع المالي الصعب لعبد السلام قرّرت صرف ثلاثمئة ليرة سورية شهريًا له، مقابل أن يصبح رسولًا بيننا وبين إخوتنا في بيروت. في أحد الأيام أرسل حمدي موازنتنا الشهرية مع عبد السلام، لعب الفأر بعبي عندما لم يحضرها في الوقت المحدد. أرسلت إليه أبو خالد كتمتو فجاء بالنقود ناقصة أربعمئة ليرة سورية وبورقة كتب عليها: «لا أريد العمل معكم لأنني سأ...». وقف شعر رأسي وقد تحيلته تردّد في إكمال كلمة «سأنتحر». لا أدري ما الذي هجس لي بذلك الموقف السوداوي فأعدت كتمتو ليحضره.

\*\*\*

بدا مأساويًا ما قاله الأسير المحرّر شحادة شملوني وقد عاد ذات يوم من «سوق الهال»<sup>(78)</sup> في دمشق إلى المكتب: «الفدائي أبو النصر يبيع بقدونس ونعنع في سوق الهال! حين لمحني انزوى عن عيني، فاستدردت سريعًا وتواريت، خشيت أن تقع عيناى على عينيه فأجرحه. العمل ليس عيبًا، العيب أن تقصّر الثورة مع فدائي عاد من جنوب لبنان ليمضي إجازته مع زوجته وأطفاله. كيف لمناضل أن يواجه العدو وكرامته مجروحة؟ نحن نقاتل بروحنا المعنوية».

ذات ظهيرة ترجّلت وقاسم من السيارة أمام مكتبنا في دمشق، ففوجئنا بشاحنة تباع اسطوانات غاز! لم يكن ذلك مألوفًا في حينه، في تلك الأيام كنّا نبتاع الغاز من المحطة الواقعة في منطقة القابون<sup>(79)</sup>. صعدت الدرج مسرعًا لإحضار أسطوانة فارغة، وحجز قاسم دورًا لشراء اسطوانة جديدة. في المكتب فوجئت بمحمد جرادات وشقيقه تيسير<sup>(80)</sup> آتين من الأردن، فشغلت بالترحيب بهما، وهبط شاب بالاسطوانة الفارغة. دقائق ووصل قاسم حاملاً الاسطوانة الممتلئة على كتفه. همس تيسير في أذن شقيقه وقد ملح من طرف الباب شخصًا يفرك يديه: «يبدو أنّ الأخ منصور لم يعطِ العامل ثمن الاسطوانة، ها هو ينتظر». مال أبو الرائد برأسه نحو زاوية الباب وابتسم لشقيقه: «هذا أبو حسن قاسم». ما الصورة التي ارتسمت للقائد في ذهن تيسير قبل هذه الحادثة؟ ربما ظلّه بشوارب غليظة. بجسم ضخم ومحاطًا بحراس. القادة الحقيقيون أناس مثلنا، القائد قدوة.

في أثناء تحفّينا أنا وقاسم في الأردن، همس لي ونحن نمّر بعجوز يجلس خلف بسطة على الرصيف في عمّان: «أخشى أن يكون مصيرنا هكذا يا منصور». كان قاسم بعيد النظر. بعد عامين أُخرجت الثورة من لبنان، وأضحى مصير الفدائيين في مهب الريح.



المؤسف أننا لم نترك بصمة مكتوبة عن تجاربنا، كأن التوثيق يتناقض مع الفدائي! بهذا حُرمت الأجيال من ثروة وطنية. ماذا سيقولون بعدنا؟ من أين يبدأون؟ كيف يجلّون نتائج ما توصلنا إليه؟ قال لي سليمان يوسف من كتبية الجرمق ونحن نتحدّث عن هذه الخطيئة: «في دورة عسكرية في الصين، طلب منّا المدرب أن نتحدّث عن تجاربنا، حين فعلنا ذلك سألنا: 'أهذا مكتوب يا رفاق؟'. ذُهل وقد أجبناه بالنفي». علّق الأسير المحرّر محمد البيروتي: «في الأعوام الأولى للحركة الأسيرة، مارس علينا بعض قادة التنظيم في السجون حَجْرًا على القراءة عدا الكتب التقليدية، من يخالفهم يعرّض نفسه للجلد! نجونا بأعجوبة!».

## ورطة

عقدت قراني على زوجتي بوثيقة مزوّرة. وحين أنجبت طفلنا البكر علاء وجدنا أنفسنا في ورطة. كيف نستخرج له جواز سفر ووالدته مسجّلة عزباء في جواز سفرها؟ وأنا والده، جواز سفري محجوز لدى المخابرات الأردنية، وليس لديّ وثيقة أخرى. مع كل يوم جديد كانت مشكلتنا تزداد تفاقمًا.

حين بلغ الطفل ستة أشهر هربناه بالقطار من دمشق إلى عمّان. مغامرة لم نتحسّب لعواقبها. هربنا من مشكلة فتورطنا بأخرى عويصة. كنّا نراهن على مساعدة صديق موظف في دائرة الجوازات. دُعرت زوجتي حين قال لها صديقنا: «لا أستطيع أن أقدم لك شيئًا. ثمّ لا تقولي إنك هربتِ ابنك، هذه ستجلب لك تهمة، قولي إنك تركتيه عند صديقة لك في سورية».

يا لعظمة تدخل الأقدار أحيانًا! بعد أسبوعين من تردّد زوجتي إلى دائرة الجوازات، كانت تجلس ذات صباح في مكتب صديقنا حين دخل إلى المكتب رجل وتساءل: «منذ مدة وأنا أشاهد هذه الأخت تجلس هنا! ما مشكلتها؟». شرح له الموظف الأمر، فسأل الرجل زوجتي: «من أي عائلة أنت؟». ردّت: «من عائلة القيسي». قال: «هل تعرفين فلان وفلان؟». أجابت: «هؤلاء أبناء عمي». قال: «تذهبين معي إلى دائرة المخابرات، هناك ستحلّ مشكلتك». تردّدت زوجتي الصبية في أن تذهب برفقة رجل لا تعرفه. طمأنها صديقنا: «الرجل محترم، ضابط في المخابرات، اذهبي معه». قالت زوجتي وهي تحدّثني عمّا جرى معها في المخابرات: «أحضروا لي ملفك. سألوني عن أصدقائك. أجبّت أن لا علاقة لي بالسياسة». أضافت: «أعطوني كتابًا لتغيير صفتي من عزباء إلى متزوجة، وآخر لاستصدار جواز سفر لابني».

أي قدر جبار هذا! كيف حلّت المشكلة بهذه البساطة؟! يومها كان السيد مصطفى القيسي مديرًا للمخابرات الأردنية. هل كان اسم عائلة زوجتي سببًا في حلّ مشكلتنا، أم أنّه تدخل جريء لضابط شهيم من الذين حققوا معي حين كنت معتقلًا قبل عامين، أم أنّه التعاطف الذي صنّعه ملحمة صمود الثورة في بيروت عام 1982؟ الله أعلم. هناك أقدار، وفي الحياة أناس طيّبون دومًا.

تمكّنت زوجتي من تغيير صفتها من عزباء إلى متزوجة، لكنّ استصدار جواز سفر لطفلي يتطلب وكالة منّي. ما العمل وأنا لا أملك غير صورة مصدّقة عن شهادة ميلاد احتفظت بها في جيبي حين تسللت من

الأردن إلى سورية قبل عامين؟ يومها أردتها وثيقة للتعريف بجثتي في حال قتلت على الحدود.

قصدت السفارة الأردنية في حيّ «أبو رمانة» في دمشق: «أريد توكيل زوجتي باستخراج جواز سفر لطفلي». أجبني الموظف: «أعطني جواز سفرك». ناولته صورة شهادة ميلادي فتطلع إليّ: «هذه لا تنفع». صعدت بالمعاملة إلى القنصل الذي أظنّ أنّ اسمه محمد العضايلة. قال الرجل المحترم حين شرحت له مشكلتي: «لو أنّ هناك صورة على شهادة الميلاد لتعاطفت معك». قلت وأنا أخرج «بطاقة فتح» من جيبِي: «هذه هويتي في حركة فتح، عليها صورتي». صمّت الرجل ملياً. أطلّ النظر متنقلاً بين الهوية وشهادة الميلاد. تنفّس عميقاً ثمّ قال وهو ينظر في عينيّ: «سأجيزها مهما كلّفني ذلك». قال ذلك ووضع توقيعه على المعاملة.

أنقذتْ شهادته مصير أسرتي. على الرغم من سطوة المهن، تطلّ نوعية الأشخاص حاضرة، وللأوضاع دورها، فقد تسبب صمود الثورة في صيف بيروت اللاهب عام 1982 بتعاطف شديد مع المناضلين. بعد أسبوعين كانت زوجتي وطفلي في دمشق. لا يعلم غير الله ما الذي كان سيؤول إليه مصير أسرتي لو لم تأتِ النتيجة على هذا النحو. أسرّ كثيرة ضاعت في ظلام الغربة ووحشتها بسبب افتقار رب الأسرة الفدائي للوثائق الشخصية. صبايا كُثر حُرمن الزواج بسبب افتقارهن لوثائق عقد القران. مآسٍ مجتمعية وإنسانية.

## العمل تحت وطأة الشعور بالإخفاق

لم يكن جورج ثيودوري الطالب بالجامعة الأميركية في بيروت مجرد مناضل، كان مشروع ثورة. حين عاد إلى الداخل بعد تحرّجه في الجامعة، ظلّ حمدي يحمل هاجس توفير ما يستطيع من الإمكانيات له. بدا حمدي كمن عثر على كنز حين جنّد الحاج عبد الله من المناطق المحتلة عام 1948 في أثناء رحلة للحج. فور عودة الحاج إلى الوطن ربطه حمدي بخلية جورج.

في أول لقاء جمعنا بجورج في دمشق بعد عودته من الداخل، ضحكنا كثيراً وهو يحدّثنا عن الحاج عبد الله: «يعرفني الحاج باسمي الحركي سمير، لم يخطر ببالي أنّي مسيحي. كان يقول حين يأتي وقت الصلاة: 'لنصلّ يا أخ سمير'. كنت أقف خلفه وأتمتم مقلداً حركاته، حريصاً على عدم كشف ديانتني كي لا تصبح ثغرة أمنية، ففي حال أُعتقل واعترف أنّي مسيحي سيسهل على العدو حصر الدائرة من حولي».

كان ميناء حيفا أول أهداف خلية جورج. جهّز المهندس الكهربائي ورفيقه الحاج عبد الله عبوة كبيرة، ووضعها في الميناء، لكنّ حارساً أمنياً إسرائيلياً كشفها في اللحظة الأخيرة، ففجّرتها قوات الاحتلال وهي تحت السيطرة. أسابيع وجاءنا جورج إلى دمشق مقهوراً. في الاجتماع الذي ضمّني وقاسم وحمدي إليه، توصّلنا إلى استنتاج مفاده أنّ طول أمد توقيت العبوة تسبّب بانكشافها.

يوم السادس والعشرين من حزيران/ يونيو عام 1979، كان موعدنا مع العملية التالية. كنّا في غاية الانفعال ونحن نتنقل بين المحطات الإذاعية. صدمنا ما جاء في إذاعة العدو: «قُتل مخربان بانفجار سيارة

بالقرب من محطة الباصات المركزية في تل أبيب. أسفر الانفجار عن جرحى وأضرار مادية جسيمة، لكنّ المحطة نجت من كارثة، تسبب توقّف حافلة فجأة بانفجار سيارة المخرين التي كانت تسير خلفها».

علّق حمدي: «كان علينا ألا ندع جورج يعود إلى الداخل تحت ضغط الشعور بالإخفاق، أظنّ أنّه أراد توقيت العبوة مباشرة قبل وضعها في المكان، وهو في السيارة، محاولاً تجنب الخلل الذي وقع في العملية السابقة، ربما تسببت حركة السيارة بانزياح عقرب ساعة التوقيت فلامس سلك البطارية وانفجرت العبوة».

بعد مدة، جاءنا في رسالة مؤثرة من صبيّة تابعة لخلية جورج: «بعد يومين من لقائي جورج في متنزه بلدية رام الله، صُدمت وأنا ألقّب النظر في الصحيفة بين صورة أعرفها واسم أجهله! الصورة صورة سمير، والشهيد جورج! مأساة أخرى أنّ استشهاد البطل تصادف مع زفاف شقيقتي، كنت أبتسم للمحتفلين، ثمّ أدخل إلى الحَمَام وأبكي. أمسح دموعي، وأعود ثانية. خشيت أن يُظنّ أنّ اضطرابي ناجم عن زفاف شقيقتي الصغرى وأنا ما زلت عزباء».

## وتستمر رحلة الثورة

«يا أهالي كوبر، ارفعوا الرايات البيضاء». هذا ما زعقت به سماعة منصوبة على دبابة إسرائيلية بعد أيام من عدوان حزيران/ يونيو عام 1967. يومها كان الفتى عمر البرغوثي في الرابعة عشرة، أمّا شقيقه الأصغر نائل فكان أكمل العاشرة. صعد الصبيان بكومة حجارة إلى سطح منزلها متحدّين المحتل. لم تحصل مواجهة، لكنّهما تذوّقا حلاوة النصر.

بعد أشهر راح عمر يفتش عن فدائيين قتل إثمهم يتمركزون في كهوف القرية. لم يصادف أحداً منهم، فأخذ يجنّد فتياً للمقاومة، جنّد فخري البرغوثي، غازي أبو فنة، وفهد أبو الحاج. في إحدى الليالي توجه عمر وفخري إلى كهف قتل إنّ قاعدة لفدائيين، أحسّ الفدائيون بهما فتبخروا، ظنّوهما عملاء للعدو. ترك عمر رسالة في المغارة: «نحن إخوانكم، نريد أن نلتحق بالثورة». ارتاب الفدائيون فغادروا المنطقة.

عام 1973 التحق عمر بجامعة بيروت العربية، هناك عرّفته ابنة خاله أسماء/ أم خلدون إلى الحاج حسن قائد قطاع الجولان في حركة «فتح»، وفي قاعدة عسكرية قرب مدينة درعا تعرّف إلى عدنان جابر الذي أوصله بحمدي.

يروى عمر: «أمضيت وفخري ستة أشهر في قواعد الكتبية الطلابية بجنوب لبنان، شاركنا في معارك ضدّ قوات سعد حداد، وفي أوقات الهدوء كنّا نشارك الفلاحين حصادهم وقطف زيتونهم. عدنا إلى الداخل، رصدنا باصاً إسرائيلياً يوصل العمال إلى قرية كفر عين شمال رام الله، قيل إنّ سائقه ضابط احتياط مظليّ، إنّهُ يتسلّح برشاش عوزي. جهّزت ثلاثة سكاكين، وقبل فجر الخامس عشر من كانون الثاني/ يناير عام 1978، كنّا في موقع العملية على الشارع الموصل بين قريتي النبي صالح<sup>(81)</sup> وكفر عين. في اللحظة الأخيرة قررنا تأجيل العملية؛ لأنّ تنفيذها في هذا الوقت يمنح العدو نهراً كاملاً لملاحقتنا».

أضاف عمر: «كي نجعل الليل في مصلحتنا، اتفقنا على التنفيذ عند مغيب الشمس. هددني شقيقي نائل: 'إن لم تُشركني بالعملية سألتحق بالجبهة الشعبية<sup>(82)</sup>'. تخلّيت عن دوري لفخري في قيادة العملية، وشاركه فيها نائل وأحمد القندس. سمعنا صوت إطلاق نار. ظننا أنّ الشبان أخفقوا في السيطرة على السائق، أنّهم استشهدوا! لم يهدأ روعي حتى ظهر فخري عند طرف قريتنا وهو يتقدّم الشبان وما زال يقبض على الشبرية (الخنجر). كادت رؤوسنا تطاول السماء ونحن نستمتع لصوت الثورة معلناً نبأ العملية. احتفلنا بغداء من عشرين (شّارة)<sup>(83)</sup> اصطدتها قبل يومين. بعد مدة كُشفت خليّتنا واعتقلنا، حُكمت أنا وفخري ونائل بالمؤبد، وحُكم فهد خمسة عشر عاماً، وعزّت بدوان سبعة أعوام. وحُكم كل من مروان البرغوثي، ورائد البرغوثي، وعبد الكريم البرغوثي الذين كانوا يتحركون على تخوم الثورة لخمسة أعوام. أمّا أحمد القندس فنجا من حكم المؤبد لأنّه كان في الأردن. في السجن التحق مروان ورائد بفتح، واختار عبد الكريم الجبهة الديمقراطية».

بعد ثلاثة أعوام، أقيم في بيروت عزاء للشهيد نجم شقيق عزّت، هناك التقى عزّت حمدي. بعد عودته إلى الداخل أرسل إليه حمدي رسولاً إلى عيادة عضو تنظيمنا طبيب الأسنان هاني الحصري في رام الله. في «النقطة الميتة» التي حملتها الرسالة وجد عزّت متفجرات وصواعق، جهّز عبوة لكنّ المخابرات دهمت منزله وعثرت عليها. حُكم لأربعة أعوام، وأُعتقل معه الدكتور الحصري.

بعد أربعة وثلاثين عاماً في سجون الاحتلال تحرّر نائل البرغوثي ورفيقه فخري البرغوثي في صفقة وفاء الأحرار التي اشتهرت باسم «صفقة شاليط»<sup>(84)</sup>. انتفض فخري، ردّ بعصبية حين سألته عن مشاعره في أول لقاء جمعه بنجليه شادي وهادي في السجن: «أرجوك لا تسأل». أدركت في تلك اللحظة أنّي لامست عصباً حساساً، فما يزيد على ثلاثة عقود من الاعتقال لشخص تحرّر للتو تاركاً خلفه فلذة كبده، لا تحتمل مثل هذه الأسئلة. كنت أريد جواباً يعكس مشاعر طازجة، أمّا هو فما تزال روحه سجيّة.

بعد عامين من تحرّره أجاب فخري حين كرّرت عليه السؤال: «لم يكن مضى على زواجي من أم شادي إلّا عامين حين أُعتقلت. كان عمر شادي عشرة أشهر، أمّا هادي فكان جنيناً في بطنها. بعد سبعة وعشرين عاماً التقيت ولديّ في سجن عسقلان! قدر قاسٍ ذكرني بيوم اعتقالي، يومها تركت والدتهما تكابد مصيرها. صحيح أنّ الناس طيبون، وهناك ثورة وفدائيون، لكنّ الحمل أثقل من أن تحتمله شابة في مقتبل عمرها».

تأوه وأضاف: «لا تزال بعض مشاعر ألم اجتماعي إلى ولديّ في السجن تتلبسني على الرغم من مرور عامين على تحرّري. هناك أمور يصعب التخلّص من آثارها. يومها كان عليّ أن أبدو قوياً ومتماسكاً، ودعمني رفاقي الذين كنت أقرأ في عيونهم ألماً قاسياً. الأشد قسوة واجهته حين التقيت زوجتي على شبك الزيارة أول مرة بعد اعتقال ابنها. كدت ألاّ أحتمل النظر في عينيها. كانت تقاسي بصمت وأنا أتألم».

ذات يوم التقيت فخري على دوار المنارة في رام الله. كان ذلك بعد ثلاثة أعوام من تحرّره من السجن، كان عائداً بحفيدته مجدل ذات السبعة أعوام من المدرسة. قال وهو يعرفني إلى الطفلة: «الأمورة مجدل ابنة هادي». قاطعت الحفيدة جدّها: «أبوي انسجن ثلاث سنين ونص، سيدي فخري انسجن أربعة وثلاثين

سنة، وعمي شادي في السجن. كلهم التقوا في سجن عسقلان، عشان هيك سماني أبوي مجدل، على اسم عسقلان». قالت الطفلة ذلك بلهجة صارمة وتقاطيع عبوسة، كأثما شاركت ذويها سجنهم. كثيرًا ما يغطي رماد الصمت جمر يحرق الأرواح.

قال لي هادي وأنا أسرد له تلك الحكاية: «الله يعين أبوي، كانت مشاعر صادمة يصعب وصفها لحظة التقيته وشقيقي شادي في سجن عسقلان. قال لنا يومها: 'لم أكن لأعرفكما لو وصلتما إلى السجن ضمن معتقلين آخرين'. كنا نحلم باستقبال والدنا متحرراً من السجن، أما أن تجمعنا معه قيود السجان وعمة الزنازين، هذا ما لم يخطر بالبال أبداً! ربّما الأشد قسوة ما عانته الوالدة، ظلّت المسكينة تكابد مرارة ألمها وحيدة. أمّا يوم تحرّرت من السجن مخلّفاً والدي وشقيقي وراء القضبان فشيء أجاهد نفسي لنسيانه. الأمر ذاته يوم تحرّرت والدي بعد أعوام، فرحة لم تكتمل وقد ظلّ شادي في السجن».

قال محمود علوي<sup>(85)</sup> وهو يروي تجربته: «صعدت إلى باص رقم 18 المتجه إلى مستعمرة كريات يوفال<sup>(86)</sup> حاملاً العبوة المتفجرة. تركتها أسفل المقعد الذي كنت أجلس عليه ونزلت. في اليوم التالي كنت أستعدّ للذهاب من قريتي دير جرير<sup>(87)</sup> إلى رام الله، سمعت راكب سيارة يسأل عن منزلنا، ظننته آتياً من طرف شقيقي في الخليج. سألتني: 'أنت محمود علوي؟'. أجبت بحماسة: 'نعم'. كدت أسقط على الأرض حين قال: 'أنا كابتن جدعون'. اقتادني ضابط المخابرات الإسرائيلي جدعون للتحقيق في رام الله، هناك عرفني زميل له إلى نفسه: 'أنا كابتن سامي مدير مخابرات الخليل. ماذا تعرف عن الخلايلة؟'. ودون أن ينتظر إجابتي أضاف: 'رؤوسهم قاسية، أليس كذلك؟ أنا حضرت خصيصاً لكسر رأسك، هناك رؤوس يحتاج كسرها لساعة، وأخرى ليوم، وغيرها لشهر، لشهرين، لكنني لا أعجز عن كسر أي رأس. نحن نعرف كل شيء، صلاح حكى، ربح نفسك'. قال ذلك وتركني مع صلاح. ذهلت حين استدعاني الضابط في المساء وأسمعني شريطاً مسجلاً لما دار بيني وبين صلاح».

حسن السلمة الذي كان رئيساً لنادي بيتونيا حين التحق بحركة «فتح» عام 1981، اقتاده هارون غنيم متسللاً من الأردن إلى سورية للتدريب. بعد عودته إلى الوطن جهّز ثلاث عبوات ناسفة، فجّر اثنتين منها وكشف العدو الثالثة. اعتُقل وحُكم بالمؤبد. تحرّرت من السجن بعد تسعة وعشرين عاماً. وأحمد شعبان الذي تخرّج مهندساً كهربائياً في الجامعة الأميركية في بيروت، جندّ خلية ضمّت الشقيقين حسن ومحمود شعبان. انفجرت عبوة بدائية الصنع بين يديه فاعتقل وحُكم لسبعة أعوام، أمّا حسن فحُكم لخمسة أعوام، وأمضى محمود أسبوعين معتقلاً. بعد خروج محمود من السجن سافر إلى الأردن، ومن هناك قاده هارون متسللاً ليتدرب في دمشق.

## رحلوا بأحلامهم

بدا صفير السفن المختلط بعتمة الليل وصراخ النوارس، لحناً جنازياً ونحن نستقبل رفاقنا الخارجين من

«حصار بيروت» في ميناء طرطوس. يكاد يقف شعر رأسي كلما مرّ بخيالي ذلك المشهد الرهيب. ضجيج الميناء وصمت الأفواه لوحه بكاء مرير. نحن فرحون بسلامة رفاقنا، لكنّ الثورة هُزمت.

قال أبو جهاد لكبير مرافقيه ماهر الزغبيّ حين التقيناه في منزله في دمشق بعد يومين:

- جهزوا السيارات يا ماهر.

- إلى أين يا أخ؟

- إلى البقاع.

لم يفقد أبو جهاد البوصلة.

ما زال دويّ المدافع يصمّ آذان المقاتلين المنسحبين إلى البقاع تاركين خلفهم ذكرياتهم، أحبّتهم وصحبة شهدائهم. كان عليّ أبو طوق صورة لنحلة رسمها خيال روائي مبدع، ماكينة لا تكلّ عن العمل، أب حانٍ وأخ كبير. بدا وضع الفدائيين النفسي قاسياً وقد استشهد رفاق لهم، لكنّ القتال الاستشهادي في قلعة الشقيف كان مبعث فخر. هناك قاتل الشهيد راسم (يعقوب سمور) وعلي اليمني ورفاقهما حتى استشهدوا.

بدت صدمة سقوط الجنوب اللبناني أسى في وجوه الفدائيين، غيظاً وغضباً على «القادة» الذين فرّوا من المعركة تاركين قوّاتهم خلفهم. ربما يسجّل التاريخ أنّ تحاذل هؤلاء «القادة» كان سبباً أساسياً لتجرؤ أريئيل شارون<sup>(88)</sup> على مواصلة عدوانه حتى حصار بيروت، وأنّهم تسببوا بخروج الثورة من لبنان، وكانوا سبباً رئيساً لمأساة انشقاق حركة «فتح» بعد ذلك.

تموضع الشبّان في بلدات تعلبايا، جديتا، تعنيل، سعدنايل<sup>(89)</sup>، والقرى المجاورة، وكان لأبناء تنظيم «فتح» من المناضلين اللبنانيين دور أساس في تأمين احتياجاتهم، هذا ما فعله رضوان الشحيمي من سعدنايل، وربيّع ومحمد ملاعب من بيصور وآخرون كُثُر. في ذلك الصيف الحار نضجت ثمار بساتين سهل البقاع من التفاح، المشمش، الإجاص، و ليس هناك من سوق، أمّا في مزارع الدواجن فالفرخة بليرة لبنانية! مأساة للمزارعين.

ذات ليلة شوّشت أفكارنا أنوار أرتال آليات تهبط شرقاً باتجاه مدينة شتورا<sup>(90)</sup>. ما الذي يجري؟ هل هي آليات إسرائيلية أم سورية؟ في الصباح عرفنا أنّها دبابات سورية منسحبة. اتخذ أبو الفتح - مسؤول العمليات في كتيبة الجرمق - قراراً بسحب قوّاته شمالاً! مشهد أليم ورتل سياراتنا يشق طريقه نحو مدينة بعلبك. نساء ورجال يودعوننا بعيون دامعة من دون أن يبادلونا الكلام، أمّا المقاتلون العابسون فلا يستطيعون التطلّع في الوجوه. تناولت امرأة من خلف سور ومسحت دمعها، وتطلّع شاب بأسى. ماذا لو كنّا منتصرين؟ سيطلق الرصاص وتلعلع الزغاريد.

أيام وعدنا إلى مواقعنا. بدا المشهد مأساوياً ونحن نتجه بالسيارة إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من البقاع في اليوم التالي، على امتداد كيلومترات من بلدة برالياس حتى يبادر العدس، دبابات ومدافع وآليات سورية متفحمة.

التقط مقاتلو كتيبة الجرمق أنفاسهم، وبدأوا ورشة تدريب ضخمة. في هذا المعمعان استشهد نادر شقيق الشيخ صالح الديك. أيام وخيم جو مأساوي حين خسرت الكتيبة متطوعاً تونسياً، أصابت رصاصة أطلقها رفيق له إحدى عينيه ففقد بصره. في بلده تونس أقام الفدائي الضريح عبد العزيز بن محمد بن الشيخ جمعية لنصرة فلسطين.

خرج مقاتلو الثورة من بيروت فتيماً الفلسطيني والوطني اللبناني، لكنّ جذور الثورة عميقة في الوجدان. استأنفت المقاومة الوطنية اللبنانية عملياتها العسكرية، وُولد «حزب الله».

## بعض تلك الأيام

جاءني المناضل المغربي أبو بكر العضو في حركة «فتح» إلى دمشق، بصحبة صديقه الأجنبي ثوماس آتين من أوروبا. أفهم صديقه أنني مدرّس ساستضيفهما في رحلتها السياحية، لكنّ الأمر لم يكن كذلك، الحقيقة أنّ اللجنة العلمية التابعة لحركة «فتح» ستحشو سيارتهما بالسلّاح لشحنها إلى فلسطين.

عند منتصف الليل تسلّل خبراء اللجنة العلمية، قادوا السيارة المتوقفة أسفل شقتي في ساحة العباسيين إلى معاملهم وشحنوها بالسلّاح، وعند الفجر أعادوها إلى حيث كانت. بعد يومين غادر الشابان سورية عبر ميناء طرطوس. لم يصلني خبر منهما بحسب الاتفاق، فقرّرت الاستفسار من الشركة الشاحنة. تصادف أن كان معي مناضلان آتيان من مدينة كفر قاسم<sup>(91)</sup> في الأراضي المحتلة عام 1948، فاغتنمتها فرصة ليشاركاني الرحلة إلى طرطوس.

عند الساعة صباحاً انطلقت بالسيارة من دمشق ومعني الشابين. أربع ساعات وكنا في مكتب «شركة الجزائري» للنقل والترانزيت في طرطوس.

قلت للموظف الذي استقبلنا: «أودّ الاستفسار عن سيارة شحنّاها إلى اليونان عبر مكتبكم قبل أسبوع». بدا كأنّ سؤالني نبّه الرجل لأمر فردّ مرتبكاً: «آه! آه! انتظروا». تفوّه بذلك واختفى بسرعة داخل المكتب، فتخيّلت أنّه سيتصل بالأمن. لماذا؟ لا أدري. قال بثقة وقد عاد بعد دقيقتين: «كل شيء تمام». نزلنا الدرج ففوجئنا برجال أمن اقتادونا إلى فرع التحقيق العسكري في المدينة.

سألت الملازم الذي استقبلنا في الفرع:

– أين المسؤول؟

– لماذا؟

– الشابان معي من الأرض المحتلة عام 1948، ربما يُعتقلان هناك بعد شهرين، عامين. أرجو أن تظّل صورة سورية ناصعة في ذهنيهما، لا تسألوهما شيئاً.

احمرّ وجه الضابط الشاب خجلاً وقال:

- العقيد يأتي في المساء.

أضاف في لفظة لا يمكن توقعها في مقرّ أمني:

- ماذا تأكلون؟

- نحن نأكل في مكاتبنا معلّبات، سردين وحمص.

- أنتم ضيوفنا.

شيء لا يصدّق وقد عاد جندي بطبق دجاج بروتد من المطعم.

في المساء طلبني العقيد محمود سليمان مسؤول الفرع. شاب أربعيني لطيف، أسمر وطويل القامة. بدا الرجل فخوراً وأنا أحدثه عن عملنا في الأرض المحتلة. قال حين تعرّضنا للعلاقات السورية الفتحاوية المتوترة: «سيصل أبو عمّار الليلة إلى دمشق، هذا ما حملته الأخبار، آمل أن تسفر الزيارة عن طيّ صفحة المرارة بين قيادتنا وقيادة فتح. أنا حزبي بعثي، عندما انطلقت الثورة الفلسطينية، كان الحزب يرسلنا في دورات للتعايش في قواعد الفدائيين في الأغوار. في إحدى المرات أمضيت ثلاثة أشهر في قاعدة للصاعقة».

مساء اليوم التالي نُقلنا إلى فرع التحقيق العسكري في دمشق. الفرع ذاته الذي أُعتقلت فيه بصحبة أبو سليم قبل خمسة أعوام. كما فعلت في طرطوس، طلبت عدم التحقيق مع رفيقي.

قلت للضابط في نهاية جلسة التحقيق:

- هل لي أن أكتب رسالة لمسؤول الفرع؟

- نعم.

أعطاني ورقة وقلماً فكتبت بعد التحية: «إن دخلتم إلى قضيتنا من بوابة الإخلال بالأمن الداخلي فسنعُتبر مجرمين، أما إن نظرتم للقضية من زاوية إمداد رفاقنا الفدائيين في فلسطين بالسلاح فنحن أبطال قوميون».

يومان واقتادني عسكري للتحقيق. حين أزيحت العصابة عن عينيّ وجدت نفسي في مكتب فخم. ابتسم لي المسؤول: «أهلاً أبو النضال القومي». ربما أنّه يشير إلى ما كتبه في رسالتي! عرّف العقيد مظهر فارس مسؤول فرع التحقيق العسكري في دمشق ضباطه إليّ:

- الأخ منصور من قيادة حركة «فتح».

أضاف موجّهاً الكلام لي:

- طلبتك لنتناقش معك كيفية الخروج من المأزق الذي وضعتنا فيه قضيتكم.

- هل وصل خبر اعتقال الأجنبي إلى سفارة بلاده؟



- نعم، غدًا سيأتي سفير بلاده لزيارته.

- قصدت برسالتني لك ألا نصل إلى هذه المرحلة.

- هذا ما حصل، لنفكر بمخرج.

كان العقيد مظهر رئيس الفرع فدائيًا وهو يقول: «سنوجه للأجنبي تهمة الوجود في منطقة عسكرية. إجراء شكلي لتبرير اعتقاله». في أثناء الجلسة دخل جندي وقال للعقيد: «سيدي، سنفرج غدًا عن مهرّب السجاد، هل نصادر بضاعته أم نتركها له؟». ردّ: «كيف وضعه المادي؟». أجاب الجندي: «يبدو فقيرًا». قال العقيد: «أعطوه السجاد». علّقت مدهوشًا: «هذا آخر ما توقعته في مثل هذا المكان!». قال: «أنستضعف شخصًا غامر من أجل قوت عياله فيها الدولة تعج بالفساد؟».

عدت إلى الزنازة متظاهرًا أنني عائد من جولة تعذيب. دقائق وطرق جندي باب زنانتنا واقتاد ثوماس للتحقيق. عصر اليوم التالي استدعاني العقيد مظهر. قلت مبدئيًا افتخاري به: «أنت فدائي أكثر منّي. عندما يتقرّر إرسال شحنة سلاح للداخل سأبلغك مسبقًا». ردّ مازحًا: «لا يا صاحبي، أنت مخرب». أضاف بجدية: «سأعرفك إلى العقيد عبد الرحمن مسؤول الضابطة الفدائية، يمكن أن يساعدك، لكنني أستغرب كيف كان لسيارتكم أن تصل إلى الأرض المحتلة وتعبئتها رديئة على هذا النحو؟».

مساء اليوم التالي جمعني العقيد مظهر بالعقيد عبد الرحمن، لكنني لم أتشجع للتعاون معه، فبعض من تعامل من جماعتنا مع الضباط السوريين اعتادوا رشوتهم. أفسدوهم. بعد يومين قال العقيد مظهر وهو يبلغني قرار الإفراج عنّا: «سنصادر السيارة، لا يمكنكم المرور بها عبر الحدود وهي على هذه الحال، وإن أعيدت للبلد الذي جيء بها منه ستجلب الشبهة للأجنبي ولصديقه». قلت: «لكننا بحاجة إليها». ازداد الرجل عظمة في عيني حين قال: «سأرسل اثنين من عناصر الفرع لتسليمها لجماعتكم على الحدود اللبنانية، سنساق الأمر مع أبو الرائد مسؤول الشؤون الإدارية في حركة فتح».

وضعت نصب عيني أن أوثق علاقتي بالعقيد مظهر، لكنّ انشقاق حركة «فتح» بعد أسبوع قطع عليّ الطريق. ما الذي سأقوله له وقد تبنت سورية المنشقين؟ لم أتصل بالرجل ولم ألتق به ثانية. خسرت صديقًا رائعًا وداعمًا وطنيًا لعملنا.

ما تطرّقت إليه عن الأمن السوري محض تجربة شخصية. وربما كان لنوعية القضية المتعلقة بالأرض المحتلة وطريقة عرضي لها أثره الطيب في مواقف المحققين، وإلا فإنّ من خبر أقيية أجهزة الأمن السورية سيستهجن ما كتبته.

## على مفترق الدم

عقب الاجتياح الإسرائيلي عام 1982، تفاقم الغضب في صفوف مناضلي حركة «فتح»، وفي أوساط

الثورة عمومًا. تعاظمت المطالبة بمحاسبة الفاسدين والمسؤولين عن سقوط الجنوب. وبدلاً من أن تنصرف القيادة بجديّة لمعالجة الأسباب الحقيقية للأزمة، هربت للاحتفال في عدن<sup>(92)</sup>! لماذا نحتفل؟ بماذا نحتفل؟ نعم صمدنا في بيروت لكننا هُزمتنا في نهاية المطاف، وهناك من تجدر محاسبتهم. ربما بدأ انشقاق «فتح» من عدم جدية القيادة، ومن عدم احترامها رأي القاعدة، ومن مداعبة شعارات المنشقين لعواطف المخدولين، بدلاً من أن تتعاطى القيادة بمسؤولية مع الأسئلة الصعبة، هربت إلى ما يبعد الضوء عما ترتّب عن المأساة من شروحات داخلية.

استولى المنشقون على بعض مكاتب الحركة في دمشق. تداعت الأمور وتسارعت الحوادث بشكل خطر. عقدت اجتماعاً لرفاقي في المكتب محاولاً تلمّس موقف معقول وسط العاصفة. شعرت بالرعب حين قال أحدهم (حمودة): «علينا أن نستعد لمقاتلة المنشقين، يجب أن ندافع عن مكتبنا». قلت بحزم تحالطه خشية اتهامي بالضعف: «المعركة في دمشق ليست معركتنا، لن يسمح لنا النظام في سورية بالانتصار، وأنا أرفض أن تُراق نقطة دم على باب مكتبنا».

ساد صمت أليم حين قال حمودة: «إبراهيم سعد يخطط للاستيلاء على المكتب، إنه مع المنشقين». قلت بثقة: «إبراهيم غاضب على القيادة مثلنا، لكنه ليس منشقاً. إن نظرية أن كل خليبي منشق غير صحيحة، ثم إنه شقيق الشهيد سعد جرادات». على الرغم من ثقتي العالية بإبراهيم لكن ما قاله حمودة أربكني. ألا يمكن أن يكون التقط صورة لم ألاحظها؟ لكنني أعرف إبراهيم أكثر ممّا يعرفه. مع ذلك كل شيء قابل لأن يتغيّر في الأوقات العصيبة.

في اليوم التالي رنّ هاتف مكتبي، وكان إبراهيم سعد يجلس إلى جوارِي. طلب المتحدث من لجنة الخليل التي انشق أغلبية أعضائها أن يتحدّث مع إبراهيم. ناولته السماعة فاستدار نحوي وهمس منفعلًا بعد حديث قصير مع الرجل: «الكلب يهدّدي! يقول حدّد موقفك، إمّا معنا أو ضدنا، يوم لا ينفع مال ولا بنون». مسكين إبراهيم. مشكوك به عندنا وهو غير موثوق عندهم.

تسارعت الحوادث، وتعرّضت لاختبار آخر قاسٍ حين همس لي سائق سيارتنا محمود خضر (أبو فايز): «سرق المنشقون السيارة من أمام منزلي في بلدة تل منين<sup>(93)</sup>، أعرف من سرقها، لماذا فعلوا ذلك وهم يعرفون أنّنا نستخدمها لنقل متدربينا من الأرض المحتلة؟ هذا ليس عملاً وطنياً».

تفاقمت ظاهرة الانشقاق، فاستدعت القيادة ضباط الحركة المبعوثين في دورات عسكرية إلى الخارج. عاد مروان كيالي<sup>(94)</sup> وعائش بدران من موسكو قبل إكمال دورتهما. التقيتهما في مكتبنا، مشهد أليم ونحن نتفرّس في وجوه بعضنا وقد بدا أنّنا على مفترق الدم. لا أقسى من أن يقتل رفاق السلاح. همس لي مروان حزناً وهو يستعدّ للتوجه إلى البقاع في اليوم التالي: «أنا ذاهب لاتخاذ أسوأ قرار في تاريخي، لمواجهة رفاقنا بالسلاح، كيف ننجو من المحرقة؟ كنت وصديقي الرائع عائش مبعوثين في دورة واحدة، هو أيد المنشقين، وأنا بقيت على موقعي. قد يقتل أحداً الآخر». التحق عائش بالمنشقين ولم يلبث أن تركهم، ما عاد مقتنعاً بمواقفهم، ثم انضم إلى جماعة صبري البنا<sup>(95)</sup> فقتلوه.

وسط تفاقم الحالة حسمت أمر إقفال مكتبنا؛ لم أرد أن أهدي للمنشقين نصرًا كاذبًا، أن يدّعوا كعادتهم انضمام العاملين في المكتب إليهم. لم يكن القرار سهلاً، لكنني باتخاذ تحنّيت ورفاقي خوض اشتباك خاسر. لمحت في عيون بعض ذوي الرؤوس الحامية من رفاقي عدم رضا، لكن أحداً لم يعترض على موقعي، خدمني ما أحظى به من ثقة.

لحظات مؤثرة ونحن ننزع صور شهدائنا وأسرانا التي تزيّن الجُدُر. بدا المشهد أكثر درامية وقسوة ونحن نحرق ملفاتنا. حرقنا وحرقنا. عند مغيب الشمس أسدلنا الستار على ذكريات جميلة. ولما حانت لحظة الوداع غادرنا من دون أن ينظر بعضنا في عيون بعض. نزلنا الدرج منكسي الرؤوس والمرارة تملأ حلوقنا. بعد أيام تقرّر جميع العاملين في القطاع الغربي للدفاع عن مكتب لجنة نابلس في حيّ المزرعة<sup>(96)</sup>. فكرة بائسة. أيام واستولى المنشقون على المكتب، فسقط أحد المدافعين عنه شهيداً.

احتفظنا بعدد من الوثائق في منزل أحد الإخوة، أشهر قليلة وأحرقتها زوجته بعد اعتقاله، خشيت عليها. كنز ثمين فيه أرواحنا، أسرار عملنا وزبدة خبراتنا. روايات معمّدة بدم المناضلين وجدّهم في زمن ازدهار الثورة، بينها رسائل الشهداء خالد الديك وجورج ثيودوري، أوراق تعقب برائحة استشهادهما. وأحرقت جوازيّ سفر أردنيين للشقيقتين صقر ومحمد إلياس، وأشياء أخرى فائقة الأهمية.

طالت مأساة الانشقاق الجسد الفلسطيني برمته. ربما كان الفضل للأرض المحتلة في حسم معركة الانشقاق أكثر من أي موقع آخر، وكان لأخطاء المنشقين وجرائم حلفائهم دوراً في فضح مشروعهم.

أردت مقابلة خليل الوزير (أبو جهاد) في مدينة طرابلس. زودني علي أبو طوق ببطاقة لبنانية مزورة، لاستخدامها في عبور حواجز الكتائب والمنشقين. ماذا لو فوجئنا بحاجز لحزب الكتائب وأنا لا أتقن اللهجة اللبنانية؟ سيعرفون أنني فلسطيني. سيعتقلونني. ماذا لو اعترضنا حاجز للمنشقين ولهجتي فلسطينية؟ سيعتقلونني إن عرفوا أنني من «فتح». انتابني إحساس مفزع، ورؤوف من بلدة سلواد<sup>(97)</sup>، السائق من كتبية الجرّمق، يناور بمهارة لعبور طرق تعجّ بالمفاجآت. ربما أقع في قبضة الإسرائيليين لو اعتقلت على حاجز كتائبي! تساءلت وأنا أتفحص هويتي حين وصلنا إلى طرابلس: «كيف لشخص مهما كان غيباً ألا يلاحظ أنني أرتدي القميص ذاته الذي في صورتي على الهوية التي من المفترض أنّها صادرة قبل خمسة أعوام؟! سيكتشف أن الهوية مزورة». كنّا نتصرّف بجنون الأمل.

بعد أربعة وثلاثين عاماً، يوم الإثنين، في السابع عشر من نيسان/ أبريل عام 2017 التقيت رؤوف على دوار الساعة وسط مدينة رام الله، كان آتياً من أميركا. قال لي وهو يعانقني بحرارة: «سقى الله تلك الأيام يا أبو علاء، أنت من رائحة الشهداء أبو حسن قاسم وحدي». أضاف مذكّراً بمشوار طرابلس أنف الذكر: «بعد مرور شهرين على ذلك المشوار أعتقلت على حاجز للمنشقين في منطقة ظهر القضيّب بالقرب من طرابلس».

في مكتب أبو جهاد بطرابلس أدّى له التحية رجل بهيئة مترهلة وبصوت مبحوح: «أعدت للحركة

خمسین منشقاً، هاهم أسفل العمارة». قال أبو جهاد وقد بدا أنّه استخفّ بها قيل: «أحضرهم لي». نزل الرجل ثمّ عاد بعد بضع دقائق: «لم أجدهم». أضاف وهو يناول ورقة لأبو جهاد: «أنصفني، ألم تخاطبني كنقيب في اجتماع أول من أمس؟». رد أبو جهاد: «ما ربتك الحقيقية؟». أجاب: «ملازم». قال أبو جهاد: «يا أخي أنا أخطأت حين خاطبتك برتبة نقيب، أنا متأسف». تساءلت وأنا أنظر في عينيّ الملازم: «أهو خبيث أم ساذج؟ ربما أنّه مظلوم! وربما أنّه ابتزاز للقائد في لحظة الأزمة!».

بعد الانشقاق دارت الأسئلة المؤرقة في الرؤوس، ماذا نفعل بمن بقي من شبّاننا في سورية ولبنان؟ كيف سيكون مصيرهم؟ معظمهم جلبناهم بالتهريب وبوثائق مزورة. استقرّ الرأي على تشجيع من يملك فرصة للسفر إلى الخليج أن يحاول ذلك، وأن يعود من يملك جواز سفر أردنيّاً إلى الأردن. جندنا طاقاتنا لتهريب من لا يملك وثائق عبر الحدود. لكن كيف سيتصرّف من كانت زوجته فلسطينية لبنانية؟ ومن لم يتقبل الإقرار بالهزيمة! سيقتل بعض هؤلاء على يد المنشقين وجماعة صبري البنا.

أثير لغط حول أنّ أبو ضرغام من كتيبة الجرمق منشق! كأنّها بصق الرجل في وجهي حين قال لي يوم زرتّه في منزله في نخيم اليرموك: «ما عاد لحركة فتح مستقبل في سورية بعد الانشقاق، ما الذي سأفعله بيناتي في اليمن إن كان نصيبي أن أستقر هناك؟ عندي أربع صبايا في سنّ الزواج؟ لمن أزوجهن؟».

لم يكن أبو ضرغام منشقاً، كان حملة ثقيلًا. ذهب إلى جنوب لبنان وقتل هناك على أيدي جماعة أبو نضال، كان هذا مصير أحمد منتصر وآخرين. أمّا علي أبو طوق فاعتصم بمخيم شاتيلا<sup>(98)</sup> حتى استشهد. سكينّة اللبنانية زوجة الشهيد عاطف الذي استشهد في طرابلس التجأت ببناتها إلى ذويها في بيروت. في الهزائم مأسّ ونكبات.

ظلّت بيروت حضن الثوار الدافئ، ملاذ من قتلهم صقيع بلادهم السياسي فاضطروا إلى العيش في المنافي، شرياناً تغذّت منه أحزابهم وحركاتهم في بلادهم، ودائماً وقف أبو جهاد في مقدمة داعمي هذه الحركات. لو أُتيحت لك فرصة زيارة معسكر القطاع الغربي بضواحي دمشق، لبهرك مشهد المتدربين بألوانهم وجنسياتهم ولغاتهم. وبخروج الثورة من لبنان ضاقت الدنيا بالمناضلين. بعضهم وجد ملجأ بشروط، ومنهم من عاد إلى وطنه متخفياً فاعتقل. ودارت أحاديث عن تسليم قوائم بأسماء مناضلين لسفارات بلادهم! مصائر هدّدت من كانت الثورة ملجأهم فأضحى المجهول خيارهم.

لم أفرح بالنوم ليلة واحدة في شقتي التي جهزتها في بلدة جوبر. بناءً على أمر أبو جهاد، أخذت زوجتي وطفليّ وسافرت إلى تونس. سكنا في فندق الدار غير البعيد عن العاصمة التونسية. ستة أشهر في الفندق، وأصبح راتبي الشهري خمسمئة دولار. فرصة لسداد ديوني المتبقية من تجهيز الشقة.

محمد نعمان (زهير) الذي بقي في سورية، ذهب يوماً لزيارة صديقه محمد الكاشف نائب مسؤول لجنة القدس. قال مازحاً كعادته لأحد شايبين وجدّهما في المكتب ظاناً أنّهما من العاملين مع الكاشف: «ما تستحي وتقوم تسوّي لك فنجان قهوة». ردّ الشاب: «ناولني هويتك». في لحظة الصدمة أدرك صديقنا ورطته.

هؤلاء رجال أمن سوريون! تعاطف رجلاً الأمن مع الرجل المريض، فقال أحدهم: «خذ هويتك وغادر. لا تُبلغ أحداً بما جرى». كان حظ أبو النعمان طيباً هذه المرة، لكنه أُعتقل بعد أشهر.

انعكست لعنة الانشقاق على الأسرى في سجون الاحتلال. لم ينبُج أسرى لجنتنا من هذه اللعنة. انشق بعضهم. نحن قيادتهم في الخارج مسؤولون عن ذلك، فقد اعتُقل أغلبيتهم ونحن يساريون، وكان تواصلنا معهم في السجن ضعيفاً. ولأن الانشقاق اتخذ صبغة يسارية ظنّ كثيرون منهم أننا مع المنشقين. بعد ثلاثة عقود من الانشقاق، التقينا في النادي الأرثوذكسي في رام الله لتأبين الأسير المحرّر مجاهد سعيد الذي توفي في سورية.

ألقي زميله الأسير المحرّر صقر إلياس كلمة مؤثرة في حفل التأبين جاء فيها: «في تلك الأيام التي شهدت مرحلة طفولتنا اليسارية، حيث كان العالم في نظرنا مقسوماً إلى لوتين لا ثالث لهما، إمّا أبيض وإمّا أسود، في هذا التقسيم كان حبيبنا مجاهد الأنصع بياضاً. لم يكن يخفي هويته هذه، وكان يشاركنا أحلام تلك الفترة. نحن نتحدث عن فترة منتصف السبعينيات، عندما كان طموحنا لا يحده تحرير فلسطين، ولا تحقيق العدالة فيها، بل وتحرير العالم. كان مجاهد من يقودنا إلى هذا الحلم. ليس غريباً على من تتلمذ على يد القائد والمعلم الحاج حسن بشخصيته الفذة، وليس مستبعداً على من عايش القادة العظام، حمدي وقاسم، ألا يكون مجرد مقاتل. كان من طلائع المقاتلين الذين تقدّموا الصفوف لحمل أقى المهمات، ولم يكن أمامهم أحد فوق المسألة. إن تقييد حرية الإنسان أمر صعب، فكيف ذلك على بدوي عاش الحياة الطليقة في جبال سورية ولبنان.

ببساطته وذكائه الاجتماعي، كان مجاهد أكثرنا قدرة على التواصل مع المؤسسة التنظيمية الرسمية في المعتقل، تلك التي كانت ترى في خطنا اليساري انحرافاً تنظيمياً وخطراً داهماً. وكان أكثرنا قدرة على التواصل مع القاعدة التي كانت محرّضة ضدّ هذا التوجه الفكري والسياسي، فأدّى دوراً مهماً في تخفيف تلك النظرة العدائية تجاه أعضاء هذا التيار، وأحياناً كان يقوم بدور مطفئ الحرائق التي يشعلها تصرّف أو تصريح من هذا الأخ أو ذاك. لم يكن مجاهد متفذكاً في التعبير عن نفسه، كان قادراً على التعبير عن رأيه بلغة سهلة الوصول إلى قلوب الناس قبل عقولهم. الأهم من ذلك حب الصغير والكبير له. ليس غريباً على من يمتلك قلباً يتسع لحب الناس، وعقلاً قادراً على فهم مواطن ضعف البشر والتماس الأعذار لهم قدر المستطاع، وفوق ذلك كله احترام الإنسان كإنسان، واحترام الأسير كشخص حاول أن يقدم ما يستطيع لبلده، ليس غريباً على من يمتلك هذه الصفات أن يحظى بتلك الشعبية والاحترام.

كان مجاهد واحة أمل، ومنهل محبة، ونبع عطاء. لقد أهّلته قدراته التنظيمية وشعبيته الواسعة، والكاريزما القيادية التي يتمتع بها لتبوء أعلى المراتب التنظيمية في المعتقل الذي أمضى فيه أطول فترة، معتقل بئر السبع، وقد شهدت تلك الفترة قفزة نوعية في الوضع التنظيمي، وفي العلاقة مع إدارة المعتقل لمصلحة تحقيق المزيد من المكتسبات للأسرى، وفي العلاقة مع التنظيمات الوطنية لمصلحة الوحدة الوطنية لأنّه لم يعرف التعصب التنظيمي.

عندما اعتقد في لحظة من اللحظات أنّ السفينة التي أبحر عليها لن تصل إلى غايتها التي أمل، ومقصدها الذي أراد، وارتأى أن يغادرها أملاً في الوصول إلى تلك الغاية وذاك المثل، لم يفكر لحظة بنفسه، ولم يهمل للحظة مصير تلك السفينة التي سيتركها، بل كان حريصاً ألا يصيبها مكروه. عندما تعالت الأصوات في سجن عسقلان منادية بالإعلان عن موقف كان سيؤدي إلى الانقسام التنظيمي على غرار ما حدث في الخارج، كان هاجسه ماذا سيحدث للتنظيم الأم إثر خروج عدد كبير من كوادره. طوال الفترة التي اتسمت بالتعاضد واحتواء الانقسام كان مجاهد -رحمه الله- من دعاة مواصلة استراتيجية الحفاظ على الوحدة التنظيمية، وعدم الإعلان عن الموقف السياسي المؤيد لهذا الطرف أو ذاك طالما احتُرم هذا الموقف. كانت طريق التقدم في المراتب التنظيمية أمامه مفتوحة، مع ذلك أثر الدخول إلى طريق مجهول، مضحياً بما كان ينتظره على الصعيد الشخصي لو لم يمارس قناعاته. لم تكن المطامح الشخصية هاجسه. لم يطرح يوماً تأليف تنظيم جديد أو يفكر في الانضمام إلى تنظيم يساري آخر. كانت حركة فتح بما فيها من تناقضات خياره.

حين تحرّر مجاهد من سجون الاحتلال في صيف عام 1985، توجه إلى سورية، التحق بالمنشقين على حركة «فتح» ومعه رفيقه أحمد أبو هدة. قرار ظنّ الفدائيان أنّها باتخاذهم يكملان مشوار الثورة. صدمهما واقع المنشقين فأسرعا إلى مغادرة سكّتهم. كانت رواتبهما في منظمة التحرير مقطوعة، فتقطعت بعائلتيهما السبل.

بجهد جهيد تمكّن رفيقاهما في الأسر، موسى الشيخ ومحمد البيروتي، من استعادتها بعد أعوام، الشكر لهما. توفي مجاهد، وساءت الأحوال في سورية، عاد أبو هدة إلى الأردن، فاعتقل وأبعد إلى سورية وتوفي هناك. في شباط/ فبراير 2017، تجمع رفاقه الأسرى المحرّرون لتأبينه في النادي الأرثوذكسي في رام الله، الشكر للنادي، ولرئيسه الدكتور هاني الحصري على وفائه لرفيقيّ دربه في السجن؛ مجاهد سعيد وأبو هدة.

## عجز التبرير

أسرت حركة «فتح» ثمانية جنود إسرائيليين في جبل لبنان، ولأنّه لم يكن مسموحاً لمقاتليها بالتحرك في المنطقة فقد استعانوا بسيارة للجهة الشعبية - القيادة العامة لنقل الأسرى مقابل التنازل عن اثنين منهم. صفقة ظالمة، لكنّها كانت من حظ الأسرى الذين أغضبهم الموقف<sup>(99)</sup>.

رذاذ مطر تشريني يبعث الأمل، وأنا في الطريق إلى مطار قرطاج الدولي في مدينة تونس. قلبي يسابق الطائرة التي أقلعت متجهة إلى الجزائر، كيف لا وأنا أتخيّل عناقي لشقيقي جمال ورفاقه الذين تحيّل أتهم سيكونون بين المفرج عنهم. ساعة ونصف الساعة من الطيران وكنت بين حشد المحتفلين في مطار هوارى بومدين. مشهد انفعالي والطائرات التي تُقلّ المحرّرين تهبط واحدة تلو الأخرى. شخصت العيون، وقد فُتح باب الطائرة الأولى وبدأ المحرّرون بالنزول. أمّا أنا فتسارعت دقات قلبي كلما أطلّ وجه فأتخيّل جمال. مع نزول آخر أسير من الطائرة الثالثة وهي الأخيرة، لم يكن شقيقي ورفاقه بين المحرّرين! خيبة أمل شخصية، لكن لا يمكنك إلا أن تفرح للمحرّرين. شهر وأنا برفقتهم على شاطئ «منتجع تيبازا» الجميل. روايات

بطولة وأتات ألم.

همس لي أسير محرّر وهو يشير إلى زميل له ينكمش بعيداً: «بطل. قاتل ببسالة. مثال للفدائي الصلب. اعتُقل بعد أشهر قليلة من زواجه. كانت زوجته في مقتبل العمر. في إحدى زياراتها له، وكان ذلك بعد ستة أعوام من اعتقاله ومحاولتي هرب فاشلتين من السجن، تصادف أن كنت بجواره على شبك الزيارة. لمحت زوجته تكرر هامسة: 'أرجوك طلقني، أرجوك'. بدا كأنها تستغيث:

'أرجوك، أرجوك'. كانت تتألم بشدة. أحياناً تمتمت بكلمات غاضبة، وكان هو يهدئ روعها. كان يهمس بجمل مشوّشة. امتحان قاسٍ لصلابة مقاتل محكوم بالمؤبد خلف القضبان. ماذا يقول؟ بماذا يردّ وهو يحبها بجنون؟ لو كان حرّاً لاحتضنها: 'أحبك'. أمّا وهو يرسف بقيود الجلاد، لن يفيد القول، ولم تسعفه الشجاعة لتحريرها. واصلت المرأة الهمس بحرقة وكان هو يتمزق. بعد عام اختُطفت المرأة، قُتلت بشبهة علاقة عاطفية. ظلمٌ فظيع وامرأة ضحية. سيطول الحديث لو فتحنا باب المرات. أسير آخر كان متيّماً بحب زوجته، وكانت هي تعشقه. كان كل منهما ييث هيامه برفيقه عبر رسائله، ولما كانت الرسائل تمرّ عبر إدارة السجن، فقد استغلّتها المخابرات للإيقاع بالزوجة. تسببت سداجة المرأة بسقوطها في حبال المخابرات التي وعدتها بالإفراج عن زوجها. انكشف الأمر فطلّقها زوجها. إنّها ضحية أخرى». بالمقابل هناك عشرات القصص التي تروي حكايات زوجات الأسرى وصبرهن على تربية أبنائهن، وأخرى عن تهريب النطف من داخل السجون لضمان استمرار العائلة.

قال القائد الجزائري المخضرم محمد الشريف مساعدية<sup>(100)</sup> في ندوة مع المحرّرين: «بعد خروج الثورة الفلسطينية من بيروت، وانشقاق حركة فتح، يمرّ الشعب الفلسطيني بأوقات عصيبة، لكنّي واثق أنّكم ستنتصرون. في الثورة الجزائرية مررنا بما هو أقسى لدرجة أنّنا تساءلنا أحياناً عن إمكان انتصارنا. الاحتلال راحل لا محالة، ستحرّر فلسطين».

برّر القائمون على صفقة تبادل الأسرى ما اعتراها من ثغرات كبيرة، بالخوف من كشف العدو لمواقع الأسرى الإسرائيليين، بصعوبة نقلهم من موقع لآخر؛ نظراً لما أحدثه الانشقاق من اضطراب في منطقة البقاع حيث احتجزوا. تبرير منطقي، لكنّ المبالغة في مدلول تحرير مقتنيات مركز الأبحاث الفلسطيني، وآلاف الأسرى من مقاتلي حرب عام 1982 المحتجزين في معتقل أنصار<sup>(101)</sup>، لا ينفي أنّ الصفقة كانت بائسة بمعيار ما تأمله الأسرى وذووهم، وقياساً على ما أنجزته الجبهة الشعبية-القيادة العامة بعد عامين، ففي حين اقتصرت الصفقة الأولى على تحرير سبعة وستين من أسرى الأرض المحتلة أبعثوا إلى الخارج مقابل ستة أسرى من جنود الاحتلال، فقد بادلت الجبهة ثلاثة جنود بألف ومئة وخمسين أسيراً محكومين بالمؤبد، مشرطة أن يُفرج عنهم في الداخل. كان شقيقي جمال ورفاقه من بين من أفرج عنهم في الصفقة الثانية.

كتب الأسير المحرّر علي مهنا الذي تحرّر في صفقة تبادل الأسرى عام 1985، في صحيفة القدس المقدسية، واصفاً خيبة الأمل التي تسببت بها صفقة تبادل عام 1983، عارضاً ما جرى مع أحد الأسرى:

«قبل النكبة تزوّجت والدّة أبو سنّارة من عمّه بعد استشهاد والده في معركة مع المستوطنين اليهود، واقتيد الطفل إلى الإصلاحيّة في مدينة بيت لحم، حيث لُفّقت له تهمة سرقة دجاج الجيران. فرّقت النكبة بين الطفل وأهله عندما لجأ عمّه 'زوج أمه' إلى قطاع غزة. في أثناء بحث أبو سنّارة عن عائلته بعد خروجه من الإصلاحيّة، ذهب إلى القدس، من سوء حظه أنّ ذلك كان في اليوم الذي اغتيل فيه الملك عبد الله.

وجد نفسه جريحاً في حافلة تتجّه إلى عمّان، هناك أغراه شاب بالتسلل إلى في لبنان للعمل فيه، ففوجئ بالحرب الأهلية عام 1958، اعتُقل وأُعيد إلى عمّان. عمل عتّالاً في سوق السُكّر<sup>(102)</sup>، ولم يلبث أن أصبح متعهّداً للتحميل والتنزيل، لكنّه قرّر التخلّي عن مملكته. التحق بقوات التحرير الشعبية، ثم انضمّ إلى حركة فتح، وعاد إلى الأرض المحتلة في دورية عسكرية. أصيب بجروح، فاعتُقل وحُكم بالمؤبد.

في عسقلان أصبح من معالم السجن، إضافة لشجرة النخيل الوحيدة في الساحة، التي نبتت في عام دخوله السجن، فتولّى سقاية الغرسة ورعايتها على مدى السبعة عشر عاماً التي قضّاها هناك. في نهاية عام 1983 جرت عملية تبادل للأسرى بين فتح وإسرائيل، جاءت حافلة، ونودي على عشرين أسيراً، ولما غادرت اعتقدنا أنّها ستعود لأخذ آخرين. صباح اليوم التالي ظهر أبو سنّارة بمزاج رائع، مرتدياً فانيلة بيضاء وبنطالاً بترولياً احتفظ به للمناسبة، ومنتعلاً حذاءً رياضياً، وراح يستفّز السجّان الشهير بقسوته جورنو بأنّه سيتحرّر بعد ساعات. كيف لا ونحن نعتقد أنّ الحافلات توشك على الوصول لنقل المحرّرين الذين لا بد أن يكون أبو سنّارة أحدهم باعتباره مؤبّداً.

بعد طول انتظار أذاع الراديو أنّ عملية التبادل تمت! انكمش أبو سنّارة على نفسه في زاوية، أشعل سيجارة ونكّس رأسه، واستمر على ذلك لما يقرب من الساعة من دون أن يجرؤ أحد على التحدّث إليه، ساد الساحة صمت رهيب وقد انفجر بسيل لعنات لم تترك عنصراً ولا قائداً في الثورة، ولما دقّ جورنو بعصاه معلناً انتهاء الفورة، مشينا إلى غرفنا يجلّنا الصمت ومأساوية الموقف، أمّا هو فسار بخطى متثاقلة إلى جذع النخلة، وراح يثبثا شكواه عن ظلم ذوي القربى، وسوء الطالع، وقسوة المقادير. لم يتجرأ جورنو على تعكير خلوته بطلب دخوله إلى الغرفة.

بعد ربح من الوقت لا نعرف إن طال أو قصر هدأ أبو سنّارة، فعاد ونام حتى الصباح. بعد عامين غادر عالم القيود في عملية تبادل جديدة للأسرى واستقرّ في الأردن. انقطعت أخباره، وتوفي في الظلّ كما عاش. جدّ أبو سنّارة لأبيه هو الليبيّ أحمد الفيتوري، من مجاهدي الثورة الليبية، هرب إلى فلسطين بعد استشهاد عمر المختار<sup>(103)</sup>، واستشهد في ثورة البراق<sup>(104)</sup> التي انضم إليها فور وصوله إلى فلسطين.

## قيادة من وراء البحار

تسبب خروج مقاتلي الثورة من لبنان بتشتيت كوادرات القطاع الغربي في المنايف. كيف سيتواصلون مع الوطن وهم على بعد آلاف الكيلومترات من فلسطين؟ فتحّ أبو جهاد مكتباً للأرض المحتلة في بغداد، وأقام



معسكرًا للتدريب هناك، ولاحقًا شكّل استقراره في عمّان رافعة أخرى.

عدت إلى عمّان عضوًا مراقبًا في المجلس الوطني الفلسطيني. صرف لي أبو جهاد ألفًا وخمسمئة دينار بدل إيجار سكن، دفعت المبلغ قسطًا من ثمن شقة بالجبل الأخضر بمساحة 52 مترًا مربعًا. ذات يوم فاجأني طفلي علاء بسؤال: «هل نحن لاجئون أم نازحون؟». بماذا أجيبه؟ بعد نكسة حزيران/ يونيو هُجرت من البلاد، لكنني لم أسجّل كنازح، وعندما تسلّلت من الوطن قبل عشرة أعوام جئت مطارداً. أنا فدائي. هذه هوية لا يُعترف بها رسميًا.

في عمّان عدنا إلى موقعنا الطبيعي، إلى النقطة الأقرب إلى فلسطين. هناك التقينا أحبّتنا؛ الفدائيين الذين لطالما تواصلنا معهم عن بُعد، أو عبر تسلّلهم من الوطن أو العكس. أحمد دبك الملقب بـ «مازن» يسكن في مخيم «عزمي المفتي»<sup>(105)</sup> جنوب إربد. للرجل فهمه الخاص لآلية تجنيده للأعضاء الجدد للتنظيم. حين يضع عينه على شاب من الأرض المحتلة، يستضيفه على وجبة مفتول أو فنجان قهوة، ويطلب إلى زوجته تشغيل المسجل على أغنية وطنية، في أثناء ذلك يسلّط نظره على ساقّي الشاب. في ضوء تفاعل الساقين مع الأغنية يقدم الدبك أو يحجم. يفسّر الدبك ذلك بقوله: «أقرأ الأفكار من حركة الساقين». الدبك لا يقول «لا» أبدًا. تسأله: «هل تستطيع كذا؟»، يردّ بتلقائية مفرطة وبلهجة فلاحية: «ولّا»<sup>(106)</sup>. إنّه ماكينة تفريخ تنظيمية ضخمة.

## اجتماع فاشل

في وقت مبكر من التحاقني بـ «لجنة التنظيم 77»، لاحظت عدم سوية علاقة قيادة اللجنة بأبو جهاد «خليل الوزير» قائد القطاع الغربي. وعندما تعرّفت إلى القائد مباشرة عام 1979، برفقة حمدي، أو وحدي لاحقًا، لفتت انتباهي الميّزات القيادية الرفيعة له؛ شجاعة، دماثة خلق وتواضع. شخص عملي، وحدوي وجامع كما لو أنّه مفطور على هذه السجية. بعيد عن الثروة والفلذكة وحب الظهور، لهذا نأى بنفسه عن وسائل الإعلام. ربما من هذه الصفات اكتسب القائد هيئته، ومن الصورة التي ارتسمت له في الأذهان باعتبار ما قيل عنه إنّّه أول الفتحاويين، لهذا سمّي «أول الرصاص وأول الحجارة». رجل أدرك حساسية موقعه كقائد لأخطر جهاز فتحاوي، في مواجهة واحد من أعتى أجهزة المخابرات العالمية، «الموساد الإسرائيلي». لو قدّرك أن تمرّ بأبو جهاد في الشارع دون أن تكون على معرفة سابقة به، لن يخطر ببالك أبدًا أنّ هذا الشخص البسيط هو القائد الذي ارتسمت لشخصه هالة في الخيال، سيّما في الأرض المحتلة، وفي أوساط حركات التحرّر التي كان أبو جهاد راعيها لها كأب روحي.

لماذا خلافتنا معه إذًا؟ ربما أنّ هناك من أوغر صدر القائد علينا، وإلّا فإنّ أبو جهاد نموذج للقائد الفدائي، هذا لا يعني أنّه لم يرتكب أخطاءً بحقنا. كان يتناوب في اللجنة شعور بكثير من الغبن! إنّنا نستحقّ تقديرًا أكثر ينعكس إمكانات ومالًا وتسليحًا ومواقع تنظيمية. بالمقابل فقد مسّت طريقة تعاملنا السلبية مع أبو جهاد بمكانته وهيئته أمام أبو عمّار، فكثيرًا ما تسبب عدم إطلاعنا له على خططنا وبرامجنا بإحراجة أمامه، لدرجة

بدا في بعض الأحيان كما لو أنّه «غائب فيلة» كما يُقال في الأمثال!

كان يُجرح في الصميم حين يفاجأ بعملياتنا في الأرض المحتلة من دون أن يكون له علم بذلك مسبقاً. كادت تقتصر علاقتنا بأبو جهاد على صرفه موازنتنا الشهرية، وعلى بعض لقاءات موسمية. لقد ألحق ذلك ضرراً بالغ الأثر بعملنا ومسّ أساساً خطراً بالمواقع التي كان يمكن أن نحظى بها، وإلّا لماذا لم يحظَ حمدي بموقع مسؤول لجنة الخليل الذي لطالما تطلّع إليه، وهو الأكثر جدارة به؟ ولماذا لم تُتاح لي فرصة أن أصبح عضواً قيادياً في لجنة القدس؟ سعى حمدي لذلك، فيما أصبحت مسؤولاً للجنة الوسط بعد أعوام قليلة، تلك اللجنة التي أُستبدلت بلجنة القدس في التشكيل الجديد. لقد أعاقت علاقتنا المضطربة بأبو جهاد تبوأنا لمثل هذه المواقع، وتسببت السياسة السلبية المتبادلة معه بإلحاق أضرار بأخرين من رفاقنا في اللجنة، هذا ما حصل مع أبو سليم ومع عدنان جابر على سبيل المثال.

في أوائل عام 1986 التقى حمدي أول مرّة أبو عمّار في بغداد، وعاد إلى عمّان بعشرة آلاف دولار للجنة. جاء ذلك في أوج توتر علاقة لجنّتنا مع أبو جهاد. قال حمدي وهو يحدثني عن اللقاء: «أبو عمّار قائد مختلف. صاحب قرار». يومها لم نكن ندرك أنّ ما هو متاح مالياً لأبو عمّار لا يتوافر لأبو جهاد. بعد مدة كنت وحمدي في مكتب أبو جهاد في وادي صقرة في عمّان. خلا بنا أبو العز مدير مكتبه: «لا يجوز أن تظلّ علاقتكم بأبو جهاد مقطوعة، الرجل يحبكم».

اتفقنا على موعد مع أبو جهاد، لكنّ قاسم قبل الفكرة على مضض.

في اليوم الذي سبق موعد اللقاء رنّ الهاتف في منزلي، كان المتصل أبو جهاد. لم يسبق للقائد أن اتصل بي هاتفياً! لماذا لم يتصل بحمدي؟ ربما لأنّه لا يملك هاتفاً في منزله. أمّا قاسم فغنيّ عن القول إنّ علاقته به تتسم بالحياسية. قال أبو جهاد في ذلك الاتصال: «سيتأجل موعدنا إلى بعد غد، لأنني مشغول بوفد روماني». استشاط قاسم غضباً حين أبلغته بالتأجيل، لكنّه وافق على الحضور.

قال أبو جهاد في الاجتماع معلّقاً على فتور علاقتنا به: «تركتم لتأخذوا مداكم، كنت أريد أن أرى أين سترسو سفينتكم». استغز الحديث قاسم فردّ بحديّة: «كلّنا نجدّف بالسفينة». توتر الجو فردّ أبو جهاد متألماً: «خصصت هذا اللقاء لأناقش معكم خطة للقطاع الغربي، لكن بصراحة انسدت نفسي». بدلاً من أن نعاتب القائد بدفء، نهض قاسم وقال: «نحن آسفون، أضعنا وقتك». بهذه الصورة المأساوية انتهى اجتماع كان يمكن أن يكون مثمراً للغاية! تصرّف قاسم انطلاقاً من غيظه، وللقيادة أخطاؤها.

بعد مدة التقى قاسم وحمدي أبو عمّار في مكتبه بجبل النزهة<sup>(107)</sup>:

«ما الجديد عندكم؟».

هذا ما قاله أبو عمّار، فردّ قاسم بتواضع المقاتل:

«اشترينا قطعة كارلو، مخزنيّ ذخيرة، وثلاث قنابل».

قال أبو عمار بعصبية:

«أتظنونني هندیًا!».

تفوّه بذلك وواصل ثورة غضبه: «إنّ ما تعرفش يا حمدي إنّی كنت مدرّس حرب العصابات في كلية القيادة والأركان في القاهرة قبل الثورة؟». ردّ حمدي بعفوية الفدائي: «لا والله».

لم يعدّ قاسم للقاء أبو عمار، أمّا حمدي فالتقاه بعد تنفيذ عملية باب المغاربة الشهيرة، التقاه في قصر الضيافة في عمّان. قال لي حمدي عن ذلك اللقاء: «عانقني أبو عمار بحرارة وأفسح لي لأجلس بجواره».

## هذه ليست بداية من الصفر

منذ التحاقني بـ«لجنة التنظيم 77» وأنا في بؤرتها القيادية الأولى، وعلى مدار الأعوام التي جمعتني بغازي الحسيني<sup>(108)</sup> وقاسم وحمدي والحاج نادر وعيسى أبو عرام وعدنان أبو عيّاش ووصفي نعسة ورفاقهم، شكّلت الممارسة والسلوك حاضنتين جذبت للجنة نخبة مناضليها، لكنّ خسارتنا الجسيمة لأبو سليم ثمّ عدنان جابر التي وقعت على خلفية تباين في الاجتهادات وتصلّب في الآراء، وضعتني أمام تساؤلات كبرى حول مدى صحة إدارتنا للعمل. هل كان سيعرف أبو جهاد ما صرفه لأبو سليم لولا تقديره لقيّمته النضالية؟ هناك أكثر من عشرة كـ«أبو سليم» في لجنتنا. لماذا خسرنا عدنان جابر قائد دورية الدبوياء، وهو الذي اختاره رفاقه الأسرى المحرّرين ليمثّلهم في دورة المجلس الوطني السابع عشر؟ ثمّ كيف نفسّر لقاءنا الأخير مع أبو جهاد؟ ربما أنّ هذه الأخيرة كانت بمنزلة القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لي. بدأت أفكّر جدّيًا بترك اللجنة. صحيح أنّ البدء من الصفر ليس هينًا، لكنّها ليست بداية من الصفر، لديّ خبراتي وعلاقاتي وسمعتي. صراع ذاتي مرير وأنا أقرب من لحظة الحسم. فكّرت، ارتبكت، لكنّي حسمت أمري.

قلت لحمدي والمرارة تملأ حلقي: «ما عدت مقتنعا بطريقة إدارتنا لعملنا، ما عاد لدينا إنجاز، وهناك تدمر في القاعدة، ابتعدنا عن شبابنا، وانغلقتنا في دائرة ضيقة، لا أريد الدخول في نقاش حول مسائل قد نختلف بشأنها فتبعدنا عن بعضنا. أنت تعلم عمق انتماي للجنة. سأظلّ أعتر بكل يوم أمضيّناه معًا، أريد أن أنسحب من اللجنة بهدوء». ردّ حزينًا: «أخشى أن يباعد ذلك بيننا، وقاسم لن يوافقك الرأي».

في المساء التقينا في مكتب مركز التخطيط الفلسطيني بالشميساني في عمّان؛ منير شفيق مسؤول المركز، قاسم، حمدي، وأنا. تحدّث حمدي بما سمعه منّي، فعلق أبو فادي باقتضاب: «ليس في الأمر مشكلة». أمّا قاسم فاستشاط غضبًا: «إن كنت تشعر بالغبن، خذ العمل كله». قلت: «أنا لا أشكو من أمر شخصي، ولا نيّة لي بالنقاش لأنني لا أريد أن نختلف». انتهى الاجتماع بشاتي على موقفي.

عقب ذلك ظلّ حمدي يتصرّف معي كأنني ما زلت قائداً في اللجنة، أمّا أنا فانتابتنني مشاعر وليد انقطع حبله السري عن أمه.

عرضت موقفني على أبو جهاد:

- أريد أن يكون ارتباطي بك مباشرة.

- أفضل موقع لك أن تصبح مسؤولاً للجنة القدس.

قال أبو جهاد كلامًا أكثر من ذلك.

اعتذرت: «لا أريد الدخول في صراع».

صرف لي أبو جهاد موازنة شهرية ألف دينار، وبعد شهرين أبعدته السلطات الأردنية من عمّان، كان ذلك عام 1986. أوقعني ذلك في مشكلة مع مسؤول المالية الأقرب لعقلية قاسم. ربما أن قاسم الذي أغضبه خروجي من اللجنة كان مقتنعًا أن محاصرتي ماليًا ستعيدني إلى اللجنة! لكنني تحت الضغط أزددت عنادًا، وتشبّث بموقفني الذي لم يكن آنيًا ولا اعتباطيًا.

ذات يوم جاءني أسير محرّر أمضى ثمانية عشر عامًا في السجون الإسرائيلية: «عندي خلية لديها قنابل يدوية». دفعت له سبعمئة دينار ثمنًا للقنابل. أيام وأعلنت إذاعة العدو عن تنفيذ عملية عسكرية بقنابل يدوية عند باب المغاربة في مدينة القدس. في النهار ذاته جاءني الأسير المحرّر برسالة قرأت فيها: «بناءً على اتفاقنا معك نفّذنا عملية باب المغاربة». فرح عفوي، لكنني تساءلت مرتبكا: «نحن لم نتفق على شيء! ثم لماذا التسرّع بالإبلاغ عن العملية؟».

في المساء زارني حمدي في بيتي والبسمة تملأ وجهه:

- هل سمعت ما جرى في القدس؟

- نعم.

- ما رأيك؟

- عظيم، لكنني أعاني ارتباكًا.

ناولته الرسالة، فسألني:

- هل كلّفت أنت شخصيًا المجموعة بهذا الهدف تحديداً؟

- لا. ثمّ أنا لا أعرفهم شخصيًا، وأثارت سرعة إرسالهم للرسالة ريبتي.

- المجموعة التي نفّذت العملية من عندي، أنا شخصيًا كلّفتهم بالهدف.

لولا ثقتي بحمدي لربما جاز عليّ الخداع. أيام قليلة واعتُقلت المجموعة المنفّذة وتبنّت «سرايا الجهاد» العملية، وأعلن العدو أن حمدي من خطط لها، وأنّ منفذها هم الشقيقان طارق وعبد الناصر الحليسي، ورفيقهما سمير أبو نعمة، مع ذلك هناك من واصل التبجّح بأنّه من خطط لها.

بعد صفقة تبادل الأسرى التي وقعت في أيار/ مايو عام 1985، قرّرت اللجنة الأردنية الفلسطينية المشتركة صرف سبعة آلاف دينار أردني قرضًا من دون فوائد لمن هدمت قوات الاحتلال منازلهم من الأسرى، لبناء منازل جديدة لذويهم. في حينه كان يونس جدوع الذي أمضى ثلاثة عشر عامًا في سجون الاحتلال مسؤولًا عن هذا الملف. لم يتوقف يونس كثيرًا عند عدم توافر المستندات والوثائق المطلوبة لاستصدار رخص البناء.

بعقلية المقاتل كان يدرك العقبات التي ستضعها سلطات الاحتلال في طريق استقرار الأسير، ومن بينها عرقلة حصوله على الوثائق. وهناك من بين الأسرى من لا يملكون أرضًا صالحة للبناء، في وقت يُمنع فيه إعادة البناء في موقع المنزل المهدم. تجاوز يونس الإجراءات الروتينية متمسكًا بجوهر القرار وليس بحرفيته. إنّه مثال ثوري لشخص تجرّع مرارة المعاناة، صقله الألم فتصرّف بعقلية واقعية وبصورة مسؤولة. لولا هذا الموقف المدعوم من أبو جهاد، لما تمكّن كثير من الأسرى من بناء منازل لأهلهم الذين هاموا على وجوههم بعد هدم منازلهم.

## عظمة القائد

جاءني حمدي متألقًا: «تعرف كم يدقّق الإسرائيليون على الجسر، لم يُبقوا من جسم الشاحنات التي تنقل البضائع إلى الضفة الشرقية ما يمكن أن يُخفى فيه شيء؛ مقعد الكرسي صاج، جوانب الشاحنة معدنية، الموتور مكشوف تمامًا، والعجلات يجري وزنها عند كل خروج ودخول، حتى خزّان الوقود وضعوا في قعره مرآة تُظهر ما بداخله، لكننا لم نعدم الوسيلة، وضعنا خزّانًا داخل خزّان السولار، ألصقناه بالخزّان الأصلي بحيث يبدو الأمر طبيعيًا حين يضع فيه المفتش القضيب المعدني لتفتيشه. فكرة مثيرة اقترحها صاحبك. نجحنا في تهريب حوالى ستين رشاشًا، وصاروخي إم 7 ملم، وقنابل ومتفجرات. أعلم ما يدور برأسك: لماذا لا أُعطى حصة من هذا السلاح ومعظم أعضاء الحلقة المسؤولة عن إنزاله كانوا مرتبطين بي؟ هذا حقك، لكن الأولوية الآن لسرايا الجهاد، هذا السلاح للسرايا».

بناءً على توجيهات حمدي، اشترى المهندس سليمان الزهيري سيارة بيجو 504، زوّدها بلوحة حكومية إسرائيلية مزوّرة، وجّهز خمسة وعشرين كيلو غرامًا من المتفجرات لتفجيرها أمام مقرّ الكنيسة الإسرائيلي في القدس. وفي آخر لقاء لحمدي مع عطا فليان التي ستقود السيارة، قال لها وهو يضع اللمسات الأخيرة على العملية: «كي تظهرى كيهودية، استصدرت لك فتوى تسمح بنزع حجابك في أثناء قيادتك السيارة». أعتقلت عطا قبل تنفيذ العملية بأيام<sup>(109)</sup>. قال لي حمدي متألمًا بعد اعتقال خلية عطا: «ربما أنّي أدخلت على خط العملية أشخاصًا لم أدقّق فيهم كما يجب. هناك شيء لا يزال غامضًا حتى الآن. لغز ربما تكشفه الأيام. أرجو ألا يكون اختراقًا. إن تأكدت أنّي السبب في كشف المجموعة سأستقيل. لماذا أعتقل سليمان الزهيري؟ هذا السؤال يؤرقني».

قال الزهيري وهو يحدّثني عن التجربة: «تساءلت معي عطف: 'سيفتت الانفجار جسدي. لن يتمكن العدو من التعرّف إليّ، لكن بعد غيابي عن المنزل ستعلن أسرتي أنّني مفقودة، عندها سيعرف الكل أنّني الاستشهادية، وسيدمر الاحتلال منزل الأهل، هذا أشدّ ما يؤلمني'».

أضاف الزهيري: «في السجن تعرّفت إلى رجل من قرية اوطاس<sup>(110)</sup> اسمه أبو خالد. يومها كنّا نجمع قطع الحلوى لطفلة التي كانت بعمر خمسة أعوام. خرجت من السجن، وظلّ الرجل معتقلاً. قال لي حين التقيته في سجنتي الثانية: تذكر طفلي التي كنّا نشترى لها الحلوى؟ أصبحت أمّاً، سنجمع الحلوى لطفلتها».

قال حمدي وهو يحدّثني عن إبراهيم الصوري وإبراهيم العجوري اللذين فرّا من السجن الإسرائيلي: «أخشى أن تتحوّل حماسهما إلى تهوّر». بعد أيام جاءني والحزن يملأ عينيه: «تذكر ما حدثتك به أول أمس، استشهد الشابان». كانت هذه شرارة انتفاضة عام 1987. تعاظمت الانتفاضة وانتشر لهيبها، فقال لي حمدي الحريص على أن يشعرني أنّني ما زلت قيادياً في اللجنة على الرغم من تركي لها: «لديّ فكرة. أن تصبح المسؤول عن الجانب السياسي في عملنا. من يصلح للعمل السياسي نحوله لك، ومن يصلح للعمل العسكري نحوله لنا». كثيراً ما تمتّع حمدي بنظرة قيادية ثابتة، وب عقل فائق التوهّج، أدرك مبكراً حاجة الانتفاضة لأطر تستوعبها.

كان الشيخ عبد العزيز ناجي في الرابعة والثلاثين حين اشتعلت الانتفاضة، أباً لثمانية أطفال. مقال بناء ويملك بيتاً جميلاً وسيارة. قال حين التقيته برفقة حمدي في منزله بجبل التاج<sup>(111)</sup> في عمّان: «ما عاد لوجودي هنا معنى. أنا أحمل تصريحاً يمكّنني من العودة إلى الوطن، أريد أن أتدرّب على السلاح، وأتمهي للعودة». تدرّب الشيخ في بغداد وعاد إلى عمّان برسالة من أبو جهاد مفعمة بالأمل، وواصل طريقه عائداً إلى الوطن كتلة ملتعبة بالروح المعنوية. جاء في أولى رسائله: «أصبت بثلاث رصاصات مطاطية». أيام وصدمنا نبأ استشهاده من الإذاعة الإسرائيلية: «قتل مخرب في حيّ الدوحة في مدينة بيت لحم بانفجار غامض في منزله». استشهد أبو نادر بانفجار عبوة ناسفة كان يصنّعها.

في الفترة ذاتها التقيت مروان أبو نجمة في عمّان. شاب ثلاثيني من مدينة الخليل. متزوج ومستقر مع عائلته في الأردن. لا يقلّ حماسة وروحاً ثورية عن أبو نادر. تدرّب وعاد إلى الوطن، وأصبحت والدته، الحاجة صدقية، نقطة الاتصال بيننا. كان قدر الرجل أن يستشهد في المجزرة التي ارتكبتها الصهيوني غولدشتاين، حين أطلق نيران رشاشه داخل الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل<sup>(112)</sup>، فحصد أرواح عشرات الراكعين لصلاة الفجر في ليلة رمضان مباركة.

روى لي عدنان السلطان حكاية علاقته بـ«لجنة التنظيم 77»: «في سنتي الجامعية الأولى بجامعة شين الكوم في محافظة المنوفية المصرية، التقيت الطالب في كلية الهندسة سليمان السيد من غزة، جنّدي لحركة فتح وعرفني إلى ياسين جابر عضو الهيئة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين. جنّدت شقيقي عمر الذي كان طالباً في الجامعة في مصر. في العطلة الصيفية سافرت إلى بيروت والتقيت حمدي. حين تحرّجت في الجامعة

عدت إلى الوطن متحمساً للكفاح المسلح. قلت لحمدي في أحد لقاءاتنا لاحقاً: 'لا يجوز أن يقتصر عملنا على خلية تعمل ثم تُعتقل. يجب أن نعمل في صفوف الجماهير على نطاق واسع'. وافقني الرأي فأسست نادياً في مخيم بلاطة<sup>(113)</sup>، وأقمت لجنة للعاملين في جامعة النجاح، ثم سيطرنا على مجلس الطلبة في جامعة بيرزيت. أصبحت فتح الأولى في النشاط الجماهيري الذي كان يسيطر عليه الحزب الشيوعي». أضاف عدنان: «أُعتقلت أكثر من عشرين مرة، لكنني كنت أستأنف نشاطي كلما خرجت من السجن. لم يكن هذا متاحاً في العمل السري. هناك كان ينتهي الأمر في غياهب السجون».

قال عمر شقيق عدنان: «بعد تخرّجي في الجامعة تلقّيت تدريباً عسكرياً وتعبوياً في لبنان. بعد ستة أشهر من عودتي للدخل اعتقلتني المخابرات الإسرائيلية بسبب خلل وقع مع رسول آتٍ من الخارج. أُعتقل الرسول، واعترف على خالد عبد العال الذي اعترف بدوره عليّ. حُكمت اثني عشر عاماً، وحُكم خالد سبعة أعوام».

## زلازل

بعد أقل من شهر من اندلاع الانتفاضة الأولى، استدعت المخابرات الأردنية حمدي: «الإسرائيليون يهدّدون باغتيالك، نحن لا نتحمّل وقوع ذلك على أراضينا. سنزوّدك بجواز سفر لعام واحد. اختر البلد الذي ستوجه إليه. كن حذراً، وتذكّر أنّك مطلوب للإسرائيليين».

قال هارون غنيم وهو يسرد ما جرى بعد ذلك: «كان مضي على توقيفي عن التسلّل عبر الحدود السورية الأردنية حوالي أربعة أعوام، في تلك الآونة ساد صفوف اللجنة حالة تذرّ. تراجع العمل، وضعف التواصل. خيّم علينا أجواء سلبية، وانتشر القيل والقال، وافقدنا حميمية الترابط التي اعتدناها. في هذه الأجواء جاءني حمدي وقاسم لتهريبهما إلى سورية، وافقت. شعرت بثقل المسؤولية وأنا أتقدّم قائدين كبيرين لتهريبهما، اضطربت مشاعري وما عاد يفصلنا عن «الشيك» الحدودي أكثر من مئتي متر، ماذا لو استشهد الرجلان أو أحدهما؟ جزعت. لم أفوّ على قطع المسافة التي كنت أعبرها بسهولة. أفصحت لهما عن مخاوفي معللاً أنّني لم أختبر الحدود منذ أعوام، أنّني لا أعلم بما طرأ عليها من تغييرات، وما استجد من إجراءات. طغى عليّ شعور كما لو أنّني أجتاز الحدود أول مرة. قرّرت العودة بهما. بعد أسبوع أبلغني قاسم أنّ حمدي لن يرافقنا. في الليلة التالية قدت قاسم إلى الحدود، فوقعنا في كمين للجيش السوري. حمدت الله أنّ حمدي ليس معنا. عام من الاعتقال وسلّمنا السلطات السورية للمنشقين على حركة فتح، بقينا تحت الإقامة الجبرية لثلاثة أشهر في شقة بحي المزة<sup>(114)</sup>، كان يحرسنا شاب كُلف بتأمين احتياجاتنا. نشأت بيننا وبينه ثقة، فأعطانا مفتاح الشقة. بعد ظهر أحد الأيام تهرّب قاسم إلى بيروت، وتوجهت أنا صوب الحدود الأردنية».

صباح يوم السادس عشر من كانون الثاني/يناير عام 1988، اليوم الذي سبق إبعاد حمدي من الأردن، تناولت معه القهوة في شرفة منزله الزجاجية على الدوار السادس بجبل عمان. كان مفعماً بالحياة وهو

يداعب طفلته منى التي لم تكمل عامها الأول، فيما ترفرف حولنا طفلته الأكبر منال فرحة بفستان مزركش، أما ابنه جواد الذي كان في الثالث الابتدائي، فقد شغله جهاز كمبيوتر «صخر» اشتراه له والده قبل أيام. ظهر ذلك اليوم رافقت حمدي لشراء بعض الألبسة له من جبل الحسين<sup>(115)</sup> استعدادًا لسفره. في الطريق عرّجنا على الدائرة المالية في «فتح»، واستصدر كتابًا كلّفني فيه بتسليم مخصصات منتسبي لجنة 77 في سورية. كلّفني حمدي بذلك على الرغم من أنّني ما عدت عضوًا في اللجنة منذ أكثر من عام.

مساء الرابع عشر من شباط/ فبراير عام 1988، كنت مستغرقًا وجهاد العمارين<sup>(116)</sup> في حديث عن سفينة العودة التي اختطفت أضواء الأخبار، حيث تجمع مبعدون فلسطينيون من الأرض المحتلة في جزيرة قبرص بقصد التوجه إلى سواحل الوطن مطالبين بحقوقهم في العودة. قلت لجهاد وقد أصبحنا قرييين من منزلي في الجبل الأخضر: «لنشب الشاي، ونستمع لنشرة الأخبار». كان الذهول أبلغ تعبير عن صدمتنا ونحن نستمع لما بثه التلفزيون الإسرائيلي: «قتل ثلاثة مخربين بانفجار سيارتهم في مدينة ليماسول بقبرص». لم نتمالك أنفسنا ونحن ندقق في أشلاء الشهداء قاسم، حمدي، ومروان كيالي!

مساء قاسم وقد توقفت سيارتنا إسعاف ثقلان جثماني قاسم وحمدي أمام غرفة الموتى في مستشفى الجامعة الأردنية بعد أيام. اشتد النحيب، وتعالى البكاء ونحن نتلمّس النعوش مودعين قادتنا، في الوقت ذاته كان رفاق آخرون لنا يودّعون مروان كيالي إلى مثواه الأخير في مقبرة الشهداء في بيروت.

دارت الأسئلة حائرة في رأسي: «ما الذي نؤم يقظتك يا قاسم وأنت الحذر إلى درجة الشك؟ هل كانت الثغرة في قدوم حمدي من تونس باسمه الحقيقي؟ هذا ما تساءلت عنه لاحقًا بعد كشف عميل الموساد الإسرائيلي عدنان ياسين الذي كان مسؤولاً عن دخول ومغادرة الفلسطينيين في سفارة فلسطين هناك. ربما أن هذه هي البداية. جئنا لمقابلة من؟ ثم لماذا غامر الموساد بتأجيل اغتيال حمدي وقد سبقك بالمجيء بأيام يا قاسم؟ الموساد ليس غيبًا ليفوت فرصة صيد ثمين كحمدي لولا أن مقرّبًا منك، من محيطكم الضيق، أكد لهم أن السيارة ستقلّكما معًا في ذلك الصباح الدامي، هذا من أعطى إشارة التفجير. سيظلّ اللغز مفتوحًا على فضاء البحث والتحليل، وستبقى أسئلة كبيرة برسم الإجابة، كيف وأين حصل الخرق؟ من الوغد الذي أعطى إشارة التفجير؟ أموت رعبًا وأنا أتخيّل ما زال يواصل رحلة نذالته متميًا لحزب أو فصيل لبناني أو فلسطيني، مستفيدًا من ماضي قربته من الشهداء الذين حظوا بمكانة رفيعة في الوسطين الإسلامي والوطني. طالما لم يُكشف السرّ ستظلّ يد العميل مطلقة، ربما يضحى أشدّ خطورة.

بدا أبو جهاد مصدومًا حين التقيته في عمّان مساء الثاني عشر من نيسان/ أبريل عام 1988، يومها كان مضى شهران على استشهاد حمدي وقاسم. قلت له منفعلاً: «بعد استشهاد حمدي وقاسم يعيش رفاقهما فورة غضب. أكاد أتخيّلهم يتساءلون: لم ينصفنا أبو جهاد في حياة قادتنا فهل سينصفنا بعد استشهادهما؟ أرجو أن تلامس جرح ألمهم برفق». ردّ حزينًا: «قبل استشهادهما اتفقنا على كل شيء، يبدو أن ذلك جاء متأخرًا. سأبذل جهدي لاحتضان رفاقهما».

يومان على هذا اللقاء وُصدم الناس بنبأ اغتيال أبو جهاد في تونس، كان ذلك يوم السادس عشر من



نيسان/ أبريل عام 1988. زلزال آخر، ضربة قاصمة للانتفاضة، وتيَّمت أنا. بعد أبو جهاد وحمدي وقاسم ما عاد في القيادة من يعرفني. شاركت في الوفد الذي سافر إلى دمشق لحضور جنازة أبو جهاد. في الرمثا فُتحت لنا صالة الشرف، وفي درعا استقبلنا قائد المنطقة العسكرية السورية الجنوبية بحفاوة. قُربت الانتفاضة واستشهاد القائد الكبير المسافات بيننا وبين أشقائنا العرب. الأهداف الكبرى تجمع. في أيلول/ سبتمبر عام 1970 اقتتلنا مع النظام الأردني. وفي عام 1976 وقعنا في الفخ ذاته مع النظام السوري. جعلنا ضعفنا نختلف على الحصص.

لم أشهد في حياتي سيلاً بشرياً كالذي تدفَّق على مخيم اليرموك في جنازة أبو جهاد، أناس يملأون الأزقة، وتزاحم على الشرفات وأسطح المنازل. وفي عمّان حضر جلالة الملك حسين وجلالة الملكة نور إلى بيت العزاء في ضاحية مرج الحمام. همس الملك لأم جهاد قبل أن يغادر: «البلد بلدك ونحن إخوتك وأهلك».

القادة بشخصياتهم وخبراتهم ليسوا أناساً عاديين. وجودهم وغيابهم ليست حوادث عابرة، هؤلاء لا يمرّون على العمل كسحابة صيف، وفي غياب المؤسسة ربما يضحى غيابهم سبباً للانهار. هذا ما ترتّب عن استشهاد حمدي وقاسم. عشية استشهاد القائدين كان تيارنا يشهد تحوّلاً حساساً باتجاه الإسلام، تحوّلاً عبّر عنه بتأليف «سرايا الجهاد الإسلامي».

جاء معين الطاهر قائد كتيبة الجرمق سابقاً ليقود عملاً شديد التعقيد. على الرغم ممّا يميّز به الرجل من قدرات ومعرفته لعدد مهم من كوادر اللجنة، لكنّ ذلك ليس كافياً للنهوض بمشروع هذه زلزال.

قال عامر الحجة، الكادر البارز في اللجنة، واصفاً حالتها بعد استشهاد قادتها: «بعد استشهاد حمدي وقاسم عشنا حالة ضجيج، تسمع قرقرة ولا ترى طحناً. تضاعفت موازنة اللجنة أضعافاً مضاعفة، ودخل على خط العمل أناس لفظتهم اللجنة منذ زمن، أصبح هؤلاء في الواجهة، وصُرفت لهم موازنات، فيما انكفأ آخرون وهُمّشت أدوارهم. تسببت هذه السياسة بخلق مراكز نفوذ متنازعة، وهيكلية مضطربة. بماذا أحدثك؟ ماذا أقول؟ والله إنّ من كتب لأبو جهاد تقريراً حاول فيه تشويه حمدي وقاسم، أصبح بعد استشهادهما قطباً مهماً في اللجنة ويتقاضى موازنة شهرية».

لم أستغرب ما قاله عامر، لم يفاجئني ما سمعته. إنّهُ يتحدّث عن الشخص ذاته الذي قال لي يوماً: «إن ظننتم أنّكم سترثونني فأنتم مخطئون». هذا فهم وضع للثورة ولقداسة التضحيات! هناك من يرى أنّ الثورة عقار يُباع ويُشترى! أنّها مشروع استثماري شخصي! أمثال هؤلاء بؤساء في أنفسهم، يتعذبون بتعاسة طرق تفكيرهم.

كادت عملية باب المغاربة أن تكون بداية «سرايا الجهاد الإسلامي» ونهايتها. استشهاد قاسم وحمدي قبل أن تأخذ فكرة السرايا حظها من الاختبار. هكذا مرّت على أعضائها كحلْم سريع. ولدت في مفصل حساس من زمن الثورة الصعب، كان ذلك قبل انتفاضة عام 1987 بقليل، وأجهضت فكرتها باستشهاد بُنائها الأوائل.

قال الحج عبد المعطي ونحن نعرض محنة تيارنا، «تيار منير شفيق»، في حركة «فتح»: «كانت لجنة 77 وكتيبة الجرمق ثمارًا طيبة للتيار. جاءت كوادرات التيار ورموزه من مواقع تنظيمية وعسكرية مختلفة؛ الشهيد سعد جرادات مؤسس السرية الطلابية كان عضوًا قياديًا في لجنة شؤون الأردن، وجاء الشهيد حسنين من لجنة نابلس، وكان الحاج حسن قائدًا لقطاع الجولان في قوات العاصفة، والشهيد محمد علي (أبو يعقوب) قائدًا لكتيبة الجليل، وكان الشهيد جواد أبو الشعر قائدًا للميليشيا، وغيرهم كثير.

ضم التيار لبنانيين وعربًا وأجانب كما هي فتح. لم يكن التيار تنظيمًا داخل التنظيم، ولم يسعَ لذلك، كان من صلب الحركة وفي قلبها. لم يرتب أحدنا يومًا تجاه انتماؤه الفتحاوي، ولم نقبل أن نوصف بما أراده من حاولوا دفعنا إلى خارج الحركة. لقد جمعنا أفكار تجسدت في سلوكيات جادة حققت انسجامًا عميقًا بيننا. كان موقفنا السياسي منسجمًا مع السياسة العامة للحركة واختلف معها أيضًا. بدا ذلك جليًا في الموقف من برنامج النقاط العشر<sup>(117)</sup> الذي تبنته الحركة عام 1974 ورفضناه، لكننا لم نشعر بأننا خارج السرب. نمونا في أحشاء فتح، وترعرعت أفكارنا في حديقته.

قال أبو حديد: «منذ التحقت بالكتيبة الطلابية عام 1976 ومنير شفيق رمز للتيار، وقاسم وحدي قادة للجنة 77، فيما معين الطاهر قائد الكتيبة ومروان كيالي نائبه. نما الجسد وبقي الثوب على حاله. النتيجة أن يتمزق الثوب أو يتقزم الجسد. ماذا نفعل بالطاقات الوافدة والدماء الحارة؟ ما الذي يحصل لبذرة زيتون بعد عشرة أعوام إن غرست في وعاء؟ يتمزق الوعاء وتموت الشتلة. جعلنا خوفنا من القيادة نحوط شبابنا بستار حديدي. لماذا نخشى عليهم ونحن نثق بهم؟ بعد استشهاد حمدي وقاسم غاب التيار إلا من بقايا دفء الحنين للماضي».

دائمًا فرض قاسم وحدي احترامهما على رفاقهما، لكن سرية العمل لم تسمح ببناء مؤسسة. عدا لجنة الأقاليم التي ترأسها عدنان أبو عيَّاش، لم تفرَّخ تجربتنا لجانًا. طوال أعوام وجودي في اللجنة لم أحضر اجتماعًا عامًا لإطارها القيادي أو العام. في غياب ذلك كيف سينمو الفهم المشترك ويعتاد الكوادرات على الحوار؟ هل للقادة أن يولدوا بعيدًا من المشاركة بالرأي والتجروء على اتخاذ القرار؟ لم يطرح أحدنا مثل هذه الأسئلة. استغرقنا في عملنا بثقافة التفاني والثقة المتبادلة، وبررنا أخطاءنا بسرية العمل، وبقوة شعار «الخط الصحيح» الذي رفعناه دون أن ننتبه إلى أنه يحمل في ثناياه بذورًا انعزالية! أدَّى تخوفنا من أن تغري القيادة كوادراتنا إلى جعلنا نتوقع على أنفسنا. تسبَّب بجعل رفاقنا جنودًا مجهولين داخل حركتهم. كيف لقيادة أن تقدّر عملاً تجهله؟ الصدفَة التي حمتنا عزلتنا.

## نقلة نوعية

تمخض المؤتمر العام الخامس لحركة «فتح» الذي عُقد في تونس عام 1989 عن تأليف لجنة قيادية للأرض المحتلة برئاسة هایل عبد الحميد (أبو الهول)<sup>(118)</sup>، وعضوية عباس زكي، صبحي أبو كرش (أبو المنذر) ومحمد جهاد. قلت لعباس زكي الذي أصبح مسؤولاً للانتفاضة بعدما انتهى من جلسات انفرادية

مع زملائي: «أنا ليس لديّ أسرار، أريد أن أتحدّث إليك بحضور زملائي. الأرض المحتلة حقل ألغام. وواجهنا أن نساعدك بخبراتنا لتخطّي حقل الألغام، ولمواجهة تحدّي التعرّف إلى المسالك الخطرة. هذا هو الأهم في رأيي في هذه المرحلة».

في اليوم التالي جاءني مصطفى عيسى وحسن الخطيب مسؤول مالية «فتح»: «طلب عباس زكي أن نسألك رأيك في أن تصبح مديراً لمكتبه». قلت: «إن كان يريدني سكرتيراً فأنا لا أفيده، أمّا إن أرادني خبيراً فلديّ الكثير».

التقيت عباس. شكرته على ثقته بي، وأبلغته موافقتي على العمل معه. أعطيته فكرة عن سيرتي، وعن تجربتي مع قاسم وحدي. كنت أدرك أنّ دوري يكمن بمساعدته في تلمّس طريقه وسط الضباب، إن كان على صعيد المواجهة مع العدو، أو في ما يخصّ ثغرات جهاز القطاع الغربي. وطريقة التعامل مع دهاليز معتمة يتخفى في زواياها كثير من التضليل والتهويل والكذب.

مهمّة شاقة أن أكون صادقاً وغير محبط في الوقت ذاته. حساسية المهمة تقتضي الشفافية، فيما الثقافة السائدة عكس ذلك، بالمقابل عليّ أن أتعرف إلى أولويات الرجل وطريقة تفكيره، أن أتلّس طريقي في بيئة ملاصقة للقيادة، والقيادة في بلادنا تهوى النفخ في نار التهويل لها. ليس من السهل دائماً إيجاد معادلة تقيم توازناً بين ما تُملّيه المسؤولية، وما تفرضه تعقيدات الواقع. كان موقعي الجديد فرصتي لإثبات جداتي، لكنني خشيت أن تخونني شجاعتي وحكمتي في التحدّث عن مقدار الخلل، وهناك ثمن لوجودك في موقع تحت الأنظار، فالأمر لا يخلو من طامعين وحُساد ودسائس.

كنت أتساءل وأنا أحاول إضاءة ما أستطيع من عتمة الدرب: «هل للرجل المتحمس لشغل موقع كان يقوده أبو جهاد، المحسوب من جيل العمالقة في قيادة حركة فتح، أن يصبح مسؤولاً عن الانتفاضة؟». هذا حلم يراود كل قائد، لكنّ الحلم شيء وتحقيقه شيء آخر. الواقع صعب، وهناك في داخلنا من سيضع عصياً في الدواليب، قد يبدو الأمر قاسياً لكنّها الحقيقة المرّة.

ثابت على أداء مهمتي بهمة، لكنني مع مرور الأيام لم أشعر بأننا حققنا اختراقاً ذا شأن في العقلية السائدة. كان علينا أن نلاحق الانتفاضة المتصاعدة بمغريات ما يلقي به محترفو التضليل في طريق عباس المتلهف لتحقيق نجاح. أتاح لي موقعي الجديد رؤية أشياء لم تُتاح لي فرصة الاطلاع عليها سابقاً. رأيت مقدار الخلل المالي على مسميات مضللة في الداخل، وكيف أنّ العبء الإداري في الخارج أثقل كاهل الداخل. تعزّزت ثقتي بنفسي، وتفتّح عقلي على طاقات لم أعدها. لم أبخل على عباس بما استطعت من صدق المشورة وحسن الرأي، لكنّ القادة في بلادنا يميلون للمرافقين أكثر من حاجتهم لمستشارين. وجود عباس على رأس الانتفاضة، أتاح له فرصة أن يصبح رقماً كبيراً بجوار أبو عمار. منحه عرفات صلاحيات صرف مالي لم تكن متاحة لأبو جهاد، فقد رأى أبو عمار في عباس رديفاً لا منافساً.

ذات مرّة قلت لعباس بأسى: «مستحيل أن تنتصر ثورة تسكن قيادتها في مناطق الأثرياء غرب الدوار الرابع في مدينة عمّان، ويسكن شعبها ومناضلوها شرق المدينة؟ عالمان يفصل بينهما جدار اجتماعي سميك».

في منزلي المتواضع بالجبل الأخضر استضفت عباس وهاني الحسن<sup>(119)</sup> للاجتماع إلى نخبة كوادر من الأرض المحتلة. قال عباس: «منزلك ضيق، بدّله يا أخي». أجبتّه: «أنا أستقبل في منزلي أقارب فدائيين ومعتقلين، عيب كبير أن يشعر هؤلاء بالغربة في منزلي. ثمّ إنّني أرفض أن أجلب لأبنائي انفصامًا بأن أسكنهم في بيئة تفوق قدراتي المادية، أو أن أنحرف بسلوكي راضخًا لشروط مانح المال».

في هذه المرحلة تعرّفت إلى نجيب الأحمد مدير مكتب القائد العام في عمّان. ربما كان الرجل في السبعين. لفت انتباهي أنّه يضع توقيعه على تقاريره لأبو عمّار بين أسطر الرسالة، أنّه لا يكتفي بالتوقيع في ذيلها. سألت الرجل: «لماذا هذا يا عم أبو منير؟». ردّ: «إن لم أفعل ذلك يسرقون جهدي، يصوّرون التقرير ويضعون عليه توقيعههم. لصوص». الشيطان يعجز عمّا «يبدعه» الفاسدون.

ذات مساء كنت فيه عائدًا من تونس إلى الأردن اتصل بي صديقي زكريا الحلو (مازن):

- هناك أمر مهم أريد أن أطلعك عليه.

- أنا مرهق، قدمت للتو من المطار.

- الأمر لا يحتمل التأجيل.

- إذا أنا بانتظارك في البيت.

همس لي صديقي وقد اختلينا في الصالون:

- هناك جندي إسرائيلي أسير في عمّان.

- ماذا؟ أين؟ كيف؟

فتح الحديث شهيتي على تحرير أسرانا في معتقلات العدو.

- الأسير عند شخص في جبل اللويبة.

- لنذهب إليه فورًا.

في شقة على الطبقة الثانية من عمارة قديمة بجبل اللويبة، عرّفني مازن إلى شيخ ملتج ضخم الجثة. أجنبي الشيخ بثقة حين وجّهت له بعض الأسئلة عن الأسير: «هذه صورته». تلفّظ الرجل بذلك، وراح يعرض عليّ صورًا لشاب بسحنة أجنبية، معصوب العينين، ويصوّب مسدسًا على رأسه. إحساس داخلي جعلني أشعر بالارتياح.

قلت محاولاً إغراء الرجل للاسترسال بالحديث: «يبدو أنّ رجالك ماهرون، لا بد أنكم تستطيعون تكرار الخطف». ردّ مزهواً: «رجالنا من الأراضي المحتلة عام 1948». قلت: «أريد خطف جندي آخر. أن أرى بطاقته الشخصية، وأن أسمع إعلانًا من راديو العدو عن فقدته». ردّ مستفزًا: «لماذا تعقيد المسألة والأسير بيدنا؟». أجبت بصرامة: «يجب أن نبداً ممّا قلته لك». انتهت الجلسة.

قلت لما زن بعدما غادرنا: «هذا رئيس عصابة». أيام وجاءني الأسير المحرّر محمد عيّاش (أبو زيد حاتم): «يوجد أسير إسرائيلي عند جماعة». قلت: «لا تورّط نفسك، هذه عصابة». كان الإغراء أقوى من أن يقاومه مناضل يحلم بتحرير رفاقه من السجن. باع أبو زيد ومحمد البيروقي ونظام براهيم مصاغ نسائهم، جمعوا سبعة آلاف دينار ودفعوها «ثمنًا للأسير». بعد أيام اعتقلوا. قال لي أبو زيد حين خرج من السجن واصفًا ما جرى: «حملت 'الأسير' معصوب العينين في سيارتي، عند الدوار الرابع في جبل عمّان صاح الشاب وقد لمح شرطياً من تحت العصابة:

'أنا مش أسير، أنا من الرصيفة'. حينئذٍ اعتقلنا الشرطي».

بمقدار ما كانت الانتفاضة فرصة للعطاء وتعزيز الأمل بالنسبة للخيرين. لم يتوان شياطين البشر عن المتاجرة بالمحرمات. في أوج الفساد المالي والإداري، دفع أبو عمّار نصف مليون دولار لأحد قادة القطاع الغربي لشراء صفقة سلاح، وحين طُلب منه تسليم بعض ما ادّعى شراؤه، قال إنّ سلطات الاحتلال بنت فوقه مستعمرة نتساريم<sup>(120)</sup>.

كنت أدرك أنّه لن يكون بمقدور عباس إعادة صوغ وضع تكلس على الأنانية وقلة المسؤولية، فقد ورث جهازًا مهشّمًا، وهناك مصالح سيدافع عنها أصحابها بشراسة، والبعض يتطلّع للفوز بأكبر نصيب من كعكة سهاها أحدهم «محجر ليرات»، متحسّرًا على عدم وجوده حول مائدة الدم. ماذا أقول لعباس عن كادر «كبير» بسط أمامي خريطة للقدس القديمة، تضمّنت ادعاءه بإقامة لجنة شعبية في كل حارة وزقاق مع أنّ المدينة المقدسة ليست ضمن نطاق عمله؟ ماذا أقول عن كادر آخر ادّعى أنّه أقام معملين لتصنيع المتفجرات في الداخل، علمًا أنّ لجنته لم تنفّذ عملية عسكرية واحدة؟!

كان الفساد سرطانيًا مستشريًا. ما الأسباب التي حالت بين أبو جهاد وتصحيح وضع جهاز القطاع الغربي؟ ربما تسبّب الصراع على موقع الجهاز في المؤسسة القيادية الأولى في الحركة في تخريبه! وجاء اندلاع الانتفاضة، «محجر الليرات» كما سمّاها أحد غيلان الفاسدين، لتدعم الفساد بدلًا من أن تنقض بنيانه، ثمّ جاء قدر الاستشهاد المبكر لأبو جهاد ليخدم الغاية ذاتها.

لقد تسبّبت الأعوام التي فصلت بين خروج الثورة من لبنان واندلاع الانتفاضة، وما ترتّب عن انشقاق حركة «فتح» بفساد وتراجع منسوب التضحية، وحين اندلعت الانتفاضة ولج معظم قادة اللجان العسكرية في القطاع الغربي بابها. رأى المخلصون فيها فرصة لتجديد روح الثورة، وهناك من وجدها مشروعًا للشراء. أمّا مبعدو الانتفاضة من الداخل فوجدوا أنفسهم بجوار القيادة بين ليلة وضحاها، بعضهم أصابه دوار المغريات، ومنهم من أذهله بؤس الواقع. لم تكن الحال كما ارتسم في الخيال والوجدان لأعوام، وكان لهذه وغيرها تداعياتها.

بذل أبو الهول الذي تولّى مسؤولية جهاز الأرض المحتلة بعد استشهاد أبو جهاد جهدًا جبّارًا لبناء مؤسسة تقوم على الجدّ والشفافية، لكنّ الثقافة البائسة العميقة حالت بين الرجل وحلمه، ولم يغب الصراع القيادي عن التأثير على مجريات الأمور ومسارها. بصراحة، لم نكن بمستوى الانتفاضة وتطلعاتها. كنّا

بحاجة إلى انتفاضة في الخارج ترتقي لسموّ انتفاضة الداخل بإبداعاتها وتضحياتها.

على الرغم من أنّني حديث العهد نسبيًا بالخروج من الداخل ولديّ تجربة معقولة، لكنّي لم أدرك ما تعنيه الانتفاضة في الواقع. هذه واحدة من مشكلات القيادة عن بُعد. كان عليّ أن أسأل نفسي حين أنزلت هاني الديك (ثائر) إلى الداخل: «من أين سيتسلح؟ وكيف؟». عرضت الأمر على أبو الهول ورفاقه في القيادة: «يحتاج ثائر خمسة آلاف دولار توضع في ثلاث نقاط في الداخل، ما يسمح له بمرونة الحركة في ظلّ الانتفاضة المحتدمة». قاطعني أحدهم: «أووف! خمسة آلاف دولار! كثير». استفزني الجواب فقلت منفعلًا: «لو أنّ معي مالا لتصرّفت بمفردي».

ما عدت أذكر كيف استكمل الاجتماع. ما أتذكره أنّ أبو الهول نصحني بعد مغادرة زملائه: «لم يكن انفعالك ملائمًا، أنت شتلة نامية، تجنّب المواقف التي قد تُدخلك في صراعات وتجلب لك عداوات وحسادًا». صرف لي أبو الهول المبلغ ونجح ثائر في النزول للداخل، لكنّه عاد بعد شهر. لقد أخفقت العملية التي كانت بمنزلة حلمي. أنا من يتحمّل المسؤولية. لم أكن ملئمًا باحتياجات المطارد الحقيقية فيما الانتفاضة في أوجها.

## لماذا فزت بالموقع من دون غيري؟!

ترأس أبو الهول اجتماعًا في بغداد لقيادة القطاع الغربي، تمخّض عن تأليف لجان لقيادة العمل في الضفة الغربية؛ لجنة الشمال، لجنة الوسط، ولجنة الجنوب، ولجنة رابعة لمتابعة الأسرى في سجون الاحتلال. في هذا الاجتماع تقرر أن أكون مسؤولاً عن منطقة الوسط؛ القدس، رام الله، أريحا. من رشّحني للموقع؟ لماذا فزت به من دون غيري؟ ربما هو عملي مع عباس زكي، والصورة التي ارتسمت لي في ذهن أبو الهول، ودعم من يعرفوني من رفاق تجربتي، وإلا فالمواقع في الحركة لم ترتبط بالكفاءة في أغلب الأحيان. تقدّمت باستقالتني لعباس زكي من مسؤولية مدير مكتبه لأتفرّغ لمهمتي الجديدة، فأنا شديد الإيمان أنّه لا يمكن حمل بطيختين في اليد ذاتها. لم يكن أبو عمّار راضيًا عن التشكيل الجديد، ولأنّ أبو الهول يدرك حساسية أبو عمّار، فقد ظلّ يحنّنا على التواصل معه.

وقت قصير واستدعاني أبو الهول إلى تونس. قال بحضور صبحي أبو كرش: «مروان البرغوثي يرغب في العمل معك في لجنة الوسط، هل توافق على ذلك؟». بدا الأمر مربكًا وغير مفهوم! كيف لمن هو أعلى مرتبة تنظيمية منّي أن يعمل بإمري؟ زاد الطين بلّة أنّ هناك من حرّضني ضدّ مروان. لولا أنّني لم أكن أحترم المحرّضين لربما تردّدت ورفضت. دعمتني ثقتي بنفسي ومشاعري الوجدانية تجاه مروان فوافقت، لكنّ ذلك لم يلغ مخاوفي تمامًا. كانت هذه مجازفة، فأنا لا أحب العمل تحت ضغط شبّح الصراع الداخلي.

اكتشفت لاحقًا كم كان موقفني صائبًا، على الرغم ممّا انطوى عليه من مغامرة. كنت محظوظًا بشراكة مروان، وسأظلّ فخورًا برفقتنا في تجربة سيترتب عنها الكثير. أراد مروان أن يظلّ على تماس فعّال مع

الداخل، وهذا ليس متاحًا خارج اللجان لشخص صادق وملتزم، كثيرون أقاموا خطوطًا موازية للأطر الرسمية فألحقوا أضرارًا بالغة بالعمل وهم يلعبون في ملاعب غيرهم، مروان ليس من هؤلاء. ولأنّه يدرك ما يريد ويحترمني، فإنّه لم يشعر بالضير إن عمل تحت قيادتي على الرغم من أنني أدنى مرتبة تنظيمية منه. مروان يثق بنفسه، يقدر ذاته، ولا ينكر قيمة الآخرين. روح قيادية رفيعة.

التحدي الأول الذي واجهني في مهمتي الجديدة هو توحيد اللجنة، أن يضمنا إطار وتوزيع المهام بيننا، هذه لا تشكّل شروطًا كافية للنجاح، إنّما ليست أكثر من تقاسم حصص. اللقاء الوجداني والثقافة الواحدة، اللغة الموحدة والفهم المشترك، هذه، وأخرى غيرها، كفيلة بتحقيق تناسق يُفضي إلى إنجازات. بسلوكي المتواضع، وبوعبي الواضح لطبيعة المهمة، وبتعاوننا معًا تغذّت اللجنة بروح الفريق.

التحدي الثاني الذي لا يقل أهمية، تمثّل بكيفية استيعاب مروان كطاقة متميّزة وكعضو مجلس ثوري، من غير أن يمسّ ذلك بصلاحياتي، أو ينتقص من كرامة وحقوق زملائنا. أمّا التحدي الثالث فتمثّل باختبار قدرتي على قيادة تنظيم جماهيري، هذا ليس سهلاً بالنسبة للآتي من خندق الكفاح المسلح ذي الطبيعة السريّة.

واجهتنا أسئلة كبيرة وكثيرة. كيف نللم جراح المناضلين والمطاردين؟ كيف نتصرّف وقد «انقسم» التنظيم في الداخل بين «كتائب الشهيد أبو جهاد» و«الجيش الشعبي»؟ صحيح أن الانقسام كان محدودًا، لكنّه مسّ بالروح المعنوية لمناضلين يعيشون أوضاعًا قاسية. بذلنا جهدًا كبيرًا، وتصرّفنا بمرونة لمحاصرة الانقسام الذي صنعتها أيادي الخارج. نجحنا إلى حدّ كبير. لكنّ المال الذي ظلّ يتدفق عبر قنوات موازية أدّى دورًا تخريبيًا.

اختلفت تجربتي في «لجنة التنظيم 77» عنها في لجنة الوسط؛ في الأولى كنت في دائرة تفيض أمانًا، لكن لم يكن هناك مؤسسة. اليوم، في لجنة الوسط، أنا سقف لأشخاص لا تربطني بأغليبتهم تجارب سابقة، لكن هناك مؤسسة، اجتماعات أسبوعية ودورية. مع الأسف كنّا نفتقر لهذا التقليد في لجنة 77. في كلتا التجربتين كان هناك أخطاء وثغرات، ودائمًا أرهقنا ضعف الإمكانيات المادية.

في لجنة الوسط على سبيل المثال، يستحيل على موازنة ابتدأت بأربعين ألف دولار شهريًا ثم تقلّصت لاحقًا إلى النصف، أن تصرف على انتفاضة في المنطقة المعنيّة، وأن تكفي لمصاريف إدارية في الخارج. بدا الوضع مأساويًا، ورسائل المطاردين إلينا تفيض ألمًا، تتحدّث عن قسوة وضع العائلات، عن الحاجة للسلاح والألبسة والأحذية التي تقي المطارد برد الشتاء وصعوبة العيش في الجبال. بالكاد نجحنا بصرف مخصصات شهرية قليلة لعدد محدود من المطاردين. بمكانته وخبراته ودفء العلاقة بيننا، وانطلاقًا من مناخ اللجنة الإيجابي، أصبح مروان نافذتي على الشبيبة الفتاوية وعلى الشخصيات الوطنية؛ فأنا الآتي من أرض العمل العسكري كنت شبه غائب عن هذه الصفحة. لقد شكّل مروان إطلالة عالية لي على الانتفاضة، وأفسحت له ما يستحق.

تألّفت لجنة الوسط من مروان البرغوثي، كمال ياسين، ناديا الخياط، عبلة طه، أحمد عبد الهادي، حسن

اشتياوي، عبد الحميد البابا، راضي جابر. بعد أشهر طلب أبو شامخ، سفير فلسطين في الأردن، وهو عضو مجلس ثوري أن ينضم إلى لجتنا. هذا مؤشر على القوة المعنوية للجنة، وعلى ما أتمتع أنا به من ثقة كمسؤول لها. تميّزت لجتنا عن باقي لجان الغربي بكونها الوحيدة التي تضم نساء، وأنّ عضويتها لم تقتصر على كواد من منطقة الوسط فحسب. ومع أنّ معظم أعضاء اللجنة مفرّزين من لجان متصارعة، بل أنّ بعضهم زُرع فيها بعقلية المندوب، لكنّا بالتفهم والاحترام المتبادل بنينا مؤسسة صهرتنا عبر الثقة والعمل المشترك في بوتقة ميّزت أسلوبنا الجاد، وانعكس ذلك على تأليف لجنة الوسط وآليات عملها في الداخل.

منذ تأليف المؤسسة التنظيمية المسؤولة عن الأرض المحتلة بقيادة أبو الهول، عانى العمل من ازدواجية القيادة. ثغرة كبيرة ترتّب عنها بناء خطوط متوازية في عمّان وأخرى مثيلة لها في تونس. تسببت ازدواجية عمّان بظهور «الجيش الشعبي» الموازي لـ«كتائب الشهيد أبو جهاد»، وأسفرت ازدواجية تونس عمّا يمكن تسميته «اختطاف بيان القيادة الموحدة للانتفاضة وإصداره من تونس»، وعن نشوء «اللجان السياسية» في الداخل. هذا على مستوى الخارج، أمّا على صعيد الداخل فقد أدّت الإبعادات والاعتقالات المستمرة إلى عدم ثبات عضوية لجنة الوسط هناك.

في بداية عملنا كان عبد الفتاح حمائل يترأس لجنة الداخل، وضمت على فترات: توفيق البرغوثي (أبو مخلص)، رائد البرغوثي، راضي الجراعي، ربيحة ذياب، هشام أبو مريم، عزّت بدوان، حسين الفقهاء، نبهان خريشة، محمد أبو حمام، زهير القيسي، حسن الخطيب، عمر سمحة، عبد الكريم صعايدة، صلاح زحكة، حسن علوي، صائب نظيف، بلال التنشة، أحمد غنيم، زكريا مصلح، حسين الشيخ.

بعد إبعاد عبد الفتاح من الوطن، تولّى أبو مخلص مسؤولية اللجنة. كانت لجنة الداخل تفرز أعضاء القيادة الموحدة للانتفاضة، وقد مثلها على فترات كل من: الدكتور سمير شحادة، حاتم عبد القادر، سرحان السلايمة، ثمّ يونس العموري في آخر مراحلها. وكان هناك إطار للمرأة ضمّ: ربيحة ذياب، عايشة باكير، فاطمة الكردي، مها الخياط، عير الوحيددي، نهلة قورة، آمنة أبو عين، مريم هديب، نداء أبو حبة، حسنية داود، شقيقة الأسير المحرّر خالد داود، وأم حسام شقيقة الأسير المحرّر تيسير الرميلى، وأخريات.

وكان هناك لجنة لمتابعة النشاط الطلابي في جامعة بيرزيت ضمت: زكريا مصلح، عبد الحميد البابا، وطّي داود شقيق حسنية. وكان هناك لجنة لمتابعة شؤون المطاردين. في مجلس طلبة جامعة بيرزيت الذي أُنتخب في أوائل عام 1987، تحت اسم «كتلة شهداء مغدوشة»، فاز مروان البرغوثي برئاسة المجلس الذي ضم خمسة من «فتح»، هم: مروان، ماجد عبد الفتاح، يوسف القرم، محمد الجبريني، ولؤي شعث، إضافة إلى عضوين من الجبهة الديمقراطية هما رياض عطاري ورنا سنان، وعضوين من الحزب الشيوعي هما أشرف الزين وجمال قرط. لم يعمّر المجلس طويلاً، فبعد شهرين من انتخابه، خرجت تظاهرة من الجامعة تضامناً مع إضراب الأسرى، واستشهد الطالب موسى حنفي من غزة وهو من «شبيبة فتح». اتخذت سلطات الاحتلال إجراءات شديدة ضدّ المجلس؛ أبعد مروان إلى الأردن، واعتُقل، رياض عطاري ومحمد الجبريني، وأغلقت الجامعة لمدة شهرين، ولاحقاً اعتُقل معظم أعضاء المجلس بمن فيهم رنا. وفي إحدى



المحطات تولى ماجد عبد الفتاح رئاسة المجلس.

كانت لجنة الوسط في الداخل تتألف من ثلاث شعب؛ شعبة القدس، شعبة رام الله، وشعبة أريحا. تردّد على عضوية شعبة القدس التي كان أمين سرّها بلال النشّة كل من: أحمد غنيم، حسن سرنده، محمد خالد الفقيه، طلال أبو عفيفة، صلاح زحبيكة، عزام النشّة، وآخرين. أمّا شعبة رام الله التي كان زكريا مصلح أمين سرّها فقد ضمّت: جهاد سمحان، حكمت سامي، حاتم عبد الجواد، صبري الطمیزی، حلمي العنقاوي، عزّت بدوان، وهشام أبو مريم. عشية إقامة السلطة الفلسطينية كان نمر عطية أمين سرّ هذه الشعبة التي ضمّت: جمال منصور، حكمت سامي، بلال عاقلة، عادل البرغوثي وآخرين. أمّا شعبة أريحا التي كان صائب نظيف أمين سرّها فقد تردّد على عضويتها كل من: عبد الكريم سدر، جمال صافي، عماد أبو حمّاد، حسين عطوان، سالم غروف، جمال عايش، كوثر المغربي، جمال سعيد، وجمال عليان، بدر مكي، جهاد أبو العسل، وجميل خليفة.

في إحدى المرات استدعاني أبو الهول إلى تونس: «تعرف قدرك عندي يا منصور، لكن لا شيء يعلو على مصلحة العمل، وصلني أنّكم لم ترسلوا الموازنة إلى الداخل منذ شهرين، أريد توضيحًا». قلت حزينًا: «لدينا مسؤول مالي، وهذه تقارير الداخل الشهرية». تنفّس أبو الهول الصعداء وهو الذي تميّز باستقامة قيادية، وبحرص دائم على بناء مؤسسة تقوم على الشفافية والقيم السليمة.

من موقعي في لجنة الوسط تعرّفت إلى توفيق البرغوثي (أبو مخلص). رجل حرص على أن يظلّ قدوة قيادية. أدار عمله كفائد للمنطقة من كوخ يعمل فيه حارسًا في جامعة بيرزيت. ظلّ أبو مخلص فدائيًا، فلاحًا بسيطًا ومتواضعًا. عاش فقيرًا، ومات غنيًا بخلقه وعمله. ظلّ كبيرًا في قلوب رفاقه ومن عرفوه. وأنا أكتب عن أبو مخلص تذكّرت راعي الأغنام التونسي، ذاك المناضل الذي التقيته وأنا أجول مع طفليّ علاء وخالد في «غابة رادس»، من ضواحي تونس العاصمة، يومها فرح الرجل حين عرف أنّني فلسطيني. أخرج من جيبه محفظة مهترئة، استلّ من تحت غلافها ورقة وابتسم: «أنا مجاهد مثلكم». قرأت على الورقة المذيلة بتوقيع بورقيبة<sup>(121)</sup>: «يُسمح له برعي أغنامه في الغابة». الله ما أعظم المناضلين! انتصار الثورة وتحرير الوطن مكافأهم الحقيقية.

## في حضرة القائد العام

حدّد لي صديقي محمود الدقة نائب السفير الفلسطيني في بغداد لقاء مع أبو عمّار. في ذلك الاجتماع أصغى إليّ القائد العام بانتباه وأنا أعرض عليه خطط عملي، وشبكة الخلايا العسكرية العاملة معي في الداخل. في هذه الأثناء دخل أحد مرافقيه: «عندك موعد يا أخ أبو عمّار». ردّ القائد العام وما زالت عيناه على الورق: «أعرف مواعيدي». قلت معتذرًا: «أخشى أن أكون أطلت عليك؟». قال: «الله! هو احنا بنلعب! أنا صرت ماخذ ثلاث قرارات مهمّة من كلامك». ربما أنّ ما قاله مجاملة! لا أدري، لكنّ كلامه أنعشني. بعد مدة قال لي عباس زكي: «أنت طاير فوق يا منصور». قلت: «ماذا تقصد؟». أجاب: «في اجتماع

للجنة المركزية في مكتب أبو عمار في يوغرطة بتونس العاصمة، دخل أحد مرافقيه علينا بملف. استأذن أبو عمار الحضور: 'هذا يريد من منصور'. قال ذلك وراح يقرأ ويوقع.

اكتسبت علاقتي بأبو عمار زخماً متصاعداً جعلني أشعر بأنني أصبحت محطّ ثقته، ومنحني ذلك مزيداً من الفخر. في أحد لقاءاتي معه في تونس، اقترحت عليه تأليف لجنة عمل يومي للانتفاضة تضم مسؤولي لجان الأرض المحتلة، ومسؤول لجنة السجون، إضافة لمروان البرغوثي وعمر مجاهد مسؤول المالية. هذا المقترح يقلّص عدد أعضاء اللجنة إلى سبعة بدلاً من ثلاثين. قال وقد تحمّس للمقترح: «ادعو إخوانك للحضور الخميس المقبل».

أبلغت عباس زكي بالأمر فجاء من عمّان مصطحباً لجنة الثلاثين! حين أبلغ أبو عمار بحضور اللجنة ظنهم من اتفقت معه عليهم. كان مريضاً فهبط من الطبقة العلوية بلباس نومه ليفاجأ بالحضور! افتتح الاجتماع غاضباً: «تفضّل يا منصور، احكي». هذا ما افتتح به أبو عمار الجلسة، كأنه أراد أن يقول لي: «لقد خيبت أملي، هل هذا ما اتفقنا عليه؟». رحت أثرثر بكلمات مرتبكة من دون أن أنظر في عينيه.

في مرّة أخرى جاءتنا رسالة من الداخل تتضمن إجراءات تنظيمية في قيادة لجنة الوسط. نصحني مروان بعدم إرسالها إلى أبو عمار، لكنني، احتراماً لموقعي ولإرادة رفاقي في الداخل، حملتها إلى تونس. سلّمتها للرئيس، لم يقرأها ولم يعلّق. قال بطريقة جافة: «سأطلبك». مرّت أيام ولم يطلبني! فذهبت إلى مكتبه. في قاعة الانتظار تلبّسني شعور سلبي. مسؤولون كبار وجنرالات ينتظرون لساعات طويلة بل لأيام، بعضهم يغفو على الكراسي في الممرات، وهناك من يتكرّر حضوره من دون أن يحظى بمقابلة. كنت أتطلّع في الوجوه وأتساءل: «ربما أنهم يستحقون الإهانة». غادرت المكتب. لم أنتظر مقابلة الرئيس.

قال لي أبو عمار على مائدة الغداء في اليوم التالي: «فين رحت امبارح؟ سألت عنك». أضاف قبل أن أجيبه: «تأتيني الليلة متأخراً». بعد منتصف الليل استقبلني الرئيس بحضور أبو علي شاهين وأبو أسامة محمد. قلت وقد طال الوقت من غير أن يتحدث بما جئته من أجله: «هل قرأت الرسالة يا أخ أبو عمار؟». ردّ مستفزاً: «قرأتها، وما يطلعش للجنةك تقرّر تشيل مين وتحط مين». مسّت لهجة القائد القاسية شعور الفدائي في داخلي. ومن دون أن أفكر بالعواقب قلت بثقة تلقائية: «أنا أويدهم». لو أنّ لي مصالح شخصية عند أبو عمار لما تجرأت على قول ذلك. الامتيازات تقهر أصحابها. أسعفتني سعة صدر القائد حين قال: «أنا عندي لجنة تنفيذية من ثمانية عشر، أعقد اجتماعاتي بمن حضر، لا أشيل فلان ولا أستبدل علان».

في اجتماع اللجنة الانتفاضة في عمّان بعد أيام، قال أبو عمار بغياي: «منصور صاير بتاع تحشيش فكري». علّق مورييس، زميلنا في اللجنة، منتصراً لي: «طول الوقت شَعْر منصور مزيّت من استغراقه الجاد بالعمل». قال لي مورييس في وقت لاحق: «حين انبريت للدفاع عنك، همس لي أحدهم: 'ورقة منصور ساقطة عند الرئيس، لا تدافع عنه'. لكنني انتعشت فخرًا حين أشاد بك أبو عمار في اللقاء التالي».

في العاشر من كانون الثاني/يناير 1991، ترأس أبو الهول اجتماعاً لقيادة الانتفاضة في عمّان، كان ذلك

بحضور صلاح خلف (أبو إياد). بعد ثلاثة أيام أقلت الطائرة الرجلين إلى تونس. مساء اليوم التالي اغتيلاً على يد مرافق لأبو الهول. هكذا استشهد آخر مفوض للأرض المحتلة.

في جو الحزن عبرت خيالي صور من شريط ذكريات جميلة مع أبو الهول. تذكّرت ما قاله لي بعد فترة وجيزة من تأليف لجان القطاع الغربي: «اتفقت على لقاء مع كوادر لجنة 77، على غداء في بيت معين الطاهر، أرغب أن ترافقني». في ذلك اللقاء تحدّث عمّار بن ياسر بكلام قاسٍ عن تقصير القيادة. قال أبو الهول وهو يحتضنه: «أحبك يا عمّار، لأنّي كنت متمرداً مثلك حين كنت في جيلك». بهذه الروح الأبوية نجح أوائل قادة «فتح» في قيادة حركة متنوعة مترامية. في تعليقه على التوجه الإسلامي للجنة 77 قال أبو الهول بعبقريّة: «تعالوا لتنفق». لم يتصرّف كما يقول القادة الصغار: «هذه حدودنا، التزموا أو اتركوا». تطوّرت علاقتي بأبو الهول بسرعة قياسية. في إحدى رحلاتي إلى تونس استضافني على غداء أقامه لأبو عمّار وأبو إياد، لإجراء مصالحة بين نايف حواتمة<sup>(122)</sup> وياسر عبد ربه<sup>(123)</sup>.

## بيع الوهم

كانت الأرض المحتلة في وعي أغلبية قادة وكوادر الثورة في الخارج، وأنا منهم، مجرد «مفرخة فدائيين»، وعي ناقص ولد من رحم البُعد والشتات، ومن وحي الشغف بالعمل المسلح. ولأنّه منذ النكبة لم يُتَح للفلسطينيين إمكان العيش في وطنهم، وتحت قيادة فلسطينية، فقد كاد يغيب دور المجتمع الفلسطيني في الداخل بنقباته وجمعياته ومؤسساته المدنية المختلفة عن ذهن القيادة الموجودة في الخارج. حين عادت القيادة إلى الوطن بعد اتفاق أوسلو، كاد أن يغيب الشعب الفلسطيني في الخارج عن ذهنها.

كثيراً ما برّرت القيادة مواقفها بحجج قسوة الأحوال واختلال الموازين. هل كانت الموازين في مصلحة الثورة عشية انطلاقها؟ ثمّ لماذا لم تنهض القيادة لدعم الانتفاضة ببعض العزم الذي هرولت به إلى التسوية؟ لقد تفوّقت القيادة في إطلاق شرارة الثورة، لكنّها أخفقت في إدارتها وفي المحافظة عليها. دخل أبو عمّار ورفاقه «نادي الكبار»، وما زال معظمهم تحت سنّ الثلاثين. هذه تشبه حال شاب صغير السنّ فاز بورقة المليون في اليانصيب، كيف سيتصرّف في بيئة تعجّ باللصوص والسماسرة؟

في نقاش مع عدد من ناشطي الانتفاضة الأولى قال رائد رضوان: «لم أكن أكملت الخمسة عشر عاماً حين زودني جهاد سمحان بقنبلة يدوية. كمنت وأحمد الشيخ لباص مستوطنين على طريق عين الزرقاء، ألقيت القنبلة، فارتطمت بزجاج الباص ولم تنفجر. بعد مدّة قال لي جهاد وهو يسلمني ببندقية M1: لا تعمل ضدّ العملاء ولا ضدّ الجيش؛ قد يكشفك العملاء وتدخل في تصفية حسابات وثرات، ربما يدفع أهلك الثمن، وبالنسبة إلى الجيش نحن لسنا بمستوى كفاءتهم القتالية. سنستهدف المستوطنين فحسب».

أضاف رائد: «زودني جهاد ببندقية M16. كمنت على جانب الطريق. أبطأت سيارة 'فولفو' السير، فأطلقت عليها الرصاص. طوّق الجيش المنطقة، وألقت طائرات هليكوبتر قنابل مضیئة، أخفيت سلاحه،

واستحممت كي لا أترك رائحة يمكن أن تساعد كلاب الشرطة المدربة. لم أكن غفوت حين أيقظتني والدتي: 'الدنيا قائمة حوالينا'. فتحت الراديو فسمعت على إذاعة إسرائيل: 'أطلق مخرب النار على سيارة للمستوطنين'. عند الفجر اقتحمت قوات الاحتلال بيتنا واعتقلتني».

أضاف: «قال لي شاب التقيته في الزنزانة: 'لنقصر حديثنا على القضايا العائلية، أنا من قرية جبع<sup>(124)</sup>، اعتُقلت خطأً بعد مقتل مختار قريتنا'. في اليوم التالي قاده الجنود إلى المحكمة. قال لي حين عاد: 'سيفرجون عني اليوم'. لم أتحيل أنه من العصافير حين قلت له: 'أريد أن تذهب إلى قرية راس كركر<sup>(125)</sup> وتبلغ جهاد سمحان أن وضعي صعب'. كان مضي على اعتقال أسبوعان عندما أزال المحقق العصبة عن عيني مساء ذلك اليوم، وألقى أمامي بصورة جهاد. اعترفت، وحُكمت ثمانية عشر عامًا، وحُكم جهاد خمسة عشر عامًا».

في السياق ذاته قال رجا ياغي: «كنت في التاسعة عشرة حين اندلعت الانتفاضة الأولى، اندمجت ومحمود فنون، ومحمود اللوزي، ورمزي شاهين، وأنيس شكري، ومحمد هاشم، وكمال الطويل، وأحمد أبو لطيفة، وخلدون الديك في الفعاليات. اضطررنا إلى النوم في بيت صديقنا الأجنبي كريس في رام الله؛ لضمان حرق الإطارات المطاطية في شارع الإرسال قبل انتشار الدوريات. كنّا نخرج فجراً، يرافقنا كريس الذي يرصد تحركات الجيش. في أحد الأيام الماطرة لم يشتعل الإطار فسكبت عليه غالون الكاز كاملاً. حاولت إشعاله فهبّ في وجهي، فقدت الرؤية. بقيت متخفياً لأسبوعين في منزل كريس».

أضاف: «دهمت قوات الاحتلال منازلنا فأصبحنا مطاردين. في ذكرى يوم الأرض شارك أهالي قرانا بتظاهرة ضخمة. استشهد الشاب شاكر عموس. اشتدّت علينا الملاحقة، التقينا مهيب عواد، وخليل يوسف من ناشطي التنظيم في قرية عين عريك<sup>(126)</sup>، وأحمد خليفة من قرية كفر نعمة. في هذه المرحلة أعلنت القيادة الموحدة عن فتح باب التوبة للعملاء. كثيرون أعلنوا توبتهم في المساجد، وهناك من قرّ وانتقل للسكن بعيداً من مكان سكناه. انقسمت مجموعتنا إلى فرقتين؛ الأولى تحقّق مع العملاء، والثانية تعدهم. انضمت إلى الفرقة الثانية، شكّلنا (الأسد المقنع)<sup>(127)</sup> بعدما ظهر (الفهد الأسود)<sup>(128)</sup> في نابلس.

أصبح يحیی العجوري حلقة الوصل بين ناشطي (الأسد المقنع) في مدينة رام الله والقرى الغربية ومخيم الأمعري<sup>(129)</sup>. تعرّفنا إلى ناصر أبو حميد، وسلطان حبوب، ومهند العناتي. كنّا في تحدٍّ مع قوات الاحتلال؛ يدهمون منازلنا، يضربون أمهاتنا وأخواتنا، وفي اليوم التالي نتوعدهم بكتابات على الجُدُر. واجهتنا مشكلات كثيرة، منها النوم في فصل الشتاء، والمسألة المادية. بدأ يصلنا بصورة متقطعة خمسون ديناراً شهرياً. كنّا نختفي في النهار، ونظهر في الليل، فيستقبلنا الفتية كأبطال. لم يكن لدينا ما نقدّمه لهم، لكن مجرد ظهورنا كان يُشعرهم بالقوة، كانوا يرصدون لنا حركة العدو والعملاء، ويوزعون بيانات القيادة الموحدة».

أضاف رجا: «استشهد عدد من المطاردين واعتُقلت الأغلبية، ضاقت بنا الدنيا، فرتبّ لنا التنظيم عملية خروج من البلاد. التقيت ورمزي وأنيس ورياض الطويل بدويّاً في منطقة وادي الملاقي غرب قرية بلعين.

حملنا الرجل إلى الحدود المصرية. تمكّن رمزي وأُنيس من الوصول إلى مصر، أمّا أنا ورياض فاعتقلنا وحُكّمتنا مؤبدات».

قال محمود عباس الذي كان مطارداً أيضاً: «وقع تقصير كبير بحق المطاردين. أرهقنا سؤال ثقيل: أين سأنام؟ على من سأرمي حملي؟ في المرحلة الأولى كنّا نصرف على أنفسنا، لكنّا فقدنا أعمالنا. كان أصحاب الدكاكين يرفضون أخذ ثمن ما نشتره. اعتقل معظم رفاقنا، هؤلاء وذووهم كانوا دوائر علاقاتنا. وقع أهلنا تحت ضغط نفسي شديد. بعد عام 1992 ضاقت الدائرة حول المطارد، أصبحنا نتحرّك ضمن دائرة مكشوفة. في هذه المرحلة انتشر لغط حول المال؛ أين يُصرّف؟ من يستفيد منه؟ أصبح هناك من يقول: 'شو جابرنى!'، تفاقم الأمر بعد مؤتمر مدريد<sup>(130)</sup> وتألّف اللجان السياسية، لدرجة أنّ البعض ألقى أغصان الزيتون على قوات الاحتلال التي كانوا يقذفونها بالحجارة! كان الأمر صادمًا. قرّرت وأحمد عوّاد أن نتنقل تهريبًا للخارج بعدما لم يبقَ مطاردون غيرنا. اعتقلنا في مصر. أمضينا تسعة أشهر في سجن أبو زعبل<sup>(131)</sup>، ورَحّلنا إلى ليبيا. في ذلك الحين كان عمري تسعة عشر عامًا، وعمر أحمد ثمانية عشر».

قال حسين التميمي: «في الانتفاضة أثقلت علينا المشكلات العائلية التي تحوّلت إلى فصائلية والعكس. عندما كان يجري التحقيق مع مشبوه يصبح من حقّق معه مطلوبًا لعائلة المشبوه. وكانت الجبهة الشعبية تحرّض ضدّ فتح، تصدر بيانات تتعارض مع المتفق عليه في القيادة الموحدة. ثمّ دخلت حركة حماس<sup>(132)</sup> على الخطّ ببيان مستقل؛ القيادة الموحدة تدعو للإضراب، وحماس تفرض فتح المتاجر أو العكس».

قال محمد خالد الفقيه: «أواخر عام 1982، تداعينا، مجموعة من أبناء فتح في الضفة الغربية، لبناء جسم سياسي للحركة. في ذلك الحين كان الحزب الشيوعي يسيطر على المؤسسات والنقابات، ولأنّ هؤلاء يعملون في المجال السياسي فإنّهم لا يُعتقلون، وإنّ اعتقلوا يخرجون بعد أشهر، أمّا نحن فنُهدم بيوتنا، ونمضي أعمارنا في المعتقلات لأنّنا نعمل في المجال العسكري. اتفقنا على تأسيس لجان الشبيبة».

في هذه المرحلة كانت الناس محبطة، خرجت الثورة من لبنان، وتبع ذلك انشقاق فتح. أنشأنا جيشًا من المتطوعين أصبح قاعدتنا القوية عندما اندلعت الانتفاضة. يوم اندلعت الانتفاضة كنت مسؤولًا عن الطباعة في جمعية الدراسات العربية. طبعت، بمبادرة منّي، بيانًا باسم 'القوى الوطنية الفلسطينية'. كان هذا قبل أن تبدأ القيادة الوطنية الموحدة إصدار بياناتها. انتشرت الانتفاضة كالنار في الهشيم، وكان بيان القيادة الموحدة ملزمًا للجميع».

أمثلة النضال والنضحيات لا حصر لها، وقائمة الألم طويلة. تمام الطويل (أم محمد) المتزوجة في قريتها دير إبزيع<sup>(133)</sup>، نفيسة يوسف السائيس (أم مفيد)، المتزوجة في قرية كفر نعمة المجاورة من ناحية الغرب، وعائشة دار خليل المتزوجة في قرية عين عريك المجاورة شرقًا. هؤلاء ثلاث شقيقات رأت أعينهن النور في قرية دير إبزيع من قرى غرب رام الله، هناك ولدن وترعرعن قبل أن يفرّق الزواج بينهن. أعادت جمعهن معاناة أبنائهن المطاردين في الانتفاضة، إخفاؤهم ورفاقهم والسهر عليهم. أصبح كمال، ابن تمام، مطارداً

لقوات الاحتلال، أعتقل وحُكم بالمؤبد وأُفرج عنه بعد اتفاق أوصلو. وأمضى ابنها عماد ستة أعوام في السجن، وهدم منزلها. شقيقتها نفيسة، أمضى ابنها أحمد السائس خمسة أعوام في السجن، قبل ذلك كان مطارداً. أمّا شقيقتها الثالثة عائشة، فعاش ابنها كفاح مطارداً قبل أن يُعتقل.

يسرى عطايا من قرية كفر نعمة مثال آخر للكفاح، لم يكن للسيدة أبناءً مطاردون، مع ذلك كانت تجوب الجبال نهاراً لجمع الميرمية، مصدر رزقها، ثمّ تطعم المطاردين وتسهر عليهم حتى الفجر. فجّرت الانتفاضة ينابيع تكافل مجتمعي منقطع النظير. لا تختلف هؤلاء النسوة عن بقية نساء فلسطين؛ بساطة، أثواب مطرزة، جدية في العمل، وهمّ مشترك. التقيت السيدة تمام أول مرة في مكتب لجنة الانتفاضة في وادي صقرة في عَمّان، كان ذلك في أوج الانتفاضة، في بداية عام 1989. امرأة تجاوزت الخمسين، خلفها ثمانية أولاد، أربعة منهم منخرطون في الانتفاضة واثنا مطلوبان للاحتلال. همّ كبير، حمل ثقيل، ومع ذلك لا تفارق البسمة وجهها! هل هي طبيعتها الشخصية، أم أنّه افتخارها بأولادها، وما تبثّه فيها الانتفاضة من قوة الأمل؟

أمّا أم ناصر أبو حميد من مخيم الأمعري فرواية أخرى، إنّها والدّة عبد المنعم أبو حميد الذي ارتقى شهيداً في الانتفاضة الأولى. وهي التي اجتمع سبعة من أبنائها في سجون الاحتلال في الوقت ذاته في انتفاضة الأقصى؛ ستة في سجن عسقلان، وشقيقهم السابع في سجن النقب. في الأعوام الأخيرة تحرّر ثلاثة من الأبناء في عمليات إفراج عن الأسرى، أمّا ناصر، محمد، شريف، ونصر، فما زالوا يكابدون الأسر منذ خمسة عشر عاماً، وهم محكومون بالمؤبدات.

قال أبو حمزة عارصاً ذكريات من أيام مجد الانتفاضة: «كان بيان القيادة الموحدة مرشداً ودليلاً. وكان التزامه شبه شامل، وأضحت اللجان الشعبية ولجان الأحياء أدوات تنفيذ برامجهم. كان وسط مدينة رام الله يبدو كميدان حرب حين يقرّر جنود الاحتلال كسر الإضراب التجاري، فيتصدى المثلثون لهم ببسالة، ويعيدون إغلاق المتاجر التي حُطمت أقفالها. في ذلك الحين كانت وسائل المواصلات قليلة، ما يضطر التجار القرويين إلى العودة إلى بلداتهم مبكرين، وحين يأتون صباحاً لفتح محلاتهم، يندفع المثلثون من الزوايا، يتسممون لمن كُسرت أقفال متاجرهم ويناولونهم مفاتيح جديدة! ما الذي يدفع شاباً للمجيء مبكراً والوقوف طويلاً، فيما عيون العملاء تترصد الناشطين للإبلاغ عنهم؟ لماذا لم يفكر بسرقة متجر الجواهر الذي يجرسه؟ الانتماء والثقة والتفاني مناعة تحصّن بها الجسد المقاوم!

أيام مزدهرة بالأمل جعلت الوحدة والشعور بالمسؤولية صمغاً يشدّ الناس إلى بعضهم بعضاً. كنت عضواً في لجان الإصلاح التي أدّت دور المحاكم بعدما تقرّر مقاطعة محاكم الاحتلال. كانت الثقة وأولوية المصلحة العامة دافعاً بثّ في الأنفس عزيمة وشحنها بالتسامح، ما سهّل إيجاد حلول لقضايا بدت شبه مستعصية. لقد أتاحت لجان الإصلاح المجال لناشطي المقاومة للتفرّغ لمهامهم المباشرة، نأت بهم عن الغرق في قضايا ليست من صلب عملهم، وكان لهذا أثره البالغ على الصمود والثبات في معركة أراد الاحتلال فيها كسر إرادة الناس بكل السبل.

ذات مرة، أبلغنا أنّ ثلاثة المستشفى ما عادت تتسع لجثامين الشهداء. توجهنا للتجار ولأهل الخير، وفي

غضون أيام قليلة زودنا المستشفى بثلاجة إضافية. لقد أتاحت الانتفاضة توليد مفاهيم وقيم، وقلبت أخرى. تعمّد الاحتلال الإفراج عن الأسرى في أوقات متأخرة من الليل، وإلقاءهم في الشوارع بعيداً من مدنها وقراها، ولما لم يكن هناك وسائل اتصال تلفونية، كان يضطر المناضل إلى اللجوء للمجتمع. لقد أدّى أهالي قرية الظاهرية دوراً طليعياً بالنسبة للمفرّج عنهم من سجن نفحة. كانوا يستضيفونهم في بيوتهم، ويوصلونهم إلى مناطقهم البعيدة إن اقتضى الأمر ذلك».

قال خضر قنداح: «ذات ظهيرة كنت أعبر شارع الإرسال في رام الله، فجأة انقضّ جنود الاحتلال على سيارة من نوع فورد وصادروا مفاتيحها. بدا سائق السيارة كمجنون وهو يحطّم زجاجها الأمامي بـأسورة حديدية! أراد حرمان المستعربين من استخدامها لمباغطة المطلوبين، فقد اعتاد عناصر الوحدات الخاصة الإسرائيلية دهم مواقع الناشطين ومنازلهم باستخدام سيارات تحمل لوحات فلسطينية، كان خالد ياسين من دورا القرع<sup>(134)</sup> بطل تلك العملية».

قال خالد معقّباً في سياق آخر: «وكّلتني والدتي برفع دعوى في المحكمة الإسرائيلية ضدّ المستوطنين الذين جرّفوا قطعة أرض لنا، وشرعوا في إقامة بؤرة استعمارية عليها. بعد عامين نجحت في استصدار قرار من المحكمة بأنّ الأرض ملكية خاصة، وقضى القرار أيضاً بإزالة الأبنية المقامة عليها. واصل المستوطنون البناء، واستأنفوا ضدّ الحكم، وبالتوازي مع ذلك حرقوا اثنتين من سياراتي التجارية، ثمّ حاولوا مساومتي على بيع الأرض بستة عشر مليون دولار أو استبدالها بأرض أخرى. رفضت. أعادت المحكمة تأكيد قرارها الأول، وأمهلّت الحكومة الإسرائيلية عامًا لهدم الأبنية. بعد عام هُدمت بالفعل. يومها سألتني صحافي دنماركي: 'دفع لك ملايين مقابل أن تبيع أرضك، هل توقّعت يوماً أن تحصل على هذا المبلغ؟'. أجبت: 'بـخمسين دولارًا أذهب بأولادي في رحلة شواء إلى الطبيعة. ربما كانت الملايين مهمة لشراء حياة لوالدتي التي وكّلتني بالدفاع عن الأرض، وماتت وهي توصيني بالحفاظ عليها. ما يعرضه المستوطنون يعرفون أنّه ليس ثمن الأرض، إنّهُ ثمن العار، هذا ما لن أورثه لأبنائي'».

(10). أحد أهم معسكرات الفدائيين التي أقامتها حركة «فتح» قريباً من دمشق. فكّكتها الحركة عام 1975.

(11). وليد أحمد نمر (1935-1971). أحد مؤسسي حركة «فتح» وعضو لجنتها المركزية. استشهد في المواجهات التي وقعت بين الجيش الأردني والفدائيين الفلسطينيين عام 1971 في أحراج جرش.

(12). منير شفيق (1934 -). مفكّر عربي وإسلامي، والأمين العام للمؤتمر القومي الإسلامي سابقاً. انضم إلى حركة «فتح» بعد حرب 1967، وكان ضمن هيئة تحرير جريدة فتح. عمل مديراً لمركز التخطيط الفلسطيني، وله عشرات المؤلفات عن الماركسية وحرب الشعب والقضايا الفلسطينية والإسلامية. يُعدّ أهم رموز التيار الذي انبثقت منه الكتيبة الطلابية.

(13). نسبة إلى النظرية الماركسية اللينينة الماوية التي وضعها ماو تسي تونغ.

(14). حزب سياسي لبناني أسسه بيار الجميل كحركة شبابية عام 1936، ثمّ تحوّل إلى حزب سياسي عام 1952. كان له دور بارز في الحرب الأهلية اللبنانية التي اشتعلت عام 1975 واستمرت حتى عام 1990.

(15). أنطق بالشهادتين؛ «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، استعداداً للموت.

(16). عملية عسكرية نفذتها مجموعة فدائية من حركة «فتح» مساء الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر 1973. سيرة هذه الخلية يمكن قراءتها في كتاب على ضفاف النهر الصادر عن دار الشروق في عمّان للكاتب أبو علاء منصور.

(17). هيلاريون كابوجي (1922-2017). مطران كنيسة الروم الكاثوليك في القدس عام 1965. عُرف بوطنيته ورفضه للاحتلال. أُعتقل وحُكم 12 عاماً على خلفية تهريبه السلاح للمقاومين الفلسطينيين، ثمّ أُفرج عنه بعد أربعة أعوام، وأُبعد إلى روما التي ظلّ فيها إلى حين وفاته.

(18). مسؤول لجنة القدس في القطاع الغربي، وعضو المجلس الثوري لحركة «فتح». عمل محافظاً لرام الله بعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية.

(19). عملية عسكرية فلسطينية وقعت في شارع يافا في القدس عام 1975 استُخدمت فيها ثلاثة محشّوة بالمتفجرات، وأدّت إلى مقتل 14 مستوطناً. نُفذت العملية بقيادة أحمد جبارة أبو السّكر الذي أُعتقل وحُكم عليه بالمؤبد، ثمّ أُفرج عنه عام 2003.

(20). فدائي التحق بحركة «فتح» في وقت مبكر من عمره، وبعد أعوام أصبح المسؤول عن تهريب الدوريات التابعة لـ«لجنة التنظيم 77» عبر الحدود الأردنية السورية والحدود الأردنية الفلسطينية.

(21). عبد الإله الدراغمة «الحاج حسن» (1942-1976). استشهد في معركة شكا في شمال لبنان عام 1976 خلال محاولته فتح جبهة جديدة لتخفيف الحصار عن نخيم تل الزعتر. وهو من ضباط قوات



العاصفة الأوائل في حركة «فتح»، ومن الكوادر المؤسسة في التيار.

(22). فرع المخابرات السورية المسؤول عن العلاقات مع الفصائل الفلسطينية.

(23). أسست باسم «السرية الطلابية» عام 1973، ثم تحوّل اسمها إلى «الكتيبة الطلابية»، ثم إلى «كتيبة الجرمق». نفذت الكتيبة عشرات العمليات العسكرية ضدّ جنود الاحتلال، وخاضت كثيرًا من المعارك كان أبرزها معركة الشقيف عام 1982.

(24). قرية لبنانية تقع بالقرب من بنت جبيل.

(25). سعد حداد (1936-1984). رائد في الجيش اللبناني. تعاون مع الجيش الإسرائيلي في إنشاء ميليشيا جيش لبنان الجنوبي. توفي إثر إصابته بمرض السرطان عام 1984.

(26). كمال عدوان (1935-1973). أحد قادة حركة «فتح»، وعضو لجنّتها المركزية، وعضو المجلس الوطني الفلسطيني. اغتاله الموساد، مع الشهيد كمال ناصر وأبو يوسف النجار، في بيروت بتاريخ 10/4/1973.

(27). يحيى حبش «صخر» (1939-2009). عضو اللجنة المركزية لحركة «فتح»، ومسؤول التعبئة الفكرية فيها، وعضو مجلسها الثوري عام 1976، وأمين السرّ له عام 1980.

(28). صبحي أبو كرش (1936-1994). عضو اللجنة المركزية لحركة «فتح»، وسفير سابق لها لدى السعودية.

(29). حنّا ميخائيل (1935-1976). تخرّج في جامعة هارفارد والتحق بالثورة الفلسطينية بعد حرب حزيران/ يونيو 1967. عُيّن عضوًا في قيادة لبنان ومسؤولًا عن التنظيم الطلابي. كلّفته القيادة (20 تموز/ يوليو 1976) بالانتقال إلى الشمال اللبناني مع الشهيد نعيم وأبو الوفا وآخرين حيث اختفت آثارهم بعد إبحارهم، وهو يعدّ من رموز التيار اليساري في «فتح».

(30). أحد أحياء دمشق.

(31). مدينة لبنانية ساحلية.

(32). رواية روسية صدرت عن دار التقدّم، موسكو في عام 1974.

(33). أستاذ في جامعة بيرزيت حاليًا، وعضو سابق في المجلس الثوري لحركة «فتح».

(34). في هذه المرحلة كان تيسير مدرّسًا للرياضيات في إحدى مدارس الخليل الثانوية، وقد أُنتخب رئيسًا لبلدية الخليل عام 2017.

(35). ضابط في قوات العاصفة، أصبح مسؤولًا عن معسكر «لجنة التنظيم 77» المعني بتدريب المناضلين الآتين من فلسطين. قاد دورية إلى داخل الأرض المحتلة أشتهرت بتنفيذ عملية الدبوا في الخليل في

سنة 1980، وتقاعد برتبة لواء.

(36). أكبر تجمعات اللاجئين الفلسطينيين في سورية. أنشئ في مدينة دمشق عام 1957.

(37). هو خط أمني تُستخدم فيه رمال ناعمة تمسّطها الآليات الإسرائيلية باستمرار لكشف آثار المتسللين.

(38). على مدار أعوام كان بيت عبد الفتاح إخميس نقطة استقبال لدوريات لجنة 77 العابرة من الأردن إلى فلسطين.

(39). قرية فلسطينية تقع في أراضي غور طوباس.

(40). أصبح أول مراقب للشركات في السلطة الفلسطينية، وعضوًا في المجلس الثوري لحركة «فتح».

(41). قرية فلسطينية تقع شرق مدينة طوباس.

(42). أصبح عضوًا في المجلس الثوري لحركة «فتح»، وسفيرًا لدى المملكة السعودية ومن ثمّ لدى مصر.

(43). قرية فلسطينية تقع شمال غرب مدينة الخليل.

(44). قرية فلسطينية تقع شمال غرب مدينة الخليل.

(45). فهد القواسمي (1939-1984). أُنْتُخِبَ رئيسًا لبلدية الخليل عام 1976. أصدرت سلطات الاحتلال قرارًا بإبعاده عام 1980، ورفضت التراجع عنه، على الرغم من صدور قرار من مجلس الأمن يقضي بعودته. أصبح عضوًا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. أُغْتِيلَ في عمان بتاريخ 29/12/1984 على يد «فتح الانتفاضة».

(46). محمد ملحم (1929 -). رئيس بلدية حلحول. أصبح عضوًا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، ومسؤولًا عن دائرة شؤون الوطن المحتل.

(47). رجب بيوض التميمي (1922-1996). عُيِّنَ قاضيًا في محكمة أريحا الشرعية عام 1961، ثمّ قاضيًا في محكمة إربد الشرعية، ثمّ في محكمة بيت لحم الشرعية، ثمّ في الخليل، وهناك أسس كلية الشريعة عام 1971 وكان أول عميد لها. شغل منصب المفتي العام للقوات الفلسطينية.

(48). كريم خلف (1937-1985). استشهد بتاريخ 30 آذار/ مارس 1985.

(49). عيزر وايزمان (1924-2005). الرئيس السابع لإسرائيل بين عامي 1993 و2000. شغل عددًا من المناصب الوزارية منها وزير الدفاع بين عامي 1977 و1980، ووزير الدولة بين عامي 1984 و1986.

(50). مردخاي تسيبوري (1924-2017). سياسي إسرائيلي. أُنْتُخِبَ عضوًا في الكنيست الإسرائيلي

عام 1977، وعُيِّن نائبًا لوزير الدفاع بين عامي 1977 و1981، ثمّ وزير الاتصالات بين عامي 1981 و1984.

(51). رفائيل إيتان (1929-2004). عسكري وسياسي إسرائيلي. عُيِّن رئيسًا لهيئة أركان جيش الاحتلال بين عامي 1978 و1983، وأُنتخب عضوًا في الكنيست لدورات عدة، كما شغل عددًا من المناصب الوزارية.

(52). محمية طبيعية تقع شمال غرب مدينة الخليل.

(53). يقع جبل الشيخ عند مثلث الحدود بين سورية ولبنان وفلسطين.

(54). بلدة أردنية تقع في شمال الأردن وتتبع قضاء الرمثا.

(55). إحدى ضواحي العاصمة عمّان.

(56). أحد أحياء العاصمة عمّان.

(57). أحد أحياء الزرقاء.

(58). جدار مصنوع من أسلاك معدنية، أقامه الإسرائيليون على طول الحدود.

(59). فتاة كانت ضمن خلية «صقر إلياس» السريّة، والتي كانت تضم أيضًا محمد إلياس، وخالد الديك، وهارون غنيم، وكمال ياسين. أُعتقل أعضاء الخلية في أيار/ مايو 1975 بمن فيهم ابتسام. لم ينبُج من الاعتقال غير هارون الذي كان في مهمة في الأردن. بعد أن أمضت ابتسام خمسة أعوام في السجن، أُفرج عنها وتزوجت شابًا من الجبهة الديمقراطية.

(60). قرية فلسطينية تقع شمال شرق مدينة نابلس.

(61). اكتسبت الدورية اسمها من قرية تياسير التي كانت ستتمركز في جبالها بعد عبورها النهر.

(62). غيورغي جوكوف (1896-1974). قائد عسكري سوفياتي.

(63). جوزف ستالين (1879-1953). رئيس الاتحاد السوفياتي بين عامي 1922 و1953.

(64). بوريس شابوشنيكوف (1882-1945). قائد عسكري سوفياتي.

(65). نيكولاي بولغانين (1895-1975). وزير الدفاع السوفياتي بين عامي 1953 و1955، ورئيس مجلس الوزراء بين عامي 1955 و1958.

(66). أحد جبال سلسلة جبال لبنان الغربية.

(67). تُعرف اليوم باسم فولغوغراد.

(68). قرية فلسطينية تقع غرب مدينة رام الله.

- (69). إحدى ضواحي مدينة رام الله.
- (70). إحدى المناطق السكنية في العاصمة عمان.
- (71). قرية فلسطينية تقع شمال غرب مدينة رام الله.
- (72). قرية فلسطينية تقع شمال شرق مدينة القدس.
- (73). قريتان فلسطينيتان تقعان شمال غرب مدينة رام الله.
- (74). مروان زلوم (1958-2002). أسس «كتائب الأقصى» في مدينة الخليل، وظل قائداً لها حتى استشهاده عام 2002.
- (75). علي أبو طوق (1950-1987). من مؤسسي الكتبية الطلابية وقادتها. استشهد في مخيم شاتيلا عام 1987 خلال حرب المخيمات، وما زال أبناء شاتيلا يتناقلون قصصاً وأساطير عنه.
- (76). تُسمى أيضاً بقلعة «شقيف أرنون». تقع على بعد كيلومتر واحد من قرية أرنون في لبنان. بناها الرومان، ووقعت فيها معركة الشقيف بين الجيش الإسرائيلي ومنظمة التحرير الفلسطينية عام 1982.
- (77). موشيه ديان (1915-1981). عسكري وسياسي إسرائيلي. عُيّن رئيساً لأركان الجيش الإسرائيلي بين عامي 1953 و1958. وشغل مناصب وزارية عدة منها وزير الدفاع بين عامي 1967 و1974، ووزير الخارجية بين عامي 1977 و1979.
- (78). سوق لبيع الخضراوات والفواكه.
- (79). أحد أحياء العاصمة دمشق.
- (80). أصبح لاحقاً وكيلاً لوزارة الخارجية الفلسطينية.
- (81). قرية فلسطينية تقع شمال غرب مدينة رام الله.
- (82). تنظيم فلسطيني يساري منبثق من حركة القوميين العرب أُسس عام 1967 بقيادة جورج حبش.
- (83). طائر الشنار أو الحجل.
- (84). صفقة تبادل أسرى بين «حماس» وإسرائيل، عُقدت عام 2011، أُفرج فيها عن 1027 أسيراً فلسطينياً من سجون الاحتلال.
- (85). أصبح وكيلاً لوزارة الداخلية الفلسطينية.
- (86). أو «يوفاليم». مستوطنة إسرائيلية تقع في منطقة الجليل. أُقيمت عام 1982 على أراضي عرب النعيم وميعار وسخين.
- (87). قرية فلسطينية تقع شمال شرق مدينة رام الله.

(88). أريئيل شارون (1928-2014). شغل عددًا من المناصب الوزارية منها وزير الدفاع عام 1981، ووزير الدولة بين عامي 1983 و1984، ووزير الخارجية عام 1998. عُيّن رئيسًا للوزراء ووزير شؤون استيعاب القادمين الجدد بين عامي 2001 و2003. وهو مسؤول عن عدد من الجرائم بحق الفلسطينيين أشهرها مجزرة قبية عام 1953، ومجزرة صبرا وشاتيلا عام 1982.

(89). قرى لبنانية في محافظة البقاع.

(90). مدينة لبنانية في محافظة البقاع.

(91). قرية فلسطينية تقع جنوب مدينة طولكرم.

(92). أقامت منظمة التحرير الفلسطينية احتفالاً في عدن عام 1982 بمناسبة ذكرى انطلاق الثورة الفلسطينية، وكان ذلك بحضور الرئيس اليمني علي ناصر محمد.

(93). إحدى المدن السورية التابعة لمحافظة ريف دمشق.

(94). مروان كيالي (1951-1988). عضو المجلس العسكري في حركة «فتح». اغتاله الموساد مع رفيقيه أبو حسن قاسم وحمدي في قبرص بتاريخ 14/2/1988.

(95). صبري خليل البنا «أبو نضال» (1937-2002). عضو في المجلس الثوري لحركة «فتح» قبل انشقاقه عليها عام 1974 وتألّف «فتح المجلس الثوري»، أو ما عُرف بـ «منظمة أبو نضال». اشتهر باغتياله كوادر منظمة التحرير بدعوى محاربته عملية التسوية، وبتصفيته المئات من أنصاره في سورية ولبنان وليبيا بمن فيهم زملاء له في القيادة، وتوزّع ولاؤه على عدة دول وأجهزتها الاستخبارية. قتله في بغداد عام 2002 جهاز الأمن العراقي قبيل الاحتلال الأميركي للعراق.

(96). أحد أحياء مدينة دمشق.

(97). بلدة فلسطينية تقع شمال شرق مدينة رام الله.

(98). مخيم للاجئين الفلسطينيين أُقيم جنوب العاصمة بيروت عام 1949.

(99). لاحقًا جرت صفقة تبادل الأسرى مع إسرائيل على مرحلتين؛ الأولى نفذتها حركة «فتح» عام 1983، أُفرج فيها عن خمسة آلاف وتسعمئة أسير من معسكر أنصار في الجنوب اللبناني، وخمسة وستين أسيرًا من داخل السجون الإسرائيلية، مقابل ستة جنود صهيانية. والثانية نفذتها الجبهة الشعبية - القيادة العامة عام 1985، وأُفرج فيها عن ألف ومئة وخمسين أسيرًا فلسطينيًا مقابل هذين الجنديين، بالإضافة إلى جندي ثالث أُسر في معركة السلطان يعقوب في لبنان، وسُميت هذه الصفقة بـ «عملية الجليل».

(100). محمد الشريف مساعدي (1924-2002). من رموز جبهة التحرير الوطني الذي أصبح الحزب الحاكم في الجزائر بعد الاستقلال.

(101). معتقل إسرائيلي أقيم في جنوب لبنان بعد الاجتياح الإسرائيلي عام 1982.

(102). سوق شعبية تقع في وسط المدينة عمّان.

(103). عمر المختار (1858-1931). مناضل عربي ليبي. قاد حركة المقاومة الليبية ضدّ الاحتلال الإيطالي لبلاده حتى إعدامه شنقاً عام 1931.

(104). اشتعلت هذه الثورة في مدينة القدس في ظلّ الانتداب البريطاني عام 1929، وكان سببها انطلاق تظاهرة صهيونية استفزازية اتجهت نحو حائط البراق فخرج الفلسطينيون بتظاهرة ضدها، ثمّ وقعت اشتباكات بين المتظاهرين من الطرفين امتدت إلى العديد من القرى والمدن الفلسطينية. انتهت ثورة البراق باستشهاد 116 فلسطينياً، ومقتل 133 مستوطناً، وفي إثرها اعتقلت سلطة الانتداب مئات الفلسطينيين، وحكمت على 27 منهم بالإعدام كان من بينهم محمد جمجوم وفؤاد حجازي وعطا الزير الذين أُعدموا عام 1930.

(105). مخيم للاجئين الفلسطينيين، يُعرف باسم «مخيم الحصن». أقيم في مدينة إربد عام 1967.

(106). بمعنى «نعم أستطيع».

(107). أحد الأحياء السكنية في العاصمة عمّان.

(108). ابن الشهيد عبد القادر الحسيني، وعضو المجلس الثوري لحركة «فتح»، وأحد قادة القطاع الغربي.

(109). حُكم على عطف عليان بالسجن خمسة أعوام، وقبل أن تنتهي المدة حُكم عليها بعشرة أعوام أخرى بتهمة خنقها سجّانها.

(110). قرية فلسطينية تقع جنوب مدينة بيت لحم.

(111). أحد أحياء العاصمة عمّان.

(112). وقعت المجزرة يوم 25 شباط / فبراير 1994. نفّذها باروخ غولدشتاين حين أطلق النيران على المصلّين في الحرم الإبراهيمي، تبع ذلك مواجهات مع جنود الاحتلال. انتهت المجزرة بخمسين شهيداً وعشرات الجرحى.

(113). أكبر مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في الضفة الغربية. أقيم في مدينة نابلس عام 1950.

(114). أحد أحياء العاصمة دمشق.

(115). أحد أحياء العاصمة عمّان.

(116). جهاد العمارين (1954-2002). أسير محرر. أسس «كتائب شهداء الأقصى» في غزة وقادها حتى استشهاده بتفجير سيارته عام 2002.

(117). برنامج سياسي مرحلي، صاغته اللجنة السباعية التي ضمت الرئيس ياسر عرفات وأمناء الفصائل الفلسطينية بعد مداولات بين أعضائها حول قبول التسوية أو رفضها تناولت خلالها قضايا العودة وتقرير المصير وتبنت إقامة سلطة فلسطينية على الأراضي المحتلة عام 1967.

(118). هايل عبد الحميد «أبو الهول» (1937-1991). عضو اللجنة المركزية لحركة «فتح» ومسؤول جهاز الأمن المركزي. تولى مسؤولية جهاز الأرض المحتلة بعد استشهاد خليل الوزير «أبو جهاد». اغتيل في تونس مع صلاح خلف «أبو إياد» بتاريخ 14/1/1991.

(119). هاني الحسن (1938-2012). أحد مؤسسي حركة «فتح»، وعضو لجنتها المركزية. شغل منصب المستشار السياسي للرئيس ياسر عرفات، ومسؤول التعبئة والتنظيم في الحركة. وتولى منصب وزير الداخلية في السلطة الوطنية الفلسطينية.

(120). مستعمرة إسرائيلية تقع جنوب غرب مدينة غزة. أسست عام 1972، وأُخليت عام 2005.

(121). الحبيب بورقيبة (1903-2000). أول رئيس للجمهورية التونسية. استمر حكمه بين عامي 1957 و1987.

(122). نايف حواتمة (1935 -). الأمين العام للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين منذ انشقاقها على الجبهة الشعبية عام 1969.

(123). ياسر عبد ربه (1944 -). نائب الأمين العام للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين حتى فصله منها، وعضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. شغل مناصب وزارية عدة في عهد الرئيس ياسر عرفات والرئيس محمود عباس.

(124). قرية فلسطينية تقع بين مدينتي جنين ونابلس.

(125). قرية فلسطينية تقع شمال غرب مدينة رام الله.

(126). قرية فلسطينية تقع غرب مدينة رام الله.

(127). مجموعة عسكرية ظهرت في مدينة رام الله في الانتفاضة الأولى.

(128). مجموعة عسكرية ظهرت في مدينة نابلس في الانتفاضة الأولى.

(129). مخيم للاجئين الفلسطينيين، أسس في بلدة البيرة عام 1949.

(130). عُقد في مدريد عام 1991 بهدف إحياء عملية السلام العربية الإسرائيلية برعاية كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وبمشاركة وفود عربية من سورية ومصر ولبنان ووفد أردني-فلسطيني مشترك.

(131). سجن مصري موجود في محافظة القليوبية.

(132). حركة المقاومة الإسلامية «حماس»، أسسها الشيخ أحمد ياسين وعدد من قادة الإخوان المسلمين

عام 1987.

(133). قرية فلسطينية تقع غرب مدينة رام الله.

(134). قرية فلسطينية تقع شمال مدينة رام الله.



## الفصل الثاني

### اصطادوا الصقر

## «الخيزران الصيني»

يقول باولو كويلو<sup>(135)</sup> في روايته «ألف»: «الرجال والنساء ممن يتمتعون بقوة إرادة مميّزة، هم في العادة من الصنف الذي ينبعث منه نوع من البرودة. يظنّ كثيرون مخطئين أنّ مونيكا باردة، هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، في قلبها تتقد نار سرّية مستعرة. على الرغم من كل ما حققته لا تزال الحماسة تغمرها». يضيف مخاطبًا مونيكا: «هل تعرفين شيئًا عن الخيزران الصيني؟». يجيب: «إنّه يظلّ برعمًا صغيرًا لخمسة أعوام، مستثمرًا الوقت لتطوير نظامه الجذري، ثمّ يشهق إلى ارتفاع خمسة وعشرين مترًا».

## وهم

بموجب اتفاق أوسلو عدت إلى الأرض المحتلة في نيسان/ أبريل 1996. لم أتخيّل وأنا أنتظر على الجانب الغربي للجسر أنّي سأطلب للمخابرات الإسرائيلية. كنت منبهراً بعودتي. فأنا الذي تسلّلت من الوطن تحت جناح الظلام قبل عقدين، لم أتخيّل أن تطأ قدمي أرضه إلّا محرّراً. لكنّها الأقدار والتحوّلات.

عبر زملائي من المسؤولين في م. ت. ف. وبقيت وحيداً في قاعة الانتظار. هل سيمنعوني من الدخول؟ أنا ممن تسميهم إسرائيل «أياديهم ملطخة بالدماء». نصف ساعة واصططحبني رجل أمن إسرائيلي عبر دهاليز. صُدمت وقد وجدت جميع من سبقوني يجلسون في غرفة الانتظار!

«تخيّلتم في رام الله!». هذا ما تساءلت به معهم بعفوية.

لم أكد أجلس حتى نودي عليّ.

«إنّها المخابرات!»، هذا ما همست به لنفسي وأنا أتبع جندياً إلى مكتب مجاور. «أين السلام إذا؟». قال الضابط الثلاثيني وهو يحدّق في شاشة الكمبيوتر: «أهلاً طارق، منصور، أبو علاء منصور، سامي، الأستاذ». تركت كلمة «الأستاذ» في خيالي صدىً أشعري بالنشوة، ذكرّني بيوم قدت خليتي لتنفيذ عمليتها العسكرية وسط رام الله، في ذلك الحين كنت مدرّساً للرياضيات في مدرسة بنات رام الله الثانوية، من هنا جاءت كلمة الأستاذ.

فاجأني الضابط بسؤال لم أتوقعه:

- هل قتلت إسرائيليين؟

- إنّا الحرب. لم نكن في نزهة.

- هل ستبقى بالعقلية ذاتها أم ستغيّر؟

- ماذا يفيد تغيير عقليتي من عدمه إن لم يَحُلّ السلام؟! أقول ذلك وأنا لا أتمنى لأبنائي أن يسيروا في طريق الآلام الذي مشيته. ما كان لك أن تراني اليوم لو جرفتني مياه نهر الأردن وأنا أحاول عبوره شرقاً قبل اثنين وعشرين عاماً.

- هل تعرف محمد ضيف؟

- لا. ربما قتلتم ضيف أو اعتقلتموه، هذا لن يغيّر في الأمر شيئاً. ستستمر الحرب إن لم تجد القضية حلاً حقيقياً.

بتوقيع اتفاق أوسلو، بدّل الإسرائيلي لهجته فحسب. كان حديث «السلام» عنده، درباً لتكريس الهيمنة التي فرضتها الحرب. ما زالوا يتمرسون عند نقطة البداية: «الأمن». هذا ما خرجت به من تلك المقابلة. ما الذي تركه حديثي في ذهن الضابط؟ ماذا سيقول إن كان ما زال في قيد الحياة وقرأ هذا الكتاب؟ حضرت في ذهني هذه الواقعة وأنا أتبع ما جرى في بلادنا بعد ذلك؛ تفاقم الاستيطان، تنصّل الإسرائيليون من الاتفاقات المبرمة، ولم تتوقف محاولاتهم لخنق الفلسطينيين. ثلاث حروب عدوانية على قطاع غزة، وما زال فضاء الحروب قابلاً للكثير. بالمقابل واصل الفلسطينيون انتفاضاتهم؛ هبة النفق عام <sup>(136)</sup>1996، انتفاضة الأقصى عام 2000، فهدية السكاكين عام 2015. والحبل على الجرار كما يُقال.

## مروان البرغوثي

شقّ مروان أولى دروبه الثورية وهو طالب في المرحلة الثانوية. اعتُقِل عام 1978 على تخوم خلية فتحاوية تابعة لـ «لجنة التنظيم 77». يومها كان الفتى الشيوعي اليافع في رحلة بحث عن الفدائيين. قدّم امتحان التوجيهي في السجن، وهناك انتمى إلى حركة «فتح». وعلى مدى أعوام سجنه الخمسة، ارتبط بعلاقات وثيقة مع شقيقي جمال ورفاقي في الخلية، هناك تشكّلت صورتَي الفدائية في ذهنه، أمّا صورته القيادية فتكرّست في خيالي حين لمع اسمه كرئيس لمجلس طلبة جامعة بيرزيت بعد تحرّره من السجن. تعرّفت إليه عن قرب يوم أبعدته سلطات الاحتلال عن الوطن في أوائل عام 1987، وتعمّقت علاقتنا حين تشاركنا المسؤولية في «لجنة الوسط». كثيراً ما نظرت إلى مروان باعتباره شتلة من غرس الشهيد حمدي.

عاد مروان إلى الوطن عام 1994. وحين عدت إلى هناك بعد عامين، كان أمين سرّ اللجنة الحركية العليا التي يرأسها فيصل الحسيني <sup>(137)</sup>، في ذلك الوقت كان يجاهد للإبقاء على جبهة الروح الفدائية الفتحاوية، فيما يتسابق قادة الأجهزة الأمنية الفلسطينية الناشئة للسيطرة على التنظيم. خاض «قائد التنظيم في الضفة الغربية» معارك داخلية شرسة مع الباحثين عن النفوذ من الآتين من الخارج، ومع بعض رفاق دربه القدامى من الداخل، وكان هناك حسد وضغائن.

في أوج هذه المعركة طرح عليّ فكرة أن أترشّح لانتخابات إقليم فتح في رام الله والبيرة. لم أحمّس، مع ذلك جعلتني ثقتي به أوافق على الفكرة التي أجمعت الصراع ضده، وزجّت بي في أتون صراع داخلي أمّنته

بطبعي. في حينه كان تنظيم «فتح» في الداخل يعبر محطة انتقالية حرجة، كانت حاله كبستان مهجور أهلكه العشب البري، فإهمال القيادة له لعقود، ومعركته الضارية مع المحتل، كانتا كفيلتين بتهشيم أركانه، وجاءت مغريات السلطة الوليدة لتسبب بخلق بيئة صراع مبكر بين كوادره المتلهفين للعمل في صفوفها، وللغوز بامتيازاتها، باعتبار ذلك حقوقاً نضالية، واستحقاقات شخصية طبيعية. شكّلت هذه المحطة مفراً بين مناضلين جمعتهم رفقة أعوام المعاناة الطويلة في زنازين الاحتلال وفعاليات الانتفاضة. تشتت البعض على محاور متصارعة، فانعكس ذلك سلباً على وحدة التنظيم، وألحق ضرراً بالغاً بهيئته، ومسّ بالمسيرة النضالية.

كان أبو عمّار يدرك قيمة مروان، لكنّه أرادته تحت السيطرة. من هذا الثقب الضيق تسلّل البعض لنفث السموم. بلغت معاناة مروان مع الوضع الداخلي ذروتها في شهر حزيران/ يونيو عام 2000، قبل اندلاع انتفاضة الأقصى بثلاثة أشهر. وقع ذلك في اجتماع ترأسه حكم بلعاوي<sup>(138)</sup> مسؤول لجنة الطوارئ في حركة «فتح». يومها أراد بلعاوي انتخاب لجنة بديلة عن اللجنة الحركية العليا، وبهدف تيسير العملية أضاف للجنة أعضاء بمسميات شتى لإحداث خلل في التوازن. ولما تيقن أنّه لن يستطيع إدارة اجتماع متفجّر، جاء أبو عمّار لترؤس الجلسة. في أثناء دخول الرئيس إلى قاعة الاجتماع، وقعت ملاسنة بينه وبين مروان فغادر مروان القاعة محتجاً! انتخبت لجنة قيادية، وكان مروان من بين الفائزين، لكنّ حساسية الوضع حالت دون انتخاب أمين للسّر.

تألّفت لجنة إقليم رام الله والبيرة التي انتخبت أمين سرّها من الأخت هيثم عرار، والإخوة زياد حامد، حسين الشيخ، محمد ذياب، جبر عصفور، جهاد طمليه، مهيب عوّاد، حاتم عبد الجواد، رسمي حمائل، عبد الهادي الزواوي، إبراهيم أبو عين، عماد الصافي، عايد مرار، محمود سمارة، وليد البايض، وأبو علي المطور. ومنذ انتخابها عام 1997 أرست اللجنة قواعد لسياستها: أن تشكّل نموذجاً في التوحيد والجدية، أن تفتح على الجميع، أن تتأى عن المحاور والصراعات، أن تبتعد عن أي نشاط ذا طابع استعراضي، وألا تشكّل مظلة للفاسدين.

كان لدينا تصميم، وكنا متضامنين، لكنّ التطبيق على أرض الواقع لم يكن سهلاً. في نطاق هذه السياسة، سلّمنا للأمن الوطني كادراً تنظيمياً أمضى خمسة أعوام في سجون الاحتلال، بعدما تورّط في تجارة غير مشروعة. استغل الضابط المسؤول في الأمن الوطني الفرصة للاستقواء عليه، فهبّ الأخير في وجهه: «ماذا تقول يا فلان؟». همس الأسير المحرّر في أذني بعدما انسحب الضابط: «إنّه رئيس العصابة».

لم يكن الضابط فاسداً بالأساس، كان فداً شجاعاً أيام الثورة، كذا الأمر بالنسبة للكادر التنظيمي. أفسدتهما «السلطة»، لكنّ الانتفاضة أعادت صهرهما في بوتقة النضال مجدداً، أُعتقلا في انتفاضة الأقصى. نجحنا في مواجهة العدو، وأخفقا في مقاومة إغراء السلطة. هذا لا يعني أنّ مرحلة الثورة كانت تخلو من الفساد، أبداً، كان هناك فساد. المختلف أنّ المناخ الثوري شكّل في الماضي مكنسة تنظيف تلقائية لبدن الثورة. متى بدأ الفساد في الثورة؟ ما أسبابه؟ ما دور المال الذي أُعْدق مبكراً عليها؟ هل كان دعماً لها أم وسيلة لإفسادها؟ هذه الأسئلة وغيرها لا تزال برسم التحليل.

## شرارة انتفاضة الأقصى

فهمي مرعي من قرية عنزة جنوب مدينة جنين صديقي من أيام الجامعة في بغداد. كان من بين ناشطي حركة «فتح» الذين أبعدتهم السلطات التركية عن جامعاتها في أواسط سبعينيات القرن المنصرم. مذ تخرجنا في الجامعة لم ألتقه سوى مرة واحدة عام 1975. بعد التخرج ذهب للعمل في الكويت وعدت أنا إلى الداخل. بعد ربع قرن ناداني شاب ونحن في مقر إقليم «فتح» في رام الله: «هناك شخص اسمه فهمي مرعي يسأل عنك». ما الذي أتى بفهمي من الكويت؟! ربما أنه من بين من طردوا من هناك بعد اجتياح الجيش العراقي.

«منذ عامين وأنا أحاول الحصول على تصريح لإحضار أسرتي إلى الوطن دون جدوى». هذا ما قاله لي فهمي. كنت يومها مديرًا عامًا لوزارة الداخلية في رام الله. ساعدته بإحضار عائلته. أيام واستضيفتهم على غداء في قريتنا بلعين. كان ذلك يوم الثامن والعشرين من أيلول/ سبتمبر عام 2000. بدا ذلك اليوم الخريفي اللطيف عاديًا قبل أن يدخل التاريخ من أوسع أبوابه. انتشرنا بين دولي العنب وأشجار التين حتى الغروب. حين عدت بفهمي وعائلته إلى منزلهم في بلدة الرام<sup>(139)</sup>، بدت شوارع البلدة خالية إلا من شبّان متربصين وحجارة تملأ الطرق. مشهد لم يسبق لي أن عرفته من قبل! إنها انتفاضة الأقصى التي اندلعت اليوم. كان حظ فهمي رائعًا، لو لم يلتقني لما التّم شمله بعائلته، فمنذ اندلاع الانتفاضة أوقف الإسرائيليون إصدار التصاريح كعقاب للفلسطينيين.

أشعل دخول أريئيل شارون إلى ساحات المسجد الأقصى انتفاضة. التقط أبو عمار إشارة التحرك الشعبي، وتقدّم مروان البرغوثي لقيادة الجموع في الميدان. توالى الحوادث وتطايير الشرر. جاءت الشرارة الكبرى في المشهد المروّع لإعدام الطفل محمد الدرة في أحضان والده. لم يشفع له أنينه البريء، ولا صرخات استغاثة والده المرعوبة. انتشر خبر الجريمة على شاشات الفضائيات، فانفجر الفلسطينيون غضبًا. وجاء الرد الإسرائيلي وحشيًا كالعادة، وصبّت دماء الشهداء زيتًا على نار الثورة الملتهبة. هبّ فلسطينيو الأراضي المحتلة عام 1948، فتصدّت لهم الشرطة الإسرائيلية وقوات حرس الحدود بوحشية، سقط ثلاثة عشر شهيدًا في يومين، وجرح المئات. هزّت الحوادث وجدان الفلسطينيين من الأعماق. أعادت تسليط الأضواء على حقيقة الاحتلال، وفضحت خديعة أوصلو.

لن تغيب عن الذاكرة صور الفتية وهم يمتطون ظهور الدبابات، ويستولون على معداتها. تكرّرت هذه المشاهد على شاشات الفضائيات وسط جحيم الموت. قال الجنرال إيتان رئيس أركان جيش الاحتلال السابق الذي استفزته صور البطولة: «سيلحق هذا عارًا بالجيش، لا يجوز السماح به». ربما تمّنّى الجنرال العجوز أن تطلق النيران على رؤوس الفتية، كما فعل الإسرائيليون بالأسرى المصريين الذين أعدموا بدم بارد في عدوان عام 1956. لن تُحى من الذاكرة صورة الطفل فارس عودة وهو يواجه الدبابة بحجره الصغير، ولا مشهد الطلبة بحقائبهم على ظهورهم وهم يشتبكون مع جنود الاحتلال في الشوارع والأزقة، لوحات

فنية مرسومة بدماء الأبرياء. لقد تهاوت هيبة الجنود ورهبة السلاح.

انخرط أبناء «فتح» في الانتفاضة، فوجدت أجهزة الأمن الفلسطينية نفسها إزاء مهمة معقدة، أضحت عناصرها ممزقين بين ماضيهم النضالي وواقعهم الراهن. في هذا الوقت لم تكن الحدود ترسخت بين الأجهزة الأمنية للسلطة والمؤسسة التنظيمية الفتحاوية، وكثيراً ما تغلب الانتماء التنظيمي على المهمة الأمنية. في هذا المنعطف انخرط كثيرون من أبناء الأجهزة في فعاليات الانتفاضة المختلفة. هذا يعلل أسباب اعتقال جيش الاحتلال للمئات منهم، وإصدار الأحكام القاسية بحقهم.

هذه ليست أول مرة يجد فيها منتسبو الأجهزة الأمنية أنفسهم في مثل هذا الموقف، فقد أطلقوا النار على جنود الاحتلال في هبة النفق عام 1996، في تلك الهبة استشهد جهاد سمحان، الضابط في جهاز الأمن الوقائي، وقُتل ما يزيد على خمسين عسكرياً إسرائيلياً. لم يمض وقت طويل على اندلاع انتفاضة الأقصى، حتى أطلق ناشطون فتحاويون النار على الطرق الالتفافية في محيط مدينة رام الله، فقتلوا وأصابوا جنوداً ومستوطنين إسرائيليين.

وقت قصير بعد اندلاع الانتفاضة، وتشكل إطار القوى الوطنية والإسلامية تيمناً بإطار القيادة الوطنية الموحدة الذي قاد الانتفاضة الأولى، وقد ضمّ الإطار الذي ترأسه صخر حبش ممثلين عن الفصائل الوطنية والإسلامية، وشاركت فيه فعاليات مستقلة، وكان مروان البرغوثي عضواً في الإطار الذي منحه أبو عمار الشرعية عبر ترؤسه بعض اجتماعاته في المقاطعة.

برزت ثلاثة عناوين للانتفاضة؛ الأول المقاطعة، حيث يدير أبو عمار السياسة، والثاني مكتب صخر حبش حيث تقرّ البرامج الميدانية والفعاليات الجماهيرية ومواعيدها، والثالث مقرّ اللجنة الحركية العليا لـ«فتح» الذي يديره مروان البرغوثي. في هذا المكتب تعقد اللجنة الحركية العليا اجتماعاتها، قبل أن تتراجع في ضوء اشتداد أوار نار الانتفاضة وتساعد لهيب العمليات العسكرية، وما ترتّب عن ذلك من اختلافات في الرؤى وتباين في المواقف بين أعضاء اللجنة.

في هذه المرحلة المتألفة من عمر التجربة النضالية الفلسطينية، كان مكتب مروان يتميز بفعالية وحيوية لا يحظى بها أي موقع آخر في الضفة الغربية. على مدار الساعات الطويلة كان مروان يتحرك كمنحلة بين غرف المكتب، مهمة عالية؛ يجري مقابلة تلفزيونية هنا، ويدلي بتصريح صحافي هناك، أو يعقد لقاءً مع مجموعة في المطبخ، أو يهمس لناشط أو ناشطة في الممر.

لم يقتصر دور مروان على نشاطه في مكتب اللجنة العليا، فكثيراً ما شاركته وعدد من رفاقنا في اجتماعات ثنائية مع قادة الفصائل، أو مع شخصيات مهمة في مجال دعم الانتفاضة، أو للاجتماع إلى قادة الأجهزة الأمنية والوزراء وفعاليات المجتمع المدني. كان لمروان دور متميز في تشجيع حركة «حماس» على الانخراط في فعاليات الانتفاضة، وكانت قد نأت بنفسها عن ذلك في البداية خشية أن تكون الانتفاضة تكتيكية فتحاوية وسلطوية. قال الشيخ حسن يوسف الناطق باسم حركة «حماس» في الضفة الغربية في أحد اجتماعاتنا إلى وفد من «حماس»: «نخشى أن تكون الانتفاضة تكتيكية ندفع نحن في حركة حماس ثمنه في حال قرّرت السلطة

التخلي عن الانتفاضة ووقفها».

## من مفكرة صديق

كتب الدكتور جمال عبد الناصر الخطيب: «يوم الخميس، الثاني عشر من تشرين الأول/ أكتوبر عام 2000، كانت انتفاضة الأقصى أكملت أسبوعها الثاني. أنهيت معاملاتي على الجسر ذاهباً إلى رام الله. بدأت أبحث عن تكسي ينقلني إلى هناك. ردّات فعل السائقين وحركتهم توحى بأن شيئاً ما يحدث في المدينة، شيئاً خطراً على الأغلب. اتصلت بصديقي حسن عبد الرحيم، فجاء صوته منفعلًا: 'مولّعة، مولّعة'. صاح سائق: 'الي رايح على رام الله يرجع. الشباب قتلوا اثنين من المستعربين، واليهود هجموا بالدبابات على المدينة'. تحدّثني نفسي: 'أصبح الذهاب إلى رام الله أكثر إلحاحًا'. سألت أحد السائقين: 'تقلّني؟'. ردّ: 'الطريق مش أمان، ويمكن مسكرة. ويمكن المستوطنين...'. سألته: 'الخال من وين؟'. أجاب: 'من كفر نعمة'. شعرت بالطمأنينة وقد اقتحمت مخيلتي صورة أخي ورفيق دربي كمال ياسين. 'والله رجعت أيام زمان يا كمال!'. عبرت مخيلتي صور الشهداء حمدي وأبو حسن قاسم. يلكرني صوت السائق: 'الأجرة ثلاثون دينارًا، وعلى مسؤوليتك'. أرد: 'لا. خمسة وعشرون وعلى مسؤوليتي'».

يضيف الدكتور: «تبدأ السيارة سيرها المتوتر في رحلة لا نعرف كيف ستنتهي. عند قرية حزما، أعمدة دخان، أكوام حجارة، وملثمون على جانبي الطريق. في مخيم قلنديا<sup>(140)</sup>، جو مشحون بالمواجهة بين الأطفال وجنود الاحتلال. سيل سيارات يتدفق من رام الله مقابل عدد قليل يتوجه إليها. ما الذي يحدث؟ دخلنا رام الله وسط هدوء ثقيل، ووجوم شديد. حين وصلت إلى مصنع صديقي وجدته مقفلاً. سألت الرجل الوحيد المتبقي في المصنع: 'وين حسن؟'. رد: 'سكروا. روّحوا كلهم. روّح روّح'. يستقبلني العم أبو حسن في بيته. أبو حسن شاب في السبعينات من عمره. كان صديقاً لوالدي، وأصبح صديقي، ويملك من الحيوية ما يجعله صديقاً لابني خالد! كعاداته تأتي كلماته عالية متدافعة كأنّها تصدر من رشاش: 'الوضع تمام عمي. أحسن وضع يمرّ على القضية الفلسطينية منذ الخمسينيات'».

يضيف الدكتور: «اتصلت بصديقي أبو علاء منصور. جاء صوته مصحوباً بضحكة عالية: 'وصلت؟ وين انت؟ هيني جاي'. من يرى أبو علاء أول مرة لن يخطر بباله أن هاتين العينين الضيّقتين تخفيان خلفهما ذكاءً متقدماً، وبقطة عالية. إنّ الهدوء والطمأنينة البادين يجنّان شجاعة وقوة وحزماً تجعل من أبو علاء قادراً على القيام بأي فعل دون أن يهتزّ أو يرمش له جفن، ولطالما فعل. على مرّ السنين عرفت منصور الذي أصبح اسمه بعد العودة إلى الوطن أبو علاء منصور. تشاركت وإياه كل شيء، تقاسمنا العديد من الأشياء؛ من الصفات الشخصية، إلى رحلات الطبيعة. لم أعرف على مدى العمر هدوءاً معدياً وطمأنينة مثل هدوء منصور. وأنت معه تقتحم الخطر من دون أن تشعر به، تدخل أكثر المناطق توترًا باطمئنان! بؤرة للمّ النقاط

المضيئة، حاضنة لإنبات أنجح المشروعات، نظرة همّها النصف الممتلئ من الكأس، باحث دائم عن نقاط الاتفاق».

يضيف الدكتور: «نبدأ جولة في المدينة التي يسيطر عليها الوجوم والترقب، هدوء كما الذي يسبق العاصفة. تلك العاصفة التي لا تلبث أن تهبّ حيث تدوّي أصوات الانفجارات. نذهب على عجل إلى مكان الانفجار، المخفر، حيث قُتل الجنود الصهاينة. آلاف الناس تجمّعوا بحماسة وغضب، كأنّ القصف كلمة سرّ جمعتهم. أرى في مقدمتهم مروان البرغوثي، رأس الحربة في المواجهات، حارس الانتفاضة السياسي والناطق باسمها، ما يقوله هو ما تفكر به أو تريد قوله أو تتمنى سماعه. كل من أعرفه في عمّان أوصاني: 'سلم على مروان، الله يحمي مروان'. لم ينجح هذا الشاب في الاستحواذ على قلوب الناس والتقاط توجهاتهم فحسب، بل لم أر من هو أقدر منه على صوغ هذه التوجهات، بل حتى الأحلام، على هيئة مطالب سياسية تحقّق التوازن المستحيل بين ضعف الإمكانيات وعظمة الأهداف. يثبت بالفعل أنّ الإرادة ليست جمعاً حسيباً للموارد. لا أكاد أتمكّن من إتمام محادثة معه، حيث إنّ ذلك يتطلّب مزاحمة عشرات الصحفيين ومراسلي وكالات الأنباء. تتعرّض المدينة للقصف مجدداً، هذه المرة أصابت مولّد كهرباء في حيّ الإرسال<sup>(141)</sup>. تغرق المدينة في الظلام. مكان القصف يعجّ بالناس. نأخذ مروان ونتوجه إلى مكان ما. يبدأ الشبان بالتقاطر. مجموعات تتسلّح برجولة مبكرة قبل السلاح، إثم شباب التنظيم».

يضيف: «الجمعة، يوم المسيرة الكبرى، التجمّع بعد صلاة الجمعة أمام المخفر المقصوف. تهتف الحناجر: 'عالمحسوم عالمحسوم'. والمحسوم هو حاجز الجيش الإسرائيلي. هناك تفهم ما معنى انتفاضة شعبية. شعب بأكمله في مواجهة جيش، حيث يتجاوز حب الحياة مع الإقبال على الموت، ويصبح الموت جزءاً من الحياة. لوحة يعزّ نظيرها، ويصعب تفسيرها، من أعمار ستة إلى ستين عاماً يتجمّع رجال ونساء أمام المحسوم في تراتب لا يشبه إلاّ الفوضى. شباب التنظيم في المقدمة، مباشرة في مواجهة جنود الاحتلال، يتمرسون خلف متاريس شعبية، سيارات قديمة، حاويات<sup>(142)</sup>. لربما تفتّحت معظم هذه الزهور أيام الانتفاضة الأولى. أي واحد من هؤلاء قد يكون ابن شهيد، شقيق شهيد، ابن أسير، ابن عم شهيد، خاله استشهد في لبنان، عمّه اعتقل في سورية، قريبه سجين في الأردن، أمّا هو فمشروع هذا كله.

من حول هذه المجموعة الطليعية، يمّنة ويسرة مجموعات تقوم بالتجهيز؛ إعداد الحجارة، المولوتوف<sup>(143)</sup>، والمقاليع<sup>(144)</sup>. سيدة في الخمسين تركض بسطيّ حجارة باتجاه الخط الأمامي. أنظر إلى منصور: 'معقول يا أبو علاء؟'. يجيبني: 'هذه أم نادر، والدة شهيد، تأتي في كل مواجهة لتكون بجانب رفاق ابنها الشهيد'. الله الله يا نسيبة! الله الله يا خنساء! كيف يمكن أن يكون الموت رخيصة إلى هذا الحدّ؟ بل كيف يمكن أن يفقد الموت رهبته وجبروته وهو على هذه الدرجة من القرب؟ هل هي الشجاعة، الفتوة، الوطنية؟!

ينزع بعض الشبان قمصانهم ويقفون أمام الجنود عراة الصدور في فروسية مذهشة. أصرخ وقلبي يكاد



يتفطر: 'إنزل يا بني، دير بالك'. يلتفت إليّ أحدهم: 'خالي كنك أول مرة بتيجي هون!'. على الجانب رتل سيارات إسعاف. بمجرد سماع صفير الشبان تنطلق السيارة التي عليها الدور لنقل جريح أو شهيد. ترتفع درجة التوتر، وتزداد المواجهات حدة. الله أكبر، عليهم. يصرخ شاب: 'مين الي تصاوب؟'. يجيب آخر: 'بيدو أئها إصابة خطيرة'. الصوت ليس صوت رصاص مطاطي، إنه صوت رصاص حي. الله يستر. مجموعة تبدو عليها الحكمة: 'يا جماعة مش هيك، الشغلة بدها تنظيم'. تلاحظ مجموعة تحمل كلاشنات وبنادق M16. يلتفت أحدهم: 'يا إخوان السلاح هون مالوش لزوم، هون بضّر ما بنفع'. يردّ أحدهم: 'توكل على الله يا عمي الحج'. مجموعات أخرى تضم ملتحين ويساريين تناقش موقف السلطة وآفاق الانتفاضة، وهل كان اتفاق أو سلو صحيحاً أم خاطئاً؟ وفي المحيط دوريات لشرطة فلسطينية وقوات الأمن الوطني، تراقب وتشدّ بحنو ومحبة، وغالباً باعتذارية، على أيادي الشبان.

خليط باعة يجولون؛ ذرة، شاي. بائع كعك يتحدث عبر الهاتف، ربما مع الفرن: 'اليوم مولعة، ملان ناس، ابعثوا لي كمان نقلة. كعك يا شباب، كعك وببيض'. صوت طفل: 'سيدي بدي كعك'. يمدّ الرجل يده إلى جيبه: 'خذ يا سيدي بس دير بالك لأنهم مش مصليين عالنبى اليوم'. يمرّ بجواري شاب يتحدث بالهاتف: 'اليوم مولعة في رام الله. لا، لحد هسه ولا شهيد، بس جرحى كثير. كيف الوضع عندكم؟'. صحفيون يهرولون لالتقاط صورة أو خبر مميّز. يتعامل معهم الناس بمتنهي اللطف. إنهم رسل الانتفاضة إلى الخارج. حيثما ترى الصحفيين يتدافعون تجد مروان هناك. يُنهي مروان حديثاً صحافياً ويلتفت إليّ: 'إيش يا دكتور؟ شو رأيك نروح نتغدى وبعدين بنرجع عالدوام'. بعد الغداء نلتقط صوراً تذكارية. هل ستكرّر جمعتنا؟».

يضيف الدكتور: «لفت انتباهي في مكتب اللجنة الحركية العليا، تركيز معظم مترجمات الصحف على دور التنظيم؛ تنظيم فتح، بعضها استخدم الكلمة 'تنظيم' دون ترجمتها. كان هناك إجماع بأنّ مروان على خلاف مع القيادة الفلسطينية، أنّها غير قادرة على السيطرة عليه، أنّه الرجل الأقوى، المتطرف؛ دسّ للسم في الدسم. في إحدى الصحف قرأت مقالة على شكل نصيحة موجّهة لرئيس الوزراء الإسرائيلي باراك<sup>(145)</sup> تتضمن رقم هاتف مروان: 'إن أردت وقف العنف اتصل بهذا الرقم'. كنت أقرأ وأستشعر قشعريرة تسري في داخلي. الله يحميك يا مروان».

## فدائيون

تعلّم الفلسطينيون من انتفاضة عام 1987 دروساً كثيرة. استمرار الحياة في ظلّ الانتفاضة واحدٌ من أبلغ الدروس، وأهمها ألاّ تتعطل العملية التعليمية. لم تُخضع المدارس لإضرابات الانتفاضة، وتصرّف المعلمون والمعلمات وباقي الموظفين كفدائيين. واصلوا العمل ليلاً ونهاراً، وضعوا خطط طوارئ، نام

كثيرون منهم في مكاتبهم، في المساجد ومنازل الأصدقاء والأقارب. وأتاحت برامجهم المبدعة للطلبة وللمعلمين الدوام في أقرب المدارس إليهم، وسمح لطلبة التوجيهي تقديم الامتحانات في أقرب قاعة ممكنة. برامج مبدعة لكنّها لا تملك الحيلة لمنع جيش الاحتلال من قتل الطلبة، ولا نحو صور الطلبة الشهداء من ذاكرة رفاقهم وهم يتأملون مقاعدهم الخالية. ربما أنّ هذا أقسى ما واجهه أطفال فلسطين من جرائم الاحتلال. ماذا تقول أمّ استشهاد فلذة كبدها حين تفتح غرفة نومه صباحاً فتعبر خيالها صور ابتسامته وهي توقظه لتناول الفطور؟ لقد أضحى سريره فارغاً.

يوم الحادي والثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر عام 2000، بعد مرور ثلاثة أشهر على اندلاع الانتفاضة، أطلقت قوات الاحتلال النار على الدكتور ثابت أمين سرّ إقليم حركة «فتح» في طولكرم، فأردته قتيلاً أمام منزله. وفي الثامن والعشرين من شباط/ فبراير عام 2001 اقتحمت الدبابات الإسرائيلية مخيم بلاطة. أعلنت إسرائيل أنّ هدف العملية اعتقال ناشطي «كتائب شهداء الأقصى»<sup>(146)</sup>. بالتزامن مع العملية اقتحمت قوات الاحتلال مخيم جنين<sup>(147)</sup>. أعلن الإسرائيليون أنّ رسالة العملية: «لا مكان مغلق أمام الجيش الإسرائيلي». في ضوء التصعيدات الإسرائيلية، أعلنت السلطة الفلسطينية تعليق اتصالاتها الأمنية مع الإسرائيليين، ونفذ الاستشهادي، من «كتائب شهداء الأقصى»، محمد دراغمة عملية في القدس. ردّ أريئيل شارون بتحميل عرفات المسؤولية عن العملية.

في الأول من حزيران/ يونيو 2001، نفذت «كتائب الشهيد عز الدين القسام»<sup>(148)</sup> عملية في ملهى «دولفيناريوم» على شاطئ تل أبيب<sup>(149)</sup>. قُتل في العملية تسعة عشر إسرائيلياً وأصيب أكثر من مئة. هذه أضخم عملية منذ اندلاع الانتفاضة قبل ثمانية أشهر، جاء توقيتها في ذروة الادعاء الإسرائيلي الكاذب بالتمسك بوقف إطلاق النار. أعلن أبو عمار عن وقف إطلاق النار من دون شروط، ودعا أعضاء اللجنة المركزية لحركة «فتح» المعنيين بالشؤون التنظيمية، وأعضاء اللجنة الحركية العليا، ولجتيّ إقليم «فتح» في القدس ورام الله لاجتماع في مكتبه، وحضر الاجتماع عدد من كبار قادة أجهزة الأمن الفلسطينية. من بين ما قاله أبو عمار لنا في ذلك الاجتماع: «نحن نمرّ بظرف في منتهى الحساسية. أطلبكم بالتزام وقف إطلاق النار». كان أبو عمار يدرك العواقب، أمّا في الميدان فلم يفهم الناشطون معنى السلطة تحت الاحتلال. قادتهم أحلامهم الجميلة.

في النهار ذاته عقد مروان ندوة لخصّ فيها الموقف: «مخطئ من يراهن على اتفاق مع الإسرائيليين من دون مقاومة. منذ اتفاق أوسلو، الواهمون فحسب راهنوا على تحصيل الحقوق الوطنية دون تضحيات ودماء. صمود أبو عمار في وجه الضغوط الأميركية والإسرائيلية في كيب دايفيد<sup>(150)</sup> سلّح شعبنا بموقف سياسي أنضج شروط اندلاع الانتفاضة. لقد دهمت الانتفاضة قيادة فتح والفصائل، اقتحمت الجميع فلحقوا بها. المؤسف أنّه بعد مرور ثمانية أشهر على اندلاعها، لم تجتمع هيئة سياسية فلسطينية واحدة لتقويم مسارها، وتزويدها ببرنامج. أمّا أولئك الذين يدّعون أنّ الانتفاضة كانت مخطّطة، محاولين الإيحاء بأنهم مخطّطوها، وهم في الوقت ذاته يتساءلون عن أهدافها، عليهم أن يكفّوا عن التشديق بالكلام. هؤلاء

يتحدّثون عن انتفاضة في مخيَّلاتهم. خيار فتح أن تتمسك بالانتفاضة والمقاومة. لقد آن الأوان كي تصبح هذه محط إجماع الحركة. شارون لا يملك مشروعًا سياسيًا، لا يمكن الوصول معه إلى اتفاق نهائي أو موقت، إنَّه الطلقة الأخيرة في جعبة الإسرائيليين. هذه الانتفاضة ثورة على الاحتلال، وحركة احتجاج على أداء السلطة».

كان مروان يعوم في بحر أحلامه حين رنَّ جرس منزله فجراً. تطلَّعت فدوى بقلق شديد من العين السحرية وعادت لزوجها:

«فيصل الحسيني على الباب».

أسرع مروان إلى الباب:

«أهلاً أبو العبد».

أضاف بعدما أغلق الباب:

«ما الذي اضطررك إلى المجيء في هذه الساعة المبكرة يا رجل؟».

مدَّ الحسيني يده إلى جيبه. تناول مبلغاً من المال ووضعه في يد مروان:

«آسف على الإزعاج، تسلَّلت مبكراً كي لا يراني أحد. هذه عشرة آلاف دولار».

هذا ما قاله القائد الكبير وهو يعانق مروان، ثمَّ استأذن بالخروج.

شكر مروان قائده بامتنان: «هذا المبلغ يساوي عندي كنوز الخزائن الرسمية كلها».

لطالما تصرَّف الحسيني بفروسية نادرة، قائد شجاع ووفيّ. أدرك قدرات مروان فأفسح له السبيل لقيادة اللجنة الحركية العليا التي كان يرأسها بنفسه، تصرَّف كقائد لا كمنافس، وقف إلى جانب مروان في أحلك اللحظات وظلَّ مروان وفيّاً. الكبار يقاتلون بصمت، يرفضون العيش في الضجيج.

تداعت من ذاكرتي صور لغازي الحسيني، الشقيق الأصغر لفيصل الحسيني، فقلت لمروان وهو يحدثني عمّا جرى: «أنا عملت بإمرة شقيقه غازي الذي كلَّفه أبو جهاد بقيادة لجنة التنظيم 77 لفترة مؤقتة. غازي أيضاً كتلة شجاعة وخلق نادرة. تخلّى عن دراسته في ألمانيا ليلتحق بالثورة. وفي تموز/ يوليو 1967، كان ضمن طلائع دوريات حركة فتح التي اجتازت الحدود إلى الداخل، أُعتقل وأمضى في السجن عاماً ونصف العام».

## بلطجة

السادس من حزيران/ يونيو 2001، قصف الطيران الإسرائيلي مقرّ المقاطعة في رام الله. وقع ذلك في أثناء اجتماع عرفات بالمثل الأعلى للسياسة الخارجية والأمنية للاتحاد الأوروبي ميغيل أنخل

موراتينوس<sup>(151)</sup> (Miguel Angel Moratinos). وأغار على مقرّ شرطة حلحول، ومكتبيّ «فتح» في بلدتي حلحول<sup>(152)</sup> ويطا<sup>(153)</sup>. واتخذ مجلس الوزراء الإسرائيلي قرارًا بمنع السيارات الفلسطينية من التحرك على الطرق، واقتحم جيش الاحتلال مدن بيت لحم، بيت ساحور<sup>(154)</sup>، بيت جالا<sup>(155)</sup> ونخيماتها، واستشهد ثلاثة عشر فلسطينيًا في قرية خزاعة<sup>(156)</sup> بينهم اللواء في الأمن الوطني أحمد مفرّج.

في نخيم طولكرم<sup>(157)</sup> حاول الجيش الظهور بمظهر المنتصر، ادّعى أنّ المدافعين عن المخيم استسلموا. بثت الفضائيات صورًا لأشخاص مقبّدين بالسلاسل، وأيديهم فوق رؤوسهم، لجثث تُركت لساعات طويلة في الأزقة وفوق ظهور الآليات، ولسيارات إسعاف سحقتها جنازير الدبابات. جيش يتصرّف كعصابة. أرادوا بث الرعب في الأنفس. في هذه العملية اعتقلوا ستمئة من أبناء المخيم.

استيقظ الفلسطينيون على هول ما بثته الفضائيات من نخيم طولكرم، فعمّت المسيرات الحاشدة الأراضي المحتلة عام 1948، وأعلن الحداد على الشهداء. ردًا على الجرائم اقتحم محمد فرحات من حركة «حماس» معسكرًا للعدو في القطاع، أفرغ في عملياته تسعة أمشاط ذخيرة، بحسب ما جاء في إذاعة العدو.

في السادس عشر من الشهر ذاته، عقد أبو عمار اجتماعًا لقيادة تنظيم «فتح» حضره أمناء سرّ أقاليم الحركة في الضفة الغربية. قال لنا في ذلك الاجتماع: «أعلنّا عن وقف إطلاق النار، وبدأ تطبيق «وثيقة تينت»<sup>(158)</sup>، فزداد العدوان ضراوة. قدّرنا أن نواصل التضحية. نحن جميعًا على هذه الطاولة مطلوبون لإسرائيل. بقرار وقف إطلاق النار قفزنا عن لغم كبير زرعه عملية الدولفيناريوم، لا تناموا على حرير، شارون لا يريد حلاً». أسبوع وعقد أبو عمار اجتماعًا آخر حضره عشرون من أبرز قادة تنظيم «فتح». قال لنا في الاجتماع: «لا يوجد حركة دولية لمواجهة العدوان، أميركا وبريطانيا تحبطان أي جهد دولي. أناشدكم بضائركم وعقولكم أن تستخدموا ذكاءكم وفطنتكم. لنعمل بهدوء وبعقرية، نحن محتاجون للتهدئة، إنّنا في لحظة مصيرية، سيضرب شارون ضربته قبل نهاية العام».

في اجتماع بدعوة من وزير التخطيط الدكتور نبيل شعث<sup>(159)</sup>، انصبّ النقاش على التخوّف على مستقبل السلطة في ضوء التهديدات الإسرائيلية. استغلّ بعض المتحدّثين قرار وقف إطلاق النار الذي أعلنه أبو عمار، فصبّوا جام غضبهم على الانتفاضة، وعلى حركتيّ «حماس» و«الجهاد الإسلامي»<sup>(160)</sup>. ردّ مروان: «لا يجوز أن نغطّي عجزنا باتهامنا لغيرنا. على الرغم ممّا يمكن قوله عن عملية حماس الأخيرة، فإنّ هجوم شارون على السلطة لم يبدأ منها. علينا ونحن نحاول تفادي الضربة ألا ندفع ثمنًا أشدّ إيلاّمًا من الضربة ذاتها إن وقعت».

في الرابع والعشرين من حزيران/ يونيو 2001، قُتل ضابط مخابرات إسرائيلي كبير، وأصيب آخر في طريق الأنفاق قرب مدينة بيت جالا. أعلنت «كتائب شهداء الأقصى» أنّ العملية تأتي في سياق الردّ على اغتيال ناشطها حسين عبيات. شهر بعد ذلك واغتالت طائرة أباتشي إسرائيلية القائدين الحمساوين جمال منصور وجمال سليم. وبعد أسبوعين أغلقت إسرائيل مقرّ «بيت الشرق»<sup>(161)</sup> في القدس.

تفنّن جنود الاحتلال في تعذيب الفلسطينيين؛ رسموا نجمة داود على أذرع الشبان المعتقلين على الحواجز بأدوات حادة، وكانوا يطلبون من الشاب أحياناً أن يختار أسلوب تعذيبه بنفسه، وفي أحيان أخرى كانوا يجرون قرعة لاختيار أسلوب الإهانة. لن تُمحي من الذاكرة صورة الشاب الذي كان يسند ساقه التي حطمتها صلبة رشاش بيديه. كان وجهه يرتطم بالأرض فيما اثنان من جنود الاحتلال يجرانه من حزامه.

هل للعالم أن ينسى صورة الفتاة هدى غالية وهي تنتحب كما لو أصابها مسّ. لقد أتت قذيفة دبابة على كامل أسرتها إلاّ هي. أرادت الأسرة اقتناص فسحة متعة على شاطئ بحر غزة، فأضحت هذه مقبرة. أمّا المشاهد الأكثر بشاعة فهي لطفولة تتعرّج باكية بين حطام البيوت، وجوه بريئة تنقبّ بين كتل الإسمنت وقضبان الحديد والأثاث المحطم عن مزق كتب ودفاتر وبقايا ألعاب، أطفال ينبشون عن بقايا ذكرياتهم بين الأنقاض.

اعتاد الناس مشاهدة الطائرات الإسرائيلية من دون طيار وهي تجوب السماء، يتلوها أحياناً هدير طائرات الأباتشي. ما إن تظهر الطائرة حتى تشخص العيون إلى السماء، تترقب انهمار حمم الموت بقلوب واجفة. تبدأ الاتصالات الهاتفية لتحذير المطلوين. حين تتوقف الطائرة عن الحركة وسط السماء ترتجف القلوب. هناك من سيُضحى أشلاءً بعد لحظات؛ طفلاً بريئاً، أو عابر سبيل، وربما من رجال المقاومة أو المراقب نفسه. تنصرف الطائرات فيندفع الناس لتقديم العون ولإسعاف المصابين، تتعالى أبواق سيارات الإسعاف، وتسارع وسائل الإعلام لنقل المشهد، ولا تلبث أن تنطلق تظاهرة من الموقع المستهدف صوب وسط المدينة. في إحدى الغارات حذّرني وأحمد غنيم شاب أشار إلى السماء: «انتبهوا». لحظات وهزّ المدينة انفجار، وتصاعدت غيمة دخان.

قتل ناشطون من الجبهة الشعبية وزير السياحة الإسرائيلي رحبعام زئيفي<sup>(162)</sup>. هذه أول مرة في تاريخ المقاومة الفلسطينية يُقتل فيها مسؤول إسرائيلي بهذا المستوى. حمّلت إسرائيل أبو عمّار المسؤولية. تحت ضغط التهديد الإسرائيلي، أصدرت السلطة الفلسطينية بياناً اعتبرت فيه التنظيمات المسلحة خارجة عن القانون، ودهمت أجهزتها الأمنية بيوت ناشطين للجبهة الشعبية في رام الله. في السابع والعشرين من شهر آب/أغسطس عام 2001، غتيل مصطفى الزبري<sup>(163)</sup>، الأمين العام للجبهة الشعبية الملقّب «أبو علي مصطفى»، بصاروخ أطلقته طائرة أباتشي. وبعد مدة اعتقل جهاز الأمن الوقائي أحمد سعدات<sup>(164)</sup> الذي خلف الزبري في موقعه، وبعد أسبوع اعتقلت المخابرات الفلسطينية المجموعة التي قتلت زئيفي.

قرّر أريئيل شارون استئناف اللقاءات مع الشخصيات الفلسطينية عدا عرفات. التقى وزير دفاعه بنيامين بن إلعيزر<sup>(165)</sup> رئيس جهاز الأمن الوقائي في قطاع غزة محمد دحلان<sup>(166)</sup>، ومستشار عرفات الاقتصادي خالد سلام (محمد رشيد). أمّا مروان فأصدر بياناً حيّاه فيه التشكيلات الفصائلية المسلحة، ودعا الفتحاويين لحمل السلاح. أثار البيان حفيظة أبو عمّار واستغلّه البعض لشنّ حملة تحريض واسعة ضدّ مروان.

كنت ومروان في طريقنا للاجتماع إلى أبو عمّار. أمام المصعد في مقرّ المقاطعة التقينا اثنين من كبار قادة

أجهزة أمن السلطة. «أبو عمار لا يريد مقابلتك، طلب منا أن نلتقيك الليلة لإبلاغك رسالة»، هذا ما خاطب به أحدهما مروان.

كنت أدرك أن تصريحات مروان الراضية لوقف إطلاق النار ستستثير غضب أبو عمار. فاقترحت عليه ألا نقابل القائد في تلك الليلة لكنه أصرّ على مقابلته.

قال أبو عمار لمروان بحنية حين دخلنا مكتبه: «أنا زعلان منك. أنا أمر بوقف إطلاق النار، وأنت تصرّح ضده!». ردّ مروان مراوغاً: «أنا قلت إن الدبابات الإسرائيلية داست وقف إطلاق النار في رفح<sup>(167)</sup> والخليل وبيت حانون<sup>(168)</sup>». هداً أبو عمار، وتناولنا العشاء معه.

أصرّ مروان على أن أذهب معه لمقابلة مسؤولي الأمن. قال أحدهما لمروان حين التقينا: «فتح ما عادت تحتملك. ابحث لك عن تنظيم يا أخي». ردّ مروان بثقة مقاتل: «إن كنت تتحدّث معي باعتبارك رجل أمن فأنا عضو مجلس تشريعي، وهناك أصول لاستجوابي، وإن تحدّثت من موقع فتحاوي فأنا عضو مجلس ثوري منتخب، وأنت لست كذلك. في أي حال نحن آتيان من اجتماع مع الرئيس، لقد تناولنا العشاء معه». هدأت العاصفة فأمسك الآخر بسماعة الهاتف واتصل بمدير المخابرات المصرية عمر سليمان، التفت صوب مروان وهو يقول لسليمان: «أخوك مروان البرغوثي يودّ أن يسلم عليك».

يومان واتصل بي صخر حبش عضو اللجنة المركزية لحركة «فتح». طلب أن التقيه على عجل. سألني حبش حين التقينا: «هل أنت من كتب بيان اللجنة الحركية العليا؟». أجبت: «أبداً! لماذا؟». قال: «استنكرت أقاليم فتح البيان إلا أنت». قلت مستفزاً: «وهل تريدني أن أفعل ذلك؟! صحيح أنني لا أؤيد البيان لكنني لن أستنكره، الاستنكار كلمة حق يُراد بها باطل ضدّ مروان». بناءً على طلب حبش اتصلت بمروان وطلبت حضوره، فيما اتصل حبش بأحمد عبد الرحمن مستشار الرئيس، فحضر أيضاً. شكرًا للرجلين، لقد جنبنا أزمة مع أبو عمار.

أيام وأطلق اثنان من «سرايا القدس»<sup>(169)</sup> التابعة لـ«الجهاد الإسلامي» النار وسط مدينة الخضيره<sup>(170)</sup>، فقتلا ثلاثة إسرائيليين. أثير لغط في الأوساط الفتحاوية العليا، وفي بعض دوائر الأمن الفلسطينية حول العملية. أشيع أن منفذيهما من «فتح»، وأن تبنيها من حركة «الجهاد الإسلامي» جاء باتفاق بين حركة «الجهاد الإسلامي» و«كتائب شهداء الأقصى» لتجاوز أزمة فتحاوية داخلية محتملة على خلفية العملية. أصدر مكتب التعبئة والتنظيم التابع لحركة «فتح» بياناً جاء فيه: «بعد مراجعة سجلات الحركة لم نجد أسماء للشهيدين». بهذه البساطة تنصّلت الحركة من شهيديهما! وقيل لاحقاً إن تعليمات صدرت لأبناء التنظيم بعدم المشاركة في الغزاء.

## أحقاً ما زلت حيّاً!

لم يكن صباح الثامن من أيلول/ سبتمبر عام 2001 مختلفاً عن باقي الأيام بالنسبة لي. لا يختلف عما

ألفناه من يوميات الانتفاضة. كان يملأني الأمل وأنا في طريقي إلى مقرّ عملي بوزارة الداخلية. عند الساعة العاشرة صباحاً غادرت مكنتي في الوزارة إلى مقرّ الإقليم، كنت على موعد مع أحمد غنيم. لم أكد أجلس في المكتب حتى رنّ هاتفي الجوال: «أنا بانتظارك أمام المقرّ». هذا ما قاله أحمد، فغادرت ورافقته بسيارته تاركاً سيارتي أمام المقرّ.

قبل الثانية ظهرًا أعادني أحمد إلى مقرّ عملي في وزارة الداخلية. أردت إحضار صديقي أبو سليم لتناول الغداء في الإقليم. كنّا نستعد للمغادرة حين وصل صديقنا المشترك عمّار بن ياسر. لم أحمّس لفكرة استضافته لنا في مطعم، لكنني أمام إصراره تنازلت له عن أبو سليم.

بدل أن أعود للإقليم اتصلت بزوجتي:

- ما غداؤكم؟

- تعال الأولاد يسألون عنك.

لم أكد أغفو في قيلولة بعد الغداء حتى هدرت طائرات الأباتشي. ناديت على ابني الصغير: «سيف، انظر ما الذي يجري». تواصل الهدير، وتلكأ الصبي. خرجت إلى الشرفة فشاهدت طائرتي أباتشي تتوقفان بجوار بعضهما وسط السماء. لحظات وأطلقت إحدهما صاروخًا، تلاه ثانٍ، ولحق بهما آخران من الطائرة الثانية. تحيّلت جسد مروان أشلاء. التقطت الجوّال محاولاً الاتصال به فلم يستجب الجهاز. تذكرت أن اتصالات الهاتف الخليوي تتعطل في مثل هذه الأحوال. اتصلت من هاتف المنزل بالعميد سليمان حلّس قائد الأمن الوطني في رام الله: «أين ضربت الصواريخ يا أبو الوليد؟». لم أكد أتمالك نفسي حين ردّ: «هل أنت بخير! حمدًا لله على سلامتك، الصواريخ ضربت مكتبك».

سيل أسئلة رابعة مرّ ببالي وأنا أقود السيارة نحو مقرّ الإقليم. ما مصير شكري حمدان، نعيم مرار، محمد زغلول، كارلوس، وأم بسام؟ هل كان أحد غيرهم في المقرّ؟ ما مصير جيراننا في العمارة؟ من استشهد؟ من أصيب؟ من نجا؟

دخان يتصاعد من المبنى، وشبّان وصبايا بالمئات يحتشدون أمام المقرّ حين وصلت.

عانقني مروان والدموع تملأ عينيه: «حمدًا لله على سلامتك، الشباب كلهم بخير».

تجمّع بشري ضخم، كوادر من الفصائل المختلفة، وأناس عاديون. سُحب غبار، وحطام أثاث. حين وقعت عيناى على بقايا مكنتي، تحيّلت دمي يلطّخ الجُدُر، وجسدي أشلاء في الزوايا. كدت أحمّس جسمي، أما زلت حيًّا؟! هل أنا في قيد الحياة حقًّا؟!

حملني الشبّان على الأكتاف، وجابوا بي شوارع وسط المدينة في مسيرة حاشدة يتقدّمها مروان.

**عمى سياسي!**

في السادس والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2001، وصل المبعوث الأميركي الجنرال زيني<sup>(171)</sup> (Anthony Zinni) إلى المنطقة. ساعات بعد وصوله ونفّذت «كتائب شهداء الأقصى» و«سرايا القدس» عملية مشتركة في مدينة العفولة<sup>(172)</sup>. ثلاثة أيام أخرى ونفّذت «كتائب شهداء الأقصى» عملية استشهادية في المدينة ذاتها. وفي اليوم الذي وصل فيه أريئيل شارون إلى واشنطن بعد أيام، أسفرت عملية استشهادية في حيفا عن مقتل خمسة عشر صهيونيا، وإصابة خمسين آخرين. كأنّ الفلسطينيين تخلّوا عن فطنته لمصلحة غيظه!

أعلنت الإدارة الأميركية أنّ من حق إسرائيل الدفاع عن نفسها بالطريقة التي تراها. دانت السلطة الفلسطينية عملية حيفا، وأعلنت تمسّكها بوقف إطلاق النار، ثمّ أصدرت بياناً أعلنت فيه أنّ حركتيّ «الجهاد الإسلامي» و«حماس» خارجتان عن القانون، وفرضت الإقامة الجبرية على الشيخ أحمد ياسين<sup>(173)</sup>. في اليوم ذاته دمّرت طائرات F16 مقرّ أبو عمار في غزة وطائرتي الهليكوبتر الرئاسيتين، وجرفت مطار غزة، وقصفت طائرات أباتشي محيط المقاطعة في رام الله. وأعلن الجنرال زيني عن تعليق اتصالاته مع الفلسطينيين، وأبلغ القنصل الأميركي عرفات سلسلة مطالب غير قابلة للنقاش.

في السادس من كانون الثاني/ يناير عام 2002 التقى وزير الخارجية المصري أبو عمار في المقاطعة، والتقى زيني أبو عمار كذلك وطالبه بتنفيذ المطالب الإسرائيلية. أعلنت إسرائيل أنّها ستصرّف وكأنّ السلطة غير موجودة، وأعلن رئيس أركان جيشها أنّهم يتطلّعون لمرحلة ما بعد عرفات! مُنِع عرفات من السفر للمشاركة في مؤتمر القمة الإسلامي في الدوحة، وأعلن الاتحاد الأوروبي أنّ «حماس» و«الجهاد الإسلامي» حركتان إرهابيتان. تدهور سياسي وأمني شديد، وردّات فعل غير مسبوقة ضدّ السلطة.

بمناسبة عيد الفطر ألقى أبو عمار خطبة أكّد فيها تمسّكه بوقف إطلاق النار، وأعلن عن خروج الأذرع العسكرية للفصائل عن القانون، وعن ملاحقة منفذي العمليات. ردّت حركتا «حماس» و«الجهاد» ببيان مشترك رفضتا فيه ما جاء في الخطبة. واستشهد ستة مواطنين في اشتباكات بين «حماس» والشرطة الفلسطينية في غزة. اختلطت الأوراق. في هذه الأثناء التقيت ومروان في منزله الشيخين حسن يوسف وجمال الطويل من قادة «حماس». ناقشنا معهما الضغوط الدولية والإسرائيلية التي يتعرّض لها أبو عمار، والتي تستهدف دفعه للتبرؤ من حركتيّ «حماس» و«الجهاد»، واتخاذ إجراءات ضدهما. اقترحنا عليهما أن تتوقف «حماس» عن تنفيذ عمليات في مناطق الأراضي المحتلة عام 1948. بالفعل أعلنت حركتا «حماس» و«الجهاد» وقفاً مؤقتاً لعملياتهما في تلك المناطق. في هذا المنعطف الحساس استولت البحرية الإسرائيلية على سفينة «كارين A» التي تحمل سلاحاً للسلطة الفلسطينية. أقامت إسرائيل الدنيا ولم تقعدها، وحملت أبو عمار المسؤولية.

## نقطة تحوّل

في الرابع عشر من كانون الثاني/ يناير عام 2002، اغتالت قوات الاحتلال الناشط البارز في «كتائب



شهداء الأقصى» رائد الكرمي الذي ذاع صيت قيادته لعدد من العمليات العسكرية الجريئة<sup>(174)</sup>. أصدرت الكتائب بياناً أعلنت فيه أنها ستنتقم للشهيد. دانت اللجنة المركزية لحركة «فتح» بيان الكتائب، واعتبرته مدسوساً. ثلاثة أيام ونفذت «كتائب شهداء الأقصى» عملية استشهادية في مدينة الخضيره. ردت إسرائيل بتدمير مقرّ المقاطعة في طولكرم، وقتلت في نابلس أربعة من كوادر «حماس» وأحرقت جثثهم.

تجمعت حشود غاضبة أمام سجن نابلس؛ مطالبة بالإفراج عن المعتقلين السياسيين، تصدّت الشرطة الفلسطينية للمتظاهرين، فقتل أحد كوادر «فتح». أمر أبو عمار بالإفراج عن شقيق أحد الذين أحرقت جثثهم. وقت قصير بعد ذلك ونفذت «سرايا القدس» عملية استشهادية، دانت السلطة العملية، وطالبت الفصائل بالتزام وقف إطلاق النار. في اليوم التالي نفذت «كتائب شهداء الأقصى» عملية استشهادية في القدس، كانت هذه أول عملية استشهادية تنفذها فتاة هي وفاء إدريس<sup>(175)</sup>، وبعد أيام نجحت قوات الاحتلال باغتيال القائد في «كتائب القسام» محمود أبو هنود من قرية عصيرة الشمالية<sup>(176)</sup> بكمين نصبته له، بعد مطاردته لأشهر طويلة تحللها نجاته من الاغتيال مرتين.

عقد المجلس الثوري لحركة «فتح» في رام الله، واتفق على تأليف لجنة للنظر في مستقبل «كتائب شهداء الأقصى». رفض مروان المشاركة في اللجنة التي استهدفت حلّ الكتائب. اجتمعت اللجنة مراراً وأخفقت في الخروج بقرار. في هذه الأثناء صدر بيان «باسم الكتائب» أعلن عن حلّ الكتائب لنفسها استجابة لقرار المجلس الثوري. من أصدر البيان؟! لم يصدر المجلس الثوري أي قرارات! أصدرت الكتائب بياناً دانت فيه البيان المزعوم، وأعلنت أنها لم تؤلف بقرار لتحلّ بقرار. أسبوع وقتل مسلحوها جندياً إسرائيلياً على حاجز سردا<sup>(177)</sup>، واستولوا على سلاحه. أصدرت الكتائب بياناً أعلنت فيه الحرب على حواجز الاحتلال العسكرية.

تسارعت الحوادث، مساء يوم التاسع عشر من شباط/ فبراير عام 2002، نفذت «كتائب شهداء الأقصى» عملياتها الأكثر جرأة في الانتفاضة، «عملية حاجز عين عريك». في هذه العملية قتل اثنان من الكتائب ستة من جنود الاحتلال، واستولوا على أسلحتهم. ابتهجت القلوب، فقد اعتاد الجنود إجبار الناس على الانحناء تحت جبل أقيم في المكان بقصد إذلالهم. قيل إنّ قائد العملية من بين من تجرعوا كأس هذه الإهانة.

أيام من تبني الكتائب للعملية وصدر بيان باسمها يعتذر لحركة «حماس» عن تبني العملية! أوحى البيان المزعوم أن «حماس» نفذت العملية. غريب! منفذاً العملية فتحاويان، وعنصران في الأمن الوطني. قيل إنّ الجهة التي أصدرت البيان قصدت به حرمان تنظيم «فتح» من زخم العملية، صراع فتحاوي داخلي. دانت الكتائب البيان المذكور، ونفذ مقاتلوها سلسلة عمليات من جنين حتى غزة. وأطلقوا النار على مستعمرة جيلو<sup>(178)</sup> فأصابوا خمساً وثلاثين شقة سكنية.

وقت قصير ونفذ نائر حمّاد أكثر العمليات الفدائية شهرة في الانتفاضة ضدّ حاجز عسكري في «وادي الحرامية» الواقع على الطريق بين مدينتي رام الله ونابلس. لقد شكّلت العملية ذروة الحرب على الحواجز

العسكرية للاحتلال، وأسفرت عن مقتل عشرة إسرائيليين أغلبيتهم جنود، وإصابة أربعة عشر جنديًا ومستوطنًا بجراح. خمس وعشرون رصاصة أطلقتها ثائر من بندقية قديمة قتلت وجرحت أربعة وعشرين! وانسحب القناص بسلام. بعد العملية أزال سلطات الاحتلال الحاجز والعديد من حواجزها العسكرية.

يسرد ثائر رواية فروسيته في كتيب بعنوان إوار النار: «كنت في الحادية عشرة من عمري حين استشهد عمي نبيل عام 1991. لم أذرف دمعة واحدة، لكنني شعرت بشيء تغيّر في داخلي، حالة جعلتني أكبر فجأة، وأعاهد نفسي على حمل الراية. أول مرة رأيت فيها السلاح بيد فلسطيني كانت في يد جدّي، اقتربت منه، وصرت أختلق الذرائع لوالدي كي يسمح لي بالمبيت في منزل الجد. كنت أراقب جدّي عن قرب وهو ينظف سلاحه، فأنقض عليه مساعدًا ومتسائلًا. بعد إلحاح شديد، أخذ يعلمني حمل السلاح والتدرب على الرماية، وعند بلوغي السادسة عشرة سمح لي بإطلاق ثلاث رصاصات، فهو لا يملك كثيرًا من الرصاص. علمني جدّي كيف أطلق النار بثبات، وجاء اليوم الذي أصبح يثق بكفائي، فوافق على خروجي للصيد وحيدًا».

يضيف ثائر: «تركت المدرسة وأنا في الصف العاشر، وتعلّمت مهنة نقش الحجارة، وبأول مبلغ تقاضيته من هذه المهنة اشترت بندقية أميركية من نوع M1. أصبحت أصيب الهدف بدقة متناهية من على بعد مئتي متر. حينئذٍ قررت مهاجمة حاجز الاحتلال العسكري في وادي الحرامية. اشترت منظارًا وسبعين رصاصة. درست الهدف بدقة، رصدته لأربعة أيام متتالية، وقرّرت تنفيذ العملية فجر يوم الثالث من آذار عام 2002. ليلة العملية قرّرت أن أنام في غرفة الضيوف، على الكنبّة التي أخفي بندقيتي في جوفها. لم يغمض لي جفن، أخرجت البندقية من مخبئها، تفقدتها ونظفتها، وفي هذه الأثناء وقعت عيناى على صورة عمي نبيل المعلقة على الجدار. ارتدبت البزة العسكرية التي احتفظت بها لهذه اللحظة، والحذاء الخاص بالمشي في الجبال. فتحت غرفة نوم إخوتي الصغار وودعتهم بعيني، لم أفتح غرفة إخوتي الكبار ولا غرفة والدي. غادرت المنزل من الباب الخلفي، امتطيت جوادي بهدوء، ألقيت نظرة وداع أخيرة على المكان، وعند الرابعة والنصف فجرًا قادت حصاني ببطء. دهمت مخيلتي صور أشلاء الشهداء، وتذكّرت دموع جدتي، وامتزجت هذه بصورة عمي نبيل. في الطريق ودّعت حصاني وأطلقت رسنه».

يضيف ثائر: «تسلّلت متوجّهًا إلى الموقع الذي سأكمن فيه، وهو لا يبعد عن الحاجز سوى سبعين مترًا، وضعت بندقيتي بين جذعي زيتونة رومية، لم يكن الضباب الذي يلفّ المكان يسمح بالرؤية الجيدة. مرّت نصف ساعة كأنّها الدهر بكامله، صليت داعيًا الله بتوقيقي، تهيأت حين صرخ جندي مهددًا ركّاب سيارة تُقلّ عمالًا فلسطينيين. قرّرت أن يكون هذا أول من يتذوّق طعم رصاصاتي.

كانوا ستة جنود، نشّنت [صوّبت] على الجندي المقصود، وضغطت على الزناد فاستقرت الطلقة في جبينه. قرّت عصافير من أعشاشها وقد أفزعها الطلق الناري، مرّت من فوق رأسي فشعرت كأنّها تحييني. أطلق جندي النار فأسكتته رصاصتي الثانية، سقط من دون حراك، أطلّ جندي ثالث من خلف أكياس الرمل باحثًا عن مصدر النيران فعاجلته برصاصتي الثالثة. ثلاثة جنود في أقل من دقيقة. لحظات وخرج من المبنى زملاؤهم الثلاثة الآخرون، أفزعتهم الصدمة فراحوا يطلقون النار عشوائيًا. قنصت رصاصتي الرابعة

أكثرهم وضوحًا في مجال رؤيتي، وفرّ الجندي الخامس فقطعت عليه الطريق برصاصة خامسة، وحين حاول الجندي السادس التسلّل بحذر نحو زميله أسقطته رصاصتي السادسة فوقه.

لحظات وعبرت الشارع سيارة جيب عسكرية متجهة من نابلس إلى رام الله، تأهبت منتظرًا نزولهم من السيارة، فتح جندي الباب فقصته قبل أن تصل قدماه إلى الأرض، بقي عالقًا في السيارة، نزل السائق، تطلّع صوب مصدر الرمي فعاجلته برصاصة أصابت عنقه. فتح جندي الباب فأطلقت صوبه رصاصة فاخفى داخل السيارة. اكتظ الشارع بالسيارات. تجاوزت سيارة إسرائيلية آتية من رام الله صف السيارات، عرفتها، إنها تُقلّ حراسًا للمستعمرات، هرول ركاها الثلاثة نحو المبنى، دخل اثنان واستحكم الثالث خلف المركبة. أطلقت عليه رصاصة لكنّها خذلتني، لم تخرج من فوهة البندقية، بدّلتها بأخرى استقرت في جسده.

في هذه اللحظة تقدّمت سيارة إسرائيلية وعلى متنها رجلان، أطلقت النار على السائق فاستقرت الرصاصة في رأس زميله الجالس بجواره. لمحت امرأة تجلس بأطفالها في الكرسي الخلفي فتوقّفت عن الإطلاق. عاد السائق بالسيارة إلى الخلف. تقدّمت سيارة تُقلّ ضابطًا متجاوزة السيارات المتوقفة، ترّجل الضابط ممتشقًا سلاحه، فعاجلته برصاصة استقرت في صدره، ترّجل مستوطن من سيارة ويده مسدسه فعاجلته بطلقة كذلك. ظهرت سيارة جيب عسكرية وأمطرتني جنودها برصاص كثيف، رددت عليهم بالمثل فأصبت أحدهم. خذلتني رصاصة لم تنطلق فسحبت الأقسام وضغطت على الزناد مجددًا، فتحطمت البندقية وتناثر جسدها الخشبي أشلاء. ابتعدت عن موقعي مئة متر وأطلقت ساقِي للريح، اجتزت الشارعين اللذين يعترضان طريقي إلى قريتي سلواد. وبعدما أنهكني الركض وجدت حصاني حيث تركته، وكأنّه ينتظرني، وسط هدير طائرات الهليكوبتر اعتليت ظهره، واضعًا في حضني ضمة عشب كأنني فلاح عائد من حقله».

يضيف ناثر: «كانت الساعة تقترب من الثامنة والدقيقة الثلاثين صباحًا حين ولجت الباب الخلفي للمنزل كما خرجت. تطلعت إلى صورة عمي فتخيّلته مبتسمًا. دقائق وأيقظتني شقيقتي الصغيرة لتحدّثني عن العملية الفدائية في وادي الحرامية، خطوت نحو غرفة الجلوس حيث يتابع أبناء العائلة أبناء العملية على التلفاز. في هذه الأثناء وصل نبأ وفاة أحد الأقارب في القرية، فطلب منّي والدي تجهيز قبر له، في المقبرة ظلّ الرجال يتجادلون بفخر في أمر العملية. همس أحدهم لصاحبه: 'منفّذ العملية من قريتنا، عاد على ظهر حصان عند الصباح'. فرعت وقد تخيّلت أنّي انكشفت.

بعد يومين شاركت في مباراة بلياردو وحصلت على الجائزة الأولى. بعد شهرين حاصرت قوات الاحتلال منزلنا واعتقلوني، أمضيت أسبوعًا في معتقل بيت إيل<sup>(179)</sup> ثمّ أفرج عنيّ من دون أن يسألني أحد أي سؤال، لكنّ الاعتقال وضعني في مرمى الشائعات. ثلاثون شهرًا بعد العملية ودهمت قوات الاحتلال منزلنا مجددًا، اعتقلوا شقيقي عبد القادر البالغ تسعة عشر عامًا. بعد التحقيق معه في رام الله نُقل إلى سجن عسقلان، ووُضع في غرفة للعصافير. توجه أحدهم إليه طالبًا منه أن يملأ استمارة لإرسالها للتنظيم في الخارج، أن يكتب فيها ما جرى معه في التحقيق، وإن أراد تحذير شخص من أمر ما يمكنه فعل ذلك. وقع

شقيقي في الفخ حين ظنّ أنّ هؤلاء فدائيون، كتب لي ما أراد تحذيري منه فانكشف اللغز. اعتقلت، وأعتقل والدي وأشقائي. حُكم عبد القادر أحد عشر عامًا، وأكرم أربعة عشر شهرًا، ونضال عشرة أشهر، أمّا أنا فحُكمت أحد عشر مؤبدًا. حين التقيت القائد مروان البرغوثي قبل يديّ ولقبني بـ 'أمير كتائب شهداء الأقصى'.

في الخامس والعشرين من شباط/ فبراير عام 2002، الذكرى الأربعين لاستشهاد رائد الكرمي، أطلق ناشط من «كتائب شهداء الأقصى» النار في حيّ النبي يعقوب<sup>(180)</sup> فأصاب عشرة إسرائيليين. وهاجمت الاستشهادية من كتائب شهداء الأقصى دارين أبو عيشة حاجزًا عسكريًا. قال أريئيل شارون معلقًا على ذلك: «نحن في حرب شعواء، الهدف نصر لنا وليس لهم».

مساء الثامن عشر من آذار/ مارس 2002 دُعينا لاجتماع مع أبو عمار. في ذلك الاجتماع شنّ الرئيس هجومًا شديدًا على الأميركيين. ستثبت الأيام صواب تقديرات أبو عمار ومروان؛ «لا حلّ سياسي مع شارون»، المختلف أنّ كلاً منهما نظر للأمر من زاويته؛ أراد أبو عمار التهذئة، ورأى مروان الحلّ في التصعيد. حاول أبو عمار تفادي السهم، وأراد مروان كسره.

مساء يوم الخميس رنّ هاتفي الجوال: «انتو النهار ده عندكو مظاهرة الساعة اطنعشر، مش كده يخويا؟ في الساعة دي سيكون عندي كولن باول<sup>(181)</sup> (Colin Powell) خلوا مظاهرتكم الساعة عشرة أو أجّلوها للساعة اتين». هذا ما قاله لي أبو عمار بدفء قيادي رفيع. أبلغت مروان بطلب الرئيس، واتفقنا على ذلك، لكنّ حشود المصلّين المتدفقة من جامع جمال عبد الناصر بعد صلاة الجمعة حالت دون سيطرتنا. حاول الشيخ حسن يوسف جاهدًا توجيه المتظاهرين إلى داخل المدينة، لكنّ الجموع الغاضبة اندفعت إلى حيث يعقد أبو عمار اجتماعه إلى وزير خارجية أميركا. لم ينظر القائد لما حصل كتحد له، أو تمرد عليه، هكذا هم القادة الكبار.

بعد مدة أغارت طائرة أباتشي على سيارة في المنطقة الصناعية في رام الله. سقط ناشط «كتائب شهداء الأقصى» مهند ديرية الملقب بـ «أبو حلاوة» شهيدًا. كان البطل من أوائل الذين نفّذوا عمليات عسكرية ضدّ قوات الاحتلال على الطرق الالتفافية. كان والشهيد أحمد الغندور من مؤسسي «كتائب شهداء الأقصى». قبل هذه المرة تعرّض أبو حلاوة لمحاولة اغتيال أُصيب فيها بحروق بالغة حين استهدفت قذيفة دبابة أُطلقت من مستعمرة بساغوت<sup>(182)</sup> السيارة التي تُقلّه. حظّ مروان أنّه ترك تلك السيارة إلى سيارة أخرى قبل دقائق.

## التخفي

على عكس الانتفاضة الأولى، حيث كان الموقف التنظيمي والشعبي والوطني موحدًا تحت إطار «القيادة الوطنية الموحدة»، لم تحظْ انتفاضة الأقصى بإطار مماثل. لم يكن إطار «القوى الوطنية والإسلامية» بمستوى

القيادة الوطنية الموحدة. في «فتح» شكّلت اللجنة الحركية العليا رافعة نضالية معنوية كرّسها شخص مروان، وتأثرت المواقف والفعاليات بوجود السلطة الوطنية الفلسطينية، فدخلت الحسابات الشخصية والرؤى السياسية المتباينة إلى المشهد، الأمر الذي أثر في نسبة مشاركة المستويات القيادية، وفي رد الانتفاضة بالقادة بعد اعتقال أو استشهاد أو مطاردة أحد قادتها.

وفيما قرأ مروان الحوادث بجدية فقاد المواجهات على الأرض بنفسه، ظلّ آخرون في صف المتفرجين، معتقدين أنّ المهمة الأساسية للمرحلة تقتضي الحفاظ على السلطة. مجموعة صغيرة شاركت مروان، وأخذت مواقعها إلى جانبه. أنا «أبو علاء منصور» وأحمد غنيم وزياد أبو عين<sup>(183)</sup> وعبد الرحمن الشوملي، جمعنا ثقة متبادلة ورؤى مشتركة مع مروان، وأيضاً موقع سكننا في رام الله.

بالطبع لم نكن وحدنا من انخرط في معمعان الانتفاضة، كان هناك أنوية قيادية أخرى تعمل بجد وتفانٍ. في قطاع غزة، على سبيل المثال، كان جهاد العمارين، جمال أبو سمهدانة وأحمد حِلّس. وفي الضفة الغربية كان ثابت ثابت وجمال حويل وجهاد المسمي وأبو خالد الشرباتي وحاتم عبد القادر وتيسير نصر الله وحسام خضر وآخرون. وأفرز الميدان بشكل مبكر قادة حملوا السلاح والتزموا الخيار الصعب، منهم نايف أبو شرح، ومنصور شريم، ورمزي عبيد، وكامل غنّام، وخالد الشاويش، وحسين وعاطف عبيات، وناصر وعبد الكريم عويس، وماجد المصري، وناصر أبو حميد، ومروان زلوم، ومهند أبو حلاوة، ورائد الكرمي، وزكريا زبيدي وآخرين كثير.

اعتقد بعض المستنكفين عن المشاركة في الانتفاضة أنّ المواجهة كانت أعلى من الحد المطلوب لتحسين شروط التفاوض مع الاحتلال، وهناك من التبس عليه الأمر فأثر أن يحدّ نفسه، وربما هناك من وجد أنّ ثمن المواجهة أعلى ممّا يمكنه أن يدفعه. في ظلّ هذا الواقع الذي شحّ فيه القادة من المراتب العليا المستعدة للمواجهة والنضحية، كانت كل خسارة باستشهاد قائد ميداني أو اعتقاله أو مطاردته خسارة كبرى، مع ذلك كان التعويض الذي قدّمته الانتفاضة نفسها هو قافلة من القادة الميدانيين الذين أخذوا مواقع نضالية متقدّمة فسّدوا الفراغ.

كان التنسيق ضعيفاً بين البؤر المختلفة بعدما قطّعت قوات الاحتلال أوصال الضفة الغربية، مع ذلك ظلّ مروان على تواصل مع ما يستطيع من البؤر ويدعمها. ارتفعت وتيرة الاغتيالات، فاتفقنا على رفع درجة حذرنا، لكنّ بعض إجراءاتنا وسلوكياتنا اتسمت عمومًا بالشكلية والانفعال. أستغرب ذلك وأنا أستذكر بعضها اليوم!

مع تفاقم الأخطار وتوالي عمليات الاغتيال والاجتياحات أضحى التخفي أكثر إلحاحاً. في هذه المرحلة اضطرت بعض وزارات السلطة الوطنية الفلسطينية إلى استئجار شقق في رام الله؛ لإسكان موظفيها الذين حالت حواجز الاحتلال دون وصولهم إلى مراكز عملهم في المدينة. استخدمنا شقة لوزارة الحكم المحلي في حيّ الماصيون<sup>(184)</sup> كمخبأ سرّي، مستفيدين من مفتاحها الذي بحوزة أحمد غنيم وكيل مساعد الوزارة، وعلى مدى ثلاثة أشهر أدرنا نشاطنا من تلك الشقة، لكنّ الجلبة المحيطة بمروان سرعان ما تسبّبت بكشفنا.

لا سرّية حيث يوجد مروان، فليس في المدينة صغير أو كبير، رجل أو امرأة، لا يعرف أنّه الناطق بلسان الانتفاضة، إضافة لهاتفه الجوال الذي لا يتوقف عن الرنين ليلاً ونهاراً، وهناك مراسلو وكالات أنباء ودبلوماسيون وسياسيون يتعقبونه، كلهم متلهفون للفوز بإجراء مقابلة صحافية معه.

انتقلت وأحمد للمبيت في كراج سيارة حوّله صاحبه إلى شقة سكنية، واستخدم مروان شقة صغيرة في رام الله التحتا. لاحقاً استخدمت وأحمد وزياد مكتباً لرابطة المقاتلين القدامى بالقرب من سوق الخضراوات في مدينة البيرة. مكان سيء أمنياً نظراً لمجاورته للمقهى العربي وسط المدينة، لكنّ وضعنا المادي الصعب اضطرنا إلى استخدامه، واستخدمنا أيضاً مكتباً وسط المدينة. وكثيراً ما أمضينا الليل داخل سياراتنا، وأحياناً بقينا نجوب الشوارع. كانت شوارع المدينة الفارغة موحشة وصمتها حزين، ونحن ندور على بيوت عوائل الشهداء والجرحى لنشدّ أزرهم. كنّا نتفقد حواجز الأمن الوطني في نقاط التماس، نقدّم «السندويشات» وعلب العصير للجنود، ونتحدّث معهم بما يستنهض همهم، وقد شاركنّا محافظ رام الله والبيرة وقائد الأمن الوطني في المدينة بعض هذه الفعاليات.

تكرّرت الاجتياحات، وازدادت عمليات تفتيش الأبنية والشقق. أمضينا ليالي كثيرة في متاجر ومستودعات وفّرنا لنا زياد. كنّا ندخل إلى متجر عائلته وسط المدينة بعد انتصاف الليل. بعد أن ننهي مهمّتنا ويقفل السوق، يفتح زياد الباب وننسلّ خلفه، نغلق الباب خلفنا، ونتلّمس دربنا وسط العتمة، مادّين أيادنا أمامنا كالعميان، ومتعثرين بالحاجيات، فيما يواصل زياد الهمس لإرشادنا: «على اليمين، انتبهوا أمامكم درج...». تكرّر استخدامنا للمكان، فاعتدنا على دخوله بيّسر.

كان زياد يخطئ أحياناً في إشعال الضوء فينتشر النور في الشارع، حينئذ يضطرب حالنا خشية أن يشته أحد بالأمر فننكشف. كنّا نغطي الأماكن التي ينفذ منها النور للخارج، ثمّ نحضر فراشنا المحزوم بعيداً من عيون العمال وحركتهم، نفترشه ونُجري تقويماً ليومنا ولبرامجنا، ثمّ نندس في الفراش. نصحو مبكرين في اليوم التالي فنحزم أمتعتنا ونعيد توبيخها في أماكن لا تلفت فضول العمال، ثمّ نغادر قبل انتشار الحركة في الشارع.

كنّا شديدي الحرص على ألاّ يلمحنا أحد ونحن ننسلّ مبكرين. في هذه المرحلة الحساسة حلّ لنا زياد مشكلة المنامة. الشكر له ولزوجته الفاضلة أم طارق التي كثيرًا ما جادت علينا بمأكولات لذيذة بطيبة وبشاشة. ما كان يؤلّنا هو انصراف أغلبية المسؤولين عن المشاركة ولو في تظاهرة أو جنازة شهيد. بعضهم حصر دوره في توجيه سهام نقده للانتفاضة وتعقب سلبياتها. بهذا تسبّبوا بالتأثير سلّبا على الروح المعنوية للناس، أمّا الخلافات الداخلية فسموم نفتتها التصريحات المتناقضة والبيانات المزوّرة.

## زلزال

في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر عام 2001 وقعت تفجيرات نيويورك وواشنطن. أعلنت الإدارة

الأميركية الحرب على ما سمّته «الإرهاب». وسارعت إسرائيل باتهام العرب والمسلمين وتحميلهم المسؤولية. استنكر أبو عمار العمليات، أمّا قادة الميدان فلم يلاحظوا ما استشعره قائدهم. استمرت عمليات المقاومة كأن شيئاً لم يكن.

في يوم تفجيرات نيويورك وواشنطن ذاته قُتل جنديان إسرائيليّان في عملية داخل معسكر قرب مدينة طولكرم، وأصيب ثلاثة مستوطنين في عمليتين منفصلتين قرب المدينة. أغلق جيش الاحتلال مقرّات المخابرات الفلسطينية والأمن الوقائي في العيزرية<sup>(185)</sup>، واجتاحت قواته مدينة جنين، فقتلت ثلاثة عشر شخصاً في أوسع عملية اجتياح إسرائيلي منذ بدء الانتفاضة. في اليوم التالي اجتاحت قوات الاحتلال مدينتي طوباس وسلفيت، وبلدة طمون. في اليوم ذاته نجا صخر حبش من محاولة اغتيال حين قصفت الطائرات مكتبه في حيّ «أم الشرايط»<sup>(186)</sup>. أعلن أبو عمار وقفاً لإطلاق النار، لكنّ عمليات المقاومة تواصلت، فيما أصدر أريئيل شارون أوامره لشمعون بيريز<sup>(187)</sup> بعدم الاجتماع إلى عرفات.

في هذه الأثناء شارك حوالى أربعمئة متضامن أجنبي في مسيرة في رام الله لكسر الحصار عن عرفات. تواصلت فعالياتهم لأسبوعين، واحتفلوا بعيد رأس السنة وسط المدينة. أضفت هذه الفعاليات لوناً آخر على ثوب الانتفاضة، أعطت شرعية للتظاهرات التي حاولت أجهزة أمن السلطة منعها، وساهمت في كسر حدة أجواء الاحتقان الداخلي التي سادت الشارع الفلسطيني.

قرّر الرئيس الأميركي إعادة الجنرال زيني إلى المنطقة بعد غياب طويل، ورحّبت السلطة الفلسطينية وإسرائيل بذلك. في مكتب اللجنة الحركية العليا التقى مروان أول مرة أليستر كروك، نائب الممثل الأعلى للسياسة الخارجية والأمنية للاتحاد الأوروبي. حين سأل كروك مروان عن رأيه في العمليات الاستشهادية أجابه: «لا يمكن أن يتحقّق أمن في تل أبيب ما لم يكن هناك أمن في رام الله». في ذلك اللقاء اتفق مروان مع كروك على أن يكون أحمد غنيم حلقة الاتصال بينهما.

فجر التاسع من آذار/ مارس 2002 نفّذ استشهاديان من «كتائب شهداء الأقصى» عملية في مدينة نتانيا<sup>(188)</sup>، ونفّذ استشهادي من «كتائب القسام» عملية في مقهى مومنت في القدس. ردّت طائرات F16 بتدمير مقرّ الرئيس في غزة. صرّح الجنرال موفاز<sup>(189)</sup> رئيس أركان الجيش الإسرائيلي: «المعركة الراهنة هي الأكثر مصيرية بالنسبة لإسرائيل، تنظيم فتح يقود موجة الإرهاب».

فجر الحادي عشر من الشهر ذاته، اجتاحت قوات الاحتلال مدينة رام الله كما كان متوقعاً. أقامت فيها لأربعة أيام ثمّ انسحبت. أسبوع بعد ذلك ونفّذت كتائب القسام عملية استشهادية في مدينة كفار سابا<sup>(190)</sup>، وأخرى في القدس. ونفذ استشهادي من «سرايا القدس» عملية في الجليل. أيام ونفّذ استشهادي من «كتائب شهداء الأقصى» عملية في القدس. أصدرت السلطة الفلسطينية بياناً دانت فيه العملية الأخيرة، وأعلنت الإدارة الأميركية عن ضم «كتائب شهداء الأقصى» إلى قوائم الإرهاب، وأصرّت على أن يندد عرفات بعملية القدس بصوته، باللغتين العربية والإنكليزية فاستجاب. رفض نائب الرئيس الأميركي مقابلة عرفات. وحملت إسرائيل عرفات المسؤولية عن سلسلة العمليات.

مساء الثامن عشر من الشهر ذاته دعا أبو عمار أعضاء القيادة التنظيمية العليا لاجتماع. في ذلك الاجتماع شنَّ هجوماً قوياً على الإدارة الأميركية، وصبَّ جام غضبه على عملية «كتائب شهداء الأقصى»؛ لأنها نُفذت في أثناء وجود الجنرال زيني في المنطقة. كان أبو عمار يتحسَّب للعواقب، أمّا مناضلو الميدان فمتعشون ببطولاتهم. هدف واحد ومواقف متضاربة.

حاول البعض في محيط أبو عمار أن يوغر صدر القائد على مروان. بعضهم تجرأ وطالب بوقف الانتفاضة، وعلى عكس ما أرادوه، أصدر الرئيس قراراً بتعيين مروان عضواً في المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية. كان أبو عمار متمسكاً بالانتفاضة. ذات مرّة اشتكى أحدهم لأبو عمار من «تطرف» مواقف مروان، همس القائد لمروان بعد مغادرة المشتكي: «توكل على الله يخويا، تردش عليهم، اللي ما أقدرش عليه أنا تساويه انت».

أبدًا لن أنسى ذلك اللقاء المشحون بالانفعالات حين تسلَّل أبو عمار من مكتبه في المقاطعة بلا ضجيج إلى منزل عائلة نداء البرغوثي بالقرب من متنزّه بلدية رام الله. في تلك الليلة خاطر القائد ليطمئن على مروان الذي أجريت له عملية جراحية. كان أبو عمار مفعماً بعاطفة أبوية وهو يمسّد شعر مروان بيده، لكنّه بدا مهموماً وشارداً. كانت آخر كلماته لي ما همس به وأنا أودعه إلى السيارة: «إن اشتدت عليكم الأمور تعالوا عندي على المقاطعة». كلمات ذكّرتني بما قاله لنا قبل أيام: «جميعنا مطلوبون. نحن مشاريع شهادة».

تشافى مروان من وعكته الصحية فرافقته للاجتماع إلى عفيف صافية سفير فلسطين في بريطانيا، التقيناه في حديقة النادي الأرثوذكسي بمدينة رام الله. بدا الرجل مهموماً وهو يتحدث عن الانتفاضة بفخر. أراد ألاّ تضيق في الدهاليز، أو أن تستحيل إلى مواجهة عسكرية مع الاحتلال.

تحدّث الرجل الرصين بروحية رفيعة. أذكر ممّا قاله في اللقاء الذي استمر لساعتين: «لا يختلف اثنان في تقويم الموقف الأميركي الداعم لإسرائيل، لكن ما يجب أن يظلّ في البال أنّ الموفد الأميركي الجنرال زيني آتٍ من خلفية عسكرية، إنّه جنرال متقاعد. بماذا يزود عليه أريئيل شارون وهو جنرال مثله؟ في هذه المسألة يختلف زيني عن المبعوثين الأميركيين الآخرين، أولئك يمكن لشارون أن يسرح فيهم بادعاءات مغرضة وتقويمات مضلّة. اسمحوا لي أن أقول لكم إنكم أخطأتم حين استقبلتم زيني بالتفجيرات والعمليات الاستشهادية، لقد قدّمتم خدمة جليلة لشارون من حيث لا تقصدون. سيقول شارون لزيني: 'انظر كيف استقبلك الفلسطينيون! لا يريدون سلاماً'».

مساء الإثنين الحادي عشر من آذار/ مارس عام 2002، كنت وأحمد غنيم وحاتم عبد القادر على موعد مع أبو عمار، لإزالة سوء فهم نجم عن تصريحات مروان بخصوص وقف إطلاق النار. دقائق بعد وصولنا وأبلغنا أنّ جيش الاحتلال سيجتاح المدينة. غادرنا دون مقابلة الرئيس.

في وقت متأخر من تلك الليلة تسلّلت ومروان لتفقد الاستعدادات في خيم الأمعري. عوائق معدنية وسط الشارع الرئيس وعند المفترقات، ويتنشر المسلحون في كل زاوية. معنويات عالية، لكنّ التدريب



ضعيف، والإمكانات العسكرية متواضعة، والشبان ليسوا محترفي قتال. جو ملبد بالانفعالات ونحن نجوب الأزقة ونتحدث إلى الناس.

الآن وأنا أكتب هذا الكتاب، بعد خمسة عشر عامًا، أتخيل ذلك المشهد، وفي رأسي ما جاء على لسان «آنا» في رواية فتاة في حالة حرب للكاتبة الأميركية من أصل كرواتي سارة نوفيتش، وهي تتحدث عن أكياس الرمل التي بنتها الشرطة كمتاريس للدفاع عن مدينة زغرب<sup>(191)</sup> في وجه الصرب: «كان يُفترض أن تؤدي أكياس الرمل دور المتاريس التي نستطيع أن نقف خلفها ونطلق النار منها في حال جاء الصرب لاعتقالنا، لكن بدلًا من أن يمنحنا المتراس شعورًا بالأمان فإنه أضفى نفحة من السذاجة، فقد بدا الأمر كما لو أننا كنا نتصور أن طوفان الدبابات يشبه طوفان المياه، وأنه بالإمكان إيقافه بوساطة كومة من الأكياس».

وقت قصير بعد مغادرتنا للمخيم وحاصرته الدبابات الإسرائيلية، وأمطرته طائرات الأباتشي بوابل من رصاص خمسمئة ملم، ثم دهمته الآليات العسكرية من الاتجاهات كافة. لم يكن أسلوب الهجوم معتادًا. تقف الدبابة بمحاذاة باب بيت في طرف المخيم، يفجر الجنود الباب ويندفعون داخل المنزل، فيستيقظ السكان على ضجيجهم في الحجرات الضيقة، وسط النساء والأطفال الذين يُحشرون في غرفة واحدة. يفتح الجنود ثغرة في جدار المنزل ويباغتوا سكان البيت المجاور وهكذا.

بدا المشهد أليماً حين وصلنا إلى دوار المنارة. انتشرت شائعات مفادها أن الدبابات الإسرائيلية وصلت إلى متنزه بلدية رام الله. بدا مشهد عشرات المسلحين وعناصر الأمن كقطيع هاجمته الذئاب. شبان لا تنقصهم الشجاعة ولا تعوزهم التضحية، لكن ماذا يفعلون ووجودهم على الدوار دون هدف، وبلا خطة؟! لا تجمعهم قيادة مشتركة ولا إطار تنسيقي. بأي روح يقاتلون ومنهم من لا يملك ثمن علبة سجائر أو رغيف شطيرة؟! كانوا هائمين على وجوههم وجاء تصرّفهم تلقائيًا.

ظهر اليوم التالي، تناولنا الغداء على مائدة الرئيس بحضور المبعوث الأوروبي ميغيل أنخل موراتينوس، ثم انطلقنا لتفقد وسط المدينة بعد الاجتياح. شوارع موحشة، ومسلحون مشحونون بالترقب، فدبابات العدو لا تبعد عن دوار المنارة أكثر من بضعة مئات الأمتار. فجر اليوم التالي انسحب الجيش فانطلقنا لتشييع جنائز الشهداء. خرج الناس بما يشبه التحدي. عكّر الأجواء إطلاق نار كثيف من مسلحين ينتشرون بين الناس. تساءل المشيِّعون مغتاظين: «أين كنتم؟ لماذا لم تدافعوا عن المدينة ولديكم هذا السلاح وهذه الذخيرة؟».

ذات ظهيرة من أيام مجد الانتفاضة، كنت في مقرّ اللجنة الحركية العليا، رنّ هاتف مروان فأجاب:

- كم عمرك؟

- .....

- لا نقبل من عمره أقل من الثامنة عشرة.

هذا ما أجاب به مروان من تحدّث على الجانب الآخر. أغلق الهاتف ونظر إليّ مبتسمًا: «فتاة تريد تنفيذ عملية استشهادية. كأنتي المسؤول عن الاستشهاديين! سألتها عن عمرها فأجابت: 'سبعة عشر عامًا'، دحرتها بما سمعته». قال مروان بعد أيام: «عاودت الفتاة الاتصال ثانية! قالت إنّها بلغت الثامنة عشر منذ أيام». كان مروان ملاذ الباحثين عن المقاومة.

لم تُولد «كتائب شهداء الأقصى» بقرار فوقي، ولم يجر تبنيها رسميًا من حركة «فتح». طبيعة النشأة وقسوة المعركة، لم تسمح ببناء هيكل نظامي لها. ظلّت تقوم على المبادرات الفردية والاجتهادات الشخصية. وكل من لديه همة في «فتح» أو من خارج الفصائل، حَسَبَ نفسه تلقائيًا عليها، جمع الهدف والفكرة نخبة ثائرة على طريق المقاومة. لم ينتظر هؤلاء قرارًا، وتدبر أغليبتهم أمر تسليح أنفسهم بأنفسهم. أضحى مروان بمنزلة حاضنة معنوية للكتائب، وكان أحمد الفرنسي ذراعه القوية في التواصل مع كثيرين من نشطاءها.

## «السور الحامي»

في التاسع والعشرين من آذار/ مارس عام 2002، أعلن أريئيل شارون أنّه لن يسمح لعرفات بالمشاركة في مؤتمر القمة العربية في بيروت. بالفعل عُقدت القمة وأبو عمار محاصر في المقاطعة! ولم يسمح له الرئيس اللبناني، رئيس القمة، بإلقاء كلمته عبر الشاشة. انسحب الوفد الفلسطيني محتجًا، وألقى أبو عمار الكلمة عبر تلفزيون الجزيرة. في أثناء انعقاد القمة نفذ استشهادي من «كتائب القسام» عملية في «فندق بارك» بمدينة נתانيا، كان ذلك عشية عيد الفصح اليهودي. أسفرت العملية عن مقتل تسعة عشر إسرائيليًا، وإصابة مئة وثلاثين بجراح، شرارة سيحوّلها شارون إلى حريق يشعل به مناطق السلطة الفلسطينية.

حشود كثيفة للدبابات الإسرائيلية في محيط مدينة رام الله، وأبلغت إسرائيل الأجانب والصحافيين الإسرائيليين بضرورة مغادرة المدينة، وأخلت أجهزة الأمن الفلسطينية مواقعها. الجميع يتحدّث عن اجتياح مختلف. غادر الموظفون مكاتبهم قبل انتهاء الدوام، وأنا وجدت نفسي وسط زحمة المدينة. رذاذ مطر ناعم، وأناس مذعورون. هذا يحمل خبزًا، وذاك منهمك بتعبئة خضراوات في كيس، وهناك من أسرع لاصطحاب أطفاله من المدارس، وتتكايف الحشود أمام المخابز والمحال التجارية. تفاقمت مشكلات الناس، وعلا صراخهم! الجميع يهرولون مختارين! ضجيج أبواق السيارات يعكس درجة الانفعال. تزايد اللغط ومعه اشتدّ هطول المطر. لم أشاهد رام الله بهذا الاضطراب أكثر منها في ذلك اليوم.

التقيت وأحمد غنيم وزياد أبو عين وعبد الرحمن الشوملي ومروان البرغوثي في بيت في مخيم قدّورة<sup>(192)</sup>. اتفقنا على أن أغادر أنا ومروان إلى القرى الغربية، وأن يظلّ أحمد وزياد والشوملي في المدينة. اشترينا شرائح جوّال إضافية، وطلب مروان من أحمد تجهيز جهاز كمبيوتر لطباعة نداءات وبيانات إن اقتضت الضرورة ذلك. كان مروان حريصًا على استمرار التواصل مع جمهور الانتفاضة، ومع المعنّين من الكوادر والأذرع المختلفة. أرسلت منذر لتفحص طريق عين عريك. وأوصلني أحمد بسيارته إلى منزلي لتوديع أسرتي. عدت

إلى «بيت نخيم قُدّورة»، وأبلغت مروان أنّ الطريق إلى القرى الغربية آمن. اقترح عليّ أن نمرّ على مقرّ الأمن الوقائي في بيتونيا<sup>(193)</sup>؛ لعلّنا نحظى بمعلومات تساعدنا في تقدير الموقف، فقد علم بوجود جبريل الرجوب<sup>(194)</sup> محمد دحلان وخالد سلام في المقرّ. بعد جدل، اتفقنا على أن يذهب بمفرده. كنّا في سباق مع الزمن لتدبر أمورنا قبل فوات الأوان. أوصلنا مروان إلى مقرّ الأمن الوقائي، وأخذني زياد إلى مكان في السفوح الشمالية لبلدة بيتونيا؛ مستودع بمساحة 400 متر مربع، وعلى عجل أحضرنا فراشًا وبعض الخبز والمعلبات.

قال مروان وقد بدا شديد القلق حين نزل بجوارنا من سيارة جبريل الرجوب قبل منتصف الليل بقليل: «قيل لي إنّ الدبابات الإسرائيلية تحرّكت، إنّّه لا مكان آمن، لا خطوط حمراء بما في ذلك أبو عمار». لم يبقَ لنا سوى المستودع الذي علينا أن نلجّه دون أن يحسّ بنا أحد. تقدّمنا زياد وسط العتمة باحثًا عن مفتاح الضوء. أغلقنا الشقوق التي يمكن أن يتسرّب منها النور للخارج، وكدّسنا أعدادًا من صناديق البضاعة أمام أبواب المستودع الستة. ساعتان ونحن نتصبّب عرقًا.

شغل مروان وزياد بضبط الصورة في جهاز التلفزيون غير الملوّن. اضطر زياد إلى الوقوف مطوّلًا حاملًا «الأتين» [اللاقط الهوائي] بيده، فيما يحول مروان على المحطات محاولًا التقاط صورة أوضح، وهو يرشد زياد للتحريك يسارًا ويمينًا، صعودًا وهبوطًا. بدت محطة تلفزيون فلسطين الرسمي بائسة الأداء؛ أخبار متأخرة عن الحدث، ولهجة تفتقر للروح التي تقتضيها المعركة. اضطر مروان إلى الاتصال بمسؤول التلفزيون منبهاً لخطورة الأمر. استمعنا لنشرة أخبار الجزيرة عبر محطة محلية.

في هذه الأجواء، عادت بي الذاكرة ثمانية وعشرين عامًا للوراء، حين كنت مطلوبًا لقوات الاحتلال بعد انكشاف خليتي. ذكريات انتصار مضي، ومستقبل يعبق بالأمل. بعد نشرة أخبار الثالثة فجّرًا هذنا التعب والترقّب فغفونا.

استيقظت صباحًا على مكبرات الصوت: «ممنوع التجوّل». ما يزال مروان وزياد يغطان في النوم. ابتلّ فراشهما بمطر نرّ من السقف. استيقظا بعد الثانية عشرة ظهرًا. على شاشة التلفزيون أرتال دبابات تحاصر مقرّ المقاطعة في رام الله، ومجنزرات تزرع الرعب في شوارع المدينة. اتفقنا على الاقتصاد في كل شيء، وعلى تقليل الاتصالات التلفونية لأقصى درجة. ومع الوقت اعتدنا تدبّر أمورنا بطرائق أكثر يسرًا. نتحرّك بهدوء، والحديث همسًا.

تعلمنا كيف نتعايش مع العتمة، واكتفينا بتناول وجبة طعام واحدة يوميًا. يا لعظمة قدرة البشر على التكيف! لم أتحبّل أنّ الشهية تتراجع على النحو الذي حصل! وجبة طعامنا اليومية اليتيمة علبة فول أو علبة لحمة لثلاثتنا، رغيف خبز من القطع الصغير لكل منّا، وكوب شاي. كانت هذه كافية لسدّ جوعنا طول النهار. عند النوم كنت أترك رفيقي يتابعان الأخبار، أتحسّس طريقي لموقع نومي خلف أكדاس الصناديق. بين الفينة والأخرى كان زياد يتسلّل هامسًا لي بخبر سمعه من الراديو. استولى جيش الاحتلال على محطات التلفزيون المحلية، وراح يبث عبرها أفلامًا خلاقية.

كانت الساعة في حدود الحادية عشرة قبل ظهر الحادي والثلاثين من آذار/ مارس، وكان قد مضى على وجودنا في المستودع ليلتان. حاول شخص فتح باب المستودع! كادت الدماء تتجمد في عروقنا ونحن نتبادل نظرات مذهولة، أهو الجيش! ماذا نفعل؟ لُذت ومروان بإحدى الزوايا، وانبرى زياد للتعامل مع الأمر.

«من؟ عمي زياد!»، هذا ما قاله الفتى أمجد مذهولاً. بردت قلوبنا حين ردّ زياد: «نعم، عمك زياد».

دقائق وأقل أمجد باب المستودع وانصرف.

جاءنا زياد: «الأمور تحت السيطرة، إنّه ابن شقيقي».

قال له مروان: «اطلب منه أن يأتينا بين الحين والآخر، لنعرف منه الأخبار».

انزويت وأجريت اتصالاً هاتفياً مع صديقي الدكتور جمال الخطيب في عمّان. سألني الدكتور مستغرباً انفجاري بالضحك: «مالك يا رجل؟ ليش الضحك؟». تماكنت نفسي وحدّثته بما جرى. الضحك اللاإرادي وسيلة تنفيس تلقائية في أوقات المحن.

بعد ساعة عاد أمجد بخبز، شمع، بطاريات للراديو، وقهوة ودخان لزياد. ومنذ ذلك اليوم اعتاد التردّد إلينا بخبز طابون طازج. قال وهو يروي حكاية الخبز: «أول مرّة جلبته لكم دون علم والدتي. ولما كشفت الأمر ادّعت أنّها لعمال تقطّعت بهم السبل، حينها زادت كمية العجين، بدأت تحسب حسابكم».

تأخر دخول الجيش إلى حيّنا. عرفنا لاحقاً أنّه فتّش بنايتين خلف مستودعنا! تردّدت في الحي أصوات انفجارات ورشاشات وطائرات أباتشي. تخيلنا أنّهم يفتشون الأحياء بالدور. كان الغموض مصدر قلقنا الأساس. ما هي خطوة الجيش التالية؟ متى سينسحب من المدينة؟ من استشهد من رفاقنا؟ من أسر؟

مشهد قاسي وقد ظهر صخر حبش على شاشة التلفزيون، اعتقلته قوات الاحتلال مع عدد من الكوادر من عمارة التنشة وسط المدينة. أمّا أكثر ليالينا قسوة فجاءت حين صحونا قبل الفجر على صوت انفجارات قوية، حركة كثيفة لطائرات الأباتشي ودوي رشاشات ثقيلة، ربما أنّهم يقتحمون حيّنا! أجرى زياد مكالمة تلفونية، ثمّ همس: «يقصفون مقرّ الأمن الوقائي». علّق مروان: «يدمرون الموقع الذي ظنّ كثيرون أنّه الأكثر أمناً».

ما عاد هناك مصادر للأخبار سوى ما تبّه شاشات الفضائيات. والإسرائيليون جاهزون للتهويل والتضليل. لم يكن مروان مطمئناً لبقائنا في المستودع. كثيراً ما كرّر عليّ: «هل أنت مطمئن؟». كنت أردّ: «أنا مطمئن طالما أنّ أحدًا لا يعرف بوجودنا هنا، ثمّ ليس لدينا بديل أفضل». كان يصمت، لكنّ رغبته بالخروج ظلّت طاغية. «ماذا لو أعتقلنا؟»، هذا ما همست به لنفسي فتخيّلته يعاتبني في السجن: «انظر أين ذهب بنا اطمئنانك؟».

أدّى تأخر دخول جيش الاحتلال إلى حيّنا لشعورنا ببعض الاستقرار. وبثّ فينا سقوط المطر وجلبّة أولاد يلعبون في الشارع شيئاً من الطمأنينة. اعتاد صبيّ أن يكرّر ضرب كرتة فترطم بباب مستودعنا. كان

يستمر في لهوه لنصف ساعة، وأحياناً أكثر. هذا يعني أنّه لا وجود للجيش في الحيّ. انقطع الماء فجأة. مشكلتنا مع الماء ليست في حاجتنا لشربه، فلدينا احتياطي جيّد، المشكلة في لزومه للحمام. بدأنا نجمع الماء الذي نستخدمه لغسيل أكواب الشاي والصحن اليتيم، ونسكبه في المراض بعد أن نكون قد قضينا حاجتنا. لم يكن هذا كافياً لإزالة الروائح الكريهة. أربعة أيام صعبة. تنبه زياد لوجود غالونات شامبو بين صناديق البضاعة، سكب اثنين منها في الحمام في آخر يومين. في الفترة ذاتها انقطعت الكهرباء. كيف نشغل جهاز التلفزيون لنعرف ما يدور حولنا؟ حضر أمجد وأصلح الكهرباء.

يحتاج المتخفي أن يحوط حركته بالتمويه والتكتّم، أن يطمرها في أعماق أعماقه، وإلا أصبح مهدداً إن اجتاز أحدهم البوابة. ظلّ مروان غير مقتنع ببقائنا في المستودع. يدعم حججه تارة بثغرة الستة أبواب، وتارة أخرى بانكشافنا لصاحب المستودع، وتارة ثالثة بأنّ المستودعات ما عادت آمنة بعدما اقتحم كثير منها. حجج وجيهة، لكنّها لا تصمد أمام افتقارنا للبديل. ثمّ إنّ أحد أهم أهداف عدوك أن يدفعك لمغادرة مخبئك الآمن. يفتعل ما يوحي أنّه كشفك بهدف إخراجك من صدفتك الآمنة.

طرح مروان فكرة أن نتسلّل ليلاً باتجاه قرية المزرعة الغربية للاختفاء عند صديق له، لكنّ الطريق ليس آمناً! ثمّ إنّ وجودنا في قرية سيكون محفوفاً بالمخاطر نظراً لانكشاف الناس على بعضهم، ومن يضمن أن نجد صديقه في منزله؟

صباح اليوم السابع للاجتيّاح سُمح بالتجوّل. فاجأني زياد، وما زال مروان نائماً:

- سنغادر اليوم.

- من قال ذلك؟

- هذا ما اتفقت عليه مع مروان وأنت نائم.

قلت لمروان حين استيقظ:

- ليغادر زياد إن أراد.

غادر زياد بالفعل.

بدا الأمر مأساوياً وقد بثّت الفضائيات صوراً لـ«أريجيّيات وكلاشنات» وأسلحة أخرى، قيل إنّ جيش الاحتلال استولى عليها من مستودع للأمن الوطني في المقاطعة في رام الله! أسئلة غاضبة كثيرة أثارها مشهد القهر. معادلة ما تستطيعه السلطة وما لا تستطيعه ليست غائبة عن الأذهان، الجميع يعرف أنّها سلطة تحت الاحتلال، أنّها مقيدة باتفاقات حدّدت صلاحيّاتها، والناس لا تطالبها بما يفوق استطاعتها. بدا الوضع أكثر مأساوية حين بثّت الفضائيات صوراً لجثث جنود من الأمن الوطني، لماذا مُنع هؤلاء من حمل أسلحتهم للدفاع عن أنفسهم وللذود عن قائدهم المحاصر؟

ذات عصر توقّف مروان خلف أحد أبواب المستودع وتطلّع من الشقوق. دقائق وتقدّم صوبي وهمس:

«يبدو أننا انكشفنا». قلت وقد أذهلني ما سمعته: «ماذا؟ لماذا؟». قال: «هناك سيارة فوردي بيضاء من النوع الذي تستخدمه الوحدات الخاصة الإسرائيلية تقف على الناصية، ترجل منها شابان بلباس أسود وهيئة عسكرية، أعتقد أنهما يراقبان المكان».

تخيَّلت الجنود يقتادوننا مكبلي الأيدي ومعصوبي الأعين، وربما نضحى أشلاء ممزقة. تسمَّرت خلف الباب ورحت أتفحص. «نعم سيارة وحدات خاصة»، هذا ما همست به لنفسي فزعًا. تناوبنا المراقبة لأكثر من ساعة بدت كأنها دهر. في كل مرة كان أحدها يلتصق بالباب، ينظر من الشق ويعود أكثر توترًا: «رجلا أمن بالتأكيد!». فجأة! اقترب طفلان من الشابين وراحا يتحدثان إليهما، ثم رافقهما أحد الشابين إلى أحد المنازل. مستحيل أن يكون الشابان رجلي أمن إسرائيليَّين، لو أنهما كذلك لما تحدَّث إليهما الطفلان. الحجارة لغة أطفال فلسطين في مخاطبة جنود الاحتلال، ويردّ هؤلاء بالرصاص. أغلب الظنّ أن منع التجوّل دفع شابين من أبناء الحي للتنفس أمام البيت.

ظُهر التاسع من نيسان/ أبريل دار المفتاح في قفل باب المستودع. طلبت من مروان أن يلوذ جانبًا، وتهيأت للتعامل مع الوضع. لحظات ووجدت نفسي أمام شخص لم أره من قبل، بقدر ما فاجأني الأمر أصابه الدهول! بدوت أكثر تماسكًا ممّا كنت عليه في تجربة الأسبوع الفائت فقلت: «أنا صديق زياد». راقّت بعض ملامح الرجل، وما زال الدهول على وجهه. دقائق وحضر زياد وعرفنا إلى الشاب: «محمد، صاحب المستودع».

«ربما أن أوان الرحيل! لكن إلى أين؟». هذا ما خاطبت به نفسي.

اختليت بمروان: «سأستغل ساعتَي السماح بالتجوّل وأخرج لعلّي أجد مكانًا آخر». اتصلت بمنذر، وطلبت حضوره بالسيارة على عجل، وضعت نظارة سوداء على عينيّ، ورافقته باحثًا عن مكان آمن. طرقت بابًا في حيّ قريب لكنّ أحدًا لم يجِب. واصلنا الطريق إلى حيّ آخر. قالت صبيّة أطلّت من خلف الباب حين سألتها عن أهلها: «خرجوا للتسوق، لا يوجد أحد». قلت متردّدًا: «هل لكم أن تستقبلوني أنا وصديق لنمضي بضع ليالٍ في بيتكم؟». ارتبكت الصبيّة: «هل أنت مطلوب؟». أجبت: «نعم». قالت بحزم: «لا يمكن». في هذه اللحظة بدوت كمتسوّل نهره من لجأ إليه طالبًا المساعدة. لمحت أسى في عينيّ الصبيّة، لكنّي تفهّمت موقفها.

شوارع موحشة وضجيج مجنزرات تطلّ منها خوذات جنود. أشعر بالحزن وأنا أطرق الأبواب بذقن طويلة وشعر أشعث. لم أستحم ولم أبدل ملابسِي منذ أحد عشر يومًا. طرقت أبواب سبعة منازل ولم أجد أحدًا، فعدت خائبًا.

دهمنا اقتراب انقضاء فترة السماح بالتجوّل، فوافقنا على اقتراح صاحب المستودع باستضافتنا في منزله. ألصقنا مؤخرة السيارة بباب المستودع، وقذفنا مروان داخل صندوقها، وجلست بنظاري السوداء بجوار السائق. فوجئنا عند المدخل الرئيس للعمارة التي يسكنها صديقنا بدبابة! عبرنا دون أن نتعرض سبيلنا. أوقف محمد السيارة، موجّهًا مؤخرتها صوب باب المصعد. في اللحظة التي همّ بفتح الصندوق، فوجئنا

بحارس العمارة. صاح محمد بصوت عالٍ وقد سبقني على الدرج: «الحقني بالمصعد إلى الطبقة الثانية». همس لي معذراً حين دخلنا الشقة: «ادّعتي للحارس أنك مصّح ثلاثاً». هبط محمد لتدبر أمر مروان القابع في صندوق السيارة، ففوجئ بامرأة تجلس خلف مقود سيارتها بمحاذاة سيارته! تصبّب عرقاً قبل أن تتحرّك السيارة، ولما غادرت اندفع بمروان داخل المصعد.

مفاجأة رابعة وقد اكتشفنا أنّ السيارة التي كانت تُقلّنا إسرائيلية مسروقة! ماذا لو أوقفنا شرطة الاحتلال وصادرتها؟ دراما فظيعة لو فوجئوا بمن داخل صندوقها! إنّه المطلوب رقم واحد.

وجدنا أنفسنا في شقة تطلّ على ساحة تتجمع فيها آلات عسكرية للاحتلال. من يصدّق أنّ مروان يختفي في عمارة تجاوز موقعاً للجيش؟ لا أحد يتخيّل ذلك! كذا الأمر بالنسبة للجنود. الآن يمكننا أن نستحم ونحلق ذقوننا. هنا تلفزيون ملون وفصائيات. لا حاجة لوقوف زياد مطوّلاً لتعديل «أنتين» التلفزيون، لكنّ هدير محركات الآليات العسكرية لا يهدأ ليلاً ونهاراً. كان الهدير الشيطاني يعلو ثمّ يهدأ، دون أن نستطيع التكهّن بمسار حركة الآليات أو هدفها، دائماً كانت ذاهبة لاعتقال مناضلين أو عائدة بهم.

لم نكن تناولنا طعام الإفطار بعد. اثنا عشر جندياً انتهوا من تفتيش عمارة مجاورة، واتجهوا صوب عمارتنا في نسق قتالي. ربما أنّهم يفتشون الحيّ بالدور! في لحظة القلق تذكّرت فضل المستودع، هناك لم نكن نعلم بما يجري في محيطنا، أمّا هنا فعلى وقع ضجيج الآليات والجنود، يموت المرء مئة مرّة يومياً. كنّا نخشى، والجنود يحملقون في الشبابيك والشرفات، أن يلفت انتباههم شيء في عمارتنا فيقرّرون دهمها. في هذا المكان يحتاج المتخفّي لأعصاب فولاذية.

يومان على انتقالنا إلى الموقع الجديد وخلا بي مروان:

- سنغادر اليوم.

- لماذا؟ إلى أين؟

- ربما أخرج مجيئنا أصحاب البيت.

- إذا كان لا بد من ذلك، أنا أترك المكان، أمّا أنت فجنون أن تفكّر بذلك. هل شاهدت سلحفاة تطلّ برأسها من داخل صدفتها أمام عدو يترقب حركتها لينقضّ عليها؟! هذه حماقة. غباء أن يضحي المطارِد بحصنه طالما ظلّ آمناً، ثمّ ليس لدينا بديل.

- لا بد أن نغادر.

بدا كأنّ مروان أدار ظهره كلياً للخطر!

قلت يائساً وقد صمّم على موقفه:

- طالما أنّ الأمر كذلك، لا بد أن نفرّق.

لم يكن ما قلته سهلاً. لا بدائل لديّ، وأخشى على مروان. بدا أنّ دراما اختلاط المشاعر تشارف على

الذروة. كل شيء مشوب بغيوم القلق. ما مصير مروان بعدي؟ ما مصيري بعده؟ ربما لا نلتقي ثانية. تغلب عقلي على مشاعري فقلت حزيناً وقد حسمت أمر مغادرتي:

- بالكاد استطعنا نقلك بأمان. أرجوك لا تغادر.

كان لمروان أسباب قلقه التي بثَّ لي بعضها في المستودع، لكنَّ موقفه إزاء ترك المكان ليس صحيحاً، إنَّه السمكة التي جاء أريئيل شارون لاصطيادها، كما قال له المسؤول الأمني في السلطة حين افترقا قبل ساعة من الاجتياح. هل اقتربت لحظة اصطياده؟

ودّعت مروان وقلبي ينزف ألماً. في اللحظة الأخيرة قرّرت أن أمرّ على بيتي لعليّ أشدّ أزر زوجتي بعد اعتقال ابننا خالد، وأحظى برؤية طفليّ الحبيبين عنان وسيف. موقف عاطفي خاطئ لكنّه حصل. نزلت من السيارة أمام العمارة. حيّت أطفال الجيران الجالسين على المدخل، بدا أنّ المفاجأة أذهلتهم وقد شاهدوني بنظارة سوداء ولحية طويلة. ابتسم لي أحدهم وقد اختلطت علامات الخوف بالفرح على ملامحه. هل خشي عليّ أم فرح برؤيتي؟ صعدت الدرج مسرعاً. ولجت الباب فاحتضنتني زوجتي والدموع تملأ وجهها، ووقف طفلانا مشدوهين.

ابتسم سيف: «متنكر!».

قلت: «نعم».

دقائق قليلة وغادرت.

ما أن حلّت قدماي بالمكان الجديد حتى حضرني صورة مروان فأجهشت بالبكاء. بعد ليلة واحدة من لجوئه لأحد البيوت، اعتذر إليه من حلّ بطرفهم أنّهم مضطرون إلى إغلاق منزلهم بداعي السفر إلى عمّان. موقف جليّ وإن لم يصرّح به: «لا نريدك في بيتنا». لن يكون بمأمن من بطش المحتل من يخفي قائد الانتفاضة في منزله، وهناك من ربما يتهمه بالعمالة في حال اعتقاله من بيته!

اتصل مروان برفيق دربه المطارّد أحمد البرغوثي الملقّب بـ «الفرنسي». هذا الشاب الوسيم الذي يفيض حماسة أكبر كثيراً من اعتباره مرافقاً لمروان، إنَّه «هيئة أركانه». اتفقا على اللقاء في بيت زياد أبو عين. دقائق بعد وصولهما إلى البيت واعتقلاً ومعهما زياد، كان ذلك بعد يومين من افتراقنا.

ضربة في الصميم. لا يوجد من يملأ الفراغ بعد مروان. باعتقاله لم تُقْم لإطار اللجنة الحركية العليا قائمة. وتبخر إطار «لجنة الطوارئ» وتفرعاته، انتهت وظائفها. تلاشت التسميات التي أُستحدثت في سياق الصراع الداخلي كما لو أنّها لم تكن! ما عاد لها لزوم. في هذه الأجواء المأساوية استفاقت نغمة الإصلاح من غفوتها! أبو عمّار محاصر ويتحدّثون عن الإصلاح! انقلاب على الرئيس وعلى الانتفاضة. دعاة الإصلاح أول من رفض شعار مروان: «شركاء في التضحية شركاء في القرار». عن أي إصلاح يتحدّثون إذاً! بحكم مروان بما ينيف على خمسة مؤبدات استوفى الإسرائيليون حصتهم. أمّا عندنا فهناك من ادّعى أنّ اعتقاله يهدف لتلميغه. كُفر.



مساء الثاني والعشرين من نيسان/ أبريل 2002، بعد أسبوعين من اعتقال مروان، صدمني نبأ استشهاد مروان زلوم. مذ عرفت الرجل قبل ثلاثة عقود وهو يتلظى على صفيح نضالي ساخن، غاضباً متأهباً كأنه على موعد مستعجل مع قدر استشهاده. قاطع «لجنة التنظيم 77» حين تأخر موعد إنزاله بدورية للدخول، وكان أول من أطلق الرصاص على جنود الاحتلال الذين طوّقوا دوريته ورفاقه بعد عام، في تلك العملية أُصيب ورفاقه نسيم عبد الجليل وجمال أبو محسن بجراح خطيرة. أعوام قليلة وخرج من السجن في صفقة تبادل للأسرى. ظلّ قدر الاستشهاد شعاعاً يلمع في عينيّ زلوم، عاد إلى الوطن بعد اتفاق أوصلو. اندلعت انتفاضة الأقصى فأعلن عن تأليف «كتائب الشهيد حمدي سلطان». قصفت طائرة أباتشي سيارته بصاروخ فسقط شهيداً.

فجر الرابع من تموز/ يوليو عام 2002 صعقني نبأ بثته الإذاعات: «مقتل قائد كتائب شهداء الأقصى في قطاع غزة جهاد العمارين». تجمّد الدمع في عينيّ. كان جهاد مفعماً بالحماسة والأمل حين اتصل بي قبل يومين: «ضرب غرس المقاومة جذوره عميقاً في تربة الانتفاضة». كانت المقاومة قلب حديث جهاد، وكان شديد الإيمان بقوة الوحدة. ظلّ يكرّر: «التعصب آفة فتاكة». حين ظهرت «كتائب شهداء الأقصى» في الضفة الغربية، سارع جهاد لتسمية المقاومة في القطاع بالاسم والشعار ذاته. وكى يكرّس لُحمة الوحدة ويجعلها ثقافة بالممارسة، سمّى مجموعاته بأسماء شهداء من الضفة الغربية. لطالما خشي جهاد أن يفسدنا التباعد فينسينا أصولنا وأهدافنا المشتركة. جهاد وحدوي بالفطرة وبقلب متفتح.

قال لي يوماً: «في السجن كنت إماماً، كنت أوّجل صلاة العشاء حتى تنتهي أغنية أم كلثوم التي تُذاع عند السادسة والدقيقة الثلاثين مساء كل يوم، كان الشبان ينتظرون الأغنية بلهفة، إنها فرصتهم اليتيمة للترويح عن أنفسهم بنصف ساعة فرح، لماذا نحرّمهم ذلك؟ نحن نتحكم بالصلاة، أمّا سماعنا الأغنية فيقرّره السجان». رحمك الله يا جهاد، كنت قائداً إنساناً. من يعرف جهاد لا يصدّق أنّ وراء همته العالية وروحه المرحّة ثقل أربعة عشر عاماً من المعاناة في سجون الاحتلال. ألم جهاد اعتقال الاستخبارات العسكرية الفلسطينية له في بداية الانتفاضة. اتصل بي من سجن الاستخبارات طالباً أن نتحدّث مع أبو عمّار بشأنه. حاول مروان البرغوثي ذلك، لكنّ أحدهم أحبط المحاولة.

ليل صامت ثقيل يُطبق على أنفاس المدينة حين دهمت أسماعي ضجة. نباح كلاب، وأصوات آدمية، أو هكذا هُيئ لي. صوت سيارة. من يتحرّك في مثل هذه الساعة المتأخرة والتجوّل ممنوع؟ إنّه ضجيج مناضلين اضطروا إلى مغادرة منازلهم خشية دهمها، هؤلاء يظلّون على أعصابهم، يغادرون أماكنهم كلما شعروا بحركة أو نبّههم صديق عبر الهاتف، وكثيراً ما تعرّضهم حركة متهورة لخطر الموت برصاص الجنود.

أيام وسُمح بالتجوّل من الساعة التاسعة صباحاً حتى الواحدة ظهراً، فُهرع الناس لتأمين احتياجاتهم. عند الساعة الحادية عشرة ظهر يوم الجمعة انطلق الصوت النحاس: «ممنوع التجوّل، الكل على البيت». دأب الإسرائيليون على منع التجوّل أيام الجمعة خشية اندلاع تظاهرات بعد الصلاة، واعتادوا منع التجوّل في مدن والسماح به في أخرى.

كثيرًا ما تعبر خيالي أفكار ومشاعر متضاربة، بعضها يأخذني إلى ذكريات جميلة فأبتسم، وأتفجّر أحيانًا حين تمرّ بالخيال ذكريات صعبة. تستوقفني ذكرياتي مع الشهداء فأنتعش، وعندما أتذكر من ظلّوا في الغربة من المناضلين يصيبني أسى. الأكثر إيلامًا أنّ كثيرين ممّن لم تتعبّر أحذيتهم بالنضال فازوا بالامتيازات! نهبوا الثورة في الخارج، ويواصلون سرقة مقدرات الشعب في الداخل. مصاصو دماء.

## العرين

أصبح مخيم جنين حاضنة لرجال المقاومة من جميع الأطياف الوطنية والإسلامية. أطلق المحتلون عليه اسم «خزان الاستشهاديين» و«عاصمة الاستشهاديين». في دفاعهم عن المخيم، نهل رجال المقاومة من خزان السمعة والثقة المتبادلة في داخلهم وبينهم وبين الأهالي. توحدوا، واختاروا الضابط في الأمن الوطني يوسف قبه الملقّب بـ «أبو جندل»<sup>(195)</sup> ليقودهم، وأعدّوا جيدًا للمعركة.

بصدقهم وجِدّهم صنعوا من أبناء المخيم حاضنة شعبية دافئة، زرعوا طرق المخيم ومفارقه بالعبوات الناسفة، وتعلّموا من التجارب، فتحوّ ثغرات بين المنازل لتعطيمهم هامشًا للمناورة، تعاقدوا على الثبات والنصر، وقاتلوا ببسالة فاجأت الاحتلال. أخفق الجيش في اقتحام المخيم. هُدم حيّ الحواشين<sup>(196)</sup> بالكامل؛ ثلاثمائة وثمانون منزلًا. تعقّنت الجثث في الشوارع، ولم يُسمح لسيارات الإسعاف بنقل المصابين، كثيرون اضطروا إلى دفن شهدائهم في حدائق منازلهم.

شرقت مرارًا بدموعي وأنا أستمع لمأساة زوجة الشهيد عطية أبو رميلة. اضطرت المرأة المكلومة إلى تغطية جثة الشهيد داخل إحدى الغرف مدعية لأطفالها الصغار أنّ والدهم نائم، كان يخنقها الألم وهم يواصلون التساؤل: «ليش بابا نايم؟ طوّل! صحّيه». في كمين أطلق عليه المحتلون اسم «الكمين الدامي»، قتل رجال المقاومة ثلاثة عشر جنديًا وضابطًا، وفي كمين آخر دمروا آلية مجنزرة بعبوة ناسفة ضخمة. أسفرت معركة المخيم عن قتل سبعة وعشرين جنديًا إسرائيليًا، على رأسهم قائد الهجوم، وأستشهد ستة وخمسون من الأهالي ورجال المقاومة على رأسهم أبو جندل. وأُعتقل عشرات الكوادر.

حين انجلى غبار المعركة وأُتيحت للناس الحركة، بدا كأنّهم في كابوس، كأنّهم يشاهدون فيلم رعب! ما عاد بمقدورهم التعرّف إلى بيوت المخيم وأزقته. علّق أحد مبعوثي الأمم المتحدة على المشهد: «كأنّنا ضرب المخيم زلزال». أصبح صمود المخيم مفخرة فلسطينية ورواية ألم إنسانية.

لم تكن الانتفاضة مجرّد معركة عسكرية مع الاحتلال، كانت العمليات العسكرية الفلسطينية جانبًا واحدًا من المواجهة الشاملة. كان العقاب الجماعي والانتقام من أهم أدوات الاحتلال لكسر الانتفاضة، فيما الصبر والتضامن الشعبي أدوات الناس في مواجهة الوحشية. وحدّت جرائم الاحتلال الناس، أعادتهم الانتفاضة إلى جادة التضامن، تحصّن المجتمع بحقنة خُلقية ضدّ الجرائم المجتمعية والداخلية؛ لا سرقة، لا ابتزاز، لا اغتصاب، أمّا جنود الاحتلال فتصرّفوا بهمجية.

مزّقت قوات الاحتلال البلاد، ودمّرت المؤسسات المدنية والبُنى التحتية بصورة متعمدة. قتلت واعتقلت وأصابَتْ؛ حربٌ شاملة. في معركة الحياة مع الموت توخَّد المستضعفون ضدَّ قاتلي الحياة. كثيرون لم يسمح لهم منع التجوّل بشراء أدوية لمرضاهم، أو نقلهم إلى المستشفيات. في رام الله على سبيل المثال، دُفنت جثث الشهداء في قبر جماعي بساحة المستشفى الحكومي.

هنا يسجّل لجمعية الهلال الأحمر الفلسطيني دور رائد. نقلوا المرضى بسيارات الإسعاف، وحملوا الخبز وحليب الأطفال وغير ذلك إلى البيوت والأسر المحاصرة. بالطبع لم يقتصر الأمر عليها وحدها، هناك كثير من الأعمال الخيرة التي يمكن الحديث عنها. ففي سبيل الذهاب إلى أعمالهم ولتلبية احتياجاتهم على سبيل المثال، اضطر الناس إلى استخدام الحيوانات في التنقل، وسلكوا طرق الجبال الوعرة مشياً.

بالعمل التطوعي، وباستخدام الأدوات البسيطة، وبما تبرّع به مالكو الآليات لدعم الجهد الشعبي، بالتعاون بين أهالي القرى المحاصرة، وبدعم وزارة الأشغال العامة الفلسطينية والإغاثة الزراعية وغيرها، فتحت عشرات، وربما مئات، الطرق الزراعية والبديلة. ساعد هذا في تسهيل حركة التنقل وتخفيف المعاناة، وترك أثراً كبيراً في صمود المجتمع وصلابته. تفوّقت إرادة الحياة على الوحشية. والأهم أنّ أيّاً من الفلسطينيين لم يفكّر بالرحيل، على العكس، تراحم الناس بالآلاف عند معبر رفح. افترشوا الأرض لليالٍ طويلة وهم يحاولون العودة إلى الوطن. كانت الانتفاضة لوحة تحدٍ، نموذج لإرادة الحياة.

## مكان يسيطر عليه صمت القبور

انسحب الجيش الإسرائيلي من رام الله بعد اجتياح دام ثمانية وثلاثين يوماً. استعجلت رؤية المدينة بعد الكابوس. أرصفة وأعمدة كهرباء محطمة بصورة متعمدة، أبواب مكسّرة، وزجاج متناثر، سيارات مهشمة، كتل تراب وغبار متراكم. الأقسى ظهر على الوجوه وفي نظرات العيون. جموع مذهولة وابتسامات باهتة. أناس مصدومون كما لو أنّهم فاقدوا الذاكرة، ما زالوا يعيشون صدمة الاجتياح. مكان يهيمن عليه صمت القبور على الرغم من كثرة البشر ودورانهم. مدينة تنزف ألماً. روّعني مشهد المكتب الذي كنّا ننام فيه أحياناً وسط المدينة؛ بقايا أوراق، وحطام أبواب، جذر يغطيها الشحار والغبار. ما زال لنا بقية عمر. كان أحمد غنيم على حق حين رفض أن ننام فيه، لو فعلنا ذلك لأصبحنا حطاماً.

توجّهت وأحمد غنيم لزيارة عائلة مروان في حيّ الطيرة. لم نجد أحداً. ذهبنا إلى منزل زياد في حيّ الإرسال والتقينا عائلته. وأنا في طريقي إلى بيت مروان ليلاً، اجتاحتني وحشة، صمت، ألم وذكريات. اصطادوا الصقر. من نجا هذه المرة يمكن أن تلتهمه الحملة التالية. كدت أختنق بدموعي وأنا أتبادل التحية مع زوجة مروان وأبنائه. غاب مروان، وأُعتقل أبرز ناشطي المقاومة والانتفاضة، ولا يوجد هيكلية تدبر ماكينة اللجنة الحركية العليا المهشمة أساساً، ولم تتوقف آلة الاجتياحات الإسرائيلية عن البتر.

قال لي ابني سيف وهو يروي بعض ذكريات قاسية من أيام الاجتياح الكبير: «في عملية السور الحامي،

كما يحلو للإسرائيليين تسمية ذلك الاجتياح، أراد جيشهم بثّ الرعب في قلوب الفلسطينيين وكسر إرادتهم؛ حصار للرئيس أبو عمار في المقاطعة، منع تجوّل، هدير طائرات أباتشي، قرقة جنازير دبابات، إطلاق نار كثيف وانفجارات قوية، وعلى مدار الساعة تبثّ الفضائيات صورًا مأساوية لجرائم الاحتلال.

على الرغم من ذلك، بدت لي والدتي رابطة الجأش. ظلت قوية مع أنّ عناصر الانهيار تحاصرها من كل اتجاه؛ فأنت مطارد، وشقيقي خالد أُعتقل للتو، وشقيقي طارق أرسلته الوالدة إلى بيت عمك رؤوفة في قرية عين عريك باعتبار القرية أكثر أمانًا. بقيت أنا وشقيقي عنان في البيت، طفلين صغيرين. وعلى الرغم من قسوة الحال، لم تفارقني مشاعر الأمان طالما أننا تحت جناحي أمانا.

اشتد الخطر ذات يوم، فتجمعنا في الحمام، باعتباره المكان الأكثر أمانًا في المنزل. بدا الموقف مأساويًا وقد لمحت أمني تتسلّل بخفة نحو غرفة الضيوف، تحيلتها تنشج وهي تهمس لخالتي ليلي عبر الهاتف: 'لن أسأحك إن متّ ولم تعتنِ بأبنائي، إنهم أمانة في عنقك'.

استيقظت فجراً على أصوات انفجارات مدوية في المقاطعة، وعلى هدير أصوات دبابات تتدفق من «معسكر عوفر»<sup>(197)</sup> عبر شارع فندق غراند بارك. جاء في الإذاعة الإسرائيلية أنّ هدف العملية اعتقال مطلوبين. ارتديت ملابس وتجهّأت. بقدر ما يحتاج المرء لسرعة التصرف في اللحظات الحرجة، عليه أن يكون حكيماً. أي تصرف خاطئ أو متسرّع يمكن أن يجلب له أسوأ العواقب. بقيت حائراً بين مغادرة محفوفة بالأخطار أو بقاء لا يقلّ خطورة. لا حركة إلاّ لآليات الاحتلال العسكرية التي تتدفق على المدينة.

بعد شروق الشمس بقليل ظهر ثمانية شبّان يهبطون السفح الغربي بحذر، يحاولون عبور الشارع الذي تعبّره الآليات. ربما هم مطلوبون اضطروا إلى ترك مخبئهم إلى إحدى القرى القريبة، وربما أناس عاديون فاجأهم الاجتياح فتقطّعت بهم السبل. غابوا بعيداً فغمرنا الفرح. لحظات وعبرت الشارع ثلاث حافلات تقلّ معتقلين، قيل لاحقاً إنّ أغليبيتهم طلبت في المعهد التابع لوكالة الغوث.

غادرت المنزل عند الحادية عشرة ليلاً. لم أصادف أحداً، ولا حتى قطاً أو كلباً! صمت ثقيل والموت متوثب عند كل منعطف. تنفّست الصعداء وقد ولجت باب منزل صديق. كثيرون يدعمون ولا يتفاخرون.

في الأول من حزيران/ يونيو 2002 التقى أبو عمار في مقرّه المدعّم مدير المخابرات المصرية عمر سليمان. بعد أيام استقبل مساعد وزير الخارجية الأميركي وليم بيرنز<sup>(198)</sup> (William Burns) ومبعوثين أوروبيين آخرين، وفي العاشر من الشهر ذاته أعلن عن تأليف الحكومة الفلسطينية. ساعات بعد ذلك واجتاحت الدبابات الإسرائيلية مدينة رام الله وطوّقت المقاطعة. كان ذلك في الوقت الذي توجه فيه شارون إلى الولايات المتحدة.

دافع الرئيس الأميركي بوش<sup>(199)</sup> (George w. Bush) عن العملية الإسرائيلية، اعتبرها دفاعاً عن النفس، وأعلن عن عدم رضاه عن الحكومة الفلسطينية الجديدة، وفي اليوم ذاته أعادت القوات الإسرائيلية اجتياح مدينتي بيت لحم وطولكرم، وأعلن أريئيل شارون أنّه لن يتفاوض مع الفلسطينيين ما لم يوقفوا العمليات

العسكرية، وما لم تتألف قيادة جديدة للسلطة قادرة على وقف «العنف». ردّ الفلسطينيون بسلسلة عمليات مكثّفة للمقاومة. أعاد جيش الاحتلال اجتياح مدينتي جنين وقلقيلية.

ناشد أبو عمار المقاومين التوقّف عن تنفيذ العمليات الاستشهادية. في هذه الأثناء نشر مثقفون، أغلبيتهم من غير مؤيدي الانتفاضة، بياناً في الصحف طالبوا فيه بوقف المقاومة، وروّجوا لمصطلح «عسكرة الانتفاضة»، متناسين أنّ المقاومة قامت على مبادرات فردية، لهذا لا يمكن اتهام أحد أو لومه على هذا التحوّل. مصطلح «عسكرة الانتفاضة» عبّر في معظمه عن الخوف والالتهام أكثر من أي شيء آخر، بعضه محقّ وكثير منه قام على مواقف سلبية من الانتفاضة التي أخلّت بموازين القوى الداخلية.

انحاز المناضلون إلى العمل العسكري تحت ضغط وحشية العدوان الإسرائيلي، وبفعل التنافس داخل «فتح». وكان لحركتيّ «حماس» و«الجهاد الإسلامي» مصلحة في ترسيخ هذا التوجّه. معادلة وجد فيها الجميع فرصته لإثبات ذاته، وتعزيز مكانته. يجدر التذكير هنا أنّ أي انتفاضة لم تخلّ من «العسكرة» بشكل أو بآخر، بما في ذلك انتفاضة عام 1987 التي تميّزت بجماهيريتها اللافتة. لقد جاءت «العسكرة» في تلك الانتفاضة كردة فعل على وحشية المحتل، واتخذت من قتل العملاء وجهة لها في أغلبية الأحيان. كان ذلك تعبيراً عن ضيق الحيلة في مواجهة غطرسة دولة أسنانها طائرات تنشر الموت. في الأعوام الأخيرة لانتفاضة عام 1987 ظهرت أجنحة عسكرية؛ الفهد الأسود، الأسد المقنّع، والنسر الأحمر<sup>(200)</sup>.

نجم ذلك عن الخوف على مصير الانتفاضة الآخذة في التراجع، وحمل في ثناياه تلاوين نقص السلاح والتدريب، ورائحة العقلية العسكرية التي جاءت بها الثورة. لم يكن الفعل العسكري في الانتفاضة الأولى بكثافة ونوعية ما جرى في انتفاضة الأقصى، ولا يمكن مقارنته به، في الانتفاضة الثانية توافر سلاح وتدريب لشبّان متحمسين عانوا غبناً شديداً ممّا ترتّب عن اتفاق أوسلو.

يوم الخامس عشر من حزيران/ يونيو 2002 توفي والدي. هذا ما بقيت أحشاه؛ ألا أتمكّن من المشاركة في جنازته. بعد أيام اضطرني البعوض إلى ترك موقعي. أيقظني صديقي الذي استضافني في منزله: «حظك رائع، الجيش يفتّش الموقع الذي كنت فيه بالأمس».

فجر اليوم التالي استيقظت فزعاً على ضجيج آليات عسكرية، مكبرات صوت تعلن فرض منع التجوّل. اجتياح جديد. نهضت من فراشي وتطلّعت من الشباك. بهرت عيوني أنوار مجنزرة تتوقف في ساحة العمارة. لو أنّني في الطبقة الأرضية لاصطدمت عيناى بعيون الجنود. سلكت المجنزرة شارعاً فرعياً. نظرت عبر النافذة فشاهدتها تنعطف إلى شارع بعيد. لا أحد يستطيع تخيّل مدى اضطراب المطارّد حين يستيقظ في عمق الليل، فيجد أنّه لا يفصل بينه وبين عدوه سوى طلقة بندقية من مسافة صفر، دون أن يستطيع تخمين هدف العدو في هذه الساعة الموعلة في الليل. لن يخطر بباله سوى أنّ لحظة اعتقاله أو استشهاده قد أزفت.

## اجتياح جديد

علت أصوات طائرات الاستطلاع وطائرات الأباتشي. انفجارات تحطم أكثر لحظات الليل سكوتًا، وآليات تتوغل في المدينة من المحاور المختلفة، ومكبرات صوت تعلن فرض منع التجول. اجتياح جديد سمّاه الإسرائيليون «السبيل الحازم». لقد ذهب وعد شارون بإنهاء الانتفاضة في مئة يوم أدراج الرياح. فجر اليوم التالي استيقظ الفلسطينيون على تصريحات الرئيس بوش: «يجب تغيير القيادة الفلسطينية حتى لو اقتضى ذلك عملاً عسكرياً».

رنّ هاتفني الجوال.

- مرحبًا.

- أهلاً.

- هل يوجد عندك أكل؟

- نعم عندي.

أكمل ابني سيف:

- حلمت الليلة أنّه لا يوجد عندك أكل.

رنّ الهاتف مجددًا، المتحدث صديقي الدكتور جمال من عمّان: «استيقظت زوجتي هذا الصباح على حلم مزعج، طلبت إليّ الاطمئنان عليك». حدّثته بما قاله سيف.

وقفت عصرًا بجوار النافذة وتطلّعت؛ كوكبة طائرات ورقية تزيّن السماء، ثمانٍ وعشرون منها في مجال رؤيتي. عجيبة قدرة الأطفال على التكيف! صنعوا من بقايا قنابل الغاز ومظروفات رصاص الموت هياكل جميلة؛ يصنعون من أدوات القتل فرحًا!

أسابيع والناس تمرّ بحالة إحباط؛ تعطلّت الأعمال، ولحق ضرر بالغ بطلبة التوجيهي. تراجعت عمليات المقاومة، والصمت الدولي قاتل. تسبّب منع التجول بتراكم القمامة، فانتشر البعوض. ازداد وضع الناس النفسي سوءًا.

«سيُسمح لموظفي السلطة القريبة دوائرهم من المقاطعة بالدوام في مكاتبهم». هذا ما أعلنه جيش الاحتلال، وأثار قبول السلطة للقرار لغطًا، وتباينت الآراء حول موقفها.

اختلط ضجيج آليات عسكرية بصراخ أطفال يهتفون: «يا شارون يا خنزير».

ما الذي يدور في أذهانهم؟

اتصلت بالسيدة سرّية السيد في غزة. قالت المرأة بحنان أخوي: «دير بالك على حالك، ما ظلش من شباب لجنتنا غيرك». في أواسط السبعينيات جاءت الصبيّة التي عرفناها باسم انتصار إلى لبنان للزواج من ابن عمّتها الفدائي مازن. في تلك الأيام التي كانت تعبق بعبير الأمل، كانت انتصار تتحفن بأشهى «مفتول»

و«صيادية سمك». كنّا جميعنا «عزّابًا» عدا قاسم ومازن.

قالت لي انتصار وهي تروي حكاية مجيئها إلى بيروت: «في أوج الحرب التي شنها شارون لتقطيع أوصال القطاع عام 1971، بهدف إنهاء ظاهرة المطاردين التي تعاضمت في تلك الآونة، كان شقيقي بدر من بين المطاردين. على الرغم من صغر سنّي -خمسة عشر عامًا- كان لي دور مهم في التواصل معه، وفي تأمين احتياجاته. كوسيلة للضغط عليه، اعتقلت قوات الاحتلال والدي ووالدي، وهددت بنسف منزلنا إن لم يسلم نفسه. كنت أكبر إخوتي، خشينا هدم البيت، فقمّت بتوزيع أثاث بيتنا المتواضع على بيوت الجيران في مخيم المغازي<sup>(201)</sup>، وأمضينا شهرين عند الأقارب والأصدقاء حتى تحرّرت والدي من السجن. بعد الإفراج عن الوالدة جاء شقيقي لزيارتنا، يبدو أنّه كان مراقبًا، طوّق الجيش منزلنا ووقع اشتباك سقط فيه شقيقي شهيدًا على باب المنزل. بعد عامين أبلغتني أسرتي أنّهم سيرسلونني إلى لبنان للزواج من ابن عمتي. كانت بيروت مهوى أفئدة الشبان وأحلام الصبايا».

أنهيت المكالمة مع انتصار وسرحت في شريط الذكريات. في الطرف الصعب توضحي الذكريات الجميلة شرابًا مرّا أحيانًا. ها قد مضى شهر كامل على الاحتلال الجديد. طبعة جديدة اسمها «السيبل الحازم».

«غدًا سيُسمح بالتجوّل من الساعة الخامسة صباحًا حتى الخامسة مساءً».

هذا ما جاء في الإذاعة الإسرائيلية، فابتهج الناس.

صرّح الشيخ أحمد ياسين أنّ «حماس» ستنظر في وقف العمليات الاستشهادية إن انسحبت القوات الإسرائيلية من مدن الضفة الغربية، وأوقفت عمليات الاغتيال، وأفرجت عن المعتقلين. جاء الردّ الإسرائيلي قصفًا بطائرات F16 لعمارة سكنية في غزة. استشهد القائد الحمساوي صلاح شحادة وخمسة عشر آخرون بينهم ثمانية أطفال، وأصيب مئة وخمسون بجروح. وصف شارون الغارة بأنّها من أنجح العمليات. قال دان حالوتس<sup>(202)</sup> قائد سلاح الجو الإسرائيلي: «طيارو سلاح الجو ينامون جيدًا في الليل». لم تجد أميركا حرجًا في تبرير الجريمة الصهيونية. قاتلة الأطفال الأفغان في صالات الأفراح لا تدين نفسها. في هذه الأثناء أعلن راديو إسرائيل أنّ بيانًا مشتركًا وشيك الصدور عن الأوروبيين وقيادة «فتح»، وأنّ البيان سيطلب بوقف العمليات الاستشهادية.

جاءت ليلة الخميس هادئة نسبيًا في حارتنا. جهّزت رسالة للأخ أبو عمّار. اتصلت بأحمد غنيم، واتفقنا على اللقاء. كلّما اقترب موعد لقائنا في اليوم التالي انتابني شعور امتزج فيه الفرح بالألم. تجاوزت الساعة الموعد المحدّد ولم يصل أحمد! وقفت بجوار الشباك، ورحت أراقب الطريق بقلق. لاح شخص من بعيد فظننته هو، لكنّ أملي خاب. رحت أذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، أتطلّع إلى ساعتني، ثمّ أعود وأقف بجوار الشباك. دقائق بطيئة وقلق ثقيل. تنفست الصعداء حين لاحت سيارته من بعيد.

ثلاث ساعات ونحن نقَلّب الوضع. تراجعَت الفعاليات الجماهيرية للانتفاضة، لكنّ إسرائيل أخفقت في القضاء على المقاومة. ما تظنّ إسرائيل أنّه البنية التحتية للمقاومة، ويلهث جيشها للقضاء عليه، هو فكرة

في رؤوس الشباب، شيء لا يمكن اقتلاعه. المقاومة ليست خلية، سلاحًا، قبلة، أو بناء، إنَّها وعي. شارون يضلِّل جمهوره بادعائه القضاء على ما يسميه «البنية التحتية للإرهاب». اعتقل ودمر وقتل، لكنَّه لم يستطع نزع الفكرة. بذرة المقاومة عميقة في الصدور، تغذيها عدالة القضية وجرائم المحتل، هنا معمل المقاومة الذي يعد شارون بهدمه، لا سبيل لوقف المقاومة سوى زوال الاحتلال.

سلَّمت أحمد رسالة لأبو عمَّار، ولما حانت لحظة الفراق انقبض قلبي. راقبته من خلف الزجاج حتى غاب بعيدًا. قال لي أحمد في اتصال هاتفي بعد يومين: «بعدما قرأ أبو عمَّار رسالتك، قال لي وهو يشير إلى أعضاء القيادة حوله: 'اقرأ لهم يخويا رسالة أخوك منصور'».

عاطف بدوان الملقب بـ «عمَّار بن ياسر»، عينا نباحثان، وابتسامة طفولية. تنظر في عينيه فتخاله يتأهب للهجوم. متحفز باستمرار، كأنَّه في معركة! عمَّار كتلة طيبة وشجاعة نادرين. تجاوز الخمسين من عمره وما تزال البراءة وروح المغامرة أقوى ميَّزتين في شخصيته، التحق بحركة «فتح» وما زال صبيًّا في الرابعة عشر. كان من «أشباه أبو علي إباد».

في دورية متجهة إلى الأرض المحتلة عام 1968، نجا عمَّار ورفيقه عبد الفتاح البليسي الملقب بـ «موريس» من الموت بأعجوبة. يومها علقتُ دوريتهما بحقل ألغام، فاستشهد رفاقهما كلهم. بعد معارك «أحراج جرش» اعتُقل في الأردن، حُكم بالمؤبد مع رفيقه منذر إرشيد وآخرين. ولأنَّه تحت السنِّ القانونية وُضع في «مركز إصلاح». فرَّ من «الإصلاحية». أيام وكان في قاعدة للفدائيين في جنوب لبنان.

عمَّار شخصية مفطورة على المغامرة، الإقدام دم يجري في عروقه. عاد إلى عمَّان مطارداً عام 1981. أشهر قليلة واعتُقل، ففرَّ إلى سورية مجدداً. بدا وهو يسرد لنا في دمشق قصة فراره من قبضة المخابرات كأنَّنا في فيلم خيالي: «طلبوا منِّي تفتيش البيت الذي أتخفَّى فيه فقُدتهم إليه. لفتت انتباه الضابط سدة في المنزل فسألني: 'هل فيها سلاح؟'. قلت: 'لن تصدقني لو قلت لك لا، تفضل وفتشها بنفسك'. لحظة صعد الضابط فوق كتفَي الجنديين المرافقين له، أطلقت ساقَيَّ للريح».

ذات عصر في أحد أيام الانتفاضة، اتصل بي عمَّار: «الأخ هاني الحسن يريد أن يكلمك».

قال الحسن بدفء: «أودَّ أن ألتقيك، نحن نحبك أيضًا». قلت: «أنتم القيادة محوِّطون بمرافقين وجلبة لا يحتملها وضع المطارِد مثلي». ردَّ: «أنا مستعد لأن آتيك إلى أي مكان». في الليلة التالية انتظره شاب من طرفي خلف «شركة هيونداي» في شارع الإرسال في رام الله، نصف ساعة وكان عندي وبرفقته عمَّار.

## ضيف ثقيل

لوحة بديعة وأنا أتملِّ السفوح والوهاد من خلف زجاج نافذتي. ضباب يظلل الأشجار والأبنية. عصافير تشدُّ الرحال لاستئناف رحلة بحثها الدؤوبة عن رزقها. براعم أشجار تلمع نضرة كأنَّها تستحم



بالندى. رنّ جرس هاتفي. كان في لهجة زوجتي حثّ لي على الانتقال إلى منزلنا. بادرتها دون أن تطلب ذلك: «سأكون بطرفكم فجر الخميس إن شاء الله». لا أصعب من أن تطول إقامة المطارد عند الجماعة ذاتها، يضحي ضيفاً ثقيلاً. لمحت ذلك في عيون مضيفي: «تخوّف من وجودك بطرفنا، ثم إنَّ وجودك قيّد حريتنا».

كلّما اقتربت ساعة مغادرتي ازددت اضطراباً، المغادرة مغامرة. هل أغادر في الصباح الباكر؟ هل أذهب في سيارتنا؟ كان يغمرني الفرح حين أتخيّل انتهاء العملية بسلام، ويتابني إحباط حين تعاودني المخاوف والتساؤلات، ماذا لو؟ اشتدّت معركة الأفكار. خطر ببالي أن أغادر عند التاسعة صباحاً. في هذه الساعة يكون الموظفون من سكان عمارتنا قد غادروا إلى أعمالهم، لكن كيف أتدبّر أمري مع «المرأة الفضولية»؟ كأنّ «الشيطنانة» مكلفة بمهمة حراسة! وكما تشم القطط رائحة الزفر، تركض هي إلى الشباك حين تحسّ بأي حركة. أمثال هذه المرأة تكون أحياناً أشدّ خطراً على المطارد من الاحتلال نفسه. أبلغتني زوجتي أنّ الساعة الملائمة هي الحادية عشرة قبل الظهر، لكنّ هذه الساعة لا تلائم من أنا بطرفهم.

بعكس أعصابي المتهيّجة كان الجو لطيفاً صباح الأربعاء. فجأة دهمني شعور بالحزن؛ هذا شهر الكروم والفقوس، ليالي السهر والتمتع بالصباحات الندية. تذكّرت يوم كنت أجلس لصق زوجتي على كتف الوادي، نمتّع أنظارنا ومخيّلاتنا بالطبيعة الخلابة، وتغمرنا عواطف جياشة. قتل الاحتلال روح المتعة. أضحى كثيرون في بلادنا لا يتقنون مجرد الابتسام، لا يحسّون بالفرح وإن جاورهم. حين أفكّر بأطفال فلسطين أتساءل حزينا: كيف تنعكس تجربة الاحتلال المرّة في مخيّلاتهم؟ إلى متى سترافقهم صورها؟ كيف ستؤثر عليهم مستقبلاً؟ بأي نفسية سيتعاملون مع الآخر وينظرون إليه؟

كان ضيوف حلمي الليلة الشهداء خليل الوزير (أبو جهاد)، حمدي، وقاسم، وكان مسرح الحلم مخيم الوحدات<sup>(203)</sup> في عمّان. في الحلم كنت في طريقي لشراء احتياجات غداء لهم. فجأة انتقل مسرح الحلم إلى الوطن وظهرت فيه آليات عسكرية وجنود يطاردون جموعاً محتشدة. استيقظت من حلمي فزغاً على أصوات آليات عسكرية تعبر الشارع المحاذي.

داعبت أصابع شمس الصباح وجتتي كأنّها توقظني. لكنّ قلق المغادرة أقوى من أن يسمح لي بالاستمتاع. هذا لا يقتصر على مخاوف الطريق والانتقال فحسب، ربما لا تُتاح لي فرصة العودة إلى المكان الذي ما أزال أحجّاه. الأمور ليست ميسّرة دائماً، والبدايل تكاد أن تكون معدومة. أمضيت في هذا المكان أكثر من شهر، مدة أطول ممّا يحتملها المكان. على المرء وهو يفكّر بالخروج من ضيقه، ألا يلقي نفسه بما يمكن أن يكون أشدّ قسوة.

عند العاشرة والدقيقة الثلاثين وصلت زوجتي. قالت إنّها هيأت الأمور تماماً. زيادة في الاحتياط تركتْ هاتفاً جوالاً مع ابنتنا سيف ليتصل بها إن حصل طارئ. وكلّفت ابنتنا عنان باصطحاب أطفال العمارة إلى المسبح، أمّا المرأة الفضولية فتركت أمرها للمولى. قادت السيارة بنفسها لعلّي أكون أكثر جرأة في التعامل مع المفاجآت. لم يمضِ على وجودي في منزلي نصف ساعة حتى صمّ آذاننا ضجيج آليات. ركض سيف إلى الشرفة وعاد مخطوف اللون: «المجنزرة أسفل العمارة. قدمت من جهة 'بيت خُزق'»، هبّ أطفال الحارة،

لاحقوا المجنزرة بالتصغير والهتاف والحجارة.

صباح اليوم التالي تعاونت وزوجتي لتحضير الإفطار. كم تشوّقت للجلسة العائلية. ظلّ سيف يرفرف حولنا كفراشة ربيع. يحتضني تارة ويقبل أمه تارة أخرى، يطير إلى الشرفة كلما سمع هدير آليات، ثم يعود مبتسماً: «ما في شي». رنّ جرس المنزل فقفزت إلى غرفة النوم. تطلّع ابني طارق من العين السحرية وهمس لأمه: «المرأة الفضولية». ارتبكت زوجتي: «ما الذي أتى بالشيطانة في هذه الساعة؟». جاست «المصيبة» المكان بفضولها اللعين، ولما غادرتُ فتح سيف غرفة النوم وهمس: «سألتني: 'أبوك هون؟'. قلت لها: 'أبوي ما بييجي عندنا'».

يفرض المتخفي على محيطيه التطبّع بحاله، يعتادون قفل الباب الخارجي بالمتاح منعاً لأي فضول أو مفاجأة، لا يفتحون الباب قبل النظر من العين السحرية. تتحسنّ لديهم ملكة اليقظة والحسّ الأمني، وحسن التصرف مع المفاجآت. يسدلون الستائر، ويجود عليهم الخيال بقصص يبرّرون بها مواقفهم. يكرّرون التطلّع من النوافذ، ويصبحون أكثر اهتماماً بالتفاصيل، يزداد فضولهم، ولا شعورياً يعتادون خفض أصواتهم.

سنة أيام رائعة في أحضان الأسرة ثمّ حان وقت الرحيل. شُغلت زوجتي بأمر تأمين مغادرتي بأمان، أوصلتُ بعض أولاد العمارة إلى المسبح، وتحملتُ على اثنين منهم لم يذهبا للمسبح، أرسلتهما لشراء أغراض من الدكان. وفي أثناء مشاغلتي للمرأة الفضولية كنت أنا داخل السيارة.

عند ظهر اليوم التالي حطّم هدير الآليات العسكرية السكون. اختلست نظرة من النافذة. مجنزرة تربض وسط الشارع، يدقّ جنودها وثائق الركاب. صدحتُ حناجر بريئة: «غصباً عن الطبيعة، فلسطين في الطليعة». الله ما أعذب الهتاف يخرج دافئاً من حناجر الطفولة!

بعد العصر صمّ أذنيّ صوت آليات عسكرية. تراكض الأطفال للاختفاء في أفنية الأبنية. تطلّع أحدهم يميناً ويساراً بحذر. وضع صندوقاً كرتونياً في الشارع، ثمّ قرّ مزهواً. حبس الأطفال أنفاسهم بانتظار ردة فعل الآليات التي تهدر من بعيد. أطلّت الدبابة ومن خلفها سيارة جيب عسكرية. خاب أمل الأطفال حين تجاوزت الآليتان الصندوق. لقد اعتاد جنود الاحتلال مثل هذه الحيل، تماماً كما تجرأ الأطفال عليهم فلم يعودوا يخشونهم. تفاخر أحد الفتية ببراءة: «خافوا منا».

ساعة وعبرت سيارة حديثة من نوع BMW الشارع المحاذي. من يملك مثل هذه السيارة إمّا مسؤول كبير في السلطة أو صاحب مال. فاق بعض مسؤولي السلطة ببذخهم أصحاب المال، فجروا. سيقول بعضهم: «أمضينا عمرنا في الثورة، من حقنا أن نعيش». كنتم محسوبين على الثورة، ولما حللتم بالبلاد نهشتم لحم من انتظروا أن تنقذوهم.

قليل إنّ أحد مسؤولي السلطة احتج على شراء سيارة مصفحة له من هذا النوع، لأنّه مرّ على صنعها عامين! قليل إنّ سعر السيارة ربع مليون دولار، حينها كانت الانتفاضة في أوجها، وكان راتب الشرطي

الفلسطيني ثمانمئة شيكل شهريًا. لماذا السيارات المصفحة؟ ممّن تخافون يا سادة؟ بعد احتلال الضفة الغربية عام 1967 كان كبار ضباط العدو تقلّهم سيارات صغيرة من نوع «سوسيتا»، وكانوا يداومون في مكاتب «المقاطعة» الصغيرة، مع أنّهم منتصرون، ومن حقهم على قيادتهم أن تكافئهم. نحن عدنا إلى الوطن بلا نصر، مع ذلك قلة نادرة من القادة قبلوا الدوام في المقاطعة. كاد أن يقتصر الأمر على أبو عمار وحده!

## «يريدونني أسيرًا أو طريدًا أو قتيلاً»

استيقظت فجراً على أصوات انفجارات مدوية، وعلا نباح كلاب أفزعها الانفجارات. جاء في نشرات الأخبار أن جيش الاحتلال دمرّ عشرين بناءً في محيط مكتب عرفات. وتسببت قذائف أُطلقت على المكتب مباشرة بتناثر الحطام داخل غرفة نومه. يطالبون عرفات بتسليم عشرين مطارداً قيل إنهم يتحصّنون في المقاطعة. على مدار النهار سُحِبَ غبار ودخان تتصاعد كثيفة إلى أعالي السماء. تواصلت الانفجارات حتى منتصف الليلة التالية. أمهل الجيش المحتل الموجودين في المقاطعة عشر دقائق لتسليم أنفسهم. على وقع النداءات التي أطلقتها سماعات المساجد، هبّ الناس لحماية أبو عمار ورفاقه.

في أشدّ اللحظات حُلَكة، حافظ القائد على رباطة جأشه، لم يفقد البوصلة. من أعمق نقطة في الشعور بالمسؤولية أطلق صيحته الشهيرة: «يريدونني أسيرًا أو قتيلاً أو طريدًا، أنا أقول لهم 'شهيداً شهيداً شهيداً'». في اللحظة شديدة الوطأة جاءت الدعوة مجلجلة للصمود وللمقاومة. لحظات قاسية كادت فيها مدافع الدبابات الإسرائيلية أن تلامس نافذة مكتبه المحاصر. لم يرفع أبو عمار راية الاستسلام، ولم يطلب النجدة لحماية شخصه أو سلطته. الوطن أولاً، قبل أي شيء. في أشدّ لحظات المحنة دارت أسطوانة الإصلاح المشروخة! أهو ابتزاز للقائد المحاصر، أم أنّه عمى سياسي؟

بمناسبة رأس السنة العبرية صرّح وزير الدفاع الإسرائيلي: «المعركة مع الفلسطينيين هي الأخطر منذ إقامة دولة إسرائيل. الفلسطينيون مصابون بخيبة أمل في الفترة الأخيرة، هناك أصوات في الجيل المتوسط من فتح ترفض العنف». أيام وأدى انفجار عبوة كبيرة في قطاع غزة إلى تدمير دبابة، إنّها الثالثة التي يجري تدميرها في أثناء الانتفاضة. صدر بيان فتحاوي طالب بوقف العمليات الاستشهادية. انتقدت «كتائب شهداء الأقصى» البيان، ولم يتوقف الإسرائيليون والأميريكيون عنده. تعليقاً على البيان صرّح مروان البرغوثي من سجنه: «لن نتوقف المقاومة قبل زوال الاحتلال».

فجر الثالث عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2002، اجتاحت عشرات الدبابات مدينة نابلس ومخيماتها، وأعلنت إسرائيل إنهاء العمل باتفاق «غزة - بيت لحم أولاً»<sup>(204)</sup>. أطلقوا على جريمتهم الجديدة مصطلح «الدفع الثابت»، تكرار للمكرّر. في اليوم ذاته اجتاحت الدبابات مدينة خان يونس<sup>(205)</sup>، وأحياها الشيخ عجلين والصبرة وتل الهوى في مدينة غزة، وقصفت محيط منزل الشيخ أحمد ياسين.

يومان وأعلن جيش الاحتلال عن مقتل اثني عشر جندياً من جنوده في مدينة الخليل، بينهم قائد منطقة

الخليل العسكري. أعلنت «سرايا القدس» مسؤوليتها عن العملية النوعية. دان الأمين العام للأمم المتحدة العملية بكلمات قاسية، وفعل ذلك بابا الفاتيكان. ربما وقع الاثنان ضحية لتصريحات إسرائيلية مضللة، فقد ادّعى المحتلون أنّ القتلى مصلّون كانوا في طريقهم إلى الحرم الإبراهيمي. لاحقاً اعترفت إسرائيل بالحقيقة.

## في مهب الإبعاد

لم يكن مضى على انتقالي إلى منزل فهمي مرعي إلا نصف ليلة حين انفتح باب غرفتي، وسمعت همساً: «الجيش يدهم بيت الجيران»، هذا ما نطق به صديقي مضطرباً. خلت زوجته ترتجف وقد ظنّت أنّي المقصود. أضحي مصير الأسرة في مهب الإبعاد. سيُلقى بهم خارج البلاد لو اعتقلت في منزلهم. ليس لديهم هويّات فلسطينية، مع ذلك استقبلوني برحابة صدر.

فجأة هدرت الآليات وغادر الجيش، فراح فهمي يسرد لي التفاصيل: «كنت أتابع مسلسلاً تلفزيونياً حين سمعت هدير آليات. كان ذلك عند الثانية والدقيقة الثلاثين فجراً. دفعني القلق للوقوف بجوار النافذة، صدمت عينيّ سيارتان عسكريتان تتوقفان أسفل عمارتنا، نزل منهما عدد كبير من الجنود، دخل بعضهم إلى حديقة البيت المقابل. خفت كثيراً حين اتجه آخرون صوب عمارتنا. رحت أتخسّب وأتساءل: 'هل صديقي المقصود؟ هل شاهده أحد في أثناء قدومه بالأمس؟' اختلست نظرة للخارج فشاهدتهم يطرقون باب الجيران. اطمأن قلبي قليلاً، لكنّ الوسوس عاودتني مجدداً: 'ماذا لو قرّروا تفتيش عمارتنا؟'. في هذه اللحظة قرّرت أن أوقظك».

صباح اليوم التالي، صوت آليات. علا الصفير، وانهاهال الفتية على دورية الاحتلال بالحجارة هاتفين: «فلسطين عربية». أين أنت يا شارون من غضب أطفال فلسطين؟

جاء يوم الحادي والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر شتوياً؛ انهزم المطر بغزارة، لمع البرق، وهدر الرعد. فرح الصغار، واستبشر الكبار، وشُغلت الأمهات بالاستعداد لاستقبال الزائر الذي هلّ فجأة. الشتاء المبكر كمراهق مضطرب السلوك، شخصية تحاول بلورة هويتها وتأكيد ذاتها. خطأً فادحٌ أن نصدر أحكاماً نهائية على البدايات.

ازدادت عمليات الاغتيال التي ينفّذها الطيران الإسرائيلي. اتخذت سبعة وعشرون طيار احتياطٍ وطياراً عاملاً إسرائيليين موقفاً من هذه العمليات. جاء في رسالة أرسلوها إلى قائد سلاح الجو دان حالوتس: «العمليات غير قانونية، إنّها نتيجة مباشرة للاحتلال الذي يفسد المجتمع الإسرائيلي». أثارت الرسالة ضجة في الرأي العام الإسرائيلي، وجوبت بقوة في المؤسستين السياسية والعسكرية. قال أحد الموقعين على الرسالة: «الطيار الذي يُغير على سيارة لا يعرف من يركبها. لم نعد نثق بمن يصدر الأوامر». طيارون آخرون رأوا في تمرد زملائهم طعنة في الظهر. قال أحدهم في مقابلة مع صحيفة ידיعوت أحرونوت: «قد يؤدي بنا هذا إلى المحكمة الدولية». أمّا رئيس أركان الجيش موفاز فقال: «الرسالة مساعدة غير متوقعة للمنظمات

الإرهابية».

غادرتُ زوجة فهمي المنزل إلى عملها، أمّا هو فسمعته يتحدّث إلى خاله وزوجته قبل أن يغادر. وقت قصير وراحت زوجة الخال تجوب الغرف لتنظيفها. حبست أنفاسي وهي تداعب قفل غرفتي. شاهدت ظلّها من شق الباب وهي تروح وتحجيء. ابتسمت تلقائيًا: «آه لو تعرفين أنّ في الغرفة رجلًا! لو عرفت ذلك لحفّ عقلك!». ساعتان وبدا البيت صامتًا. تحيّلت الضيفين خرجا للتسوق. كان الصمت مطبقًا حين ألصقت أذنيّ بشق الباب. في اللحظة التي امتدت يدي لفتح الباب سمعت همسًا فسحبت يدي وتراجعت مرتبكا: «أين كنتما؟ ماذا كنتما تفعلان أيها الشقيان؟».

جاء الأسبوع التالي خريفًا لطيفًا. عصافير ترقزق في طقس احتفالها الصباحي. بيوت وصخور تلتهم وسط السحب. سرحت بذكريات جميلة مع صديقي الدكتور جمال فضحكت بجنون متخيّلًا أنّي أخاطبه: «لا تقلق يا صديقي لأنني أضحك هذه المستيريا. لا تتسرّع فتأخذك الشفقة وتقول: 'مسكين صاحبي، ربما فقد عقله!'، لا، إنني أتخيّل بعض ذكرياتنا الجميلة».

بعد الظهر اختلف الطقس؛ لمع البرق، جلجل صوت الرعد، وانهمر مطر غزير. بهذا الصخب أعلن الشتاء عن قدومه. للمطر في يومه الأول رائحة تبتهج بها قلوب الفلاحين، والمطر المبكر بشرى بموسم زراعي خير. بدا الماء حبالًا تربط السماء بالأرض، كحسنة تتمايل بخصرها بين ذراعي عشيق مشتهى، كأنّ الكون يحتفل. دفعني الشعور بالأمان للاستهتار. نسيت أن أغلق أباجور غرفتي المثل على شرفة تتصل بالبيت من باب ثانٍ. سمعت لغطًا فدفنت نفسي في الفراش مذعورًا. تساءل أحدهم: «من النائم؟ ابنكم؟» تحيّلت حال صديقي وهو يردّ مرعوبًا: «نعم، ابننا».

بعد أيام، أبلغني فهمي أنّه مضطر إلى استضافة بنات خاله في منزله. «لا مجال غير الرحيل»، هذا ما قلته لنفسي. واصلت الاتصال بأحمد غنيم دون جدوى. يردّ الصوت الآلي: «الهاتف المطلوب مقفل». استأنفت الاتصال في الصباح ولا مجيب. قلت لصديقي وهو يهّم بالمغادرة لإحضار ضيفاته: «أضع ما استطعت من الوقت لعلّي أتدبر أمري». توسل إليّ والدموع تكاد تطفّر من عينيه: «أرجوك! لا تتسرّع، يمكنني تدبر الأمر». ساعة ثقيلة ورنّ جرس هاتفي:

- ألو، صباح الخير.

- صباح النور. وينك يا أحمد؟

- كنت خارج التغطية.

- أحضر فورًا.

نصف ساعة وأوقف أحمد سيارته بجوار العمارة. هبطت الدرج مسرعًا دون أن أتلفّت يمينًا أو شمالًا، أتأبط كيس ثيابي، ويدي الأخرى كيس دفاتري. عند نهاية الدرج فوجئت بفهمي برفقة بنات خاله، ألقيت

عليه التحية كائنني لا أعرفه. شعرت بأنه يكاد يتفجّر حزناً عليّ. هبطت الرصيف فانفرط كيس دفاتري. بدت حالي بائسة وأنا ألملم أوراقى المتناثرة. لم أشعر بالأمان حتى جلست في السيارة، وانطلق بي أحمد يناور محاولاً تجنب الزحمة ومواقع الجيش. ربع ساعة وكنت في منزله والشهر رمضان. أصرّ أحمد على استضافة أسرتي على الإفطار. خيم سكون غريب على اللقاء الذي يحصل أول مرة منذ أربعة أشهر. همست في أذن زوجتي مستفسراً عن سبب هدوء سيف فقالت: «مريض منذ يومين». اقترح أحمد أن ينام سيف بطرفنا، فتحمّس الولد للفكرة.

حاولت كسر الجليد مع سيف حين أصبحنا في غرفة النوم:

- كيف المدرسة؟

- أنا من أفضل الطلبة.

- كيف علاقتك بسكان العمارة؟

- أتعاون مع أصدقائي لإيصال أغراض الجيران إلى بيوتهم.

- كيف مهارتك بالكتابة؟

- لديّ دفتر مذكرات.

قلب الاحتلال حياة الأطفال رأساً على عقب. أي قهر فظيع دفع الطفل فارس عودة للتصدى لدبابة بحجر صغير؟ ما الغيظ الذي اختلج صدر الفتى اليافع وهو يفعل ذلك؟ الدبابة ليست دمية للعب، وأصابع الأطفال وخيالهم خلقت للكتابة والفن والمتعة.

بعد أيام اتصل بي سيف:

- كان امتحان اللغة العربية سهلاً، حصلت على علامة كاملة.

- لو لم يكن استعدادك جيداً لما كانت النتيجة كذلك.

- بعض الطلبة يدرّسهم أهاليهم. أنا أعتمد على نفسي. هذا رائع.

- تبرّعت اليوم بعشرة «شواكل» للطلبة المحتاجين.

- أنت رائع دائماً.

## هنا يقيم القائد المحاصر

في طريقنا للاجتماع إلى محافظ المدينة، قبل أن يتشر الناس في الشوارع كعادتهم في الشهر الفضيل، عبر بي أحمد بسيارته شارع الإرسال. تطلّعت تلقائياً صوب مدخل المقاطعة على اليسار. عتمة مطبقة، وصمت

قاتل، حطام سيارات تسدّ المدخل. خلف هذا الركام والدمار يربض القائد المحاصر. لا يمكنك تصوّر بشر أو حياة وسط هذا الخراب. انحدرنا يميناً بحذر صوب حيّ عين مصباح<sup>(206)</sup>، لا بشر ولا سيارات، بضعة صبية يجلسون على الأرصفة. المدينة التي ظلت تفور حيوية في ليالي رمضان تبدو جثة هامدة اليوم.

أوقف أحمد سيارته أمام منزل المحافظ وصعد الدرج بهدوء. بقيت في السيارة خشية المفاجآت! لقاء حزين وابتسامات مخنوقة حين اجتمعنا إلى المحافظ. أين مروان؟ إلى متى سيستمر احتلال المدينة؟ هذا ما يدور على الشفاه الصامتة.

في اليوم التالي، قبل موعد الإفطار بنصف ساعة، انفتح باب منزل أحمد وقد سهوت عن إقفاله. سألتني المرأة التي فاجأها وجهي العابس قصداً ولحيتي مبعثرة الشعر:

- أين أهل البيت؟

- لا يوجد أحد سوانا.

بجفاف لهجتي دحرت المرأة التي قالت لأحمد حين التقته على الدرج: «من أين لكم هذا الشيخ الذي وجهه لا يضحك للرغيف الساخن؟». تدارك أحمد الموقف متظاهراً بالأسف على تأخره عن استقبالنا: «هل وصلوا؟ تأخرنا عليهم. أقاربنا من القدس. جاءوا فجأة».

عند الحادية عشرة ليلاً طرق أحمد باب غرفتي: «هناك حديث عن اجتياح وشيك للمدينة. ربما أصبح وجودنا هنا خطراً». غادرنا على عجل إلى منزل أحمد الآخر قرب حاجز قلنديا. كشافات، والحاجز خالٍ إلا من الجنود. أدار أحمد المفتاح بهدوء في قفل منزله المهجور، وأشعل ضوء الحّمّام في الزاوية البعيدة. نورٌ يكفي لتلبية غرضنا. زكمت أنوفنا رائحة الغبار الثقيل الذي أثارته حركتنا. أعادني البرد القارس وبؤس المكان عامّاً إلى الوراء. انهمرت زخات رصاص. ما الأمر، اشتباك أم مdahمة؟ علّق أحمد: «يطلقون النار لردع من يفكر بمهاجمتهم، لطرد الخوف من داخلهم». ثلاثة أيام ورجعنا إلى منزل أحمد في حيّ الإرسال.

على مدار الأسابيع الخمسة التي أمضيتها في منزل أحمد. كانت زوجته إلهام تخرج بطفليهما ضمير ومَلَك عند الفجر، لإيصالهما إلى مدرستهما في القدس. كانت تمضي ساعتين، وأحياناً أكثر، على حاجز قلنديا، تحمل معها فطوراً للطفلين، وحرماً لتغطيتهما حتى يحين وقت العبور. يكمل الطفلان نومهما ويتناولان فطورهما في السيارة. هذا جانب بسيط من معاناة الناس.

ربما شَهِدَ وجودي في منزل أحمد أفضل محطات نضجي في الكتابة. قرأت كثيراً، وكتبت الكثير. أتاحت لي ثقافة أحمد الواسعة فرصة لإثراء طاقتي الإبداعية. كان يمكن أن يصبح أحمد مفكراً أو روائياً ذا شأن، لكنّ غرقه في وحل السياسة بدّد كثيراً من مواهبه.

ذات يوم بقيت ومَلَك وحيدتين في البيت. قال لي الطفل ابن الخمسة أعوام وقد ضجر من بقائنا وحيدتين: «أريد أن أحضر صديقي لألعب معه يا عمو». تعاطفت معه، فأحضر ابن الجيران. ما أن غادر صديقه حتى همس لي مبتهجاً: «لا تقلق، قلت له إن سألك أهلك هل عندهم أحد قل لهم لا». يا لبراءة

الطفولة وروعتها! ويا لخطورتها أحياناً!

كانت المدينة تتململ للنهوض لصلاة عيد الفطر حين انطلق بي أحمد عند صلاة الفجر. مآذن مضاءة يتجهّز أئمة مساجدها للصلاة. بهرتنا أنوار سيارة مسرعة خلفنا. انعطفنا يميناً إلى شارع فرعي، ثم اختفينا بين البيوت. سيارة بلوحة عربية خلفنا! ربما أراد سائقها اختبار الطريق بنا! ربع ساعة وكنت في منزلي. لم تكن زوجتي جهّزت الإفطار حين طُرق باب المنزل. نظرتُ من العين السحرية، وعادت تهمس: «أم وحيد». بعد ساعة همست لي وهي تناولني الفطور: «المرأة تصلي».

اتصل بي الدكتور جمال:

- طالت رحلتك يا أبو علاء.

- تجربة قاسية عرّفتني بأشياء كثيرة كنت أجهلها. أدركت بعمق أكبر قيمة الوعي والصبر وعظمة التكيف. اكتشفت أنّه يستحيل على الاحتلال أن يوجد في كل بقعة، أن الإنسان يملك طاقات جبارة، وأن احتياجاته الأساسية محدودة.

- طول عمري أقول إنّك متصالح مع نفسك! ألم تقرأ في القرآن: ﴿فأنزل السكينة عليهم﴾ (سورة الفتح : 81). لم يقل سبحانه وتعالى «وأنزل الشجاعة»، «الذكاء» أو «القوة»، قال: «وأنزل السكينة». أنت لديك سكينة.

رنّ جرس المنزل فهمستُ زوجتي بعدما نظرت من العين السحرية: «عباس وزوجته». تسلّقت السلم إلى السدة. عباس زميلي في الإطار القيادي لـ «لجنة التنظيم 77». في النهار ذاته حضرت شقيقتي حليلة، وصديقي عطا. عطا صديق طفولتي، رفيق مراهقتي وشبابي. هرولت إلى السدة مجدداً.

«اترك العاطفة جانباً وإلا....»، هذا ما همست به لنفسي حزناً.

صباح اليوم التالي توقّفت سيارة العمّال الآتين لتركيب التدفئة المركزية في منزلنا أمام العمارة. ركضت مسرعاً، ودفنت نفسي في فراش عنان. سيمضي العمال ساعات طويلة في العمل. سأل أحد العمّال ابني طارق:

- من النائم؟

- شقيقي.

- ألا نزعجه؟ سنقوم بحفر الحائط.

- احفروا وتوكلوا على الله.

دخلت زوجتي الغرفة، وسألت طارق على مسمع العمّال: «أما زال شقيقك نائماً؟». قالت ذلك وراحت تتمتم بصوت مسموع: «الله يلعن الاحتلال وسيرته. أمضى الولد يوماً كاملاً حتى وصل من جامعته في جنين، عدا الإهانات والوقوف تحت المطر، أصابه برد. الملاعين خنقوا الناس. الله يعين المرضى والشيوخ».



قال أبو خميس المشرف على العمّال بلهجة لداوية: «مالو ابنك؟ عيّان؟ مفلوز؟». ومن دون أن ينتظر الجواب أضاف: «عليك بالليمون والملح، اخلطي الليمون بقشره، اسقيه اياه وسيقوم مثل الحصان». كاد أن يغشى عليّ من الضحك. عند الرابعة وقع ما لم يكن بالحسبان، جاءت الشيطانة. وفي اللحظة الحرجة رنّ هاتف المنزل، فردّت زوجتي مرتبكة: «أنا مشغولة الآن، سأتحادث معك في المساء». لو أكملت زوجتي الحديث لانكشفت روايتنا. كان المتحدث ابني خالد الذي أمثل أنا دوره. انهالت الشيطانة على أبو خميس بأسئلة عن أسعار التدفئة، تبخس هنا، وتدّعي المعرفة هناك. علّق الرجل بعد خروجها: «باين عليها عيّانة!».

صباح اليوم التالي اتصل صديقي الدكتور جمال: «خجلت من نفسي وأنا أقرأ البيان الصادر عن 'التعبئة والتنظيم' بخصوص شهيدي نابلس من كتائب شهداء الأقصى، استهتار بالعقول. يقول البيان: 'بعد مراجعة السجلات الحركية، ثبت أن اسمي فلان وفلان غير واردَيْن في الأوراق الرسمية للحركة'. شيء معيب أن تتخلّى الحركة عن شهدائها».

عند الظهر انقشع الضباب، فتجلّت السفوح المقابلة بساطاً أخضر، وفلاحاً يحرق أرضه. تذكّرت أيام كان يصطحبني والذي معه إلى الحقول في مثل هذا الموسم، كانت أسراب الطيور المهاجرة تشقّ السماء كطابور جيش في عيد الاستقلال. لم تكن هذه مألوفة في بلادنا إلّا في موسم الربيع، كانت تخلق بأجسادها الرشيقة ورقابها وأرجلها الطويلة عقول الأطفال. نسمّيها «حوّام الخميس». ارتفعت أصوات الفلاحين في المرج. امرأة تنثر البذار، وأطفال يساعدون في إزالة الشوك. هذا وجه من وجوه حياة الفلاحين. حطّ على الأرض المحروثة سرب حمام، التمع الريش تحت ضياء الشمس. بدا المشهد كثوب حاكته يد حسناء ماهرة.

عند منتصف الليل طُرق باب منزلنا، فانتفضت زوجتي مذعورة. قالت وقد عادت بعدما أقفلت الباب: «شخص يسأل عن جيراننا». حين يُطرق الباب في مثل هذا الوقت، يرتجف قلب المتخفي ظاناً أنّهم جنود الاحتلال.

قال سيف ونحن نتناول الغداء ظهر اليوم التالي: «أمس دخلت أربع جيّات عسكرية إلى ساحة مدرستنا». أضاف بأسى: «حتى الآن استشهد ستة طلبة من مدرستي».

كلّما نظرت من الشباك تملّمت في داخلي بذور الحياة والحرية. اتصلت بصديقي الدكتور جمال:

- يبدو أن لتغيّر الفصول تأثيره في المزاج.

- فصل الشتاء يجعل حالك كمطارد من حال الناس، الجميع في المنازل. أمّا الربيع فيُشعرك بالغربة، بالعزلة عن طبيعة الواقع.

- ما يزيدي توتراً مشهد الدبابات الأميركية تستيح شوارع بغداد.

- أخشى أن يتسع نطاق الحرب فتشمل سورية وإيران، كما حصل في حرب فيتنام بالنسبة للاوس وعدد

من البلدان المجاورة.

- يصعب التكهّن باتجاهات السياسة الأميركية الرعناء. روح عدوانية ومشاعر فتوة تدعمها قوة هائلة. أميركا دولة أنشأها مغامرون، وهي حديثة العهد بالاستعمار، لم تُهزم إلا في فيتنام، وزادها سقوط الاتحاد السوفياتي غطسة.

- تسعى أميركا لتغيير بيئة المنطقة لمصلحة إسرائيل.

- الشعب الفلسطيني أكبر الخاسرين من الحرب على العراق بعد العراقيين.

- عندما أشاهد الجنود الأميركيين في شوارع بغداد أتذكّر كيف كان يجتاحنا الرعب حين نمّر بمحاذاة مؤسسة أمنية. ترتعد الفرائص لو ضلّ أحدنا الطريق فوجد نفسه أمام حارس يخاطبه بجلافة: «اش جاي تساوي هانا أبويا؟ خاف تفكرنا مهايل! ما تُعرف إنّه أكو مؤسسة أمنية؟ ولا جاي تتجسس علينا؟». كيف تبخّرت هذه العنصرية فجأة؟ كيف استسلمت بغداد دون قتال؟ شيء لم نقرأ مثله في كتب التاريخ.

طغيان الحكّام يُميت الهمم في أنفُس شعوبهم، ويفضي إلى التطرّف.

غفا الأطفال على الحلم بتساقط الثلج، واستيقظوا على الحلة البيضاء. تقافزوا بألبستهم الزاهية كحملان الربيع. أُسر بكاملها نزلت إلى الشارع، انزويت بجوار الشباك فرحاً لفرح الناس، استغل الشبان والصبايا مهرجان الفرحة. نظرات خجولة، وابتسامات بريئة. تفريغ لطاقة الحب بتبادل القذف بكرات الثلج. يوم فرح لم تشهده البلاد منذ زمن.

في الصباح التالي بدا الطقس بارداً، والسماء صافية. توقف سقوط الثلج، وما زال الأطفال في أسرّتهم. سكون يكاد أن يكون شاملاً، سفوح تختلط فيها خضرة الربيع ببياض الثلج، عصافير تصفّق فوق أعمدة الكهرباء وعلى أسلاك التلفون، وخريبر جداول. الزرع جُزّر متناثرة وسط سطوة الثلج، والأشجار تتمايل مزهوة بجداول أغصانها المنسابة مع الثلج. هبط الأطفال إلى الوادي كقطيع في مرعى. رجل كبير السن يفرح أطفالاً ببناء كوخ.

لفتني وأنا أتأمل المشهد نوعان من الزرع؛ الأول بمحاذاة مجرى الماء حيث التربة غنية، والماء وافر، هنا تراحم الزرع أعشاب برية حتى تكاد أن تقضي عليه. تماماً كما يتراحم الانتهازيون على الغنائم. أمّا على السفح حيث التربة فقيرة والماء شحيح، هنا تكاد تكون الأعشاب البرية غائبة تماماً كما يغيب الوصوليون عن كل معركة جادة. مثلما يسارع الفلاح لاقتلاع الأعشاب الضارة قبل استفحالها، يجدر بالشوّار أن يظلّوا يقظين، وإلا سُرقت الثورة.

طبيعة تعرض فتنتها، ويغذّي تدفق ماء الشلال الآذان بالنغم. بدا كأنّ الثلج أقام احتفالاً للحب. قط أسود يموء، تحرق روحه لهفة لالتقاط إشارة أنثوية يدفئ بوصل صاحبته قلبه، وعصافير الدوري ترفرف عالياً. مع رحيل الثلج في اليوم التالي دخل الحزن إلى قلبي؛ أن أوان رحيلي أيضاً. ليلتان وأنا وزوجتي نستيقظ فجراً. نراقب الوضع لتحديد ساعة المغادرة، متى تطفأ أنوار الشارع؟ متى يذهب جارنا الطيب أبو

أحمد لصلاة الفجر؟ متى يعود؟ أفضل وقت للمغادرة بين الساعة الخامسة والرابع والخامسة والدقيقة الثلاثين. عند الخامسة رنّ جرس ساعة المنبه فنهضت وغادرت.

في الخامس عشر من شباط/ فبراير 2003، حاصر جيش الاحتلال بناية مجاورة لمعهد معلمي الوكالة، ونُصبت حواجز طيارة في أنحاء مختلفة من المدينة، مداهمات واعتقالات. برد شديد، ومطر غزير. رنّ هاتفي الجوال، قال ابني سيف: «رشدت نفسي لانتخابات مجلس الطلبة في المدرسة. أنا أعرف أن أبو عمّار كان رئيساً لاتحاد طلبة فلسطين، وأنّ مروان البرغوثي كان رئيساً لمجلس طلبة جامعة بيرزيت».

قال الدكتور جمال في اتصال هاتفي ونحن نعرض بؤس الحالة العربية: «أكاد أصاب بالجنون. مروان البرغوثي معتقل! حمدين صباحي ورفاقه تكاد تضيق بهم الأرض! أنت مطلوب! جميع أصدقائي في البلدان العربية إمّا معتقلون أو مطلوبون! كل من له مستقبل ليصبح قائداً خارج دائرة الفعل! عندما أتصل بمنزل أحد أصدقائي للاطمئنان عليه، يردّ ابنه أو ابنته ممّن أصبحوا في السنّ الذي كان فيه يوم كنّا طلبة في الجامعة. في حينه لم تكن شواربنا نبتت بعد، كنّا مغمورين بأحلام كبيرة. ها نحن اليوم وقد خط الشيب رؤوسنا ما زلنا نقبع في الأوضاع السيئة ذاتها. تكاد أن تكون أيام أبنائنا أسوأ من أيام فتوتنا. أخشى أن يتسبّب القهر بالتطرف. أودّ لو أكتب رواية عن هذه الفظاعة».

أضاف: «أخرج الجيش الإسرائيلي قوات الثورة من لبنان في غزو عام 1982، ونصّب بشير الجميل<sup>(207)</sup> رئيساً، ثمّ فرض لاحقاً اتفاق 17 أيار/ مايو 1983 على الحكومة اللبنانية. ماذا كانت النتيجة؟ مقتل الجميل، وسقوط الاتفاق، ثمّ ولادة حركة المقاومة اللبنانية. وفي فلسطين اندلعت الانتفاضة الأولى، وولدت حركتا حماس والجهاد الإسلامي، وبعد اتفاق أوسلو ولدت انتفاضة الأقصى، وكتائب شهداء الأقصى. استطاعت قوات الغزو الدولي احتلال العراق، لكنّ الشعب العراقي لن يستكين. الحرب على العراق إسرائيلية بامتياز. تريد إسرائيل تدمير القدرة العراقية. دونالد رامسفيلد<sup>(208)</sup> (Donald Rumsfeld) وديك تشيني<sup>(209)</sup> (Dick Cheney) ينفّذان السياسة الأميركية بحسب معتقداتهم الدينية».

دقّ جرس هاتف منزل من أنا بطرفهم، فركضت الطفلة سناء ذات الخمسة أعوام ورفعت الساعة:

- مش هون، أنا لحالي.

..... -

- قلت لك أنا لحالي، لحالي.

..... -

- لا، مفيش حدا.

..... -

- أهلي مش في البيت، الباب مسكّر بالمفتاح.

تصدّت الطفلة ببسالة لسيّل الأسئلة الفضولية. أنهت المكالمة، وركضت صوبي فخورة: «سألتي عمّي عن أمي. قالت: 'عندك حدا؟'، قلت: 'أنا لحالي'». أضافت ببراءة يغمرها فرح المنتصر: «لو قلت لها إنك عندنا، يمكن تحكي ويعرف الجيش». كانت سناء تجلس على الدرج حين تعود من الروضة. ربما تحتاج إلى الحّمّام، ربما أنّها جائعة، أو عطشى. تعرف أنّي في الداخل، لكنّها لا تطرق الباب أبداً. تبصر، تنتظر قدوم أهلها ليفتحوا.

نالت حكومة محمود عباس<sup>(210)</sup> ثقة المجلس التشريعي، ففتاءل الناس بقرب انفراج الوضع، وبانسحاب جيش الاحتلال من مدن الضفة الغربية. تخيّلت أن رحلتي بلغت خاتمتها. انتشرت الشائعات واتسع نطاقها. دفعني الفضول للاتصال بصديق في السلطة فقال: «سينسحب الجيش من رام الله بعد ثلاثة أيام، معلومة أكيدة». لم ينسحبوا بعد أشهر.

عند الساعة السادسة صباحاً عبرت حافلتان الشارع المحاذي للبيت الذي أتحفّي فيه، إلى أين هؤلاء ذاهبون في هذه الساعة المبكرة؟ منذ أكثر من عامين انقطع الناس عن الرحلات. انقبض قلبي وقد لمحت سيارة للصليب الأحمر ترافق الحافلات. إنهم أهالي أسرى في طريقهم لزيارة أبنائهم في سجون الاحتلال.

في الأول من حزيران/ يونيو عام 2003 فرض جيش الاحتلال منع التجوّل على مدينة رام الله. تبدّدت آمالي بالخروج من رحلة التخفّي، وزادني إخفاق توقعاتي ضجرًا ومللاً. وفي السادس عشر من تموز/ يوليو فجعني نبأ وفاة صديقي عطا. واحسرتاه! لن أتمكّن من المشاركة في تشييعه. بكى عطا قبل أسبوع من وفاته حين تحدّثت معه بالهاتف. حاولت رفع معنوياته، لكنّ مرضه كان أقوى من أن يجعل حديثي يبعث فيه فرحاً. قال قبل أن أنهى معه المكالمة: «أخشى ألاّ ذلّنتقي ثانية». أنهت المكالمة وغرقت في البكاء.

منذ اندلاعها، وضعت انتفاضة الأقصى دولة الاحتلال في واقع يومي اختلّت فيه الحياة الطبيعية للإسرائيليين، أصبح مجرد الخروج للعمل أو التنقل في الشوارع أو ركوب الحافلة مخاطرة لا تُحمد عقباها.

مع استمرار العمليات العسكرية الفلسطينية، احتاجت إسرائيل لوسائل إضافية لإرغام عرفات على توقيع اتفاق جديد، وفي سبيل ذلك بذلت جهداً مع مصر ومع الاتحاد الأوروبي. أوكل أبو عمار لأحمد غنيم مهمة مواصلة التنسيق مع مندوب الاتحاد الأوروبي المكلف بالقوة الأوروبية الأمنية في الأراضي المحتلة وهو البريطاني أليستر كروك. نقل كروك لأحمد رسالة عبر الأميركي مارك بيري جاء فيها أنّه بما يمثّله يضمن استجابة إسرائيل للتهديّة. ردّ أحمد مطالباً بهدنة متبادلة تتضمن وقف العدوان والاعتقالات، والإفراج عن المعتقلين، وموافقة إسرائيل على الانسحاب من الأراضي المحتلة بحدود الرابع من حزيران/ يونيو 1967 بما فيها القدس، والاعتراف بحق العودة للشعب الفلسطيني وفق القرار<sup>(211)</sup> 194.

أجاب كروك: «أنا لست بصدد التفاوض على أمور سياسية». في وقت لاحق، كلّف أبو عمار أحمد بالسفر إلى القاهرة للمشاركة في جولة الحوار الوطني الفلسطيني. قال أبو عمار لأحمد في آخر توجّيه له: «أنا

أراهن على فطنتك وذكاؤك». فهم أحمد الرسالة، هذه تعليمات تقضي برفض أي هدنة لا تستجيب للمطالب الفلسطينية. قال أحمد لأبو عمار: «كيف أصل إلى القاهرة وأنا مطارّد». ردّ الرئيس: «الاجتماع برعاية مصرية وأوروبية، وسيستغرق كروك على الجسر». صباح اليوم التالي كان أحمد على الجسر لكنّ كروك لم يحضر. اعتقلت سلطات الاحتلال أحمد لساعات، ثمّ أفرجت عنه بفضل تدخل الأوروبيين والمصريين، وفي اليوم التالي كان في القاهرة.

ظلّ أحمد يوافيني بما يجري في اجتماعات القاهرة أولاً بأول، وأتاح لي أحياناً التحدّث مع مسؤولين مصريين. أردنا أن تطلّ هيبة الانتفاضة حاضرة على الطاولة وكذلك الميدان. ذات مرة اتصلت بأحمد وتصادف أن كان في اجتماع، استأذن للردّ عليّ، ولما انتهت المكالمة نسي أن يقفل هاتفه. ربع ساعة وأنا أستمع إلى المجتمعين كأنني بينهم، أمر مثير لمطارّد يقبع في مخبأ. لم تحقق جولة الحوار أهداف الإسرائيليين في الضغط على الفصائل للموافقة على هدنة من طرف واحد دون ضمانات سياسية، أمّا أحمد فتحرّر من قيود المطاردة.

عند الساعة السادسة والدقيقة الخامسة عشر مساء الثاني من تشرين الأول/ أكتوبر 2003 رنّ هاتفي الجوال: «سألوني في التحقيق عن الدكتور جمال الخطيب». هذا ما قاله لي مروان البرغوثي باقتضاب. ارتبكت، كاد الدمع يفرّ من عينيّ، وانفتح خيالي على أعلى سرعته. تخيلت رفيقي متكئاً على مرفقيه، يهمس من تحت بطانية مهترئة في زنارته المعتمة. تزاхت الصور في رأسي. بأي روح أتحدّث؟ من أي بئر أنتشل الكلمات، من عمق ألمي على وقوع مروان في الأسر، أم من فرحي بسماع صوته؟ من قسوة حالتنا الراهنة، أم من شرفة أحلامنا العالية؟

للمت بعض كلمات سريعة مرتبكة: «حين جلجل صوتك في قاعة المحكمة، تخيلتلك تخطب على دوار المنارة، كنت يا مروان كما عهدناك وقد رفعت يديك المكبلتان بالحديد وصرخت: 'الانتفاضة ستنتصر'». انقطع الاتصال فجأة! في اليوم التالي هتف مروان في قاعة المحكمة: «الانتفاضة ستنتصر». ثلاثة أسابيع بعد ذلك ورنّ هاتفي الجوال مجدداً: «تطوّع محام يهودي متدين للدفاع عنيّ. سأجعل محاكمتي محاكمة للاحتلال». أضاف مروان: «حافظوا على جبهة المقاومة، ولتبق قضية الأسرى على رأس أولوياتكم».

## طيّ صفحة التخفيّ

في أعوامها الأخيرة، كادت فعاليات الانتفاضة أن تقتصر على الجانب العسكري. وقد تسبب الخلط بين مفهوم «العسكرة» و«المقاومة»، أكان بوعي أم من دون وعي، بإلحاق أكبر الضرر بنضال الشعب الفلسطيني، فقد أدّى ذلك إلى وضع المقاومة في موضع الاتهام بدلاً من التركيز على الاحتلال والعدوان. وبعد اعتقال مروان البرغوثي، بدا أنّه من شبه المستحيل إعادة ترميم اللجنة الحركية العليا، فاقترعت حيويتها على دفعات الأكسجين المعنوية التي يبثها قائدها من سجنه في رثيها المنهكتين.

كنت متخفياً لكنني غامرت بالخروج لأرى الأثر الذي تركته مشاركة «حماس» في الانتفاضة على واقعها.

تنكّرت بكوفية وعباءة، وكنت بلا شوارب وتصرّفت بحذر. حين وصلت إلى وسط مدينة رام الله، كانت ساحة المنارة تعج بالحضور وبرايات «حماس»، مشهد لم يكن للحركة أن تفرح بمثله لولا مشاركتها الفاعلة في الانتفاضة. قبل ذلك اعتادت أجهزة الأمن الفلسطينية أن تفرض على «حماس» أن تحتفل بمناسباتها في قاعات مغلقة، لكنّ الأمر اختلف عام 2003، في هذا العام استطاعت الحركة أن تحتفل بانطلاقتها على دوار المنارة. ربما لا أبالغ لو قلت إنّ الاحتفال كان بمنزلة انطلاقة جديدة لـ«حماس»، كما حصل مع «فتح» بعد الانتصار الذي تحقّق في معركة الكرامة<sup>(212)</sup> عام 1968، ومثلما ارتقت «فتح» لتقود منظمة التحرير الفلسطينية في حينه، ستفرض «حماس» وزنها ضمن المعادلة الفلسطينية.

عام 2005 قرّر رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون الانسحاب من قطاع غزة من طرف واحد. اكتنف موقفه الغموض لناحية التوقيت والآليات، ظلّ يماطل ويناور. لخصّ مدير مكتبه دوف فايسغلاس الموقف في مقابلة أجرتها معه صحيفة هآرتس: «شارون لم يعتقد أبداً بضرورة التوجّه للتسوية الدائمة. بعد دخولنا الوزارة ظلّ يعتقد أنّ بإمكاننا التوصل إلى تسوية انتقالية ذات مدى بعيد. من هنا جاءت رؤيته بضرورة تصفية الإرهاب أولاً، الإصرار على تجفيف مستنقعه قبل البدء بالعملية السياسية. عبّرت خطبة بوش في حزيران/ يونيو 2002 عن هذه الرؤيا بالضبط. لهذا قبل شارون مضمون الخطبة. اعتبره إنجازاً سياسياً من الدرجة الأولى، أول مرة يقبل بمبدأ ترك المسدسات خارج غرفة المفاوضات قبل الدخول إليها. في خريف عام 2003 أدرك أنّ كل شيء وصل إلى طريق مسدود، أنّ هذا لن يصمد، على الرغم من إلقاء الأميركيين باللائمة على الفلسطينيين. لن يتركونا في حالنا، الوقت لا يصبّ في مصلحتنا. هناك تأكل دولي وداخلي. كل شيء ينهار في البلاد، الاقتصاد في وضع صعب، وهناك مبادرة جنيف<sup>(213)</sup> ذات التأييد الواسع، وعريضة الطيارين. كاد الخوف من أن يؤدي وصول مبادرة بوش إلى طريق مسدود إلى دمارها، فيأتي العالم ويقول: 'أردتم صيغة بوش وحصلتم عليها، أردتم تجربة أبو مازن لكنّ ذلك لم ينجح'. عندما لا تنجح الصيغة لا يقومون بتغيير الواقع إنّما الصيغة ذاتها.

خشي شارون أن يُقضى على مبدأ القضاء على الإرهاب قبل العملية السياسية، عندها ستكون النتيجة دولة فلسطينية مع الإرهاب خلال مدى قصير جداً. فك الارتباط هو السور الذي يحمي صيغة بوش. هذا يوفّر لإسرائيل وضعاً انتقاليّاً مريحاً يبعدها قدر المستطاع عن الضغط السياسي، ويمنح الشرعية لعدم تفاوضنا مع الفلسطينيين. هذا القرار ينقل المبادرة إلى أيدينا، ويدخل الفلسطينيون تحت ضغط يحشرهم في زاوية يكرهون الوجود فيها. أول مرة تكون لهم أرض ذات تواصل، يمكنهم أن يصلوا ويحولوا في براريهم. أمّا الانسحاب من الضفة الغربية فرمزي. هكذا قذفنا ما وعد به الفلسطينيون في التسوية وراء جبال الزمن، نجحنا في إزالة العملية السلمية عن جدول الأعمال. قلنا للعالم لا يوجد من تفاوض معه، وحصلنا على شهادة بذلك. هذه الشهادة ستُلغى عندما تكون فلسطين فنلندا. كان شارون صادقاً في الانسحاب من القطاع، مصمم وحسم أمره».

بالتوازي مع ذلك قرّر شارون الانسحاب أيضاً من أربع مستعمرات إسرائيلية في منطقة جنين. كان

موضوع المطلوبين في جنين معضلة الانسحاب الأخير. ربما رأت إسرائيل أن مصلحتها تكمن في إصدار عفو عن المطلوبين، فقرّرت وقف ملاحقة من سمّتهم «ليس على يدهم دم إسرائيلي»، شرط أن يسلموا أسلحتهم للسلطة الفلسطينية ويلتحقوا بصفوف الأمن الوطني الفلسطيني. أنا ليس لديّ سلاح وما زلت موظفًا مدنيًا. قرّرت السلطة الوطنية الفلسطينية تأليف لجنة برئاسة محمد دحلان لتسلم المستعمرات التي ستُخلى من منطقة جنين، وفوجئت بتعييني عضوًا في تلك اللجنة للإشراف على الفعاليات الشعبية المواكبة لعملية الانسحاب. هذه فرصتي لطّي صفحة التخفي.

قرّرت أن يكون أول ظهور علني لي في مكتب الصديق بشير نافع، مسؤول جهاز الوحدات الخاصة الفلسطيني، ومن هناك انطلقت لتأدية مهمتي حريصًا على أداء دوري بما يبعث الأمل في أنفس المناضلين الذين لولا تضحياتهم لما كان لهذا الانسحاب أن يتحقق. أمضيت شهرًا كاملاً في منطقة جنين، نمت خلاله في اثنتين وعشرين قرية، وعقدت سلسلة اجتماعات وطنية وشعبية ومؤسسية، بينها اجتماع عُقد في مقرّ إقليم «فتح» في جنين بحضور فدوى البرغوثي زوجة مروان، وفي نطاق هذه الفعاليات اقترحت على رئيس الوزراء الفلسطيني أحمد قريع عقد اجتماع لمجلس الوزراء في مدينة جنين. وافق على ذلك، فرافقته في اجتماع مع محافظ المدينة ووجهائها، ومع قيادة الأمن الوطني وتنظيم «فتح».

عبر قصص البطولة وحكايات الألم التي سمعتها من أفواه الأمهات والزوجات المكلمات، ومن خلال جولاتي في أزقة مخيم جنين، برفقة عطا أبو رميلة أمين سرّ حركة «فتح» في جنين ورفاقه، أدركت عظم التضحيات. قصص تحتاج إلى كتب ومؤلفات. لقد استحق مخيم جنين بجداره أن يكون تاج فخر مقاومة الفلسطينيين. معركة مخيم جنين ماثرة صنعها الشهداء؛ أبو جندل، محمود طوالة، أجد الفاخوري، نضال النوباني، زياد العامر، محمد النورسي، ومحمود أبو حلوة، ورفاقهم في قافلة الشهداء المهيبة. ومعهم شبّان المخيم الذين أُعتقل أغلبيتهم، وفي مقدمتهم جمال حويل، جمال أبو الهيجا، علي الصفوري، وعبد الكريم عويس. كما كان لصمود العائلات أثره البالغ على مجريات المعركة. ملحمة رسخت عميقاً مفهوم الاتحاد والسلاح المقاوم وقيمة الحاضنة الشعبية، وفضحت سلاح «طخيخة الأعراس» الذي تحوّل إلى سلاح قُطّاع طرق بعدما خبت نار الانتفاضة والمقاومة، فاستخدم لابتزاز الناس في ممتلكاتهم وأعراضهم.

ما الأسباب التي جعلت مخيم جنين معقلاً للمقاومة؟ لماذا أقام الشيخ عز الدين القسام<sup>(214)</sup> قاعدته العسكرية في بلدة يعبد بالقرب من جنين؟ لماذا كان أول ظهور لـ«الفهد الأسود» في الانتفاضة الأولى في منطقة جنين؟ لم يكن ذلك كله مصادفة، كان له أسبابه العائدة إلى ميراث عريق، فمرج ابن عامر<sup>(215)</sup> هو المنطقة السهلية الوحيدة التي تربط البحر المتوسط بالعمق العربي الممتد عبر سهل حوران إلى العراق وعمق الجزيرة العربية، ما جعل المرج معبراً للجيوش الغازية الآتية من البحر أو المحرّرة الآتية من الشرق. لقد انعكست حركة الجيوش روحاً حربية على السكان.

كما أنّ منطقة جنين هي منطقة الإقطاع شبه الوحيدة في فلسطين، ما جعل سكانها قابليين للتمرد. وفي التاريخ أجبر نابليون (Napoleon Bonaparte) على وقف زحفه عند قلعة صانور جنوب شرق جنين. والمنطقة

تحدّ موقعيّ معركتيّ اليرموك<sup>(216)</sup> وعين جالوت<sup>(217)</sup> التاريخيتين بما توحياه من ذكريات انتصارات في الوعي والمخيّلة. وفي منطقة جنين ألحق الجيش العراقي هزيمة نكراء بالعصابات الصهيونية عام 1948، حيث يعود له الفضل في تحرير أكثر من نصف قرى المنطقة، تشهد على ذلك مقبرة شهدائه الواقعة على مثلث الشهداء بالقرب من بلدة قباطية<sup>(218)</sup>. بناءً عليه لم تكن معركة مخيم جنين استثناء، لقد كانت في السياق الطبيعي، فعبق التاريخ وقوة الجغرافيا، وأثرهما على طبيعة قاطني المنطقة، ظلّت تبثّ عزيمة في الأنفس.

في إحدى زياراتي لقرية العصاعصة المجاورة لمستعمرة ترّسليّ جنوب مدينة جنين، حدّثني سكان القرية عن معاناتهم مع مستوطني المستعمرة، وكيف أنّ هؤلاء لم يكتفوا بسرقة الأرض، بل منعوا أصحاب الأراضي المجاورة من حراثة حقولهم وجني محاصيلهم، بل حرموهم حتى من دفن موتاهم في مقبرة القرية، فاضطروا إلى دفنهم في مقبرة قرية الفندقومية<sup>(219)</sup> المجاورة. فرح غامر تلاًّأت فيه البهجة في عيون أهالي القرية، وقد بدأ جيش الاحتلال بهدم البنية التحتية للمستعمرة وبترحيل المستوطنين. بدا مشهد الحافلات التي تقلّهم إلى غير رجعة كعرس، أمر لا يدرك قيمته سوى من اكتووا بأذى المستوطنين.

ها هو الجيش الذي اعتاد حماية المستوطنين ودعم استيلائهم على الأراضي بالقوة، يفكك المستعمرة ويحلي مستوطنيها. لحظات استثنائية شملت فيها رائحة الانتصار وتحلّلت المستقبل. صحيح أنّ انكفاء المستوطنين عن أربع مستعمرات في جنين لا يساوي شيئاً قياساً باحتلال وطن بكامله، لكنّها بشرى نصر ومؤشر على المستقبل. بلغت تراجيديا الفرح ذروتها حين انطفأت كشافات المستعمرة اللعينة فجأة! عمّ الظلام، فصاح عاطف منفعلًا كأنّه لا يصدّق عينيه: «أين كانت المستعمرة؟!». لحظة استثنائية فاضت فيها دموع الفرح ولعلعت الزغاريد.

وسط نشوة الأهالي العارمة اتصل بي مسؤول كبير في السلطة: «استمعت قبل قليل إلى تصريحائك المبتهجة لتلفزيون ألماني، علينا ألاّ نبالغ بالاحتفال، فحتى غزة التي انسحبت منها قوات الاحتلال بشكل كامل لم تتحرّر، فكيف بالنسبة لجنين! أخشى أن تخدم احتفالاتنا سياسة شارون في مسرحيته لتفكيك المستوطنات الأربعة في جنين».

قلت مستغربًا: «الفرح هنا ليس مفتعلًا يا صديقي، إنّهُ فرح البسطاء التلقائي، لا يمكن انتزاع المشاعر من قلوب أصحابها بقرار خارجي. الاحتلال الذي عوّد الناس على زرع المستعمرات عبر أربعة عقود مضت، يقوم بتفكيكها مرغمًا بغض النظر عن تفسيره للموقف. ها هو شارون الذي ظلّ يقود مشروع الاستيطان، يفكك مستعمراته. كيف سيتطلّع في عيون من ظلّ يخاطبهم وهو يجرّضهم على المزيد من الاستيطان: 'نتساريم عندي مثل تل أبيب'؟ ها قد اضطر الجنرال المخضرم إلى تفكيك نتساريم وأكثر، فلنغتبط نحن الفلسطينيين ولنملاً قلوبنا فرحًا، انظر ما كتبه الصحافي الإسرائيلي ألوف بن بعنوان 'انتصر الفلسطينيون وهُزم الاستيطان'».

ردّ صديقي منفعلًا: «لكنّه انسحاب من طرف واحد!». أجبته مستفزًا: «وهل كان احتلال بلادنا باتفاق



معنا حتى يأتي الانسحاب باتفاق؟!». علّق وزير الدفاع الإسرائيلي موفاز على الفرع الفلسطيني قائلاً: «أودّ أن أقول للفلسطينيين لا تتعجلوا كثيرًا بالاحتفال، قرارنا هو خلق واقع أمني وسياسي أفضل». الجنرال موفاز يعلم علم اليقين أنّ ما يقوله تبرير لقرار ربما لا يقلّ مرارة عمّا تجرّعته إسرائيل يوم انسحب جيشها من جنوب لبنان من طرف واحد أيضًا عام 2000.

فور خروجي من دائرة التخفيّ، بادرت لبناء إطار يضم أمناء سرّ أقاليم «فتح» في الضفة الغربية، محاولاً ردم ما يمكن من حفرة الفراغ التي خلفها اعتقال مروان. وعلى مدى ستة أشهر، واطبت على عقد اجتماعات مكثفة للإطار الوليد، وعقدت سلسلة اجتماعات للإطار مع أغلبية القادة الفتحاويين، بمن فيهم الرئيس أبو مازن، ومفوض التعبئة والتنظيم هاني الحسن. مع الأسف، أحبطت التجربة لأسباب بعضها من داخل الإطار نفسه، وكان للأجواء التي رافقت انحسار قوة الانتفاضة أثرها.

تراجعت، عدت إلى موقعي كأمين سرّ لإقليم «فتح» في رام الله والبيرة. رويداً رويداً، ومع مرور الوقت، تراكم لديّ شعور بأنّ الموقع آخذ في استنزاف سمعتي، وأنّه يستهلك عناصر قوتي التي راكمتها خطوة خطوة عبر أعوام نضالي الطويلة، فقد بدت عاجزاً في نظر نفسي وعند من راهنوا عليّ لأشكّل رافعة تكمل مسيرة اللجنة الحركية العليا. قدّمت استقالتي للجنة الإقليم ونشرت ذلك في الصحف المحلية. ثمّ اتجهت صوب المقاومة الشعبية التي ازدهرت في تلك الآونة.

تألّف إطار أمناء سرّ الأقاليم في الضفة الغربية من: زياد الرجوب أمين سرّ إقليم جنوب الخليل، ذياب الشرباتي أمين سرّ إقليم وسط الخليل، محمد حسن جبارين أمين سرّ إقليم شمال الخليل، فؤاد كوكلي أمين سرّ إقليم بيت لحم، صلاح زحكة أمين سرّ إقليم القدس، صائب نظيف أمين سرّ إقليم أريحا، أبو علاء منصور أمين سرّ إقليم رام الله والبيرة، عصام أبو بكر أمين سرّ إقليم نابلس، بلال عززين أمين سرّ إقليم سلفيت، جمال دراغمة أمين سرّ إقليم طوباس، فائق كنعان أمين سرّ إقليم طولكرم، أحمد هزاع شريم أمين سرّ إقليم قلقيلية، وعطا أبو رميلة أمين سرّ إقليم جنين، وجميعهم أعضاء في اللجنة الحركية العليا ومحسوبين على خط مروان البرغوثي.

في غضون أربعة أشهر عقد الإطار ثلاثة عشر اجتماعاً داخلياً، وأخرى مثلها مع أعضاء في اللجنة المركزية، وقادة الأجهزة الأمنية، ووزراء في السلطة، بالإضافة لاجتماعين مع الأخت فدوى البرغوثي. في الاجتماع الأول طلبنا إليها إبلاغ مروان في السجن بمبادرتنا لتأليف الإطار، وفي الثاني ردّ مروان بمباركة المبادرة. وعقد الإطار اجتماعاً مع الوفد الأمني المصري المكلف بموضوع المصالحة الفلسطينية والذي ترأّسه اللواء مصطفى البحيري، وحضره اللواء محمد إبراهيم، وياسر الغزاوي مستشار مكتب التمثيل المصري في رام الله.

مع الأسف لم تُكلّل فكرة بناء الإطار بالنجاح، فالعقبات التي واجهت تجربة مروان في اللجنة الحركية العليا ما زالت قائمة، مضافاً إليها غيابه نفسه عن الساحة، ثمّ ما أصاب الانتفاضة من وهن. لقد تنبّهت مبكراً لعدم الوقوع في مأزق ما آل إليه وضع اللجنة الحركية العليا، فانسحبت حزناً. تعليقاً على اضطرارنا

إلى التخلي عن فكرة الإطار، قال أحد أمناء السرّ: «كان مروان البرغوثي وهو يصارع لتثبيت الحالة التنظيمية، مثل سمكة تونا، يسبح في بحر متلاطم الأمواج بين أفكاك الحيتان وأسماك القرش، ولن تكون حال إطارنا أقلّ قسوة». كان تأليف الإطار محاولة للنهوض بالتنظيم، لكنّ عجلته توقفت عن الدوران بعد أقلّ من ستة أشهر.

## من خلف جدر العتمة

صباح السادس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر عام 2016، بعد مرور ستة عشر عامًا على اندلاع انتفاضة الأقصى، وجدت على شاشة هاتفي النقال مكالمتين واردتين من الهاتف ذاته لم يُردّ عليهما. «ربما أن المتصل شخص تعرّفت إليه في مناسبة عامة ثمّ نسيتَه!». هذا ما همست به لنفسي متكاسلاً عن إعادة الاتصال، وكى أتخلّص من حرج النسيان الذي تتسبب به ذاكرتي في الفترة الأخيرة أضفت: «إن كان الأمر مهمًا سيعاود المعني الاتصال». مساء اليوم التالي انقطع رنين هاتفي قبل أن أتمكّن من الوصول إليه. رقم الأمس ذاته. اتصلت. الهاتف مشغول! لحظات ورنّ هاتفي: «أنا ماجد المصري، هل نسيّني يا أبو علاء؟! أنا بزبز أتحدّث إليك من سجن نفحة<sup>(220)</sup>».

مش معقول! بزبز! الكابتن ماجد! اضطربت فرحًا وحزنًا. أبدًا لم يخطر ببالي أنّه المناضل ماجد المصري المعتقل منذ عام 2002.

- أهلاً، أهلاً برائحة البطولة وبعقب الانتفاضة، أنت ورفاقك أسماء محفورة في وجدان الناس. لا يمكن أن ينساكم من عرفكم، لقد أعادني سماع صوتك إلى أيام انتفاضة الأقصى.

- هل تعرف من يجلس قبالي؟

- ربما أنّه محمد أبو سطحة.

- لا، أحمد الفرنسي وناصر عويس.

- سقا الله أيام مجدكم.

فرحت بالحديث، لكنّ مرارة الواقع قهرتني وأنا أتخيّل الفدائيين يلتحفون بطانياتهم في عتمة سجن نفحة الصحراوي، وسط هذا الطقس الزمهريري. ساعة ونحن نعيم في بحر ذكريات جميلة، ظلّ مروان البرغوثي حاضراً على الألسنة ونحن نتحدّث عن تلك الأيام المليئة بالأمل.

حين التقيت ناصر وماغد في الأردن أيام الانتفاضة الأولى، كانا فتيين يافعين مبعدين من الأرض المحتلة، احتضنهما مروان الذي سبقهما في الإبعاد. أعوام وعاد البطلان إلى الوطن بموجب اتفاق أوسلو. اعتُقلا في عدوان «السور الواقى»، وصدر عليهما حكم بالمؤبد. كذا الأمر بالنسبة لأحمد الفرنسي الذي تعرّفت إليه بعد عودتي إلى الوطن، كان في أوائل العشرين من عمره، رفيقاً لمروان البرغوثي كظله، كتلة حيوية ملتهبة بالنشاط والحلم.

ثلاثة أيام على هذه المكالمة وكنت وابني سيف في بيت أسرة ماجد الواقع في حيّ «نابلس الجديدة»، برفقة الصديق تيسير نصر الله. قالت حنان الابنة الكبرى لماجد، وهي طالبة هندسة ديكور في السنة الثانية بجامعة النجاح: «نحن لم نعرف والدنا سوى عبر زيارتنا القليلة للسجن، لم أكن تجاوزت الرابعة من عمري حين اعتُقل والدي. وفي هذا العمر المبكر لا تحتفظ الذاكرة الطرية بما يكفي من الذكريات». قالت شقيقتها الصغرى حلا التي تدرس الأحياء في الجامعة ذاتها: «نحن فخورتان بأبينا الذي أُعتقل أول مرة وهو في الرابعة عشر من عمره. في ذلك الاعتقال أمضى أربعة أعوام في السجن، ثم طارده قوات الاحتلال واعتُقل مجددًا وأبعد إلى الأردن».

قالت والدتها زينب: «حين اعتُقل ماجد كنت في الرابعة والعشرين من عمري، وكان في حضني طفلتان. حمل ثقيل ومسؤولية تحتاج لظهر قوي. قبل اعتقاله كان مطارّدًا لقوات الاحتلال مدة عامين، وكان مرّ أكثر من ستة أشهر على آخر مرة التقيته فيها، وها قد مضى على اعتقاله ما يقرب من خمسة عشر عامًا، ومنذ ستة أشهر وأنا ممنوعة من زيارته بذرائع أمنية. لا يعلم غير الله ما تعانيه زوجة الأسير، ربما لا أبلغ لو قلت إنّ معاناتها لا تقلّ عن معاناة الأسير نفسه إن لم تكن أشد قسوة».

(135). روائي وقاص برازيلي.

(136). انطلقت هبة النفق بسبب إقدام السلطات الإسرائيلية على فتح نفق أسفل المسجد الأقصى عام 1996.

(137). فيصل عبد القادر الحسيني (1940-2001). مؤسس جمعية الدراسات العربية في القدس، ومسؤول ملف القدس في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وعضو اللجنة المركزية لحركة «فتح».

(138). حكم بلعوي (1934 -). عُيّن سفيراً فلسطين لدى تونس، ووزيراً للداخلية في السلطة الفلسطينية، وأصبح عضواً للجنة المركزية لحركة «فتح» عام 1989.

(139). بلدة فلسطينية تقع شمال مدينة القدس.

(140). مخيم للاجئين الفلسطينيين، أُقيم جنوب مدينة رام الله عام 1949.

(141). أحد أحياء مدينة البيرة.

(142). صناديق النفایات.

(143). الزجاجات الحارقة.

(144). مفردتها مقلاع، وهو أداة تُصنع يدوياً من المطاط والخشب على الأغلب، وتُستخدم لقذف الحجارة.

(145). إيهود باراك (1942 -). رئيس هيئة أركان جيش الاحتلال بين عامي 1991 و1995، وشغل عدداً من المناصب الوزارية منها وزير الداخلية عام 1995، ووزير الخارجية بين عامي 1995 و1996، ورئيس الوزراء وزير الدفاع بين عامي 1999 و2001، ونائب رئيس الوزراء وزير الدفاع بين عامي 2007 و2013.

(146). أحد الأجنحة العسكرية التابعة لحركة «فتح». أُسست عام 2000، ثم انبثق منها عدد من الوحدات منها «كتائب الشهيد ثابت»، و«كتائب الشهيد رائد الكرمي»، و«كتائب العودة»، و«كتائب الشهيد مروان زلوم».

(147). أحد مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. أُقيم غرب مدينة جنين عام 1953.

(148). الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية «حماس». أُعلن عن تأسيسها عام 1992.

(149). نفّذها الشهيد سعيد الحوتري بتاريخ 1/6/2001 ليكون الاستشهادي العاشر في ما عُرف وقتها بـ«العهد العشري» التي أعلنت عنها كتائب القسام.

(150). مباحثات دامت لمدة أسبوعين على مستوى القمة بين الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني، برعاية

أميركية، في منتجع كمب دايفيد في 11 تموز/ يوليو 2000، وقد فشلت في التوصل إلى أي اتفاق.

(151). ميغيل أنخل موراتينوس (1951 -). سياسي إسباني. أحد المشاركين في تنظيم مؤتمر السلام في مدريد عام 1992، والمندوب الخاص للاتحاد الأوروبي لعملية السلام في الشرق الأوسط بين عامي 1996 و2003. شغل منصب وزير الخارجية الإسبانية بين عامي 2004 و2010.

(152). بلدة فلسطينية تقع شمال محافظة الخليل.

(153). بلدة فلسطينية تقع جنوب محافظة الخليل.

(154). بلدة فلسطينية تقع شرق مدينة بيت لحم.

(155). بلدة فلسطينية تقع شمال غرب مدينة بيت لحم.

(156). قرية فلسطينية تقع جنوب شرق قطاع غزة.

(157). مخيم للاجئين الفلسطينيين. أُقيم في مدينة طولكرم عام 1950.

(158). وثيقة تؤكد التزام الحكومة الإسرائيلية والسلطة الوطنية الفلسطينية بالاتفاقات الأمنية التي عُقدت بين الطرفين خلال عامي 2000 و2001. سُميت بوثيقة تينت نسبة إلى جورج تينت مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

(159). نبيل شعث (1938 -). عضو سابق في اللجنة المركزية لحركة «فتح». عمل مستشارًا للرئيس ياسر عرفات عام 1989 وكان أحد أعضاء الوفد الفلسطيني إلى مدريد وكبير مفاوضي المنظمة في محادثات طابا. شغل عددًا من المناصب الوزارية، وعُيّن مستشارًا للرئيس محمود عباس للشؤون الخارجية عام 2017.

(160). تنظيم فلسطيني، أُسس في أواخر السبعينيات على يد الشهيد فتحي الشقاقي الذي اغتاله الموساد الإسرائيلي في مالطا عام 1995.

(161). بناه إسماعيل موسى الحسيني عام 1897 في مدينة القدس. استخدم مقرًا لجمعية الدراسات العربية عام 1980، ثم مقرًا لفصل الحسيني حين تسلم ملف القدس في اللجنة التنفيذية عام 1992. أغلقته سلطات الاحتلال عام 1999 بقرار من الحكومة، ثم صدر حكم من المحكمة الإسرائيلية العليا بوقف قرار الإغلاق، إلا أن الشرطة الإسرائيلية احتلته وصادرت ما فيه من وثائق وأغلقت عام 2001.

(162). رحبعام زئيفي (1926-2001). وزير السياحة الإسرائيلي عام 2001.

(163). مصطفى علي الزبري «أبو علي مصطفى» (1938-2001). الأمين العام للجهة الشعبية لتحرير فلسطين منذ عام 2000 وحتى اغتياله يوم 27/8/2001.

(164). أحمد سعدات (1953 -). الأمين العام للجهة الشعبية لتحرير فلسطين بعد اغتيال أبو علي

مصطفى. اعتقل مرات عدة آخرها عام 2006، ولا يزال معتقلاً حتى هذا التاريخ (2018)، حيث حُكم عليه بالسجن 30 عامًا.

(165). بنيامين بن إلعيزر: (1936-2016). وزير الدفاع الإسرائيلي بين عامي 2001 و2003.

(166). محمد دحلان (1961 -). عضو اللجنة المركزية لحركة «فتح» قبل فصله منها، ورئيس جهاز الأمن الوقائي في غزة سابقًا.

(167). مدينة فلسطينية تقع جنوب قطاع غزة.

(168). مدينة فلسطينية تقع شمال شرق قطاع غزة.

(169). الجناح العسكري لحركة «الجهاد الإسلامي».

(170). بلدة فلسطينية محتلة تقع في مدينة حيفا.

(171). أنطوني زيني (1943 -). قائد القيادة المركزية الأميركية بين عامي 1997 و2000. عُيّن مبعوثًا خاصًا للسلام في الشرق الأوسط بين عامي 2001 و2003.

(172). مدينة فلسطينية محتلة تقع في منطقة مرج ابن عامر.

(173). أحمد ياسين (1936-2004). مؤسس حركة المقاومة الإسلامية «حماس». اعتقلته سلطات الاحتلال أكثر من مرة، واغتيل في غزة بتاريخ 22 / 3 / 2004.

(174). بعد محاولات عديدة فاشلة، نجحت قوات الشاباك باغتيال رائد الكرمي بتفجير عبوة ناسفة زُرعت على جانب أحد الطرق التي اعتاد الشهيد المرور منها.

(175). وفاء إدريس (1973-2002).

(176). بلدة فلسطينية تقع شمال مدينة نابلس.

(177). قرية فلسطينية تقع شمال مدينة رام الله.

(178). مستعمرة إسرائيلية تقع جنوب غرب مدينة القدس. أُسست عام 1970 على أراضي بيت جالا وقرتي بيت صفافا وشرفات.

(179). معتقل إسرائيلي موجود في محافظة رام الله والبيرة.

(180). أحد أحياء القدس الشرقية المحتلة.

(181). كولن باول (1937 -). سياسي أميركي. شغل منصب مستشار الأمن القومي بين عامي

1988 و1989، ورئيس هيئة الأركان المشتركة بين عامي 1989 و1993، وزير الخارجية بين عامي 2001 و2005.

(182). بساغوت أو «بسجوت»: مستعمرة إسرائيلية تقع شمال مدينة القدس. أسست عام 1981 على أراضي جبل الطويل في مدينة البيرة وكفر عقب قضاء رام الله.

(183). زياد أبو عين (1959-2014). عضو المجلس الثوري لحركة «فتح»، ورئيس هيئة مقاومة الجدار والاستيطان. استشهد عام 2014 خلال قمع جيش الاحتلال لفعالية غرس شجر الزيتون في قرية ترمسعيا في رام الله.

(184). أحد أحياء مدينة رام الله.

(185). بلدة فلسطينية تقع شرق مدينة القدس.

(186). حي فلسطيني يقع جنوب مدينة البيرة.

(187). شمعون بيريز (1923-2016). رئيس الوزراء الإسرائيلي لفترتين؛ الأولى بين عامي 1984 و1986، والثانية بين عامي 1995 و1996، ثم رئيس إسرائيل بين عامي 2007 و2014.

(188). مدينة إسرائيلية أُقيمت على أراضي قرية أم خالد الفلسطينية.

(189). شاؤول موفاز (1948 -). منصب رئيس هيئة أركان جيش الاحتلال بين عامي 1998 و2002، ووزير الدفاع بين عامي 2002 و2006، ونائب رئيس الوزراء عام 2012.

(190). مدينة إسرائيلية أنشئت عام 1903 على حدود قرية كفر سابا المدمرة، ثم توسعت لتمتد على معظم أراضي القرية بالإضافة إلى أراضي قرية بيار عدس قضاء طولكرم.

(191). عاصمة كرواتيا.

(192). خيم للاجئين الفلسطينيين، يقع في محافظة رام الله والبيرة، أسس في عام 1948.

(193). بلدة فلسطينية تقع بين مدينتي القدس ورام الله.

(194). جبريل الرجوب (1953 -). رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة. عمل مديرًا لجهاز الأمن الوقائي في الضفة الغربية بين عامي 1993 و2003، وهو عضو في اللجنة المركزية لحركة «فتح».

(195). يوسف قنبر (1965-2002). قائد معركة جنين التي وقعت عام 2002 حين اقتحمت قوات الاحتلال المخيم. استشهد في المعركة.

(196). أحد أحياء مدينة جنين.

(197). معسكر إسرائيلي يقع بالقرب من مدينة رام الله.

(198). وليم بيرنز (1956 -). سياسي أميركي. شغل منصب سفير الولايات المتحدة الأميركية لدى الأردن بين عامي 1998 و2001، ومساعد وزير الخارجية للشرق الأدنى بين عامي 2001 و2005،

ووكيل وزارة الخارجية الأميركية بين عامي 2008 و2011، ونائب وزير الخارجية بين عامي 2011 و2014. وهو رئيس مؤسسة كارينغي للسلام الدولي.

(199). جورج بوش الابن (1946 -). رئيس الولايات المتحدة الأميركية بين عامي 2001 و2009.

(200). النسر الأحمر: مجموعة عسكرية تتبع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

(201). مخيم للاجئين الفلسطينيين، أنشئ في قطاع غزة عام 1949.

(202). دان حالوتس (1948 -). رئيس هيئة الأركان العامة لجيش الاحتلال الإسرائيلي بين عامي

2005 و2007.

(203). مخيم للاجئين الفلسطينيين، أنشئ في العاصمة عمان عام 1955.

(204). اتفاق أمني عُقد بين الطرفين الإسرائيلي والفلسطيني عام 2002. تضمن الاتفاق إعادة انتشار

القوات الإسرائيلية في قطاع غزة أولاً، وفي حال نجاح الطرف الفلسطيني في فرض الهدوء والأمن يُعاد انتشار الجيش الإسرائيلي في مدن أخرى في الضفة الغربية تبدأ بيت لحم.

(205). إحدى مدن قطاع غزة.

(206). أحد أحياء مدينة رام الله.

(207). بشير الجميل (1947-1982). قائد القوات اللبنانية. انتخب لرئاسة لبنان في ظلّ الدبابات

الإسرائيلية خلال الاجتياح الإسرائيلي، لكنّه اغتيل قبل أن يتسلّم منصب الرئاسة.

(208). دونالد رامسفيلد (1932 -). عضو مجلس النواب الأميركي لأربع مرات خلال الفترة بين

عامي 1962 و1969، ورئيس موظفي البيت الأبيض وعضو مجلس الوزراء بين عامي 1974 و1975،

ووزير الدفاع بين عامي 1975 و1977، والمبعوث الرئاسي الخاص إلى الشرق الأوسط بين عامي 1983

و1984، ومن ثمّ وزير الدفاع مرة أخرى بين عامي 2001 و2006.

(209). ريتشارد «ديك» تشيني (1941 -). رئيس موظفي البيت الأبيض بين عامي 1975 و1977،

ووزير الدفاع بين عامي 1989 و1993، ونائب رئيس الولايات المتحدة الأميركية بين عامي 2001

و2009.

(210). محمود عباس (1935 -). أحد مؤسسي حركة «فتح» والرئيس الثاني للسلطة الوطنية

الفلسطينية منذ عام 2005.

(211). صدر هذا القرار في 11 / 12 / 1948، ويتضمن إنشاء لجنة خاصة تابعة للأمم المتحدة دُعيت

باسم لجنة التوفيق، وتقرير وضع القدس في نظام دولي دائم، وتقرير حق العودة للاجئين.

(212). معركة خاضها الفدائيون والجيش العربي الأردني ضدّ جيش الاحتلال الإسرائيلي في 21 آذار/



مارس 1968، وتعدّ أول انتصار عربي بعد هزيمة حزيران/ يونيو 1967.

(213). وثيقة غير رسمية وُقِّعت عام 2003 بين دبلوماسيين فلسطينيين وإسرائيليين، تناولت الاعتراف المتبادل بين الطرفين، وقضايا كل من القدس والمستوطنات والأمن واللاجئين.

(214). عز الدين القسّام (1883-1935). مناضل سوري، ثار ضدّ الاحتلال الفرنسي لبلاده، ثمّ انتقل إلى فلسطين وقاد ثورته ضدّ الانتداب البريطاني، واستشهد بعد اشتباك عنيف مع الجنود البريطانيين في أحرّاج بلدة يعبد.

(215). يقع بين منطقة الجليل وجبال نابلس شمال فلسطين.

(216). وقعت بين المسلمين والروم في عام 636، وانتهت بانتصار المسلمين.

(217). وقعت بين المسلمين بقيادة المماليك والمغول في عام 1260، وانتهت بانتصار المسلمين.

(218). بلدة فلسطينية تقع جنوب غرب مدينة جنين.

(219). قرية فلسطينية تقع جنوب مدينة جنين.

(220). معتقل إسرائيلي صحراوي يقع في منطقة النقب.

## الفصل الثالث

### عجز الكبار

## نشيد فلسطيني

ضدّ أن يجرح ثوار بلادي سنبله  
ضدّ أن يحمل طفل - أي طفل - قنبلة  
ضدّ أن تدرس أختي عضلات البندقية  
ضدّ ما شتّم، ولكن  
ما الذي يصنعه حتى نبيّ أو نبيّة  
حينما تشرب عينيه وعينيها خيول القتلة.  
ضدّ أن يصبح طفلٌ بطلاً في العاشرة  
ضدّ أن يثمر الغاماً فؤادُ الشجرة  
ضدّ أن تصبح أغصان بساتيني مشانق  
ضدّ تحويل حياض الورد في أرضي مشانق  
ضدّ ما شتّم، ولكن  
بعد إحراق بلادي ورفاقي وشبابي  
كيف لا تصبح أشعاري بنادق.  
الشاعر راشد حسين

## وتستمر الثورة

بعد نكبة عام 1948، أُزيح الفلسطيني عن مشهد المقاومة. كان ذلك مؤقتًا، فقد فجّر الثورة بعد سبعة عشر عامًا. تسبّب خروج الثورة من لبنان عام 1982 بتهميش دوره مجددًا. بعد خمسة أعوام انتفض الفلسطينيون في الوطن. خروج الثورة من لبنان، حرب الخليج الأولى، وانهار الاتحاد السوفياتي؛ بدت فرصة للإسرائيليين لإلقاء القضية الفلسطينية خلف جبال الزمن. بقبوله اتفاق أوسلو عام 1993، حاول الفلسطيني مدمى القدمين أن يتدفأ على رماد انتفاضة عام 1987، آملاً أن يستطيع زحزحة قواعد الاتفاق الظالم مع الوقت.

في درب الآلام اصطدم أبو عمار بجدار التضليل الإسرائيلي، فاستنجد بانتفاضة الأقصى، وانبرى مروان لقيادتها وهو الذي رأى في اتفاق أوسلو طريقًا للسلام. اعتقله جيش الاحتلال، وحُكم خمسة مؤبدات! هل توقفت الانتفاضة؟ أبدًا. هل انتهت المقاومة؟ لا. القتل والتدمير والاعتقال ليست حلولًا، الحل في السلام الذي يعيد الحق الفلسطيني.

جاء في دراسة كتبها الأستاذ الجامعي الدكتور محمد أحمد حسين بجامعة القاهرة: «تزايدت حدة المواجهة بين الجيش الإسرائيلي والمدنيين الإسرائيليين في الأراضي المحتلة في الانتفاضة الثانية، فتزايد عدد رافضي الخدمة العسكرية في الجيش الإسرائيلي». يقول الباحث إنديراس سبك: «قُدّرت أعداد الرافضين، ضميرًا، أكثر من ألفي شخص». عندما رفض آباء هؤلاء الشبان الخدمة في المناطق المحتلة وفي لبنان، قبل حوالي عشرين عامًا تقريبًا، لم يتوقعوا أن يواجه أبنائهم الذين ولدوا في تلك الفترة وضعًا مشابهًا إلى حد كبير.

في عام 2005 وجّه مئتان وخمسون طالبًا وطالبة خطابًا إلى كل من رئيس الوزراء ووزير الدفاع ورئيس هيئة الأركان ووزير التعليم آنذاك يعلنون فيه رفضهم التجنيد في الجيش. أشار بعضهم: «حتى لا اضطر يومًا إلى النظر للأسفل أمام ابني نادمًا». قال آخرون: «تزرع إسرائيل في الأراضي المحتلة الذل واليأس والموت، وسنحصد الإرهاب ومزيدًا من الإرهاب».

بعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية عام 1994 ضاق الناس ذرعًا بالشبان المتسكعين في شوارع مدن الضفة الغربية، شوارع مدينة رام الله تحديدًا، لكن بطولات هؤلاء الفتية فاجأتهم حين اندلعت انتفاضة الأقصى عام 2000. كان التسكع يعكس حالة الفراغ وضبابية المشهد، وربما فقدان الأمل. ضاع الهدف المقدس في لجّة حديث «السلام»، وحين تغيّر اتجاه الريح تسابق هؤلاء على النضال. وتكرّر المشهد عام 2015. من قلب التصميم، وعلى الرغم من تراكم الخيبات، هبّ الفتية والفتيات في انتفاضة متجددة.

## وصايا

جاء في وصية الشهيد بهاء عليان التي خطّها قبل عشرة أشهر من استشهادها:

1. أوصي الفصائل بعدم تبني استشهادي، موتي كان للوطن وليس لكم.
2. لا أريد «بوسترات» ولا «بلايز»، لن تكون ذكراي في «بوستر» معلق على الجُدُر.
3. أوصيكم بأمي، لا ترهقوها بأسئلة لا تهدف لأكثر من استعطاف المشاعر.
4. لا تزرعوا الحقد في قلب ابني، اتركوه يكتشف وطنه، يموت من أجله لا من أجل الانتقام.
5. إن أرادوا هدم بيتي فليهدموه، الحجر ليس أغلى من روح خلقها ربي.
6. لا تحزنوا على استشهادي، احزنوا على ما سيجري لكم بعدي.
7. لا تبحثوا عمّا كتبه قبل استشهادي، ابحثوا عمّا وراء استشهادي.
8. لا تهتفوا وتندافعوا في مسيرة جنازتي، كونوا على وضوء في أثناء صلاة الجنازة لا أكثر.
9. لا تجعلوا مني رقما تعدّوه اليوم وتنسوه غداً.
10. أراكم في الجنة.

جاء في وصية شهيد ثانٍ:

بسم الله الرحمن الرحيم

«سامحوني، سامحوني، سامحوني. يا رب تسامحني يمّه. يا رب تسامحني يابا. سأقتل جندياً إسرائيلياً. سأخذ بتاري منهم. لا تزعلي يمّه ابنك شهيد. ولد رفع رأس فلسطين. أتمنى أن تسامحوني، وإن شاء الله شهيداً شهيداً شهيداً. يا أمي ويا أبي، أرجو من الله أن تسامحوني. أنا آسف جداً جداً على ما تسببت به لكم، الله يصبركم. لا بد للقيّد أن ينكسر، ولا بد لليل أن ينجلي».

كتب شهيد ثالث:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم  
يرزقون﴾

(آل عمران: 169).

«أمي الحنونة، أبي العزيز، لم يحتمل قلبي أن أرى الاحتلال يهدم  
ويقتل، ويدنس المسجد الأقصى. عزمت أن أقدم نفسي رخيصة في سبيل  
الله، إن لم نذهب نحن الشباب للجهاد في سبيل الله من يذهب؟ أرجو أن  
تساعحوني، أن ترضوا عني. إنه الجهاد، نصر أو استشهاد. تذكروا دائماً  
الشهداء، دماؤهم الطاهرة أمانة في الأعناق. سدّد الله خطاكم، وثبّت  
أقدامكم. وإنّ الله على نصرنا لقدير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

جاء في وصية الفتى سامي إسماعيل ذي الستة عشر عاماً:

بسم الله الرحمن الرحيم

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

إلى أمي وأبي الأعزاء. ساعحوني وارضوا عني فإنّي شهيد، والحمد لله  
على كل شيء».

أريد منكم أن لا تذكروا محاسني، اذكروا مساوئي ليساعحني الناس  
وأكسب أجرها. وفي ناس لهم عليّ دين:

1. رامي محيي الدين 8 شيكل

2. خالي حمد الله 20 شيكلاً

3. مطعم البيك 32 شيكلاً».

يستحيل على القارئ تخيل قسوة ما يختلج به صدر الشهيد وهو يخط رسالة وداعه الأخير. أكاد ألمح ارتجاج القلم بين أصابعه فأغرق بدموعي.

## قتال الفتية

التصميم، عدالة القضية، ووحشية العدوان، جمر يدفع أفئدة المظلومين. تحبو النار لكنها أبداً لا تنطفئ. كأنّ هناك بوصلة وطنية مغروسة داخل الجسد الفلسطيني. اندلعت ثورات «الربيع العربي» عام 2011، فوجد الفلسطيني نفسه على الرصيف. لم تسمح له أوضاع «سلطة تحت الاحتلال» بمحاكاة نظرائه العرب، لكنها ليست النهاية.

الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر 2015 نفذ مهند الحلبي عملياته البطولية وسط القدس. يوم التاسع من الشهر ذاته سقط ستة شهداء عند نقاط التماس في قطاع غزة. وعمّت التظاهرات كثيراً من مدن وبلدات الجليل والنقب. دخلت النساء على خط الطعن. أصابت هستيريا العجز الإسرائيلي أمّا فلسطينية فأطلقوا عليها النار في مدينة العفولة. يكاد لا يمضي يوم من دون شهيد.

مع استمرار المواجهات أثير تساؤل: «هل هذه هبة أم انتفاضة؟». من يستمع للفضائيات يتخيل الشوارع تعجّ بالمتفضين، هذا ليس صحيحاً. ومن يصغي إلى أحاديث الراجفين ربّما يصيبه يأس، في هذا مجافاة للواقع؛ في الأولى ادعاء، وفي الثانية تشكيك. كلاهما تضليل. عيب أن تُخضع «هبة الأرواح الزكية» لبورصة مزايدات العجز. إن لم تستطيعوا دعمها يا «سادة» اتركوها لأهلها. في غمرة الثروة علّق صديق: «وحدّهم أهل المولود من يملكون حق تسميته. إنهم الشعب الذي يدفع الثمن ويكتوي بالنار».

تصدّر من ولدوا في أجواء اتفاق أوسلو مشهد المقاومة. شبّان وصبايا كدنا نلقي بهم في صندوق الخييات ففوجئنا ببطولاتهم. ليس هناك فصيل سياسي قادر على حمل راية الهبة، والسلطة عاجزة، أمّا الجمهور فقلبه مع الحدث لكنّه متردّد في الانخراط فيه.

حين يعجز الكبار؛ الفصائل، الدول والمؤسسات الرسمية، يتقدّم الصغار لحمل الراية. لم يلبّ اتفاق أوسلو ما تطلّع إليه الفلسطينيون، وتسببت الأجواء التي رافقت تطبيقه بتوفير بيئة لنمو بذرة الثورة الكامنة في الصدور، لم تفلح «خطة دايتون»<sup>(221)</sup> وثقافة الهزيمة في كبت هذه الروح طويلاً، ها هم أطفال «أوسلو» يتقدّمون الصفوف. «لا سبيل للعجز». هذه هي رسالة «هبة/ انتفاضة السكاكين».

مع اندلاع موجة الطعن مضيت بعمرى في الاتجاه المعاكس. أردت اختصار اثنين وأربعين عاماً من عمري إلى الوراء، محاولاً تلمّس انفعالاتي يوم قدت خلّيتي لعملية طعن. يستحيل على من تجاوز الستين أن يتحدث بمشاعر ابن العشرين. في حينه لم يخطر ببالي الموت أو الثمن. لم يتطرق ذهني للعواقب الشخصية عليّ وعلى أسرتي. كان تركيزي منصّباً على الانتصار.

بعد أيام من اندلاع الهبة وصلت إلى مقرّ اتحاد الكتّاب الفلسطينيين بحيّ البالوع في مدينة البيرة. يطلّ المكان على موقع المواجهات في «بيت إيل»<sup>(222)</sup>، طلبة يغذّون السير نحو الموقع، وفي البيوت أمهات ينتظرن عودة أبناء وبنات يترصدّهم قناصو جيش الاحتلال بالبنادق. في اليوم التالي، على الحاجز ذاته، فرّ الشبّان والصبايا كرفّ عصفير أفزعته طلقة صياد. كانوا يضعون أكفّهم على أنوفهم اتقاءً للغاز المسيل للدموع. أغلبيتهم طلبة في المرحلة الإعدادية، بزيّ مدرسي، وحقائب على الظهر. ثلاثون فتى وفتاة، وعشرون دولاباً يطاول دخانها الأسود غيوم الشتاء.



في أسبوع الهبة الأول سقط أربعة عشر شهيداً. لم يدن الرئيس أبو مازن عمليات الطعن والدهس. صمت القيادة ثورة، قياساً بما اعتاد الناس سماعه منها. لم تحاول أجهزة أمن السلطة قمع التظاهرات، هذا مؤشر إيجابي أيضاً. قال شاب وهو يحدثني عن الأيام الأولى للهبة: «انطلقت الشرارة من اجتماع في مقر إقليم فتح في رام الله. يومها دعا موفق سحويل، أمين سر لجنة الإقليم، للقيام بتظاهرة دعماً لخطبة الرئيس في الأمم المتحدة. بعد ذلك استمرت الفعاليات أيام الثلاثاء والجمعة بتوجيه من بيان القوى الوطنية والإسلامية. لم تحضر حركتا حماس والجهاد اجتماعات القوى، لكنّها كانت موافقة على مضمون البيان، اتسعت دائرة مشاركة الحركتين في المواجهات بعد دخول طلبة جامعة بيرزيت على الخط».

كنت مدعوّاً لتناول الفطور مع مجموعة من رجال الأعمال في مطعم بمدينة البيرة. في طريقي إلى المطعم، مررت بمحاذاة مبنى رئاسة الوزراء في حيّ الماصيون. ألقيت تحية الصباح على ابن شقيقتي الشرطي الذي يحرس المبنى. في ذهن صورة منفرة لرجال الشرطة الفلسطينية وقد انهالوا ضرباً على شاب فلسطيني. وقع ذلك في أثناء تفريقهم لتظاهرة ضدّ الاحتلال في بيت لحم. لو لم يكن ابن شقيقتي شرطياً لربما وجدته يقذف الحجارة على جنود الاحتلال، ولن يستطيع أحد التنبؤ بموقعه وأمثاله إن تغيّر اتجاه الريح. ثمّ إنّ اثنين من زملائه اعتقلا بتهمة إطلاق النار على جنود الاحتلال في هذه الهبة، وشقيقه الأكبر أمضى ثمانية أعوام في السجن، ووالده أسير سابق، وخاله - شقيقي - كان محكوماً بالمؤبد. كيف يمكن فصل هذه العناصر عن بعضها بغير الجهل أو التعسف في التحليل؟ أن يُكتفى بالقول إنّه شرطي، وإنّ الشرطة تقمع المظاهرين! أرافوا بالناس يا سادة، ارحمهم. من يتطلع للمعادلة الفلسطينية من الخارج لا يرى غير الظاهر؛ سلطة ومعارضة، «فتح» و«حماس»، ضفة وغزة. الوطن أكبر من هؤلاء، والحقيقة أكثر عمقاً وتعقيداً من ذلك.

ذهبت وصديقي أحمد غنيم وسيف تيمّ للتعزية بالشهيد مهند الحلبي،  
لافتات نعي من الفصائل كافة. رفض والد الشهيد أن يُحسب ابنه على فصيل  
بعينه، «الشهيد للوطن، الشهيد لفلسطين». عاتب الوالد المكلوم أحد كوادِر  
«فتح» قائلاً: «سمعت كلامًا على لسانك». شعر أحمد غنيم بالخرج حين همس  
له الكادر: «طلبوا منا أعلامًا وكوفيات فيما تبنت حركة الجهاد الشهيد». يا  
لمأساة ضيق الأفق! نستكثر على ذوي الشهيد كوفيات يلفون بها أعناقهم!  
الوطن ليس تركة تتقاسمها الفصائل، الوطن لأهله.

في طريقي لإيصال أحمد إلى شقته المجاورة لبيت الرئيس، مررنا بصبيّين  
يلهوان في الشارع. سألت أكبرهما، وعمره أحد عشر عامًا:

- كيف الانتفاضة؟

ردّ الأصغر:

- بدناش انتفاضة يا عمو.

- ليش؟

- شبعنا غازًا مسيلًا للدموع في قرينتنا «النبى صالح».

- هل أنت من قرية النبى صالح؟

- نعم.

- من والدك؟

- مروان التميمي.

- هل تعرف أنّ جدك عبد السلام كان فدائيًا؟

- نعم.

قال الطفل ببراءة وهو يشير بيده إلى بيت الرئيس المجاور:

- الحمد لله أنّ غاز القنابل الإسرائيلية وصلهم.

أوصلنا أحمد إلى منزله وتوجّهت أنا وسيف إلى حاجز بيت إيل. شبّان يشتبكون مع جنود احتلال يمطرونهم بالرصاص وقنابل الصوت والغاز. اخترنا الوقوف على تلة ينتشر عليها عناصر من الأمن الوطني الفلسطيني. عنصران بعمر من يقذفون جنود الاحتلال بالحجارة.

- مساء الخير يا شباب، الله يعطيكم العافية.

هذا ما قاله سيف للشابين وأضاف:

- أنا لواء متقاعد من الأمن الوطني وأبو علاء منصور أمين سرّ سابق لإقليم «فتح» في رام الله.

قال أحد الشابين: «والدي أسير سابق، وشقيقتي شهيدة في الانتفاضة الأولى».

- ما دوركما هنا؟

- نمنع إطلاق النار كي تظلّ التظاهرات سلمية.

قال لي سيف بعدما ودّعنا الشبّان: «لو لم يكن هؤلاء عناصر أمن، لربما رأيتمهم يقذفون جنود الاحتلال بالحجارة، أليس هذا ما فعله كثيرون من أمثالهم في انتفاضة النفق وانتفاضة الأقصى؟ في سجون الاحتلال أكثر من ستمئة من عناصر الأجهزة الأمنية الذين شاركوا في انتفاضة الأقصى. ألم يكن الشهيد مهند أبو حلاوة مفرغاً على جهاز أمني، وكذا الأمر بالنسبة إلى رائد الكرمي، الغندور، وجهاد سمحان وآخرين كُثُر؟ حين لاحت اللحظة امتشق هؤلاء أسلحتهم، وتقدّموا من دون أن يطلبوا إذنًا من أحد».

قال الدكتور نبيل شعث مفتتحاً لقاءً في مقرّ إقليم «فتح» في رام الله: «قبل الخروج من بيروت عام 1982 كانت التجارب العسكرية لفيتنام والصين

نموذجنا الثوري، وكان العسكر والخارج هما الأساس، كنّا في زمن التيه. أنقذتنا انتفاضة عام 1987». علّق أحد الحضور: «تقسيم الضفة الغربية إلى مناطق 'أ، ب، ج'، وحصر نقاط الاحتكاك الجماهيري مع جنود الاحتلال عند الحواجز العسكرية تسبّب بتحييد الأغلبية العظمى من القوة الجماهيرية، هذا على عكس ما حصل في الانتفاضة الأولى، في حينه كانت تشتبك الناس مع قوات الاحتلال في شوارع المدن، وحارات القرى، وزوارب المخيمات. هبة اليوم تقتصر على الشباب». قال آخر: «ربما لا تتحوّل المواجهات إلى انتفاضة جماهيرية كما عرفناها في الانتفاضة الأولى. لن تتحمّل السلطة ضغوط الاحتلال، وما عادت الفصائل تحظى بثقة الناس، وللقادة المنخرطين في السلطة مصالحهم، مع ذلك يُعتبر رضا السلطة عمّا يجري بمنزلة قرار سياسي بالانتفاض، وأعطى تبني حركة فتح للفعاليات شرعية جرّأت الشبان على المواجهة».

## عجز الفصائل

في انتفاضة الأقصى، كان ياسر عرفات ومروان البرغوثي. اليوم لا عرفات ولا البرغوثي، وفي الميدان شبان منفعلون.

قال لي صديق ونحن نُجري تقويماً لأسباب «الهبة/ الانتفاضة»: «إنّها ردة فعل على خيبة الأمل من 'الخطبة القنبلة' التي ألقاها الرئيس في الأمم المتحدة. عبّرت الخطبة عن العقلية الجمعية لقيادة منفصلة عن هموم شعبها. هذا ما قصده الصبي التميمي حين قال لك: 'جيد أنّ رائحة الغاز وصلت إليهم'. لا يمكن فصل ما يجري في الضفة الغربية عن الانتفاضة المتواصلة في القدس منذ شهر ونصف الشهر. كان لفلسطينيين الداخل<sup>(223)</sup> دور مهم في حماية المسجد الأقصى، في وقت يُمنع فيه أهالي الضفة والقطاع من دخول القدس. هناك أكثر

من جيل في الأراضي المحتلة عام 1948 يعيش حالة تواصل مع الضفة وغزة. منذ الاحتلال عام 1967 وشبّان الضفة وغزة العاملون في الداخل يعزّزون التفاعل. من لا يملك تصريح عمل يحتمي بالقرى والمدن العربية هناك. العنصرية الإسرائيلية، الشعور بحماية الأقصى، والانصهار مع الضفة الغربية تفعل فعلها في الوعي».

أضاف: «بتوقيع اتفاق أوسلو شعر 'فلسطينيو الداخل' بأنّهم خارج ذهن القيادة؛ لهذا اندفعوا ليثبتوا ذاتهم الوطنية بأكثر ممّا اعتادوه في كل ما له علاقة بالشأن الفلسطيني. دفاع عن النفس تجاه عنصرية المجتمع اليهودي. نحن لا نملك حرية اختيار مكان السكن، على سبيل المثال وجودنا في شركات الهايتك High Tech لا يتجاوز اثنين في المئة، ونحن غير موجودين في المطار والموانئ إلّا في مجال النظافة».

قال صديق ثانٍ: «أنا أخاف على ابني، لكنني أخجل أن أطلب منه ألاّ يشارك في الفعاليات، إن فعلت ذلك أصبح كمن يعتذر عن تاريخه. لو لم يتحرّك شعبنا لأهمّلت قضيتنا. نحن في عهد ما عادت الدول العظمى تقدّم فيه هدايا. في الانتفاضة الأولى كان المنتفض يتقاضى مخصّصًا من الثورة، اليوم ربما يفقد وظيفته إن شارك في المواجهات».

أعلن بيان القوى الوطنية والإسلامية أنّ الثالث عشر من تشرين الأول/أكتوبر يوم غضب. حين وصلت إلى سوق الخضراوات المجاور لمسجد جمال عبد الناصر في مدينة البيرة، مرّ بخيالي مشهد تظاهرات انتفاضة الأقصى قبل خمسة عشر عامًا. في مثل هذا الوقت كان الشارع يغصّ بحمّلة الأعلام ورايات الفصائل، وعلى المفارق والنقاط الاستراتيجية كانت تنتشر وسائل البث الفضائية. اليوم يقتصر الشارع على المصلّين، وعلى المتسوقين من السوق الشعبي الذي يُقام في المكان كل يوم جمعة. أمّا دوّار المنارة فخالٍ من البشر أو

يكاد.

لمحت أعلامًا فلسطينية فأسرعت للحاق بها. عشرة أعلام! مشهدٌ يبعث الإحباط، وقادة الفصائل يتغنون بانتفاضة شعبية. حوالى خمسين شابًا يتقدمهم عشرة من مسؤولي الفصائل. أم خالد المرأة الوحيدة في المسيرة. أُلقيت عليها التحية، وافترقنا دون أن نودّع بعضنا.

قائد الأمن الوطني في رام الله شخص يتفهّم الانتفاضة، ويدرك الضغوط التي تمارسها إسرائيل على السلطة. قال قبل أن نبدأ نقاشنا لمجريات الوضع الراهن: «في منطقتنا تأثرنا بكم، بثّت تجربتكم فينا حماسة. بكر الحجة المتخرج في جامعة عين شمس ضحّى بوظيفته في السفارة الكويتية والتحق بحركة فتح، وهذا ما فعله شقيقه عامر الذي كان مدرّسًا. جندني عامر لفتح وأنا طالب في الكلية العربية في عمّان». أضاف: «يحاول الإسرائيليون ابتزازنا: 'أوقفوا الانتفاضة وإلاّ سنجتاح رام الله'».

معوّقات كثيرة تحول دون تطوّر المشهد إلى انتفاضة شعبية؛ السلطة، الانقسام. «فتح» المرتبطة بالسلطة لم تتخذ قرارًا بالمشاركة، على الرغم من أنّ عناصرها هم قلب الفعاليات وهم من بادروا إليها. حال الفصائل لا تسرّ، وإطار القوى الوطنية والإسلامية ليس إطارًا قياديًا حقيقيًا. أغلبية المنتفضين من أبناء الفصائل، لكنّ مبادراتهم ذاتية.

في انتفاضة الأقصى كان الشيخ حسن يوسف يأتي بمئة عنصر من «حماس»، اليوم يأتي وحيدًا. لا يوجد لـ«حماس» ممثل في اجتماعات القوى الوطنية والإسلامية في رام الله. ما الحكمة من اعتقال السلطة ثلاثة أعضاء من الكتلة الإسلامية بجامعة بيرزيت؟ أظهرت الهبة أنّ القدس قدسان؛ واحدة تحمي فيها الشرطة اليهود، وأخرى تقتل فيها العرب. يأتي ذلك بعد ثمانٍ وأربعين عامًا من احتلالها عام 1967. قرّر المجلس الوزاري الإسرائيلي المصغّر فصل

جبل المكبر<sup>(224)</sup> عن الأحياء اليهودية، وإحاطته بسور إسمتي وأسلاك شائكة، كذا الأمر بالنسبة لبلدة العيسوية! تخبّط وجنون!

في الثالث عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 2015 تناقلت وسائل الإعلام نبأ عملية «أرمون هنتسيف»، لم يظهر الخبر على صفحة بهاء عليان في الفيسبوك كالعادة. رفعت زميلة له سماعة هاتفها محاولة الاتصال به، لم يُجب. كان بهاء وصديقه بلال غانم بطليّ العملية. يوم استشهد مصطفى الخطيب -سبعة عشر عامًا- حمل بهاء كاميرته وذهب لإجراء مقابلة مع والدته الشهيد. ختم المقابلة: «اليوم مصطفى وغداً نحن». وحده بهاء كان يدرك أبعاد ما قاله، استشهد في اليوم التالي.

بدا عدنان وهو يتحدث لي عن الهبة كأنه لا يعمل في جهاز أمني:

- لطالما نظرنا إلى هذا الجيل بكثير من الخيبة، لكنّه فاجأنا.

- هل نسيّت نفسك في الانتفاضة الأولى.

- لقد تشربنا ثقافتنا الوطنية عبر المواجهة في الأزقة.

قال ابنه مجد ذو الخمسة عشر عامًا حين سألته رأيه بما يجري:

- إن دخلت الفصائل على الخط ستحوّل المشهد إلى ساحة صراع فصائلي.

أيام وأطلق الشاب محمد عقبي من قرية حورة<sup>(225)</sup> النار على جندي في مدينة بئر السبع فأرداه قتيلاً، استولى على سلاحه وأصاب أحد عشر إسرائيليّاً آخرين قبل أن يستشهد. فتك الإسرائيليون الموجودون في المكان بيهودي أريترى ظانين أنّه منفذ العملية. بعد أيام ترجّل مستوطن يحمل هراوة من سيارته على شارع القدس - أريحا، راح يحطّم زجاج السيارات الفلسطينية بشكل هستيريّ. دهسته شاحنة فلسطينية.

أيام وأعدم جنود الاحتلال الفتيين بشار الجعبري وحسام الجعبري،

والْحُجَّةُ محاولتهما طعن جندي. فجر اليوم التالي أطلقت النار على فتاة فلسطينية، قيل إنَّها حاولت الدخول إلى مستعمرة يتسهار<sup>(226)</sup> بهدف الطعن. في الفترة ذاتها مرَّ مستوطن بمحاذاة جندي في باب العمود، لامس جسد المستوطن سلاح الجندي. أطلق الجندي النار على المستوطن ظانًّا أنَّه عربيٌّ يحاول خطف سلاحه، أرداه قتيلاً. هذا هو الحادث الثالث من نوعه في الأيام الأربعة الأخيرة. في اليوم التالي استشهد شاب، وأُصيب آخر بجروح خطيرة، أُطلقت عليهما النار في مستعمرة بيت شيمش<sup>(227)</sup>، الحُجَّة ذاتها، محاولتهما طعن جندي. هستيريا إسرائيلية.

في بلدة سلوان<sup>(228)</sup> همس الفتى لعمته:

- عمتي وين راح الجيش؟

- راحوا من الجهة الثانية.

- يعني أروح أنا.

همست العمة في سرِّها: «أدعو الله أن يُعتقل بدلاً من أن يعدموه».

## الاحتلال طينة منزوعة الخلق

قال والد الشهيد بهاء عليان وهو يلقي هويته المقدسية أرضاً في مؤتمر صحافي: «خذوها إن أردتم ابتزازنا بها، لا نريدها. لا، لا، لا نريدها».

مهما تمتّع شبَّان القدس في شارع يافا غرب المدينة سيعودون إلى أسرهم المقهورة. الشهيد فادي علون شاب وسيم يلبس أحلى لباس ويغني، لماذا نزل من حيِّ العيسوية<sup>(229)</sup> إلى حيِّ المصرة<sup>(230)</sup> لينفِّذ عملية طعن عند الفجر؟ «عائلة بدران» بيتها فيلا. الشهيد مصطفى الخطيب لديه سيارة، وكان يحلم بدراسة الطب في ألمانيا. ترك سيارته وبداخلها مفاتيحها وجهاز جواله، توجه إلى باب الأسباط لينفِّذ عملية طعن. مهند الحلبي، ابن التاسعة عشر، طالب في



جامعة القدس. محمود عليان ابن العشرين، الابن الوحيد لوالدة أنجبته بعد ثلاثين عامًا. شابٌ وسيّمٌ تظهر في نبرة كلامه علامات مبكرة لشخصية قيادية، وغيرهم كثيرون. ببطولاتهم يحفر الشبان المسار.

دهم جيش الاحتلال منزل الأسير المحرّر عمر البرغوثي في قرية كوبر<sup>(231)</sup>. لم يكن الرجل في بيته. ترك له ضابط المخابرات بلاغًا لمراجعته في سجن عوفر<sup>(232)</sup>. كان عمر على موعد مع الطبيب لإجراء عملية قسرة فلم يلتزم الموعد.

اتصل به الضابط:

- لماذا لم تحضر؟

- أنا مريض.

- تأتي يوم الأحد.

- الطبيب يقرّر.

- هل أفهم أنّك لن تأتي؟ أنّك تحنّ لأيام المطاردة؟

- لم يمضِ على خروجي من السجن غير أربعة أشهر؟

- تذكر أنّنا اعتقلنا منفذ عملية بيت فوريك<sup>(233)</sup> من المستشفى.

- أهى مفخرة أن تحتطف جريحًا من مستشفى!

أُجريت لعمر عملية القسرة، وبعدها بأيام دهمت قوات الاحتلال منزل رفيق سجنه، فخري البرغوثي، واعتقلته من بيت رفيقه. بعد أيام نكّل جنود الاحتلال بالشباب أنصار عاصي، نجا من الموت بأعجوبة. واعتقلوا خلية قاصرين تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والرابعة عشرة، ثمّ قتلوا ثلاثة شبّان آخرين؛ اثنين على مفترق غوش عتصيون، والثالث في منطقة تل الرميّة<sup>(234)</sup>. أيام واندفعت سيارة جيب عسكرية إسرائيلية بقوة نحو شاب، نجا الشاب

من الموت بأعجوبة حين أفلت من بين عجلاتها. وفي مشهد أكثر وحشية لاحقت سيارة عسكرية شابًا وداسته تحت عجلاتها، ومنعت الطواقم الطبية من إسعافه. الاحتلال طينة منزوعة الخلق. كلما ولغ الإسرائيليون بالدم توَحَّشوا، وازداد المتفضون فروسية.

اشتهر الشهيد سليمان شاهين بين مرتادي سوق الخضراوات في مدينة البيرة ببيع الفراولة. شاب في الثانية والعشرين من عمره، وأبٌ لطفلة. أُطلقت عليه النار بدعوى دهسه لثلاثة مستوطنين على حاجز زعتر<sup>(235)</sup>. كيف ستتصرف عائلته مع الشركة التي استأجر منها السيارة لتنفيذ عملياته؟ من أين ستدفع لهم المال؟ في يوم استشهاد سليمان ذاته سقطت حلوة عليان حمامرة ذات الاثنين والعشرين عامًا شهيدة. أُطلقت عليها النار حين طعنت مستوطنًا بسكين. واستشهدت الفتاة رشا عويصي بإطلاق النار عليها عند حاجز في قلقيلية.

جاء على لسان وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه يعلون<sup>(236)</sup>: «فتح لم تتخذ قرارًا بالنزول إلى الشارع حتى الآن، ما زال أعضاؤها يلتزمون موقف السلطة». قال رئيس جهاز الموساد السابق إفرام هليفي في معرض تقويمه للهبة الجارية: «لو كان هذا الهلع الإسرائيلي موجودًا عام 1948 لما قامت دولة إسرائيل».

بعد أشهر من اعتقال الطفلين الجريحين أحمد مناصرة وعبير عواد حكمت المحكمة الإسرائيلية بسجن كل منهما لثلاثة عشر عامًا.

## ندوة

افتتح صديقي النقاش قائلاً: «ما دورنا في إسناد الهبة؟ هذا هو الهدف من لقاء اليوم».

تساءل أحد الحضور: «لا أدري، هل حماس مع الهبة أم لا؟ كذا الأمر

بالنسبة لفتح. هبة بلا قيادة ودون تمويل سلاح ذو حدين؛ ألاّ تتمكّن من المواصلة، أو أن تجري المساومة عليها».

قال آخر من نابلس: «ابني ذو الخمسة عشر عامًا يدرس في مدرسة أميركية، لا ينقصه شيء، شدة حماسه للهبة تكاد تحمله على إجابتي: 'ما عدت مقتنعًا بما تقوله'. تضععت ثقة الشباب بالحركة الوطنية. إسرائيل توجه الهبة نحو القدس والخليل بهدف دفع الناس هناك للهجرة».

قلت معلقًا على تأخر منطقة الشمال عن ركب الهبة: «حين نتأخر لا نتعمق في بحث الأسباب، وحين نتقدّم يركبنا الغرور. الخليل التي تصدر مشهد هبة اليوم تأخرت لأكثر من عام عن اللحاق بالانتفاضة الأولى، هذا ليس عيبًا، إنّهُ النضج والاكتمال، أمّا الشمال الذي لم يلتحق بالهبة حتى الآن فكان نجم انتفاضتين ودوره آتٍ».

قالت سيدة: «بسكوتهما عمّا يجري أرادت السلطة تنفيس الناس فوجد الشباب في ذلك فرصتهم. يضحي الشباب بأنفسهم انطلاقًا من القيم العليا، الاستشهاد وتحرير الوطن».

قالت سيدة ثانية: «كل انتفاضة أعطتنا شيئًا وأخذت شيئًا آخر، الانتفاضة الأولى منحنا شرعية لكنّها جلبت أوصلو. الانتفاضة الثانية أعطتنا الاستشهاديين وتعزيز الشرعية الدولية، لكنّها جلبت إجراءات وحشية وجدار. في هذه الهبة جرأة متميّزة، لكنّها تفتقر للقوة المنظمة».

قال شخص آخر: «في الانتفاضة الأولى كان هناك حالة ثورية في الخارج، واشتباك مع العدو في الضفة الغربية والقطاع، وكانت هناك مؤسسات مدنية فاعلة. اليوم لا يوجد حالة ثورية في قيادة الداخل ولا في الخارج، معنى ذلك أنّ الهبة لا تُعبّر عن تراكم حالة ثورية. في الحروب على غزة تصرّفت السلطة كأنّ الحرب ليست حربها. إن أجهضت الهبة من ستكون الحاضنة حينئذٍ؟ ضدّ

من ستوجه ردّات الفعل؟». قلت معلّقاً على ما قاله الشخص الأخير: «هذا ينطبق على المؤسسة الرسمية، أمّا الشعب فيخترن التجارب ويراكمها، وينفجر بما يفاجئ المراقبين».

قال الدكتور تيسير العاروري عضو القيادة الموحدة للانتفاضة الأولى: «انطلقت الانتفاضة الأولى في غزة، فالتقطت الفصائل الفرصة وتقدّمت الصفوف. وعبر اندلاع انتفاضة الأقصى عن مأزق سياسي. حالة القيادة والفصائل اليوم كمن ورث دكاناً عن والده وينتظر الخلو. علينا ألاّ ننتظر ولادة قيادة موحّدة».

قال آخر: «كانت الانتفاضة الأولى طوق نجاة لمنظمة التحرير، أمّا انتفاضة الأقصى فكانت خاسرة تماماً. في هذه الهبة هناك حالة اغتراب لسكان القدس تجاه هويتهم. لم تمنحهم إسرائيل الجنسية، ونسيتهم السلطة. كانت الهبة آخر جُدر إثبات أنّهم يعانون احتلالاً يخنق أنفاسهم».

ربما أنّ معضلة «القيادة» أهم ما واجهته الانتفاضات الفلسطينية؛ الداخل والخارج في الانتفاضة الأولى، السلطة وتنظيم «فتح» في الانتفاضة الثانية، واليوم سلطة بفصائل عاجزة، وشباب ملتهب. وهناك خلط مستمر بين الأهداف الوطنية العامة وأهداف كل انتفاضة على حدة. ثمّ هناك مفاجآت؛ مفاجأة حرب الخليج الأولى في انتفاضة عام 1987، وحوادث 11 أيلول/ سبتمبر في انتفاضة الأقصى، والحرب الدائرة في سورية اليوم.

## الفتيات في مشهد الهبة

لم تغب المرأة يوماً عن المقاومة الفلسطينية، لكنّ نسبة مشاركة الفتيات بهذه الجراءة أمر لافت في هذه الهبة. «أنتن تُعقن هروب الشبان، ارجعن للخلف»، هذا ما قاله شاب لفتاة على حاجز بيت إيل فردّت الفتاة غاضبة: «نحن

فلسطينيات». اعتذر الشاب: «قصدي أن الشبان أقوى عضلياً».

بدت مجموعة من الصبايا في غاية الحماسة وأنا أسألهن رأيهن في الهبة. قالت دانا -ستة عشر عاماً-: «يمنعني أهلي من المشاركة في الهبة، يخشون عليّ». قالت بثينة -سبعة عشر عاماً-: «لفت انتباهي إقدام الشبان والصبايا». قالت كرمel -ستة عشر عاماً-: «جعلني فيديو أحمد مناصرة أنقهر، أريد أن أنتقم. قبل الهبة كنت أخاف الجنود، ما عدت أخشاهم اليوم. يسمح الأهل للشبان بالمشاركة في المواجهات، ويحرمون الفتيات. سأشارك».

قالت داليا ذات الأحد عشر عاماً: «الفتيات بطلات». قال شقيقها محمد ذو الثمانية أعوام: «كنت سأبكي حين شاهدت فيديو أحمد مناصرة. أحب أغاني 'بهمش' و'عشاق الشهادة'». وعن موقف السلطة أجاب محمد: «لا يشاركون في المواجهات، ولا يدافعون عن الشباب». قالت لين -ثلاثة عشر عاماً-: «تأثرت بجنابة الشهيد عبد الرحمن البرغوثي. خطيبته طالبة في مدرستي، كان المفترض أن يتزوجا الشهر المقبل». قالت شقيقته لمى -أربعة عشر عاماً-: «الفتاة التي حاولت طعن جندي في شارع يافا في القدس أرادت الثأر لشقيقها الشهيد».

سألت تسنيم، ذات الستة عشر عاماً:

- ما رأيك بالهبة؟

- أنو هبة؟!!

- الانتفاضة.

- لو شاهدت ما يفعله الجنود في الأقصى لكنت أول المشاركين بالطعن.

- إلى أين تسير الانتفاضة؟

- خفت.

قالت شقيقتها الصغرى زينة ذات الأحد عشر عامًا بثقة لافتة: «أثبتت الانتفاضة أن لا فرق بين الفتى والفتاة، تشارك الفتيات في كل شيء. نريد أن نتحرّر، أن نتحرّك ونسافر بحرية. أهلنا يمنعونا من المشاركة؟ الأهل عالفاضي».

## روح الهبة

سأل مراسل القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي أوهاد حيمو طفليّ الشهيد إبراهيم العكاري من مخيم شعفاط<sup>(237)</sup> الذي دهس اثنين من الجنود الإسرائيليين:

- كيف عاملكم الناس بعد عملية أبوك؟
- ردّ الطفل الأكبر، ذو الاثني عشر عامًا بثقة لافتة:
- معاملة رائعة، قدّموا لنا أشياء كثيرة، ساعدونا.
- في ناس قالولك مثلاً إنّ عملية أبوك خطأ؟
- لا، ما فيش. بأكدلك إنه ما في حدا رح يقولي هيك.
- لكنّه قتل مدنيين.
- ردّ مستغرباً:
- شو! شو بسوّوا هذول اليهود في فلسطين؟ محتّلين، إجوا وأخذوا بلادنا.
- علّق الطفل الصغير ذو العشرة أعوام قبل أن يوجّه له المراسل السؤال:
- يا إحنا يا إنتو في هالبلاد. مش رح نرضى إلّا تطلعوا من بلادنا.
- صُعب المراسل فكرّر متسائلاً:
- يا إحنا يا إنتو في هالبلاد!
- أيوه. ما رح يهدا الشعب الفلسطيني ما دتم بتحتلوا بلادنا.

- بس احنا كتار.

- واحنا كمان كتار، إحنا أكثر منكم.

- بصرش نعيش مع بعض؟

هزّ الطفل رأسه رافضاً.

قال لي صديقي محمود ونحن نتحدّث عن الهبة: «قبل مدة هرب ابني ذو الأربعة عشر عاماً، بحثت عنه فوجدته على حاجز بيت إيل. حاولت منعه فأفحمني بالقول: 'ألم تكن مثلي حين كنتَ في جيلي؟'». أضاف محمود: «قبل عامين عانينا تفشي ظاهرة تعاطي المخدرات في قريننا، اليوم استبدل الشبان ذلك بالمواجهات. وجّهت الهبة طاقاتهم ضدّ المحتل، ما عاد لديهم فراغ، الكل يحاول إثبات ذاته».

منذ خمسة أعوام وإسرائيل تحذّر من انتفاضة ثالثة. مراكز بحوثها كلها رأت أنّ منع وقوعها يتطلب حلاً سياسياً، مع ذلك أمعنت القيادة الإسرائيلية في الحلول الأمنية. بالوحشية وبعمليات الإعدام الميدانية تحاول إسرائيل ردع الشباب. بالمقابل لم تعقد قيادة السلطة اجتماعاً لدعم الهبة، ولم يزر الرئيس عباس بيت عزاء، ولم يظهر في لقاء شعبي.

ربما أنّ «الهبة/ الانتفاضة» الجارية هي الأقل حظاً من بين باقي الانتفاضات الفلسطينية، فبالإضافة إلى المعركة الدامية التي تدور في العديد من البلدان العربية، والتدخل الروسي الذي خطف الأضواء إلى المسرح السوري، فقد فوجئت الهبة بسلسلة عمليات دموية هزت العاصمة الفرنسية. مئة وتسعة وعشرون قتيلاً، وأكثر من ثلاثمئة جريح. سارعت إسرائيل كالعادة لدسّ أنفها، وربط قادتها بين عمليات المقاومة الفلسطينية وما جرى في باريس، قالوا إنّها من النبع ذاته، من التطرّف والرغبة في القتل، إنّها ليست بسبب الاحتلال.

استغل رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو ردة الفعل العالمية على جرائم باريس. فأراد أن يجعل منها تذكرة لدخوله نادي «محاربي الإرهاب». خلطٌ للأوراق. تنفيذًا لقرار المجلس الوزاري المصغر الإسرائيلي، حظرت إسرائيل الجناح الشمالي للحركة الإسلامية في فلسطين المحتلة عام 1948. وفجر الثامن عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2015، دهمت وحدات الشرطة وعناصر «الشاباك»<sup>(238)</sup> سبعة عشر مقرًا للحركة.

\*\*\*

استدّرت بسيارتي، عبرت دوار بيت إيل ثانية، ثمّ واصلت الرحلة إلى وسط المدينة. في مقرّ «الهيئة» يتركز الجدل حول المؤتمر السابع لحركة «فتح»؛ العضوية، الحصص، الكوتات، ودور «العسكر». على الحاجز يكتبون التاريخ، وهنا يلوكون كلامًا.

يؤدي حاجز قلنديا دورًا تحفيزيًا على المقاومة بالنسبة لشبان المخيم. وبسبب الاكتظاظ على الحاجز، يضطر السائقون إلى استخدام شوارع المخيم الداخلية الضيقة فتحصل مشكلات، ويحتاج الأمر إلى حلول، لهذا تجد درجة التفاهم والتضامن عالية في المخيم الذي يهبّ فيه الشبان للتدخل. وأيضًا فإنّ للمخيم تاريخ مشرّف في المقاومة منذ انطلاق الثورة. الشهيد عمر أبو ليلى الذي رافق أبو عمّار في دوريته للداخل عام 1967 من أبناء المخيم، وهناك جيل من الكوادر والقادة استشهدوا أو قضوا أعوامًا في سجون الاحتلال. فاق عدد شهداء المخيم الستين حتى الآن.

ذهبت وأحمد غنيم للتعزية بالشهيدين ليث الشوعاني وأحمد أبو العيش في مخيم قلنديا. في بلدة كفر عقب<sup>(239)</sup> اخترنا طريقًا فرعيًا لتجاوز أزمة المرور. علّق أحمد: «انظر الأبراج. خمس عشرة طبقة. سياسة إسرائيلية ممنهجة لتفريغ القدس من أهلها. تسهيل للبناء دون ترخيص؛ لإبقاء الناس رهائن لمزاج



المحتل. وسائل ابتزاز تهدّد رقاب الناس، تشجيع على ترك المدينة المقدسة التي لا يُسمح بالبناء فيها إلّا بتكلفة باهظة».

ترجّلنا، وقطعنا الطريق مشياً. تعجّ القاعة بالمعزّين. تجمّع ناشطون حولنا، وراحوا يروون ما جرى: «عند الفجر دخل حوالى ألف من جنود الوحدات الخاصة والمستعربين إلى المخيم من الاتجاهات المختلفة. تغلغلوا في طرقاته تُقلّهم سيارات عربية، تمركزوا في الزوايا، على الأسطح وعند المنعطفات. قطعوا الاتصالات الهاتفية، ما عاد بإمكان الجار أن يتصل بجاره أو ينبه صديقه أو قريبه. إطلاق نار كثيف، وطائرة هليكابتر تجوب السماء. استشهد شابان، وأُصيب عشرون بجروح. غادر الجنود تاركين حطام السيارات العربية التي اقتحموا بها المخيم».

في طريق عودتنا إلى رام الله مررنا بمستشفى رام الله. في غرفة رقم 14 يرقد الجريح باسل النعسان ذو الواحد والعشرين عاماً. قال باسل حين سألته عمّا ادّعته إسرائيل من أنّه وزميله من قباطية نفّذا عملية طعن: «يكذبون، لم نهاجمهم، ولم يكن معنا سكاكين. كانت نُقلنا دراجة نارية، فأُطلق علينا الرصاص عند حاجز زعتر. استشهد صديقي، وأُصبت أنا. الخوف جعل الإسرائيليين يرتابون من أي حركة، وزودتهم قرارات حكومتهم المجرمة بشرعية إطلاق النار على من يشتبهون بهم».

## انقسام

«المؤتمر العربي العام لدعم انتفاضة الشعب الفلسطيني» في بيروت موقف تضامني رائع مع الهبة. المشكلة في المتحدثين باسم الفصائل. تحدّث أحد قادة الفصائل الكبرى بشعارات رنانة. باللهجة ذاتها قال ممثّل الفصيل المنافس: «هذه انتفاضة التحرير، انتفاضة هزيمة الاحتلال في الضفة، ورفع الحصار عن

القطاع». ارحمونا يا ناس، انقسام مدمر وخطاب واحد! على ماذا تختلفون إذا؟ علّق شاب على المشهد الهزلي: «يتحدّثون عن انتفاضة التحرير فيما لا يزيد عدد الشبّان على الحاجز على الثلاثين!». انفصام عميق. رحم الله جمال عبد الناصر الذي قال في إحدى خطبه: «كذاب من يقول لكم إنّ لديه خطة لتحرير فلسطين». أمثال عبد الناصر هم القادة الحقيقيون.

قال صديقي أبو نائل القلقيلي<sup>(240)</sup> وهو يدعوني إلى مرافقته إلى مكتب الارتباط في رام الله: «تقدّمت بمعاملة للحصول على تصريح لزيارة القدس. لديّ تصريح مرافق لزوجتي التي تُعالج في القدس، لكنّ جنود الاحتلال يجبرونني على النزول من الباص، يطلبون منّي الذهاب إلى ما يُطلق عليه الناس مصطلح 'المعطّات'<sup>(241)</sup>، وهذا يتسبب بفصلي عن زوجتي. أريد تصريحًا يبقينا في الحافلة ذاتها».

قلت لصديقي ضابط الارتباط حين وصلنا: «أنا شديد التعاطف معكم هذه الأيام». كأنّ صديقي كان ينتظر ما قلته ليفرّغ فيض غضبه: «ليست المشكلة أنّنا مضطرون إلى الاجتماع إلى الإسرائيليين، المشكلة أنّ كلّاً منا يجتهد برأيه فيما نواجه عندهم مؤسسة واختصاصيين». علّق أبو نائل حزيناً: «نكاد أن نكون بلا مرجعية على الرغم من تراحم المرجعيات. أشعر بتعاطف شديد مع صديقك».

في سياق آخر قال لي مسؤول رفع المستوى سابق في السلطة: «هناك من يتفاخر لأبو مازن: 'صنعنا لك حدثاً بعد خطبتك في الأمم المتحدة'. هؤلاء أنفسهم يقولون للمحتل: 'نحن نقف للانتفاضة بالمرصاد، فعلنا كيت، و....'. دونية وانفصام».

قال لي صديق آخر وهو يتحدّث عن تعقيدات المشهد الفلسطيني ضارباً مثلاً بمعاناته مع أبنائه في ظلّ الهبة: «سألّني ابنتي ذات الستة أعوام: 'هل

تقبل أن أصبح فنانة؟'. أجبت: 'بالطبع إن كان الفن ملتزمًا'. قالت: 'ما رأيك أن أصبح شرطية؟'. أجبت: 'مع الفلسطينيين أم مع الإسرائيليين؟'. قالت: 'بالطبع مع الفلسطينيين، أنت فلسطيني وأنا ابتك فلسطينية'. قلت: 'لكنك تحملين هوية زرقاء/ هوية إسرائيلية'. أضاف صديقي: «نحن الفتحاويين في موقف لا نُحسد عليه. نبدو كمتهمين في نظر أطفالنا. نعاني انفصامًا حتى مع أنفسنا. أحد أطفالنا عمره تسعة أعوام معجبٌ بأبو عبدة قائد كتائب القسام. يقول لأشقائه: 'لا تجربوا والدي بذلك'. رفض حمل صورة أبو مازن في التظاهرة، لكنه يحب أبو عمار. ابني الثاني عمره أحد عشر عامًا يحب مروان البرغوثي».

قال أحد الفنانين من الأراضي المحتلة عام 1948 حزينًا: «أعاني مشكلات في أثناء السفر، خاصة إن أردت الدخول إلى دولة عربية. صحيح أنني أحمل جواز سفر إسرائيلي لكنني فلسطيني. مع الأسف هناك من لا يريدون رؤية تعقيدات المشهد الفلسطيني».

## من هو الإرهابي؟

فجر الحادي عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر 2015 دهمت قوات الاحتلال محطة إذاعة راديو الخليل. صادروا الشرائط والمواد الإعلامية، وسلّموا العاملين في المحطة قرارًا بإغلاقها لسته أشهر، الحُجّة أنّها تحرّض على العنف. إنّها المحطة الإعلامية الثانية التي تغلقها قوات الاحتلال في أسبوعين. قبل ذلك أغلقوا محطة إذاعة دريم في مدينة الخليل، وصادروا محتوياتها. ولمواجهة ما يبثّه الناشطون الفلسطينيون على وسائل التواصل الاجتماعي، شكّلت وزيرة الخارجية الإسرائيلية طاقمًا خاصًا.

أحال الشبّان والصبايا قوات الاحتلال إلى مسخرة. قال رجل لابنه مازحًا

بسبب تغريم قوات الاحتلال للابن بألفي شيكل: «سأخصم المبلغ من مصروفك الشهري». ردّ الصبي ساخرًا: «على هذا الأساس سيصبح مصروفي الشهري ألفي شيكل». في مشهد آخر استفز استماع شاب لأغنية لفيروز جنديًا إسرائيليًا على أحد الحواجز: «تستمع للغناء؟». ردّ: «نعم». قال الجندي حانقًا: «أطفئ المذياع». يحاولون نزع بذرة الفرح من قلوب الفلسطينيين.

لماذا انهار الفتى الفلسطيني بسكينه على مستوطن في مستعمرة كريات جات<sup>(242)</sup>؟ ربما دخل ابن الستة عشر ربيعًا إلى المستعمرة قاصدًا مساعدة ذويه في تأمين لقمة عيشهم، وفي أثناء وجوده هناك ربما أراد شراء حاجة من سوبر ماركت فطُرد أو استُفْزَ بسبب سحته العربية. أضحى إرهابيًا في نظر المحتل. أغلق المحتل النوافذ كلها إلا نافذة الموت.

جاء في الإذاعة الإسرائيلية: «عُثر على الفتى وبحوزته السكين، كان مختبئًا في فناء بيت من بيوت المستعمرة». لو كان الفتى «إرهابيًا» لتخلّص من السكين على الأقل. ربما احتفظ بها لحماية نفسه من التنكيل. المشكلة أنّ إسرائيل وحدها مصدر الرواية. هنا تضع الحقيقة. جاء في الإذاعة بعد ساعات: «قتل مستوطنون شابًا بدويًا يعمل في ورشة طانين أنّه منفذ عملية الطعن».

الطفل أحمد مناصرة ابن الأربعة عشر ربيعًا اتُّهم بمحاولة طعن. ظلّ يسبح في بركة دمه، والجنود والمستوطنون يتهدّدونه بأسلحتهم. نعتوه ووالدته بأقذع السباب. بعد أيام ظهر في شريط فيديو وهو يصرخ في وجوه المحققين: «مش متذكر، مش متذكر». أراد أن يقول: «اكتبوا ما تريدون أيها الظلمة». كان يصرخ من عمق طفولته البريئة. لم يُخلق هؤلاء الصبية ليُقتلوا أو يُقتلوا، خُلقوا ليحلموا. أنتم القتل والإرهابيون. لماذا تنشر أجهزة الأمن الإسرائيلية فيديو للطفل الجريح وهو يغرق بدمه، وصورة أخرى لتعنيفه من محققيه الصهاينة؟

لماذا ينشرون وثائق تدينهم؟ يريدون بثّ روح اليأس في قلوب الشباب.

بالمقابل هناك إبداعات فلسطينية مثل أغنية «بهمش» وأخواتها. كما وقد حوّل الشبان هواتفهم الذكية إلى أدوات حرب، وسخّروا شبكات التواصل الاجتماعي لخدمة المقاومة. في إحدى المرات جاء شاب إلى سوبر ماركت قريب من موقع الاشتباك في بيت إيل، أراد استدانة «ساندويتش مرتديلا»، تبرّع له صاحب السوبر ماركت بالشطيرة، وعرض عليه نقودًا. قبل الشطيرة كدّين، ورفض النقود. همّ رزق الذي تصادف أن كان في السوبر ماركت بدفع ثمن الشطيرة، رفض الشاب ذلك بإصرار. جمع رزق مئة شيكل من أصدقائه، وساهم صاحب السوبر ماركت بمبلغ، واشتروا ماءً وخبزًا للمتظاهرين. ربما من هنا انبثقت فكرة دعم أصحاب المطاعم في رام الله والبيرة للمتفضين. علّق شاب على جرائم المستعربين: «ماذا يعني اختطاف جريح من مستشفى في الخليل؟ لماذا لم يطفئ الجنود كاميرات المراقبة عند اقتحامهم للمستشفى؟ يعرضون عضلاتهم على مرضى! هذه جريمة لا بطولة».

## الانتفاضة ابنة جيلها

افتتح رائد الحديث: «ما بداخل هذا الجيل ليس ما يدور في رؤوسنا. ما نعرفه عنهم ليس كافيًا ليمنحنا شرعية إصدار الأحكام على تصرفاتهم».

قال نضال: «شكّلت عملية مهند الحلبي مفصلًا أساسيًا في مسار الهبة. بعملية الجريئة أرسل من لا تظهر على وجهه الناعم أي ملامح انتقامية رسالة قوية».

قال ناصر: «80 في المئة من الذين استشهدوا كان يمكن أن يُقبض عليهم أحياء. حين يصل الاحتلال إلى هذه الدرجة من الضعف يفقد عقله. أمسك الشبان نتيهاو من اليد التي تؤلمه. انظر ما يردّ به أسير على محقّقه: 'لماذا جئت'».

تطعن؟». يردّ الأسير: 'جئت لأستشهد'. كتبت فتاة على صفحتها في موقع فيسبوك قبل أن تخرج للعملية: 'أنا شهيدة اليوم'. يخطئ الإسرائيليون إن ظنّوا أنّ المسألة ناجمة عن إحباط».

قال رائد: «ما يجري عملية استنزاف لم يواجهها الإسرائيليون في تجاربهم الماضية. الشارع يحرك الشبان وليس القيادة. رجل الانتفاضة الأولى لا يستطيع قيادة الانتفاضة الثانية وهكذا. في القيادة مشغولون بترتيبات ما بعد أبو مازن. يمارسون عرض عضلات ضدّ بعضهم بعضاً، يبحثون عن حصصهم في الميراث. لا أحد يطلب إلى السلطة أن تمتشق السلاح وتقاتل، الجميع يعرف حدود إمكاناتها، لكن لماذا لا تتصدى لسياسة هدم البيوت بالإعلان عن أنّها ستبني كل بيت يُهدم؟ صادف العشرون من هذا الشهر يوم الطفل العالمي، لماذا لم تلفت القيادة انتباه العالم للجرائم المرتكبة بحق أطفالنا؟ ما الذي يضير أبو مازن لو استقبل الأطفال الجرحى؟».

علّق ناصر: «فتح لم تتخذ قراراً بالمشاركة مع أنّ أغلبية الناشطين في المواجهات فتحاويون، حرّكهم انتهاؤهم العميق. مصلحة الصغار في التحرّر، أمّا نحن الكبار فيقودنا الراتب، نتماهى مع مواقف السلطة بغض النظر عن ماضينا النضالي. حين كنّا في جيل أبنائنا طورنا واعتقلنا». أضاف ضارباً مثلاً على ما تركته الانتفاضة في ثقافة الأطفال: «في طريقي إلى منزلي قبل أيام، صادفت أطفالاً يتدربون على المقاليع، أخطأ حجرٌ هدفه فشجّ صدغ أحدهم، لكنّ الطفل لم يبكِ، حين سألته عن السبب ردّ بابتسامة: 'معلش، احنا بتدرب على المقاومة'».

علّق رائد: «قبل الانتفاضة كان أطفالنا مشغولين بالمسلسلات التركية، اختلف الأمر اليوم، قنواتهم المفضلة الآن هي التي تبث أخبار الانتفاضة، أضحى الشهداء والمواجهات مادة حديثهم. الانتفاضة تمارس تعبئة وطنية

تلقائية عجزت عنها الفصائل والمؤسسات والمدارس والأسر. في إحدى المرات ذهبت إلى حاجز بيت إيل، نزل طفل لم يتجاوز الثامنة من سيارة ذويه، ركض وألقى حجره الصغير صوب الجنود. طفل آخر لم يبلغ العاشرة أُصيب بطلق ناري في فخذه، ظلّ يتحدث بفخر عن حركة الرصاصة في جسده».

علّق ناصر: «سمعت طفلاً يتفاخر: 'بإمكاني أن ألبس كيهودي وأقتل جنوداً، ماذا لو لدينا سلاح؟ ماذا لو أُستبدلت السكاكين وعمليات الدهس بسيارات مفخخة وأحزمة ناسفة؟'. تستطيع إسرائيل قهر الشعب الفلسطيني مؤقتاً، لكنّ بركانه سيثور مجدداً».

قال محمود: «من ينفّذون العمليات لا ينتظرون أوامر من أحد، وحشية الاحتلال ودماء الشهداء المحرّضان الأساسيان. أكثر ما يخشاه الإسرائيليون أن تتحوّل الهبة إلى انتفاضة جماهيرية. من لا يتضرر لا يهتم، أمّا من مُسّت لقمة عيشه وكرامته، لا سبيل أمامه سوى الالتحاق بالانتفاضة. الذي قيل إنه نفّذ عملية في معاليه أدوميم<sup>(243)</sup> أمس شاب ثلاثيني متزوج، له ثلاثة أبناء، سائق سيارة أجرة. قيل إنّ مستوطناً حاول تجاوزه بسيارته، تلامست السيارتان، نزل الشاب لمعرفة النتيجة فأطلق مستوطن النار عليه من سيارة خلف سيارة المستوطن الأول، أوداه قتيلاً. هستيريا مدعومة بتشريع القتل عند أي اشتباه».

عن موقف السلطة قال محمود: «كلنا نعلم أنّ السلطة لا تستطيع مواجهة إسرائيل، لكن لماذا لا تلجأ لاستخدام القضاء الإسرائيلي لتفنيذ الرواية الإسرائيلية في القضايا التي تستطيعها؟ أربعة وتسعون شهيداً فلسطينياً حتى الآن، منهم عشرون على الأقل أُطلقت عليهم النيران بسبب الاشتباه، كالصبية التي أُطلقت عليها النار لمجرد رفعها لهاتفها الجوال، وأيضاً الفتاة إسرائ عابد التي أُطلقت عليها النار حين رفعت النظارة عن عينيها، ظنّ المارة أنّها ترفع سكيناً».

قالت طبيبة: «قبل الهبة سادت شائعات حول كفاءة الأطباء، هذا قتل امرأة بسبب قلة كفاءته، ذاك تسبب بموت طفل بسبب قلة مسؤوليته. لقد غيّرت الهبة المزاج الشعبي، جعلت الناس تنأى عن القيل والقال. لفت نظري أمس استجابة الناس السريعة لفتح الشارع أمام سيارات الإسعاف، أعادت الهبة الناس إلى خلق الإيثار. قبل الهبة كانت الأنانية تتحكم بالسلوك وتقرّر نوعية التصرف».

في ندوة قال الدكتور مفتتحًا النقاش: «لن أتوقف كثيرًا عند تسمية ما يجري. ليس مهمًا إن كانت هبة أم انتفاضة، يكفي أن نقول إنها امتداد للتعبير عن رفض الاحتلال، وعدم رضا شعبنا عن حالة الانقسام. نحن لسنا في مرحلة حسم الخلاف الداخلي، ما أقترحه عملية تساعد في تجاوز الانقسام دون تخلي أي جهة عن موقفها، صيغٌ تساعد في الاستجابة لمتطلبات إسناد الانتفاضة، مع تجنب ما تختلف بشأنه الفصائل. الذهاب لحسم الخلاف الآن يجعلنا نتصارع على الانتفاضة بدلًا من دعمها».

تحدّث سيدة مقدسية: «شباب الانتفاضة يعانون حالة ضياع ناجمة عن عدم وجود مظلة قيادية تدعمهم، حين يدعو إطار القوى الوطنية والإسلامية لفعالية لا يستجيب سوى القليل، على عكس ما يحصل حين يتداعى الشباب لفعالية بمبادرتهم الذاتية».

قال الأستاذ الجامعي تيسير العاروري: «منظمة التحرير ثوب مهترئ تستر به السلطة».

عقب أحد الحضور: «شباب الانتفاضة يعيشون حالة حلم، يعبرون عمّا بداخلهم بنديّة. جيلٌ غير مشغول بما تختلف عليه الفصائل».

نبح تحدّد



ثلاث عمليات طعن في يوم واحد. في إحداها قتل جنود الاحتلال الفتاة هديل، ذات الستة عشر عامًا، وأصابوا ابنة خالها نورهان، ذات الخمسة عشر عامًا، بجراح خطيرة. والتهمة محاولة طعن بمقص. عملية أخرى على حاجز حوارة، نفذها الفتى علاء حشاش ذو الستة عشر عامًا، من مخيم عسكر<sup>(244)</sup>. والثالثة نفذها أحمد طه من قرية قطن<sup>(245)</sup> على شارع 443. قُتل في العملية الأخيرة جندي، وأُصيب ضابط بجروح. في العملية ذاتها أُصيب ضابط آخر برصاص زملائه الذين أطلقوا النار على المنفذ.

في عملية رابعة أُطلقت النار على الفتاة أشرفت قطناني ذات الستة عشر عامًا فسقطت شهيدة. ونفذ الطالب بجامعة النجاح عزمي نفاع، ذو الاثنین وعشرين عامًا، عملية دهس على حاجز زعتر، أصاب ضابطین كبيرین؛ أحدهما برتبة كولونيل والآخر برتبة ليفتنانت كولونيل. وقيل إن القوات الإسرائيلية أحبطت عملية طعن حاول تنفيذها شاب في القدس. تمرد الأطفال، جعلهم الاحتلال مسجونين نفسيًا وجسديًا وثقافيًا. لا يستطيع أحدهم أن يسبح أو يخرج في الليل .. إلخ. أعادت الانتفاضة استحضار الثقافة الوطنية التي غطاها غبار «السلام الزائف». تحوّل الإحباط إلى تحدٍ.

«نريد أن يظلّ أبناؤنا أحياء». هذه رسالة هدامة يحاول مروجوها إظهار دمائنا وكأئها رخيصة. هل هناك من يريد عكس ذلك؟ ما يقوم به الصغار ناجم عن عجزنا نحن الكبار، عمليات الطعن تعبير عن انعدام الأدوات. قالت عبير: «جعلتني قسوة الحال غير قادرة على مواجهة ابني. حين أحاول إقناعه بعدم المشاركة في المواجهات يرد: 'أنا لا أشارك، لكن ماذا لو شاركت؟'. أنا واثقة أنه يشارك لكنني عاجزة عن الردّ عليه». أغلبية من يتباكون على الدماء ليسوا مع أي انتفاضة: «ما الذي جلبته الانتفاضات؟ تضحيات بلا ثمن! إسرائيل تبغي جرّنا إلى مربع عسكرية الانتفاضة». هذا ما يعزفون على

وتره، تيّس وابتزاز للآلام.

كتب هاني المصري في صحيفة الأيام الفلسطينية: «اعتبر البعض أنّ ما يجري انتحارًا، موتًا مجانيًا، وألّفت مجموعات بأسماء: 'الحياة أبقى من الموت'، 'لا للموت المجاني'. طالبت هذه المجموعات بعدم إلقاء الأطفال في المعركة حتى يعيشوا طفولتهم. طالب بعض الكتّاب القيادة والفصائل والمؤثرين بالتدخل لوقف هذه الظاهرة، وقف تمجيد وتشجيع زجّ الأطفال في ظاهرة استخدام السكاكين. وصل الأمر بمحلل معروف أن قال إنّ استخدام السكاكين مخالف للقانون الدولي. إنّ ما يمنع تحوّل الهبة إلى انتفاضة شعبية سلمية كما تطالب القيادة هو استخدام السكاكين والدهس».

كتب مهند عبد الحميد في الصحيفة ذاتها: «أطلق رجل أمن إسرائيلي النار على الطفلة هديل - ستة عشر عامًا - في أثناء محاولتها طعن إسرائيلي. سقطت على الأرض دون حراك، أجهز عليها رجل أمن ثانٍ، وأطلق النار على ابنة خالها نورهان - أربعة عشر عامًا - التي جلست على الأرض دون فعل شيء. في اليوم السابق أطلق الجنود النار على الطفلة أشرقت قطناني - ستة عشر عامًا - وأردوها قتيلة. قتل جيش الاحتلال اثنين وعشرين طفلًا وطفلة في أقل من شهرين. لماذا دخل الأطفال هذا الممعان من المخاطرة المكشوفة؟ إنّ القمع والإذلال، الحرمان من الحقوق ونهب الأرض، العدوان الدائم والمخيف عبر عشرات الأعوام».

كتب أحد المحللين في صحيفة معاريف: «... المقلق في موجة السكاكين أنّه لا يوجد من نتهمه، السلطة الفلسطينية تستمر في التنسيق الأمني، وحماس لا تطلق الصواريخ من غزة. هذه هي إحدى الانتفاضات الأكثر استفزازًا من بين تلك التي عرفت إسرائيل. لا يوجد خلفها تنظيم أو قيادة، لا يوجد نموذج لمنفذي العمليات، لا توجد وصفة فعالة للعقاب. هدم المنازل لا يكبح

حاملو السكاكين، ولا يمكن تهديد سكان الخليل بسحب الإقامة منهم مثلما يهدّد سكان القدس الشرقية. لا يوجد للجيش الإسرائيلي من ينتصر عليه. ليس سكان المناطق فحسب هم المسجونون داخل روتين الاحتلال، لقد تحوّلت إسرائيل إلى دولة مُسيطر عليها من الاحتلال».

كتب المحلل السياسي إيتان هابر في صحيفة ידיעות أحرونوت: «ثمة زعماء إسرائيليون في كل عهد، في كل حكومة، يحبون جدًّا استخدام الكلمات الكبيرة؛ نهبي، نصفي، نتصر، وما شابه. من يحسن السمع سيلاحظ الحرج في أسئلة الزعماء، ومن يحسن الرؤية سيلاحظ الغضب الذي يطفو على وجوههم 'قوات الأمن غير قادرة على توفير البضاعة'. لن تُجدي خطبات الحرب وإثارة المشاعر. الفلسطينيون يتعلّمون ويجتهدون كي لا تتكرّر أخطاؤهم. كيف حصل أنّه بسبب سكاكين المطبخ يغلق عشرات الآلاف على أنفسهم في منازلهم خائفين؟ لماذا يصنّف عندنا كل من له لكنة عربية كمشبوه بالإرهاب؟ اليأس الفلسطيني التقى مؤخرًا اليأس الإسرائيلي. لا يمكن أن تنتصر السكين، لكنّها تُبقي المشكلة الفلسطينية في الصورة، تدفع العالم إلى الاعتقاد أنّ فيها يكمن مصدر كل مشكلة، هذا يكفي الفلسطينيين الذين يشعرون أن ليس لديهم ما يخسرونه فيخرجون بالسكاكين لفرض الرعب علينا. نحن مفزوعون، فيما الفلسطينيون متشجعون ويُحِيل لهم أنّهم سينتصرون».

كتب نداف هعتسي في صحيفة معاريف: «صحيح أنّ وزير الدفاع محق. ضبط النفس ورباطة الجأش هما أحد مفاتيح الانتصار، لكنّ ضبط النفس والعُصّ على الشفتين يجب أن يكونا من نصيب الجمهور الغفير، بينما المتوقع من الجيش والحكومة أكثر بكثير. نتوقّع منهم أن يستخدموا الخيال، الجسارة الإبداعية والهجومية، أن يتصدّوا لهجمة العدو الجديدة بحكمة وبكسر الأدوات، أن يضربوه ضربة واحدة شديدة 'سور مصمم من لجة الموت'.

واضح أنّ ميدان المعركة الجوهرى موجود فى المعركة ضدّ أدوات التحريض، ضدّ من يغرسون أفكار الذبح فى العقول الإجرامية الشابة، لكنّ الحكومة والضباط الكبار لا يتجرأون على ذلك، إنهم مشلولون، يخافون من الأميركيين، ومن مخاوفهم هم أنفسهم. الشرير الكبير الواقف أمامنا يُهزم بالقوة، وليس بضبط النفس والاحتواء. يجب أن نجسّد لكلّ ذبّاح محتمل، لكلّ من يدعمه، يفهمه أو يمتدحه بعد موته، أنّ ثمن ذلك سيكون أثقل من الاحتمال. ينبغي لأهل كل فتاة محروسة، أن يعرفوا أنّ حياتهم نفسها ستتخطم. ينبغي أن يعرف كل من يوزّع السكاكر أو يطلق هتافات الفرحة لأفعال الذبح أنّه سيدفع ثمنًا باهظًا، هكذا فحسب نتمكن من منع استمرار القتل».

جاء فى مقالة كتبها المحلّل الإسرائيلى رون بن يشاي: «أصدر ضباط الجيش والشرطة أوامر شفوية لمتسييهم: 'اقتل المخرب قبل وبعد العملية'».

جورّ دائم أو إعدام ميداني. هذه هي الخيارات التي فرضها المحتل على الفلسطينيين، والشباب المحمّلون بأحلام الحياة قرّروا أن يموتوا بشرف. قد يكون بينهم من لديه مشكلة نفسية أو اجتماعية، وهذا يعني أنّ الشعب بأسره تآثر ضدّ الاحتلال. أغلبية الشهداء طلبة مدارس وجامعات. كثيرون ينحدرون من شرائح اجتماعية ميسورة، فيهم أغنياء ومتفوقون فى حياتهم وأعمالهم. أوامر قادة جيش الاحتلال تمنح الشرعية لقتل كل من يُشكّ بأمره وللتنكيل بالمصاب. عبقرية التضييل الإسرائيلى سمحت بتسويق العمليات الفلسطينية كعمليات إرهابية، وبخلطنا نحن الفلسطينيين بين البطل والضحية خدمنا روايتهم. نحن نصرّ على جانب البطولة فحسب. ماذا نقول بمن قُتل وهو فى طريقه إلى عمله أو مدرسته؟ ما موقفنا ممّن أُعتدى عليه بسبب سحتته أو لغته؟

جاء على لسان ضابط إسرائيلى كبير: «اعتقل الجيش ما لا يقل عن ألف

فلسطيني خلال شهري المواجهة الأخيرين». ما يدفع الشاب للطعن هو السلطة المتبلورة في رأسه، إنه القائد في غياب القيادة. يملك قوة الاستمرار لأنَّ أحدًا لا يعرفه ليتخذ إجراء يعوّقه. لا يحتاج لمن يساعده لأنَّه لا يحتاج إلا لسكين مطبخ وأجرة الطريق. هنا تكمن معادلة العجز الإسرائيلية. حرب غير مكلفة، ويعج الميدان بجيل قرّر تحدي القهر. جسم نام يفكر بالمستقبل. من هنا ينبع الإقدام.

جاء في نشرة أخبار الإذاعة الإسرائيلية صباح السابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر: «نفذ فادي خصيب عملية دهس بالقرب من مستعمرة معاليه أدوميم». إنه شقيق شادي خصيب الذي نفذ عملية دهس في الموقع ذاته قبل أسبوع. ظهر اليوم ذاته نفذ عمر زعاقيق -ثمانية عشر عامًا- من قرية بيت أمّر<sup>(246)</sup> عملية دهس أسفرت عن إصابة خمسة جنود إسرائيليين عند مدخل القرية.

## لعبة الصغار

طقس مشمس وطبيعة خلابة. أوقفت وزوجتي سيارتنا عند طرف بلدة سردا الشرقي، وهبطنا لجمع ما نستطيع من حشائش الربيع البرية؛ لوف، خبيزة، ورق لسان، حلوان، وما شابه. لم نجد شيئاً. ما زال الموسم مبكراً. سألت امرأة أطلّت من شرفة منزل عائلة الزبيدي: «هل يوجد شبّان؟». نادى المرأة بصوت عالٍ: «أبو رقية، جاءك ضيوف». هبط المهندس أبو رقية من الطبقة العلوية، وتلاه شقيقه الدكتور زهران.

اعتذرت عن عدم الدخول: «نريد أن نتمتع بسحر الطبيعة، ثمّ نعود ونشرب الشاي».

اعتذر أبو رقية: «إنني أتهياً لحفل خطبة ابن شقيقتي في قرية جبع، ساعة

وأعود».

- هل سيرافقك الدكتور زهران؟

- لا، سيظلّ معك.

في طريق ترابي على السفح المطل على وادي «الخرب»، فتية يتوزعون على فريقين يفصل بينهما حاجز من أغصان الزيتون، مشهد يحاكي مواجهة لشبان فلسطينيين مع جنود الاحتلال. بعض الصبية يحمل دمي تشبه بندق الجنود، آخرون يتسلّحون بمقاليع وبعضهم ملثّمون. ثمانية أشبال تتراوح أعمارهم بين الثالثة «آدم»، والرابعة عشر «محمد». تساءلت في داخلي وأنا أرقب انفعالهم: «بأي أدوات سيقا تل هؤلاء في الانتفاضة الآتية؟».

سألت أحدهم «عبد الغني»:

- ماذا تفعلون؟

- نجهّز لنشر فيديو على اليوتيوب.

لفتت انتباهي كرات ورقية على الأرض فسألت:

- ما هذه؟

- نستخدمها بدلاً من الحجارة، كي لا نوذي بعضنا، وتلك تمثّل قنابل غاز.

سألت صبيّاً يقف على مرتفع وييده هاتف نقال:

- وأنت ما دورك؟

- أقوم بدور الصحفي. تأثرت كثيراً بالفيديو الذي ألقّت فيه امرأة غاضبة

حقيقية يدها في وجه جندي. كانت مقهورة وتصرّفت بشجاعة. ثمّ إنني متأثر بالفيديو الذي بُثّ عن الشهيد مهند الحلبي، انظر صور الشهيد معلّقة على صدورنا، تخرّج في مدرستنا، أعرفه شخصيّاً.

قال محمد - عشرة أعوام - توأم عبد الغني:

- أنا أجد الضرب بالمقلع، هذا دوري.

قال ذلك وطوّح حجراً سقط بعيداً في الوادي.

التفت لآدم وقال:

- دوره أن يمثل ابن مستوطن يلقي علينا الحجارة.

فجّرت الهبة قوى الإبداع الكامنة.

علّق الأستاذ الجامعي زهران: «بألعابهم البريئة يعبر الأطفال عن عمق الصراع في بلادنا. ظلم الاحتلال، الأوضاع الاجتماعية القاهرة، وعجز السلطة والفصائل وغير ذلك. هذه الحال أخرجت الأطفال عن أطوارهم، فتولّوا الأمر نيابة عمّن بيدهم الأمر. رسالة بليغة».

في طريق عودتنا كان «الاشتباك المسرحي» على أشده. مشهد مؤثر والطفل «الصحافي» منهمك بالتقاط الصور. ردّ محمد حين سألته عن نتيجة الاشتباك:

- أصبنا جندياً بحجر، وأصيب اثنان منّا برصاص مطاطي.

قالت خديجة مازحة وهي تقدّم لنا الشاي: «تأخرت عليكم. كنت مشغولة بإطعام رعيّتي من الأرانب والدجاج والإوز». أضافت عن الهبة: «مع الأسف نحن بنبي مشروعاتنا على العواطف، يهبُّ الناس لشهر، لشهرين، لعام، ثمّ تحمد الهبة. نحن نفتقر لمؤسسات وبُنى تضمن الاستمرارية. وكثيرون من صغار السنّ يتصرّفون مع الحدث كلعبة، ثمّ لا تنسى أنّ طول الأمد دون إنجاز يتسبّب بفتور الهمم. مع ذلك علينا ألاّ نستهيّن بما حقّقته الهبة، لقد بثّ الرعب في قلوب الإسرائيليين، وانتزعت الخوف من صدور شبابنا. جيل سيترك بصمته على صفحة التجربة».

قال أحد الأطفال فرحاً وقد عاد ورفاقه قبل الغروب: «جنّا لنُريك شريط الفيديو».

ضحكنا من قلوبنا حين قال الطفل الذي أدّى دور المصوّر الصحافي في نهاية الشريط الذي تابعناه بشغف: «دار علي دار». حاول الصبيّ تقليد مراسل تلفزيون فلسطين «علي دار علي»، لكنّ شدة حماسه جعلته ينطق الاسم بالقلوب.

## لا يجوز تحميل الهبة ما عجزت عنه الثورة

«هل أنت في فلسطين؟». هذا ما سألته لصديقي هُمام. ردّ: «أنا في فندق رويال كورت مقابل متنزه بلدية رام الله». خمس عشرة دقيقة وكنت في الفندق. مررنا على حاجز بيت إيل حيث المواجهات. اقترحت على صديقي جولة في البلدة القديمة بمدينة رام الله. حدّثته عن قراءتي للحدث الجاري في بلادنا. أنّه لا يجوز تحميل الهبة ما عجزت عنه الثورة، ويجدر التفريق بين ما في الرؤوس وما هو في الواقع، فلطالما حذّر الفيتناميون من خطورة الشعارات الكبيرة، فالشعار الذي لا يؤدي إلى فعل إيجابي يتسبب بإحباط ويأس.

قال هُمام حين تطرّقنا لتراخي الجمهور إزاء الهبة: «جُفّفت منابع وأدوات الفعل الجماهيري في الأعوام الأخيرة. استنفذت الإجراءات الأمنية الإسرائيلية ومستلزمات التنسيق الأمني طاقة المقاومة، وبثّت تصريحات القيادة إحباطاً في الأنفس. شُغلت السلطة والفصائل بالشعارات والسياسات الفوقية، والانقسام يرخي بظلاله السوداء على الروح المعنوية، ثمّ انظر ما آل إليه الربيع العربي!».

قلت ونحن نمرّ من أمام المقاهي الشهيرة في شارع الطيرة: «هذا وجه ثانٍ من وجوه رام الله، في بلادنا تتجاوز المتعة مع الموت». اصطحبت صديقي إلى دوار المنارة، رجال ونساء من الفصائل، ولافتات وشعارات. هذا وجه ثالث من وجوه المدينة. على حاجز بيت إيل المستقبل، في مقاهي الطيرة الرفاهية،



وهنا بقايا الماضي. وهناك وجوه أخرى.

قال وليد: «قبل مدة سألت عضو لجنة مركزية عن موقف فتح والسلطة من الهبة، شرّق وغرّب ثمّ قال: 'طالما وقعت الهبة يجب ألا نكون خارجها'. عيبٌ أن نكون مع القديس وضده في الوقت ذاته. القيادة بعيدة عن نبض الناس ومزاجهم، والوضع الاقتصادي في متهى السوء. نقطة الضعف الكبرى في الصراع داخل فتح، ثقب يمكن أن يُغرق السفينة».

وجّهت أجهزة أمن السلطة الشبان للتظاهر أمام سجن عوفر بدلاً من حاجز بيت إيل. الحجة أن الرئيس سيعبر الشارع في طريقه إلى خارج البلاد. تقبّل الشبان الأمر، لكنهم احتجوا على إغلاق الموقع لأسبوع. مُشادات بين ناشطي «فتح» وجنود حرس الرئاسة!

قال ممثل أحد الفصائل في لجنة القوى الوطنية والإسلامية: «يجب وقف مهزلة التظاهر عند بيت إيل». قال ممثل «فتح» مؤيداً: «ليذهب المتظاهرون إلى مكان آخر؟ ضاق سكان المنطقة بتظاهراتهم». موقف الأول ذلي، وموقف الثاني صدى لصوت السلطة.

جاء في الأخبار: «قُتل فلسطيني باصطدام سيارته في مستعمرة بساغوت، وعُثر في سيارته على سكين». همست في داخلي: «نحن فلاحون، لا تكاد تخلو سيارة أحداً من سكين وأكثر». تفقّدت سيارتي فعثرت على سكينين. في طريق مغادرتي لرام الله ليس هناك جنود على حاجز عطّارة<sup>(247)</sup>. في أثناء العودة سيل سيارات تغادر المدينة. يحتاج المرء لأكثر من ساعة لعبور الحاجز.

قال أحد ناشطي الانتفاضة الأولى: «في الانتفاضة الأولى كان وضع الفصائل أفضل، ولم يكن هناك انقسام كما اليوم. يتشتت لهيب النار حين لا تجد موقداً يحتضن جمرها، وربما يتسبب تطاير الشرر بحرائق. في تلك الانتفاضة دفعت الوحدة الناس للتصدي ببسالة لجنود الاحتلال، كانوا

يرفضون إنزال علم فلسطيني يرفرف فوق سطح منزل أو الدوس عليه،  
تمردوا على إرادة المحتل، وتحملوا الأذى والإهانة. كانت الوحدة دينمو  
القاطرة».

«هل تعاني مشكلة مع أبنائك في موقفهم من عمليات الطعن؟». هذا ما  
سألته لصديق، فأجاب: «ما زال أولادي صغارًا، أكبرهم في السادسة.  
الحوادث تلفت انتباه الأطفال، هذا ما أستشعره من تفاعل طفلي الأكبر. لا  
تنسى أن مجتمعنا بكامله يرزح تحت وطأة ما يجري، نحن لا نستطيع عزل  
أبنائنا عن الواقع، يشعرون بما نشعر به ويتأثرون مثلنا. انظر إلى الألعاب التي  
يفضلونها، ألعاب ذات طبيعة عسكرية، يقلدون الأبطال ويؤلفون لهم أغاني.  
بهذا يفرغون غيظهم ويشعرون أنهم يكبرون. وهناك قصص البطولة التي  
تحتزنها الرؤوس الصغيرة. تأثير الحوادث أكثر قوة مما يستطيعه الأهل  
والمرّبون. جيل أراد له المحتل أن يتربّي على المخدرات فإذا هو يقاتله ببسالة.  
أظنهم يتساءلون: لماذا ارتد الجيل ضدنا؟».

ما الذي جعل شبان الهبة يناون عن استخدام السلاح حتى الآن؟ ربما  
تعلموا من تجربة انتفاضة الأقصى، واستفادوا من تجارب المقاومة الشعبية  
للقرى المحاذية للجدار، ولقد اختلف الوضع عمّا كان عليه في انتفاضة  
الأقصى، يومها كان هناك فصائل حية استخدم ناشطوها السلاح. لكنّ  
الأجهزة الأمنية جففت مصادر السلاح عبر الخمسة عشر عامًا الأخيرة.

الحمد لله أنّ الانفجار وقع في وجه الاحتلال، فلطالما خشي الناس أن  
يتسبب فساد السلطة بانحراف البوصلة ضدها. كأنّ الفلسطينيين محصّنون  
بوعي شعبي ترسّخ مع المعاناة، وعي جنبهم الوقوع في وحل ما آلت إليه  
ثورات الربيع العربي. أدرك الفلسطينيون خصوصية وضعه؛ إنه يعيش في ظلّ  
سلطة تحت الاحتلال. ربما هذا ما جعل الشباب يقفون حذرين فيما يشتعل

محيطهم العربي بانتفاضات عارمة!

اتصلت بالصديق محارب:

- ما رأيك بزيارة لصديقنا أبو إياد؟

- ربما الطريق إلى قريتهم «بيتين»<sup>(248)</sup> مقفلة؟

اتصلت زوجة محارب بأم إياد:

- هل الطريق مفتوحة إلى قريتهم؟

- لا. يمكنكم العودة منها فحسب.

بدا المشهد حزيناً ونحن نعبر دوار بيت إيل وقد خلا من رماة الحجارة. وسط العتمة عند بوابة مخيم الجلزون<sup>(249)</sup>، أمواج شبّان عائدين من مواجهات عند مستعمرة بيت إيل، بدلاً من اصطدامهم بحرس الرئاسة عند الحاجز نقلوا المواجهات إلى بوابة المستعمرة. موقف عبقرى.

قالت أم إياد ونحن نتحدّث عن مواجهات مخيم الجلزون: «منذ قليل توقّفت سيارات الإسعاف عن نقل المصابين من قرية سلواد، قيل إنّ شاباً دهس أربعة جنود إسرائيليين». علّق محارب: «الانتفاضة فكرة، كرة تلج، وهناك جراءة لافتة».

## جيل أوسلو

جاء في الإذاعة الإسرائيلية: «أطلقت النار على سيارة إسرائيلية عند حاجز قرية حزما وأصيب جندي، ومُطلق النار هو مازن حسن ضابط في المخابرات الفلسطينية». في اليوم ذاته طعن شاب من مدينة طولكرم شرطياً إسرائيلياً بباب العمود، وفي اليوم التالي طعن ابنا عمّه جندياً في منطقة تل الرميّة، واستشهد الاثنان. علّق ضابط إسرائيلي: «إنّها المرة الأولى التي نواجه فيها

أطفالاً لا يهابون الجنود». قال ضابط آخر: «جيل أوصلو أخطر ما مرَّ على إسرائيل، لقد توقعنا أن يكون غير ذلك».

أحالت الهبة حواجز الاحتلال مذبحاً لجنوده. في أحد الحواجز طلب جنديّ تفتيش شاب فانهاش الشاب عليه طعناً بسكين، وفي القدس استهزأ جندي بشاب فطعنه الشاب بسكين. ونفذ الشاب عبد المحسن حسونة عملية في محطة للحافلات في مدينة القدس، فأمر نتيهاو بتحسين ثلاثمئة محطة حافلات في القدس. قال وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي معقّباً على ما يجري: «نحن نواجه خصماً عنيداً. انتصرنا عليهم مراراً، علينا أن نتصر عليهم اليوم». أمّا رئيس الوزراء الإسرائيلي نتيهاو فقال: «لا أستطيع مصادرة السكاكين من مطابخ الفلسطينيين».

كتب ناحوم بارنيك في صحيفة ידיعوت أحرونوت: «بدأت الانتفاضة الأولى كتمرد شعبي. الانتفاضة الثانية بادرت إليها المؤسسة الرسمية الفلسطينية. هذه الانتفاضة، الانتفاضة الثالثة، لا هذا ولا ذاك حتى الآن. ما زال الجمهور في البيت والتنظيم 'تنظيم فتح' لم يطلق النار، لا توجد قيادة تنظيمية يمكن قصفها ولا قادة رسميين يمكن معاقبتهم. القاسم المشترك بين منفّذي العمليات هو اليأس. اليأس يحوط بالجميع؛ إسرائيل، السلطة الفلسطينية ورئيسها أبو مازن وجميع التنظيمات. هناك شعور في الأجهزة الأمنية أنّ الإرهاب تلقائي. كل عملية تخلق عملية أخرى، دينامية أقوى من أي تفكير عقلائي. قال مغيل يانون الذي التقيته في مقرّ الكنيسة: 'يجب قتل جميع من يشبه أنّ له علاقة بالعمليات، لا يجوز التحييد أو الاعتقال أو التقييد'. في اليوم ذاته وقعت عملية في سوق محانيه يهودا في القدس، المهاجتان فتاتان صغيرتان والسلاح مقص. شاهدت فيلم الفيديو قبل المونتاج. أطلق الحارس النار على إحدى الفتاتين حين حاولت طعن مواطناً، الفتاة الأخرى

جلست جانباً دون حراك. أطلق الحارس النار عليها مثلما تطلق النار على دمية إوز في حديقة ألعاب».

كتب نوعم أمير في صحيفة معاريف: «يروي العقيد روعي شطريت قائد لواء إفرائيم: 'منذ اندلعت موجة الإرهاب الحالية، قبل نحو شهرين، وجهاز الأمن يعمل في تضافر للقوى لإحباط العمليات. في كل يوم نجلس هنا حول طاولة قائد اللواء، قادة مخابرات، حرس حدود، ومحافل أمنية أخرى تعرف الميدان، يعملون معاً لإحباط الإرهاب. من هنا نخرج في الليالي لاعتقال المطلوبين. لا مجال للخطأ، لا بالبيت ولا حتى بالغرفة. الاعتقالات أحد العوامل الأساسية كي لا تنجر موجة الإرهاب إلى انتفاضة. تربى هنا جيل لا يتذكر السور الواقى، لا يخاف. كل حدث صغير يمكن أن يؤدي إلى تصعيد على نطاق واسع. نحن لا نرى نهاية قريبة لهذه الموجة، بحسب الإحساس والمقاييس المختلفة لن تعود الأمور إلى ما كانت عليه. كبار السن يقولون نحن نعرف ما يمكن أن نخسره، أما الشباب فلا يعرفون إلا القصص'».

قال لي صديق: «جاءت الهبة في لحظة ضُبطت فيها السلطة الفلسطينية متلبسة بالمشهد المقلّز الذي انتشر على الفضائيات المختلفة حين انهار رجال الشرطة الفلسطينية ضرباً وركلاً على شاب من بيت لحم، لمنعه من التظاهر عند قبة راحيل. كان المشهد محرّجاً لدرجة أن الإجراءات التي أُتخذت بحق مرتكبي الجريمة لم تتمكن من مسح صورتها من أذهان الفلسطينيين. هذا سبب وجيه منع السلطة من التصدي للهبة التي اجتاحت الحواجز الإسرائيلية على أطراف المدن. وهناك عجز السلطة عن فعل شيء بعد حرق وقتل الطفل محمد أبو خضير وحرق عائلة دواشة، ثم ترافقت الهبة مع خطبة أبو مازن في الأمم المتحدة، لهذا سكّنت عنها السلطة، رأت فيها مصلحتها، السلطة كالبالع سكين، غير قادرة على وقف الهبة ولا تريدها أن تستمر، مأزق كبير. إسرائيل

تدرك معنى العملية التي نفّذها ضابط المخابرات الفلسطينية على حاجز حزما، وقبله إطلاق شرطي فلسطيني النار على مستعمرة عوفرا<sup>(250)</sup> قرب سلواد. إنهم يدركون خطورة أن يوجّه سلاح السلطة إلى صدور جنودهم. رهان السلطة على أن تبقى وتيرة الهبة على هذا النحو رهان أهبل».

## تَوْهَان

«على السلطة الفلسطينية أن تعتدل، وعلى الفصائل أن تبادر إلى الإمساك بدورها التاريخي، وعلى الجماهير الشعبية أن تحوّل الانتفاضة إلى فعل شعبي يومي، وعلى الأمة العربية.....». هذا بعض ما كتبه صديقي في إحدى الصحف. بعد أيام حزنت وأنا أستمع لصديق آخر يتحدث عبر شاشة فضائية: «يجب إغلاق المدن بالجماهير. اعملوا عصياناً مدنياً. قولوا سنطرد الاحتلال بأجسادنا...».

أوامر ومطالب تعكس العجز والغربة.

قال أسير محرّر في لقاء في رام الله:

«هذا اللقاء محاولة من الأسرى المحرّرين للمساهمة بخروج حركة فتح من حالتها الراهنة».

قال عضو لجنة مركزية مُثنيًا على المبادرين للدعوة للاجتماع:

«بهذه الخميرة نملك رصيذاً استراتيجيًا».

قال عضو لجنة مركزية آخر:

«علينا أن نقول بصوت عالٍ إنَّ فتح هي الحركة القائدة وليس حركة القائد. كما قلتم للاحتلال لا، لنصرخ بذلك في وجه التفرد بالحركة وبالسلطة. نحن في القيادة لا نعرف أسماء عشرة سفراء، لا نستطيع توظيف أحداً، تصدر

بيانات باسم اللجنة المركزية دون معرفتنا. من قاتل العدو بشجاعة يستطيع أن يقول لا». «هل يريدونهم وقودًا في صراع داخلي! كأننا يريدون حرف الهبة عن مسارها الصحيح». هذا ما همست به لنفسي.

جاء في الإذاعة الإسرائيلية يوم التاسع من كانون الأول/ ديسمبر: «أصيب أحد المستوطنين وزوجته في عملية إطلاق نار من سيارة مارة». في اليوم التالي دهس شاب أربعة جنود إسرائيليين.

فعلت الهبة الكثير حتى الآن، لكن إلى أين؟ إلى متى؟ لا يملك أحد جوابًا. الفدائي الذي اجتاز الحدود في الستينيات والسبعينيات كان يدرك أنه سيستشهد أو سيُعتقل، لكنه كان يقتحم. هذا ما يفعله شباب هبة اليوم. «هم يذهبون ونبقى»، هذا ما تصدح به حنجرة المغنية جوليا بطرس.

### انتفاضة «يتيمة»

في طريقي إلى صالون الحلاقة في رام الله، مررت باحتفال انطلاقة «الجبهة الشعبية» على دوار المنارة. حوالى مئة شاب يرفعون رايات الجبهة وأعلام فلسطين، وميكروفونات تصدح بأغانٍ وطنية. ضالة الحشد تعكس هشاشة الفصائل.

قال شاب فتحاويّ مغتاظًا من موقف السلطة: «أول أمس منع حرس الرئيس الكتلة الإسلامية في جامعة بيرزيت من التظاهر على حاجز بيت إيل، واليوم سمحوا للشبيبة الفتحاوية بالتظاهر. سياسة حمقاء ستتسبب بإضعاف أبناء حركة فتح أمام أنفسهم وفي نظر الآخرين. سيظهرون كحاملي بطاقات VIP. المؤسف أن بعض أبناء الشبيبة أصبح أدوات بيد الأجهزة الأمنية الفلسطينية. هذا تخريب للروح الفتحاوية المقاومة».

في اليوم التالي أفاض محاضر في شرح تاريخي عن تقنيات قمع المستعمرين

للثورات، وكيف أنّ إسرائيل طوّرت أساليبها الخاصة وصدّرتها كمنتج أمني. أضاف المحاضر عن الهبة: «يعترف صنّاع القرار الإسرائيلي أنّهم يواجهون في 'هبة' انتفاضة اليوم تحديًا غير مألوف يتمثّل بالعمل الفردي والعفوي الذي تطلق عليه إسرائيل مسمى 'إرهاب الأفراد' و'الذئاب المنفردة'. وهي تسميه أيضًا

'الانتفاضة اليتيمة'، وهناك منّا من تماهى مع التسمية الأخيرة». وردّا على سؤال حول الجدل الدائر بشأن عمليات الطعن قال: «نقاشات غبية، انهزامية».

علّقت مستفزا: «ماذا نسَمّي ما يجري بأقل من اليُتم؟ مواجهات تدور منذ ثلاثة أشهر من دون أن تجد راعيًا في السلطة والفصائل. شعب مثقل بهموم معيشية وخيبات متتالية، قلبه مع الانتفاضة، لكنّه متردد بالانخراط فيها. والعرب يلحقون جراحهم، فيما العالم مشغول بسورية. ما يجري يشبه حال صبي ذكيّ اضطرته وفاة والده إلى ترك مدرسته، للعمل في ورشات الباطون ليعيل والدته وإخوته. ثمّ ليس من حقنا إطلاق تسمية 'غبي' على أي نقاش مهما كان، هذه نظرة استعلائية». أضفت: «اليُتم الذي قصدته في حديثي تعبير عن الحالة الواقعية، مقارنة لبؤس الحالة السياسية الرسمية والفصائلية الراهنة وانعكاساتها الشعبية، أمّا من حيث التجربة التاريخية فإنّ هبة اليوم امتداد لمقاومة الشعب الفلسطيني المتواصلة منذ أن وطئت أقدام الصهاينة أرض فلسطين. هذه الهبة ابنة انتفاضة الأقصى عام 2000، وحفيدة انتفاضة عام 1987. وثورة عام 1936 جدتها الكبرى».

في نقاش مفتوح قال شاب مقدسي: «في زيارتي لأقاربي في إحدى قرى رام الله قال لي أحدهم باستخفاف: 'قم وشاركنا رمي الحجارة على الجنود أيها المقدسي المرفّه'. إنّهم يحسدوننا على بطاقة إقامة في القدس وتأمين صحي. لا



يدركون قسوة ما يدفعه المقدسي ثمنًا لصموده في المدينة».

قال شاب من رام الله: «أنا لست مع الانتفاضة، لست مع العمليات التي بلا مقابل. باستجابتنا لعنفهم يجرّنا الإسرائيليون إلى ملعبهم. أصبحنا نخدم مخططهم دون وعي».

ضجّ الحضور محتجّين.

قال الشاب المقدسي منفعلًا: «لو كان لدى الناس وسائل أقوى من الطعن والدهس لما ترددوا باستخدامها. نعم هناك ثغرات يجدر سدّها، أمّا أن يُقال إنّ الإسرائيليين جرّونا إلى ملعبهم، هذا ظلم».

قال شاب من الخليل: «لا يوجد قيادة فلسطينية تُشعر شعبنا بالأمان. الثقة معدومة بين الشعب والقيادة. لا يجوز إطلاق مصطلح العنف على ما يقوم به الشباب».

رفع شاب عينيه عن هاتفه الخليوي وقال منفعلًا: «عملية دهس جديدة في القدس».

قال شاب من أريحا: «حساسية المسجد الأقصى والجرائم التي ارتكبت بحق المرباطات ألهبت المشاعر. أراد الشباب أن يمسكوا زمام أمرهم بأنفسهم. الطعن والدهس هي الأدوات المتبقية لدفاع الفلسطيني عن نفسه. كلّنا نعاني، لكنّ ردّات أفعالنا تختلف بحسب بيئاتنا، وبحسب أعمارنا ودرجة تضررنا. موقف من استشهد شقيقه أو والده، يختلف عمّن لم يصبه أذى. كلمة عنف لا تنطبق على مقاومتنا».

قال شاب آخر: «يتأثر الأطفال بالواقع، بالأغاني التي تمجّد البطولة، منهم من يعاني مشكلات اجتماعية، هؤلاء قلة، لا يجوز التعميم ولا التشكيك. مع شديد الأسف ليس لدينا مؤسسات لدراسة الحالات والخروج باستنتاجات

صحيحة».

علّقت صبية على ما قاله الشاب من رام الله في البداية: «تعمل إسرائيل على عقول الشباب، تحاول احتلال ثقافتنا، مصطلح العنف الذي تحدّث عنه زميلي جزء من مفردات اللغة التي جاءت بها مؤسسات NGOs. هناك محاولة متعمّدة للخلط بين العنف والمقاومة. لا يجوز أن نقع في فخ الكلمات والمفاهيم المضلّة. الانتهاك اليومي لحقوق الطفل، لذويه ولأبناء شعبه، جعلته يخرج عن طوعه. ما يعايشه الأطفال يومياً محرّض تلقائي على المقاومة».

أجاب صديقي، الطبيب النفسي، حين سألته إن كان [هناك خلفيات نفسية عند بعض منفّذي عمليات الطعن: «لم لا؟ نحن مجتمع، فينا وفيها، ثمّ علينا ألا نُغفل ارتفاع اضطراب المزاج عند المريض النفسي في مثل هذه الأيام. ما الأثر الذي تتركه جرائم المحتل في الأنفس؟ كمواطن، يطمح المريض أن يكون له دور في الهبة، والاستشهادي مثله الأعلى. كان عندي مريض مصاب بالفصام. بعد فترة من اندلاع الهبة جاءني شقيقته وقالت: 'استشهد شقيقي'. قيل في تفصيلات استشهاد إن الشاب مرّ في السوق بامرأة يهودية، بحركاته غير المتوازنة ظنّته يهّم بطعنّها. صاحت: 'إرهابي إرهابي'. أطلق الجنود النار عليه فأردوه قتيلاً. لم يقصد الشاب الطعن، ولم يكن يحمل سكيناً. إنّه مريض. جاءني والدته بعد مدة طالبة تزويدها بتقرير طبي عن حالته بعدما قرّر الإسرائيليون هدم منزلها. مريض آخر أردني قتيلاً على حاجز عسكري لمجرد تلويحه بسكين».

أضاف الطبيب: «يتخيّل الإسرائيلي أنّ العالم كله عدوه، إنّه مرض الشعور بالملاحقة. تحوّل الإسرائيلي من مُلاحق إلى مُلاحق! إنّه تماهي الضحية مع الجاني، شيء لا شعوري. لا أريد أن أبدو ضعيفاً، هذا ما يقوله الضعيف لنفسه».

## «قطنة» في معادلة الهبة

تترجع قرية قطنة الواقعة شمال غرب القدس على قمم جبال عدة تطل على البحر المتوسط غرباً، وتتغلغل بيوتها وحاراتها في أودية تشتهر بينابيعها. يتفاخر أهالي القرية بمناوشاتهم للمستعمرات التي تطوق قريتهم منذ عام 1948، وتغذي حكايات الجدات وعي أطفال القرية بماضي أيامها الجميلة، وفي الوجدان استشهاد القائد عبد القادر الحسيني<sup>(251)</sup> على سفوح قرية القسطل<sup>(252)</sup> المطلة عليها.

مساء الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر رافقت شقيقي جمال لتهنئة الأسير المحرر من سجون الاحتلال، عيسى الفقيه من قرية قطنة، بخروجه من السجن الذي أمضى فيه ثلاثة عشر عاماً في اعتقاله الأخير. قال لي فادي الشقيق الضيرير للأسير عيسى وهو يصف أوضاع العائلة: «في الانتفاضة الأولى، أسفر انفجار وقع في منزلنا عن استشهاد شقيقي عماد وشقيقي ابتهاج، وأصبت أنا بجروح أفقدتني بصري، كذا الأمر بالنسبة لشقيقي يوسف الذي كان بعمر عشرة أعوام. قبل أشهر قطعت مؤسسة الشهداء والأسرى راتب يوسف؛ لأنه وجد عملاً إضافياً في جمعية الهلال الأحمر. كيف سيعيل عائلة من ثمانية أفراد بمبلغ ألف ومئتي شيكل؟ حاولنا رفع راتبه في المؤسسة لعله يستغني عن عمله الجديد لكنّ توسلاتنا رُفضت، ما زال راتبه مقطوعاً».

حزنت حين نادى عيسى على طفل اجتهد في توزيع القهوة: «ابن مين انت يا عمي؟». أجابه شقيقه فادي: «هذا ابني. في الثانية عشرة من عمره». تتمم عيسى حزناً: «حين أُعتقلت لم يكن في رحم أمه بعد». أضاف حين سأله عن الأطفال الأسرى: «زاد عددهم على الخمسمئة. لا أحد في مؤسسات حقوق الإنسان يحرك ساكناً، ثمّ يتساءلون عن التحريض! تجاوز عدد الأطفال في

سجن عوفر الثلاثمئة، لا يوجد ما يكفي من الحرامات، والألبسة قليلة. يموتون بردًا».

## «أبصر ليش أبوي ما أجاش»

أمام نادي الشباب في مخيم قلنديا، شبّان يتحلّقون حول سيارتين منخولتين بالرصاص ادّعت إسرائيل أنّ سائقيهما نفّذا بهما عمليتيّ دهس. أكثر من ثلاثين رصاصة اخترقت جوانب إحدهما. تعددت الروايات عن مقتل شهيدي المخيم. ادّعى الإسرائيليون أنّهما نفّذا عملية دهس، وهناك من قال إنّ الشهيد حكمت حمدان فوجئ بكمين لجنود الاحتلال عند مدخل المخيم، أطلقوا عليه الرصاص ففقد السيطرة على سيارته وسقط شهيدًا. كذا الأمر بالنسبة للشهيد أحمد جحاجحة. يظنّ الإسرائيليون أنّهم بقمعهم للمخيم يفرضون هيبتهم عليه وعلى غيره.

قال جمال جحجوح، أمين سرّ حركة «فتح» في المخيم: «كان ابني الشهيد طالبًا في كلية الصحافة. قبل استشهاده أمضى عامين في السجن، خرج في صفقة شاليط واستشهد بعد أقل من عام». علّق شقيقي جمال: «ترجمت لوائح اتهام إسرائيلية لوالد جمال ولجمال وابنه، الثلاثة دخلوا سجون الاحتلال». أضاف وقد لمح رجلًا يعتمر كوفية ويُجري مقابلة تلفزيونية: «يبدو أنّه والد الشهيد حكمت. التقيته في سجن النقب في الانتفاضة الأولى».

أنهى والد الشهيد المقابلة فاحتضنه جمال، وراح الرجل يروي حكايته: «عند السابعة صباحًا فوجئت بنبأ استشهاد ابني. حزنت حين جاءت زوجته بعد نصف ساعة وقالت: 'لم يعد حكمت إلى البيت، أرجو أن ترسل الأولاد إلى المدرسة'. لم أجرؤ على إبلاغها بنبأ استشهاد».

في خيمة العزاء يقفز الطفل فاروق -خمسة أعوام- لاهيًا. أمّا شقيقته

هيام -أربعة أعوام- التي تزيّنت ضفيريّتا شعرها بلون الزهر فتتبخرت فرحة. همس رجل في أذن هيام: «وين بابا؟». تنقلت الطفلة بأصابعها الطرية بين صور الشهيد: «هيو، هيو». قال شقيقها الفرّح برايات الفصائل التي يلوّح بها حين سأله أحدهم عن والده: «بابا في الشغل».

يا لقسوة حال الجد وهو يتنقل بعينه بين عيون حفيديه! ربما استغرب الطفلان تغيّب والدهما. لن يخطر ببال الصغيرين أنّهما لن يلتقياه أبداً. أمّا والدتهما التي ترك الشهيد جنيّاً في بطنها فأعانها الله. بكى والد الشهيد حين زرناه بعد يومين وهو يقول: «همس حفيدي ونحن نفك خيمة العزاء: 'خسارة بابا ما حضرش العرس، أبصر ليش ما أجاش!'».

في صحيفة الأيام صورة لطفلين من قرية عمورية<sup>(253)</sup> يطلّان من شباك منزلهما، يحدّقان بعيون جامدة متابعين تشييع جنازة الصبيّة سماح. استشهدت الفتاة متأثرة بجراح أصابتها على حاجز حوارة. ما الذي يدور برأسيّ الطفلين؟ ما الصورة التي ارتسمت للشهيدة في ذهنيهما؟ بمن يفكران؟ بالجندي القاتل، أم بالبطلّة؟ كيف سيتداعى المشهد في ذهنيهما عند الكبر؟

## قراءات

تكتظ القاعة في فندق «غراند بارك» في رام الله بأكثر من مئتي شاب وصبيّة. انتابني شعور بالغربة عن المكان وعن الحضور وأنا أتأمل الوجوه، لم أعرف أحداً. ينتمي الحضور لمؤسسات NGOs. شاب يلقي خطبة تخلو من روح المتفضّين على الحواجز. تحدّث مطوّلاً عن تغييب دور الشباب. اختتم خطبته قائلاً: «نحن نمثّل الشباب الفلسطيني في الداخل والخارج». من أعطاك هذا الحق؟ ألم تواصل «العويل» من تسلط السلطة والفصائل؟

جلست على «طاولة الأسرى». ثماني فتيات بينهن طالبة في المرحلة الثانوية،

وأربعة أسرى أمضى أحدهم ستة أعوام في السجن، والثلاثة الآخرون أعتقلوا لفترات قصيرة. هؤلاء لا يمثلون الأسرى. من اختار الحضور؟ على أي أساس؟ نظر أحد الجالسین على الطاولة إلى هاتفه النقال وقال: «عملية طعن على حاجز حوارة، استشهد المنفذ».

لم يتطرق المؤتمر للاحتلال، ربما أنها شروط الدولة الممولة.

كتب عاموس هرئيل في صحيفة هآرتس: «من معطيات جمعها جهاز الأمن عن موجة العنف الحالية، تبدأ بالتبلور صورة للفلسطينيين الذين يشاركون في العمليات منذ بداية تشرين الأول/ أكتوبر من هذا العام. هؤلاء يعملون في أغليبيتهم الساحقة وحدهم، في أقصى الحالات ثنائيات، حتى لو كان لهم في حالات قليلة انتماءات تنظيمية سابقة، وفي حالات أقل أنهم معروفون بجرائم أمنية طفيفة نسبياً، فإنَّ العمليات لا تُنفَّذ انطلاقاً من انضباط تنظيمي أو بقرار من فوق، باستثناء خلية حماس التي قتلت الزوجين هينكن قرب نابلس في العملية التي شكّلت بداية موجة الإرهاب.

لم يُشخّص حتى الآن هجوم مخطط ومبادر إليه من تنظيم إرهابي. المعطيات التي جُمعت حتى منتصف الأسبوع الماضي تتضمن 123 منفذاً، في معظم الحالات يدور الحديث عن فلسطينيين هاجموا أو حاولوا مهاجمة إسرائيليين، أُضيف إلى القائمة أيضاً فلسطينيون اعتُقلوا على الحواجز وفي حوزتهم سكاكين، واعترفوا أنهم كانوا ينوون تنفيذ عمليات طعن. العمر المتوسط للمنفذين هو 21، منهم 51 دون العشرين، وبعضهم أصغر؛ بنات وأبناء 13 و15 عاماً. منهم 110 «عُزاب»، و8 متزوجين لديهم أطفال، و4 متزوجين من دون أطفال، وأرملة في الثانية والسبعين ادّعى الجنود أنها حاولت دهسهم. 30 من المنفذين من سكان شرق القدس، و90 من سكان الضفة، و13 من العرب مواطني دولة إسرائيل. من بين سكان الضفة 28 من الخليل، و19 من

سكان البلدات والقرى المجاورة. 68 من المنفّذين من المدن، و48 من سكان القرى، و12 من سكان مخيمات اللاجئين، 8 منهم من سكان مخيم قلنديا وشعفاط في منطقة القدس. من خلال التحقيقات يظهر أنّ التحريض على الإنترنت أو في وسائل الإعلام الفلسطينية هو العامل المركزي لقرار المنفّذين. في معظم الحالات يعمل المنفّذون وحدهم، ويبلورون قرارهم النهائي ضمن فترة زمنية قصيرة نسبياً، في غضون أقل من ساعة.

غير مرة يُتخذ القرار عقب تقرير عن حادثة محددة بُثت عبر الفضائيات التلفزيونية أو شائعة ما، لكن ليس جميع المخربين الذين نفذوا عمليات كانوا ناشطين في الشبكات الاجتماعية، بعضهم لم يكن له تواصل مع الإنترنت. إلى جانب التكنولوجيا، هناك علاقات القربى العائلية وفي العشيرة، هذه أيضاً تدفع المنفّذين لاتخاذ القرار بالعمل. في حالات كثيرة عمل المهاجمون بوحى محاكاة لمنفّذين من الحي أو من العشيرة، أو بهدف الانتقام لشخص يعرفونه أو قريب لهم».

كتب سميح شبيب في صحيفة الأيام الفلسطينية: «أجرى المركز الفلسطيني للبحوث الرسمية والمسحية، ما بين 10 و15 من الشهر الجاري، في الضفة الغربية وقطاع غزة، استطلاعاً للرأي. أشارت نتائجه إلى انهيار شعبية السلطة الفلسطينية، حيث إنّ 70 في المئة من المستطلعة آراؤهم يعتقدون أنّ السلطة فاسدة».

وجاء في تقرير أصدره مركز «أوراد»: «أكّد المشاركون في ندوة الطاولة المستديرة التي نظمها مركز أوراد حول الهبة الجماهيرية/ الانتفاضة الجارية، أنّها عفوية وفردية، وأنّها ناجمة عن الإحباط واليأس والغضب المتراكم من الوضع الفلسطيني العام؛ جراء إخفاق اتفاق أوسلو والمفاوضات التي تلتها على مدى أكثر من عشرين عاماً».

تسلّم ذوو الشهيدة هديل رفاتها بعد احتجازه لأكثر من عشرين يومًا.  
في نادي الشباب في مخيم قلنديا تصدح أغاني تمجّد الشهيدة وشقيقها الشهيد محمود. قال رجل أفسح المجال ليجلس شاب بجواري: «والد الطفلة نورهان الأسيرة الجريحة التي ظهرت في الفيديو حين همّت ابنة عمتها هديل بمحاولة طعن جندي بمقصها الصغير قبل أن يردّ عليها قتيلاً ويصيب ابنة خالها بجراح». سألت الرجل: «هل زرتَ ابنتك؟». ردّ: «لا. والدتها حضرت أربع جلسات من محاكمتها. يحاكمون طفلة في الرابعة عشر!».

قال عطا أبو لطيفة: «قبل أيام وجدت طفلاً عمره سبعة أعوام يعتني بقبر شهيد سألته: 'لماذا أنت هنا؟'. ردّ: 'كان الشهيد يحبني'. كيف ستبلور فكرة الشهادة وصورة الشهيد في رأس الطفل حين يكبر؟». قال شقيقي جمال وهو يشير لرجل يجلس ساهماً: «سامي الكسبة، أب لثلاثة شهداء».

يُعرّف الفلسطيني بألمه؛ شهيداً، جريحاً، أسيراً، شقيق أسير، والد شهيد أو شقيقه. من ليس من هؤلاء ربما أنّه قريب لأحدهم أو جار له؟! أو ربما قطع المستوطنون أشجار مزرعته أو غير ذلك. في فلسطين لا ناج من محرقة الاحتلال. وفي موضوع الشهادة يختلط الموروث الديني بالوطني ليشكّلا عجينة بطولة.

رفع شاب عينيه عن هاتفه الجوال وقال منفعلًا: «عملية طعن في مدينة رعنانه<sup>(254)</sup> بالقرب من تل أبيب».

## تكيّف الفلسطيني مع المأساة بتحدّيها

فلسطين طبيعة متباينة ومجتمع متنوع. بلاد لم يغيب عنها نبي أو رسول؛ ولادة أو استقراراً أو عبوراً. في قرية عين عريك كنت أتملّى وجوه المعزّين بوفاة المرحوم أبو عيسى والد سلام، شهيد انتفاضة الأقصى، وأفكر بخريطة بلادنا.



مسيحيون ومسلمون. قبل الغزوة الصهيونية عام 1948 كان يتجاور اليهودي مع المسيحي والمسلم. حوّل الصهاينة أرض السلام إلى ميدان حرب. همس لي الأستاذ المسيحي جليل من قرية عابود<sup>(255)</sup>: «في مدرسة بلعين، كنت المدير والأستاذ والفراش. ماذا أفعل بمادة التربية الإسلامية وأنا مسيحي؟ الطلبة أبناءنا. درّستهم المادة».

وقعت عيناى على ابن عمتي أحمد خطّاب الساكن في مخيم عين عريك<sup>(256)</sup>، تذكّرت شقيقه الشهيد عبد الرحمن، كان في الثامنة عشرة حين التقيته في دمشق، يومها حاولت ثنيه عن القيام بعملية استشهادية، أبى، أصرّ على التسلّل بدورية قتالية إلى الوطن. بعد أسبوع استشهد على الحدود الأردنية الفلسطينية.

دون الأخذ بالاعتبار هذه الروح المتأججة، يصعب تفسير إقدام الشباب. إنّها عظمة «جنون الشباب». يعبر الأشخاص عن أحاسيسهم بطرائق شتى؛ بالرسم، بالكتابة، بطريقة المشي، ببندقية يتمنى حاملها لو أنّها تحوي رصاص الكون ليُجهز على عدوه دفعة واحدة، أو أن يُصاب العدو بعمى لا شفاء منه، أو يخسف الله به الأرض. ما الذي ستفعله سكين مطبخ يهدّد بها طفل أو طفلة جندياً مدججاً بالسلاح؟! لا يخطر مثل هذا السؤال بذهن المُقَدِّم على الطعن. صورة النصر نبع أمل فيّاض تتغذى منه العزائم.

منذ النكبة والفلسطيني يعاني. لم ييأس، ظلّ يقاوم. اللاجئ الذي تربى على المعونات و«البقج»<sup>(257)</sup> في المخيم أضحى فدائياً. اليأس لا يصلح أداة لتوليد طاقة الإقدام. استثنائية وضع الفلسطيني جعلته يمتلك قوة ومرونة يصعب تخيّل مداها. عند دراسة الحالة الفلسطينية يجدر بالمراقب أن يتحلّى بالصبر وبال حلم، وإلا وقع أسيراً لنظريات نمطية في القراءة والتحليل والاستنتاج. نُثرت عظام الفلسطيني في أرجاء الأرض الأربعة، فتكيّف مع المأساة بتحدّيها.

في صقيع الغربة، أنبت ورود ثورة وأينع أزهار مقاومة. في رحلة العذاب تعلّم الفلسطيني كيف يلتقط الفرحة من ثنايا الألم.

تزيّنت «قاعة الكاثوليك» في رام الله بصور الشهيد سمير القنطار<sup>(258)</sup>. حشدٌ من أبناء الفصائل، وشخصيات شعبية من الجنسين، ومشايخ وخوارة. التقى هؤلاء للتعزية بالشهيد. بطل لبناني، درزي متزوج شيعية، ويحتفل به في كنيسة. إنَّها عظمة فلسطين.

في طريقي إلى منزل صديق بحيّ الطيرة غرب رام الله، مررت بشبّان فرحين بعيد الميلاد المجيد، يرتدون ملابس بابا نويل ويوزعون الهدايا. أطفال ورجال ونساء يغمرهم الفرحة، هؤلاء ليسوا جميعًا مسيحيين، أغليبتهم مسلمون. في بلادنا تقاليد رائعة، إنَّنا نحتفي بمناسبات وأعياد بعضنا. المكان الذي تتلأأ فيه أنوار شجرة عيد الميلاد المجيد على دوار الساعة في رام الله، تنيره أضواء فانوس شهر رمضان الكريم.

استقبلني صديقي ببشاشته المعهودة. أجاب بما يوحي أنَّ له رأيًا آخر حين سألته عن الانتفاضة: «وهل هذه انتفاضة؟». قلت: «أنا أُطلق عليها 'هبة' شبابية'، البعض يظنّ أنَّ ذلك يُقلّل من شأنها! لا. مع شديد الأسف نحن تُغرينا الشعارات الكبيرة والأوصاف الفخمة». قال: «بغض النظر عن التسمية، أقنَعنا هؤلاء الأبطال أنَّ الطريق الذي كان متبَعًا لا يوصل. وضعونا على السكة الصحيحة. ما يجري جعل إسرائيل في حالة هستيريا. بهذه الهبة تحصّن الفلسطينيون بما نأى بهم عن أزمة العالم العربي. حقنة مضادة للفتن».

قلت: «قبل الهبة كنت أُجيب من يسألني عن احتمال وقوع انتفاضة ثالثة - المقصود انتفاضة ضدّ السلطة-: 'كأنّ الفلسطينيين محصنون بوعي شعبي عميق ضدّ وباء الفتنة الذي يلتهم عالمهم العربي هذه الأيام'. ها أنت ترى، حين بلغ الضغط أقصى مداه وُجّهت موجة الانفجار ضدّ الاحتلال وليس

للدخل، ونأت السلطة بنفسها عن الاحتراق بالنيران الملتهبة. ما عدنا نسمع ما اعتدناه من نعمات التصريحات البائسة للقيادة، أُستبدل ذلك بالصمت، هذا جيّد مع أن المطلوب أكثر بكثير».

قال: «مع الأسف نحن نتصرّف بعقلية 'كل شيء أو لا شيء'. من يريد أن يعيش ويقاوم على المدى البعيد يجدر به أن يتيح المجال للمشاركة، أن يأخذ كلّ دوره في عملية طويلة ومعقدة. ديمومة الحياة ترتبط بالحياة وبالموت لا بالموت وحده، شيء عميق نفسيًا».

أضاف صديقي حول عمليات الطعن: «حفيدي ابن العشرة أعوام مأخوذ بجانبها البطولي، فيها تعبير عن الشجاعة لمن في سنّه. ما بثته الصور لشاب يطعن ثلاثة جنود، يستدعي في أذهان الفتية صورة البطل. الحوادث الجارية جعلتهم يشعرون أنّهم يقفون على الدور: 'اقترّب دوري، غدًا أنا، لا شيء ينقصني'. ربما هذا ما يخاطب به الفتى نفسه منفعلًا. وضع الاحتلال الشباب تحت وطأة ضغوط نفسية وواقعية، جاء الوقت ليشبتوا أنّهم قادرون. وصايا الشهيد بهاء عليان وضعت دستورًا للهبة، لو كانت الهبة 'هبة' لانفجرت في وجه السلطة. من عظمة الهبة أنّ المنتفضين لم يطلبوا شيئًا من غيرهم، لم يُخَوّنوا أحدًا أو يتهمّوه، لم يتسببوا بشرخ في مجتمع ينظر إليهم كأبطال. كالأم، تمنح بلا حدود، من أجل الحب، انتفاضة نظيفة حافظ فيها الأبطال على نقاء التجربة. لقد بثّت في الهبة شعورًا جعلني لا أخاف الجنود. كيف أخافهم والأطفال يتحدثونهم؟ أصبحت أذهب إلى قريننا في الشمال دون خوف، على الرغم من أنّ القتل قائم في كل زاوية وفي أي لحظة. ما عاد الناس يخشون الموت، بدلًا من أن تهزمهم جرائم الاحتلال بثّت فيهم البطولات قوة. نحن مدينون للفتية بهذا الإنجاز. جعلت الهبة ما كان متخيلاً واقعًا ملموسًا».

أضاف: «وضعتني عمليات الطعن والدهس في أزمة. أنا أوّمن باللاعنف

لدرجة كدت أعتبر الحجر عنفاً. لم يترك الضغط للشباب باباً سوى تقبّل الموت من أجل الحياة. يدرك الفتى أو الفتاة أنّه/ أنّها سيُقتل/ ستُقتل، مع ذلك يُقدمون بشجاعة! يتصدّون لفكرة الاحتلال بما تيسّر. هذا ليس عنفاً. يعرفون أنّ عملياتهم لن تُحدث سوى أثراً قليلاً، ربما لا تُحدث شيئاً! منتهى الشجاعة. إنّهم يقدمون مدركين أنّ القتل والفتك بأجسادهم ينتظرهم. قال غاندي مفسراً مثل هذه البطولات: 'يمكن أن تُقتل أو تُقتل وأنت تدافع عن نفسك. المهم ألاّ نحمل الأمور أكثر ممّا تحتمل. قيل قديماً إن كبرت اللقمة خنقنا'.

عن الوضع في جامعة بيرزيت قال صديقي: «فقدت الجامعة كثيراً من روح الإبداع التي اعتدناها، قبل قيام السلطة كانت التحركات نظيفة، لم تتلوث بالمال والسلطة. الآن أصبح الطلبة أدوات بيد من يدهم العصمة. في الماضي كان هناك فصائل فاعلة، مقابل احتلال مباشر، اليوم فصائل هزيلة وجيش الاحتلال خارج دائرة الاحتكاك. حماس تجلس على الرصيف، وفتح تدوسنا بأقدام صراعاتها الداخلية، أمّا اليسار فحدث ولا حرج. فساد مالي وإداري، وقاعدة شبابية تريد التغيير لكنّها مغيّبة».

علّقت ابنة صديقي: «ما يفعله الشباب تعبير عن قهر مزمن، مع الأسف ليس هناك قيادة ولا مرشد. لا أحد يستطيع توقع ما ستؤول إليه الأمور في النهاية، ربما تنتهي بوسائل تضيق جديدة بعد أن يتفق الإسرائيليون مع السلطة. حققت الهبة الكثير حتى الآن، أوصلت رسالة معاناتنا للخارج، وستترك تداعياتها في وعي الأجيال. المؤسف أنّنا أخفقنا في تبرير عمليات الطعن باعتبارها دفاعية، استغلها الإسرائيليون لاتهامنا بالإرهاب، هذا يؤثر على هوية نضالنا».

نبته زعتر جبلي

في حفل زفاف أحد المستوطنين، تباهى المحتفلون وهم يرقصون بسكاكين وبنادق. طعن أحدهم صورة الطفل الشهيد علي دوابشة. يتفاخرون بجرائمهم. بعد أيام نُفّذت ثلاث عمليات فلسطينية في يوم واحد؛ عملتا طعن وعملية دهس. استشهد المنفذون. لا يستطيع الإسرائيليون وقف استيراد السكاكين والمقصات والمفكات، ولا منع السيارات الفلسطينية من السير على الطرق. الهبة نبتة زعتر جبلي تنمو برعاية الله، عظمتها أن الأمر يبدأ وينتهي بقرار شخصي، لقد وحدت الجميع على هدف النضال. كان يُقال: «هذا جيل خائب». أثبتت الحوادث أنه جيل الأقصى.

قال لي تاجر: «اتصل بي أمس ضابط مخابرات إسرائيلي: 'وصلتنا أخبار أنك تعمل مشكلات'. أجبته: 'أنا لا أعمل مشكلات'. قال مُحذراً: 'أنا عندي عصا موسى، سأحوّلها إلى عصا فرعون. إن لعبت بذيلك ستجدني فوق رأسك في غرفة النوم'». أضاف مستفزاً من مقولة «لا يجوز أن نرمي أطفالنا في النار»: «يغفو الطفل في بحر أحلامه والأهل بعيدون عما يدور في مخيلته. أفزعني ابني -خمسة عشر عاماً- حين قال لي قبل أيام: 'أريد أن أذهب إلى القدس لأطعن جندياً'. أقفلت أبواب البيت كلها ووضعت المفتاح في جيبي قبل أن أنام. استيقظت على حركة، نهضت فوجدته ربط حرامات على الشرفة وحاول النزول. الشباب براميل بارود».

على دوّار الساعة، وأنا عائد إلى بيتي، تقف سيارتان لأجهزة أمن السلطة الفلسطينية من دون أدوات مكافحة شغب. وفي حديقة قريبة أمهات يمتّعن أطفالهن باللهو. كنت سارحاً حين مرّ بي شاب في الطريق وهو يتمتم: «عدد شهداء مخيم قلنديا اليوم ثلاثة. هناك عملية عسكرية في منطقة نابلس». مع من يتحدث؟ لمن يوجّه الكلام؟ لي، أم أنّه يخاطب نفسه؟ ما الذي يريد قوله؟

في أحد اللقاءات قالت سيدة: «أنا أدرّس أطفالاً في الصف الثالث

الابتدائي؟ في الماضي كان أبطالهم: سوبر مان، ميسي، ورونالدو، ثم أصبح الأبطال في حرب غزة مطلقي الصواريخ، رجال القسام. أبطالهم اليوم الشهيد مهند الحلبي ورفاقه».

## أعيادنا

الخامس والعشرون من كانون الأول/ ديسمبر، عيد الميلاد بالنسبة للطوائف المسيحية التي تتبع التقويم الغربي. طقس دافئ وشمس مشرقة. توقفت وأنا أهبط درج منزل المرحوم حنا غنايم في حيّ عين مصباح بمدينة رام الله لأهنئ أم بيتر بالعيد.

طفت بعيني المكان، ذكريات عزيزة. من غرفتي في الطبقة الأرضية للمنزل، قدت خلتي قبل أكثر من أربعين عامًا لعملية طعن. ما الذي دفعني لأقود شبّانًا بعمر الزهور إلى تلك المغامرة؟ أتساءل بذلك لعلّي أجد تفسيرًا لظاهرة الطعن المستعرة هذه الأيام. يومها كنت في الثالثة والعشرين من عمري. كيف امتلكت جرأة المخاطرة بشقيقي الوحيد الذي شاركني العملية؟ لماذا لم أفكر بالعواقب؟ كنت أنتمي لأسرة فقيرة، لديّ تصميم لطّي صفحة الفقر. شاب في مستقبل العمر، مدرّس رياضيات في مدرسة ثانوية للبنات، عيني على طالبة فائنة أحلم بالاقتران بها. لماذا ضحّيت بذلك كله؟ لم يتطرق ذهني يومها لمثل هذه التساؤلات، ولم أجد إجابات شافية لها حتى اليوم.

سألت أم بيتر:

- ألم تحضر ابنتك من غزة؟

- لم يعطوها تصريحًا.

أضافت:

- الله يرمي الصبر على قلوب الأمهات. والدّة الشهيد تزغرد من حرقه

قلبها. اعتقل الإسرائيليون ابن الثمانية أعوام وهناك طفلات. حرق قلبي  
الطفل أحمد مناصرة وهو يصرخ في وجه المحققين: «مش متذكر، مش  
متذكر».

نصف ساعة وحضر ابنها بسام ومعه طفلاته. سألت دينا ذات التسعة  
أعوام:

- ما رأيك بالانتفاضة؟

أجابت مستهجنة:

- شو يعني؟

ساعدتها والدها:

- يقصد الشبان والبنات الذين يلقون الحجارة على جنود الاحتلال.

- شيء صحيح.

- ما رأيك بعمليات الطعن؟

- برضو صحيح.

سألت ديان -ثلاثة عشر عامًا-:

- وأنت، ما رأيك؟

- أحزن لقتل واعتقال الأطفال.

قال والدهما:

- هذا العام، رفض أطفالنا إشارة شجرة عيد الميلاد على الشرفة.

عن أثر موقع «فيسبوك» في الهبة أعطت الطفلتان الإجابة ذاتها:

- الفيسبوك يُعرِّفنا إلى ما يجري.

قالت السيدة جانيت: «البال مش مرتاح، ما حدا مبسوط، مقاومة غير

منظمة وليس هناك من يتبناها».

قالت السيدة جورجيت -خمسة وثمانون عامًا-: «ألم تقل غولدا مائير: 'يموت الكبار وينسى الصغار'. انظر ما يفعله فتية الهبة فتياتها».

قال الدكتور موسى: «يتطلع الفلسطينيون إلى العيش بأمن وأمان، أن يتمتع بالسيادة والشعور بالكرامة، بما في ذلك توافر فرص العمل وعدالة التنافس. ألا ينام وهو يحلم بتوفير الحد الأدنى من قوت عياله. لقد خيبت السلطة الفلسطينية والمؤسسات المجتمعية وحتى الأسر آمال هذا الجيل. ليس للتمرد أدوات محدّدة، كثيرًا ما نتساءل حول السلوكيات العنيفة لطفل ما. نسأل لأننا لا نرى ما يراه هو في نفسه. في بلادنا يرى الطفل والده والكبار كلهم، بما في ذلك الرئيس، عاجزين عن حمايته».

أضاف حانقا: «فصائل أنشئت لتحرير فلسطين فأضحت تتقاتل على فتات. ما يقوم به الشباب يعبر عن القهر، جاء هؤلاء بسكاكينهم ليملأوا الفراغ الذي خلفه عجز السلطة والفصائل. لا يقصدون القتل ولا الموت، لكنّ الإسرائيليين يتعاملون معهم بالإعدام، وتحتفل بهم بيئتهم الحاضنة كشهداء. أمّا الفصائل فتعتبرهم أرقامًا، وتعطيهم السلطة شهادات وفاة، وهناك من يتاجر».

سألت شابًا عن رأيه في الهبة فقال: «ليس لها أفق». قالت شقيقته المتخرجة في جامعة بيرزيت: «أحزن على الشباب الذين يضيعون حياتهم».

قال الدكتور حنا: «مفهوم الشهادة عميق في الوجدان الفلسطيني، وهناك شعور بعجز الكبار، وللبعض أقارب شهداء أو معتقلين، ربما آباء أو أشقاء. وربما رأى البعض أنّه ما عاد هناك متسع للحياة؛ ضيق من الاحتلال، بطالة، ضرائب، وهناك من يتحكّم بمقدّرات البلد على حساب الآخرين. أخشى أن تأتي النتيجة كما تريدها إسرائيل».



قالت ماريا -خمسة عشر عامًا-: «الشباب جاهلين ومش مدربين. زهقانين».

قالت كرسينا -خمسة عشر عامًا-: «الانتفاضة غير مفيدة».

قالت ميرفت: «الطريق مغلق».

قال أبو حنا: «عيب أن يوصف من ينفذون عمليات الطعن بحالات نفسية، أنّ لهم مشكلات اجتماعية. هذه قلة قليلة جدّا، وهي إثبات على أنّ الجميع يرفض الاحتلال. ثمّ إنّ الشهيد شهيد، أكان نفذ عملية أم أنّه ضحية إعدام ميداني. هناك خطأ إعلامي في التعاطي مع الظاهرة. اختيار طريق الاستشهاد بالنسبة للصبيّ شيء من طقوس العبور إلى الرجولة. بطولات الأطفال ليست جديدة على الفلسطينيين، في الثورة كان هناك 'أشبال آر بي جي'، وفي الانتفاضة الأولى 'جنرالات الحجارة'».

## قسوة الألم

«ارجعي ماما، ارجعي يا حنونة».

كلمات تفيض ألماً وهي تخرج من حنجرة الطفلة ملك حمّاد -ثمانية أعوام- مودعة أمها الشهيدة مهدية حمّاد.

مسحت الطفلة دموعها: «بالروح بالدم نفديك يا شهيدة».

تقول ملك: «أفتخر أنّي ابنة شهيدة. يؤلمني أنّي لن أرى والدتي بعد اليوم».

قالت أحلام -خمسة عشر عامًا- الابنة الكبرى للشهيدة: «سأرعى أخي يحيى ابن التسعة أشهر».

جلس زكريا أمام عتبة المنزل سارحاً. قبّلت جدته جبينه: «ارفع راسك يا

ستي أمك شهيدة».

قال أديب حمّاد زوج الشهيدة واصفًا استشهاد زوجته: «كانت في زيارة لشقيقتها فقتلوها بدم بارد».

قال الأسير جهاد الجعبري -تسعة عشر عامًا-: «قيّد مستعربون يديّ ووضعوني في سيارة عسكرية. في مركز الشرطة حُقق معي حتى الساعة الثالثة فجرًا، نقلوني إلى سجن المسكوبية<sup>(259)</sup>، وُضعت في غرفة صغيرة مع أسرى آخرين، وضربت ضربًا مبرحًا».

قال الطفل الأسير محمد عزازي -أربعة عشر عامًا- من قطاع غزة: «هجم عليّ ثلاثة جنود. صاح بي أحدهم لأخلع ملابسي الداخلية. رفضت. صوّب سلاحه لرأسي. خفت، خلعت ملابسي ووقفت عاريًا. قيّدوا يديّ بمرباط بلاستيكية وانهاّلوا عليّ ضربًا بأقدامهم. ضربني أحدهم على فمي، سقط أحد أسناني العليا. سحبوني إلى الموقع العسكري وأنا عارٍ تمامًا. أجلسوني على الأرض في منطقة مكشوفة، كنت ارتجف من البرد. كلما مرّ بي جندي ركلني وشتمني».

قال صالح الجعدي -ثلاثة عشر عامًا- من مخيم الدهيشة<sup>(260)</sup>: «اقتحمت وحدة مستعربين ملثّمين منزلنا ونحن نيام. قيّدوني واعتقلوني».

روت أسيرة محرّرة حكاية لقاءها بطفلها الذي تركته رضيعًا يوم اعتقالها: «انتابني حزن شديد حين لم يتعرّف إليّ طفلي في أثناء زيارة عائلتي لي في السجن. لم يلتفت صوبي، على الرغم من محاولاتي لفت انتباهه، لم أتردد بخلع حجابي أمام الزوار الرجال كي يتعرّف إليّ. غمرني الفرح حين تحيّلته ابتسم لي».

جاء في تقرير لمركز أسرى فلسطين للدراسات عن معاناة الأسيرات الفلسطينيات: «هناك خمس وستون أسيرة فلسطينية في سجون الاحتلال،

ثلاث عشرة متزوجات هنّ: عبلة العدم -خمسـة وأربعون عامًا- أم لتسعة أبناء، عالية عباسي -خمسـون عامًا- وهي والدـة الأسير عيسى عباسي المحكوم لعشرة أعوام، إسراء جعابيص -اثـنان وثلاثون عامًا- وهي جريجة وأم لطفل بعمر ثمانية أعوام، سناء الحافي -ثلاثة وأربعون عامًا- أم لسبعة أبناء، إيمان كنجو -أربعة وأربعون عامًا- أم لخمسـة أبناء، نسرین حسن أم لخمسـة أبناء، أمينة صلاح وهي زوجة الأسير عثمان صلاح، هيفاء أبو صبيح، أميرة حميدات، ياسمين شعبان -واحد وثلاثون عامًا- سامية مشاهرة أم لثلاثة أبناء، صباح فرعون أم لأربعة أبناء، والجريجة حلوة حمامرة وهي أم لطفلة عمرها عامان».

## ألا يخشون تحوُّل موجة الانفجار ضدهم؟

كتب الدكتور أحمد عزم في صحيفة الغد الأردنية: «في خطوة إضافية تعزّز الأبناء عن تقييد السلطة الفلسطينية لعملية المواجهة مع الإسرائيليين، منع رجال أمن فلسطينيين بلباس مدني رياضي، وبالقوة، المتظاهرين الذين أرادوا تحدي ما يُعرف باسم مستعمرة بيت إيل في مدينة البيرة. حالة تؤكد التخبّط وعدم الوضوح للذين يحوطان بالأداء الرسمي الفلسطيني، وتثير تساؤلات حول الموقف من الانتفاضة الراهنة. أن تحتاج الجهات الأمنية الفلسطينية لعناصر بملابس مدنية، أمر فيه استنساخ لأساليب مورست في دولة عربية ليست تحت الاحتلال.

يختلط الحديث عن 'البالوع'<sup>(261)</sup> عادة بمقولات لا يمكن الجزم بمدى دقتها، لكن يجدر تنفيذها من المعنيين في القيادة بدلاً من تعزيزها في عقول الجمهور. أولى هذه المقولات إنّ المنطقة مهمة لمن يحملون بطاقات تسمح لهم بالمرور من الحاجز الشهير الذي يحمل اسم DCO، ذلك الذي يميّز بين

الفلسطينيين العامة ممن لا يُسمح لهم بالمرور، و'الخاصة' الذين يُسمح لهم بذلك. يرى البعض أنّ منع التظاهر هناك موجّه بشكل خاص لحماية هذا الامتياز.

وثاني المقولات إنّ مبرّر منع التظاهر يكون أحياناً لأنّ موكباً رسمياً وضيوفاً رسميين على الجانب الفلسطيني يمرون في الشارع، هذا التبرير كارثي إن كان دقيقاً؛ لأنّ هذه النقطة بالذات يغلقها الإسرائيليون لأشهر طويلة، وهي أساسية لتصل بين وسط الضفة الغربية والقدس وشمالها. وبالتالي، أن يضطر المواطن الفلسطيني إلى سلوك طرق فرعية بديلة دون أن يحرك أحد ساكناً لذلك، ثمّ يجد أن الاحتجاج هناك ممنوع من أجل مواكب رسمية فلسطينية 'تحت الاحتلال'، هذه رسالة سلبية أخرى.

ولعلّ توجيه مثل هذه الرسالة التي تضرب العلاقة بين الرسمي والشعبي فلسطينياً جزء مما يحرص عليه الجانب الإسرائيلي. ولعلّها من المصادفات ذات الوقع، أن يتزامن ما سُمّي باعتذار نتنياهو للرئيس الفلسطيني عن سلوك جنوده قرب منزل الأخير مع حادثة البالوع الجديدة، (لا تبعد المنطقتان عن بعضهما غير مئات الأمتار).«.

## قلق

شُغلت زوجتي بتزيين المنزل لاستقبال حفيدتنا لينا ابنة الشهرين. أنظر إليها وهي تروح وتجيء فرحة فأقول لنفسِي: «ليمنح الله الفرح للناس كلهم».

مضى على خروج ابننا عنان وزوجته فلورا -فرنسية الجنسية- من عمّان ثلاث ساعات. اتصلت بهاتفه الجوّال. جاء الرد الآلي: «شكراً لاستخدامكم شبكة زين، رقم الهاتف المتنقل المطلوب لا يمكن الاتصال به». ألحّت عليّ زوجتي لمعاودة الاتصال فردت الآلة الإلكترونية بالجواب ذاته.

ربع ساعة ورنّ هاتفني الجوال. ابتهجت حين لمحت اسم عنان على الشاشة. «ننتظر على الكراسي عند الإسرائيليين، نأمل ألا يطول انتظارنا». نصف ساعة واتصل ثانية: «خرجنا من الكابوس».

قال عنان وهو يصف رحلته: «كان يسيطر عليّ القلق وأنا أتأمل البراءة في عينيّ طفليّ، وأرقب القلق في وجه زوجتي وهي تنتظر جواب الإسرائيليين في صالة الانتظار. ماذا لو رفضوا إعطاءها 'فيزا'؟ كنت أطيّر فرحاً حين أتخيّل أنّنا في رام الله، ثمّ ينقبض قلبي حين يمرّ بخيالي أنّهم لن يسمحوا لها بالعبور، أين سيستقر بنا الحال حينئذٍ؟». أضاف عنان: «في طريق المعرجات ونحن عائدون إلى رام الله أوقفنا حاجز عسكري للاحتلال، ها قد دخلت لينا الفلسطينية معركة الحواجز».

قالت فلورا وهي تروي تقلّب مشاعرها في الرحلة: «كنت متشوقة لانتهاؤ الرحلة بسلام لأقدم لكم طفليّ التي تنتظرونها. أبتسم حين أتخيّل لكم تبادلون احتضان الأنثى الأولى لأسرة يقتصر أبناؤها على الذكور، ثمّ ينقبض قلبي خشية عدم السماح لي بالدخول».

## نخيم قلنديا مجدداً

ذهبت وشقيقي جمال ومحمد البيروتي لزيارة عائلة الشهيد عنان أبو حبة. قال محمد أبو حبة والد الشهيد عنان: «قلت لقائد الحملة العسكرية الإسرائيلية وقد بدأ رجاله بتصوير بيتنا تمهيداً لنسفه: 'هذا ليس بيت عنان. خمس شقق تسكنها عائلات أبنائي وزوجة والدي وأبناؤها. عنان يسكن على السطح'. صعد إلى السطح وعاد: 'لا يوجد حمام في الغرفة، هذه ليست شقة'».

أجاب البروفسور عدنان الآتي من أميركا لمواساة عائلة شقيقه حين سأله رأيهِ في الهبة: «الاندفاع اللافت للفتية والفتيات آلية تفريغ لكبت متراكم، وهناك الوازع الديني حين يتعلّق الأمر بالأقصى. تحيّل المشهد المتكرر؛ بعد انتصاف الليالي، قبل الفجر، يدخل المستعربون إلى أزقة المخيم مستخدمين سيارات تحمل لوحات تسجيل فلسطينية. يتسلقون الأسطح العالية، يتبعهم جنود الوحدات الخاصة الذين يستدلون على هدفهم بخرائط GPS. يحطّمون الباب الخارجي للمنزل المعني، ويفاجئون سكانه في غرف نومهم. ما المنتظر بعد هذه الإهانات؟».

- ما الذي تخشاه على الهبة؟

- الانقسام، ثمّ ما عاد التكافل المجتمعي كما كان عليه في الماضي. هؤلاء الناس بحاجة ماسة لتخفيف ألمهم، لرعايتهم نفسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا. أين الأطر التي تهتم بهذه الأمور؟ لا يوجد غير العائلة الصغيرة، الجيران، الأقارب، والأصدقاء. الترابط الأسري والتضامن الشعبي علاج نفسي تلقائي، لكنّه ليس كافيًا. ليلة أمس شاهدت أطفالاً يشعلون النار في الشارع، يتدفأون ويشوون حبات من البطاطا. لماذا هم هنا في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ طوال الليل قنابل صوتية وقنابل غاز. إرهاب حيثما أدّرت وجهك. مخيم بكامله لا ينام! الأطفال، الشيوخ، المرضى والعجزة. أمهات يترقبن برعب مصير أبنائهن، بأي نفسية يذهب الأطفال إلى مدارسهم؟ اصطدم الإسرائيليون بواقع جريمتهم المستمرة منذ أكثر من ستين عامًا، أمّا نحن، فعلى الرغم من الجراح، مطمئنون لمستقبلنا، الأرض لنا ولن نرحل.

قال والد الشهيد عنان: «لم يكن مضى على خروج عيسى من السجن إلّا شهر حين نفّذ هو وعنّان عمليتهما، وفي اليوم التالي نفّذ صديقه وسام أبو غويلة عملية دهس على بوابة مستعمرة آدم<sup>(262)</sup>. جمعت الثلاثة صداقة متينة

من الروضة حتى الكلية. منذ مدة وعنان يلحّ عليّ لأزوجه، راجعني بذلك قبل أسبوعين. ربما كان يطمئنني. يوم استشهاده صلى الفجر، مازحني بلطف: 'حصلت على عمل جديد. أدعُ لي بالتوفيق'. طلب إلى والدته أن تبارك له العمل. كيف لنا أن نخمّن أنّه ذاهب لتنفيذ عملية عسكرية؟ سألني المحقق الإسرائيلي: 'كيف تمكّن عنان من دخول القدس؟'. ما زال السؤال يدوي برأسي: 'كيف استطاع عنان ورفيقه دخول القدس في ذروة الاستنفار الأمني؟'.

أجاب البروفسور عدنان حين سألته تفسيره لظاهريّ الطعن والدهس: «إنّما قمة الغضب في مواجهة أعتى درجات الظلم، وهناك العولة التي أتاحت للشباب فرص التعرّف إلى عيش الآخرين. هذا يزيد سخطهم، الاحتلال يجرد الإنسان من إنسانيته، يسلبه أبسط حقوقه، والسلطة مسؤولة عن جانب من ذلك».

قال والد الشهيد عنان: «طلبتني المخابرات الإسرائيلية، أنا ووالد الشهيد عيسى، للتحقيق. طقس بارد وأجلسونا في مكان مكشوف. كنت أرتعش بصورة أشدّ قسوة ممّا يتسبب به البرد، إنّها الضغوط النفسية. طلبت نقلنا من المكان، فأدخلونا إلى غرفة فيها طفل من بلدة العيسوية بعمر ثلاثة عشر عامًا. ما الذي يريدونه من طفل بدا، لضآلة جسمه، كأنّه في العاشرة؟! سألني المحقق: 'ماذا تعرف عن ابنك؟'. أجبت: 'هل تظن أنّي أرسلته للموت؟ أنّك إنسان وأنّني لست كذلك؟'».

في أثناء جلوسنا في صالون بيت أبو حبسة، دخل علينا حفيد للعائلة عمره ثلاثة أعوام، وقال منفعلاً: «ضربوا علينا قنابل غاز». ربما تحيّل الطفل مشهداً لمواجهة مع جنود الاحتلال! ركض إلى الخارج ثمّ عاد: «ضربت عليهم حجراً». يغتصب الاحتلال أحلام الأطفال، يسطو على طفولتهم البريئة.

في أحد الفيديوها المنشورة على موقع فيسبوك، طفل أسمر من غزة يبدو في الثانية عشرة من عمره. يقبض بيده على رزمة جرائد، ويرتدي طاقية حمراء. أجاب متلعثمًا حين سألته المذيعة عن أمنيته في العام الجديد:

- مثلاً يعني أموت.

- ليش؟

- مش عارف! هادا، بكره الهادا، بكره الدنيا.

- ليش حبيبي؟

- بكرها.

- ليش؟ ليش؟ مين مزعلك في الدنيا؟

- إيه؟

- انتَ ليش بتشتغل؟

- إيه؟ عشان أصرف على اخواتي.

- يعني نفسك تروح عالمدرسة؟ تكمل تعليم؟ تلبس كويس؟ تلعب زي الأولاد؟

- نفسي ما اشتغلش، أروح على المدرسة وأتعلم.

- وإيش كمان؟

- بس.

ما الذي يدفع طفلاً بريئاً ليحب هذه السوداوية؟ لماذا يضيق بالحياة في هذا العمر المبكر جداً على الهموم؟ بأي نفسية سيكبر؟ أين وكيف سيفرغ غضبه؟  
عام على هذه المقابلة وجاء في الأخبار أنَّ الفتى سقط من الطبقة الرابعة



ففارق الحياة، هل سقط بالفعل أم أنه انتحر؟!!

عند الساعة الحادية عشرة مساء يوم الإثنين الرابع من تموز/ يوليو عام 2016، ليلة عيد الفطر، دهمت قوات الاحتلال مخيم قلنديا، وهدمت منزليّ الشهيدان عنان وعيسى. جريمة أسفرت أيضًا عن إصابة أربعة شبّان بالرصاص الحيّ، أحدهم جراحه خطيرة.

كتل إسمنتية متناثرة، أُصص ونباتات زينة وأزهار مهشمة، وأغصان شجر محطمة؛ هذا هو الوضع في باحة بيت عائلة الشهيد عنان حين وصلته وشقيقي جمال بعد الظهر. هذه هي المرة الثانية التي يعاقب الاحتلال فيها محمد أبو حبة الذي أمضى سبعة عشر عامًا في السجن بهدم بيته، الأولى من أجله، والثانية من أجل ابنه الشهيد.

قال جمال مخاطبًا نداء أبو حبة، عمّة الشهيد، وهي أسيرة محرّرة:

- الحمد لله أنهم اكتفوا بهدم غرفة الشهيد على السطح.

- قل الحمد لله على سلامة الشبّان، الممتلكات يمكن تعويضها. كان ضميرنا سيظلّ يعذبنا لو سقط شهيد في المواجهات التي اندلعت تضامناً معنا. لا يمكنك تخيل ما جرى ليلة أمس. كانت قلوبنا ترتجف على وقع دويّ الرصاص في أزقة المخيم المطوّق بآلاف الجنود، فيما يتصدّى الشبّان بالحجارة وما تيسر لآلة القتل. كانت ليلة قاسية.

قال الدكتور عدنان أبو حبة، عمّ الشهيد والأسير المحرّر: «هذه المرة لم يأت الجنود عند الفجر كعادتهم، فاجأونا بقدومهم قبل منتصف الليل، من حسن الحظ أنّ أغلبية الأهالي كانوا خارج المخيم في تلك الساعة، كانوا يتسوّقون للعيد من رام الله، لو كان الأمر غير ذلك لربما وقعت مذبحة، فقد استبسل الشبّان في الدفاع عن المنزلين المهدّدين بالهدم. لم يتمكّن من حوصروا خارج المخيم من العودة إلى منازلهم قبل الصباح، حتى أكمل الجنود فصول

جريمتهم وانسحبوا».

قالت نداء: «صحيح أنّهم لم يهدموا العمارة، لكنّها كانت خاوية من الداخل منذ مدة، فمنذ اتخذت سلطات الاحتلال قرار الهدم قبل أشهر، وفي خطوة احترازية، هبّ الجميع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من محتوياتها، انتزعوا الأبواب، الشبابيك، المطابخ، والبلاط، وتناثرت أسر أشقائي في شقق مستأجرة. جعلنا قرار الهدم نعيش على أعصابنا، كنّا نتوقع وقوع الجريمة في أي لحظة».

## جثامين الشهداء

مساء الجمعة؛ الحادي والثلاثون من كانون الأول/ ديسمبر، في طقس عاصف وبرد قارس أفرجت سلطات الاحتلال عن تسعة وثلاثين من جثامين الشهداء المحتجزة لديها. لماذا اختار الإسرائيليون هذا التوقيت؟ ربما أرادوا إعاقة المشاركة الواسعة بالجنازات؟ كان لمحافظة الخليل نصيب الأسد من الشهداء المفرج عن جثامينهم؛ سبعة عشر شهيداً.

قال لنا شاب حين وصلنا إلى قاعة العزاء في مخيم قلنديا: «وصلت جثامين الشهداء عنان وعيسى ووسام عند الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين مساءً. وعلى الرغم من رداءة الجو وبرودة الطقس، خرج سكان المخيم عن بكرة أبيهم لتشيعهم».

سألت الشاب الجالس بجواري وأنا أشير إلى والد أحد الشهداء:

- كم عمره؟

- خمسة وثلاثون عامًا.

- إنّه أصغر من أن يحتمل قسوة استشهاد ابنه.

انتقلنا للتعزية بالشهيد سليمان شاهين في مخيم الأمعري. تصدر قاعة نادي

الأمعري صورة لطفلة الشهيد ذات الستة أشهر وهي تنظر إلى جسد والدها المسجى. من هناك توجّهنا إلى خيم الجلزون للتعزية بشهيد آخر.

في بلدة جفنا<sup>(263)</sup> صال شقيقي جمال والبيروتي وجالا في الحديث مع الفدائي المخضرم عبد الله إسكافي. قال الرجل السبعيني: «كنت في الثامنة عشر حين قدت دورية عسكرية للداخل. تمركزنا في مغارة بالقرب من قرية بيت فوريك<sup>(264)</sup>، كنّا ننقل السلاح الذي توصله لنا الدوريات الآتية من قواعدنا في الأردن، نجتمع في بئر ثمّ نوزّعه على خلايا في الخليل وبيت لحم ورام الله. 'لقد أتيت لأقاتل لا لأكون أمين مستودع!'. هذا ما همست به لنفسي. في أول مرة حضر فيها أبو عمّار إلى القاعدة حدّثته برغبتي في أن أنتقل لموقع قتالي. أسبوع وأحضر لي هوية باسم أحمد نايف أحمد، وزودني بكلمة سرّ التقيت بواسطتها الدكتور نبيه معمر في القدس».

قال الدكتور جوهر الصايح وهو يروي حكاية الأسير علي اليمني: «على مدار خمسة عشر عامًا من اعتقاله في سجون الاحتلال، لم يعترف علي باسمه الحقيقي 'قاسم عكام حشاد'، أخفى ذلك على محقيقه وعلى زملائه المعتقلين كذلك، لم يرسل أحدًا ولم تصله رسائل من ذويه، بقي متكتمًا على معلوماته الشخصية باعتبارها أسرارًا للثورة، لم يكن يعرف ذووه هل هو حيّ أم ميت حتى تحرّر في صفقة تبادل للأسرى عام 1985. حين أُفرج عنه تبرّع برواتبه المتراكمة في مؤسسة أسر الشهداء لزملائه المحرّرين من الفلسطينيين، كان علي شديد الولاء للقضية الفلسطينية».

قال جمال: «حين كان أحدهم يستفز علي بسؤال: 'أنت يمني جنوبي أم شمالي؟'، كان يردّ بعصبية: 'من أي فلسطين أنت؟'». نهض جوهر وأحضر مصحفًا أهداه إياه علي قبل أربعين عامًا. أهدى علي المصحف إلى جوهر المسيحي باعتبار القرآن رسالة العرب.

قال جوهر: «حين دخل علي السجن كان أميًا. درّسته الروسية والعربية. كنت أسأله وأنا أُشير إلى حرف 'الجيم' في كلمة جمل فيرد: 'جا'. أُشير لحرف الميم فيرد: 'ما'. حين أكمل مشيرًا إلى حرف اللام يرد: 'بعير'. علي كتلة بساطة وهمّة عالية».

## «سلواد» على خريطة المقاومة

قال شقيقي جمال عارضًا ما يعرفه عن بطولات شبّان سلواد: «في سلواد وُلد المرحوم أبو محمد الكُنت، الرجل الذي أسس مع القائد صبحي ياسين<sup>(265)</sup> جبهة التحرير الفلسطينية قبل ولادة حركة فتح. ومنها المرحوم زياد حامد الذي كان ورفيقه راجح السلوادي رمزَيْن لجرائم يتسحاق راين<sup>(266)</sup> في تكسير عظام المقاومين في الانتفاضة الأولى<sup>(267)</sup>. ومنها الأسير المحكوم بالمؤبدات إبراهيم حامد، والأسير ثائر حمّاد بطل أكثر العمليات العسكرية تميّزًا في انتفاضة الأقصى، وخالد مشعل<sup>(268)</sup> رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، وقدورة فارس عضو المجلس التشريعي الفلسطيني. في صفقة تبادل الأسرى عام 1985 كان بين المحرّرين تسعة من سلواد، أحدهم رفائيل المولود من أم كويبة. رفض رفائيل عرض المخابرات بإبعاده خارج الوطن، فأمضى ستة عشر عامًا في السجن».

حين وصلنا إلى سلواد كان شارعها الرئيس يزدحم بالسيارات. عشرات الفتية والفتيات يتزينون برايات «فتح» و«حماس»، وتطوّق أعناقهم الكوفيات، كانوا عائدين من وداع الشهداء في مقبرة القرية.

قال ابن القرية، الأسير المحرّر محمد الزير الذي أمضى عشرة أعوام في سجون الاحتلال، راويًا حكاية اعتداء المستوطنين عليه قبل عام: «بدأت استصلاح أرضٍ لحمايتها من الاستيطان؛ زرعته، حفرت فيها بئر ماء، وبنيت

غرفة. بعد مدة هاجمني خمسة من مستوطني مستعمرة عوفرا المقامة على أراضي القرية، كدت أموت بين أيديهم لولا أن أنقذني رعاة أغنام من قرينتنا».

قال محمد يونس حين سألته عن شهيدَي القرية: «الشهيدان أنس حمّاد ومحمد عياد صديقا طفولة. استشهد أنس في عملية دهس على جسر قرية يبرود<sup>(269)</sup>، وقع ذلك بعد استشهاد محمد باثني عشر يومًا وفي الموقع ذاته. كان ذلك بعد ثلاثة أيام من وصوله من أميركا، قبل موعد زفافه بخمسة أيام. موقف شديد القسوة ووالدته وشقيقاته يوزّعن حلويات عرسه على المعزّيات به. كأنّما قدم إلى فلسطين لينتقم لصديقه وليس ليتزوج».

سألت الطفل عبد الكريم -أحد عشر عامًا-:

- كيف ترى الانتفاضة؟

- ستحرّر القدس إن شاء الله.

- ما رأيك بالتنظيمات؟

- شو يعني تنظيمات؟

- «فتح» و«حماس».. إلخ.

- أحبّها، لكنّها تتقاتل مع بعضها.

- ما رأيك بالسلطة؟

- على أبو مازن أن يهتم بالوطن.

أجاب شادي -ثلاثة عشر عامًا- حين سألته عن التنظيمات:

- لو أمّها مترابطة لحرّرت فلسطين.

قال يونس -ثلاثة عشر عامًا- وهو ابن خالة الشهيد أنس، حين سألته عن رأيه بالسلطة:

- لا أحبها! أريدها أن تساند المقاومة.

أتطلع في وجه محمد ابن الاثني عشر عامًا، شقيق الشهيد أنس، وهو يدور بالقهوة على المعزين وأتساءل: «ما الذي يدور برأس الفتى؟». حين وصلني سألته عن أثر استشهاد شقيقه في والدته فأجاب: «كادت تجنّ حين لمحت شفاهه مُقطّبة بفعل الرصاص، أمنيّتي أن أقتل الجندي الذي قتله». قال أبو حسين موجّهاً الكلام لي: «هذه أول مرة أشاهد شخصًا يحمل ورقة وقلماً ويسجّل، يسأل الصغار والكبار». قلت: «لا أريد أن أجلس بعد عشرة أعوام لأكتب من رأسي مدّعياً أنّ هذا رأي الناس. هل تريدني أن أكتب تاريخاً مزوراً؟! هذا ليس تاريخ السلطة، هذا تاريخ الثورة، تضحيات ودماء حارة».

قال لي شاب من حركة «حماس» وهو يروي تفاصيل عن التاريخ الوطني لبلدة سلواد: «كانت فتح سائدة في القرية في السبعينيات، أمّا بالنسبة لحماس فقد أفتتح في القرية فرع لجماعة الإخوان المسلمين عام 1946. حتى ذلك التاريخ كان في القرية سبعة وعشرون خريجاً من الأزهر، وهؤلاء علاقة أو احتكاك بالإخوان المسلمين بشكل أو بآخر. وهناك عائلات من القرية سكنت مدينة حيفا قبل النكبة، كان لها احتكاك بالشيخ عز الدين القسام، ومنذ الستينيات كان هناك جالية كبيرة من سلواد في الكويت التي كان لها دور الحاضنة لفتح ولاحقاً لحماس. اليسار جاء مع العائلات التي سكنت الناصرة قبل النكبة، ومن طلبة القرية الذين درسوا في مدارس رام الله».

تساءل أبو حسين مع الأسير المحرّر عبد القادر، شقيق الأسير ثائر حمّاد، مستغرباً لفّة 'عمامة' على رأسه: «تلبس كالحوثيين». ردّ عبد القادر مازحاً: «هذه لفّة جبهة النصرة». أضاف: «إنّها لفّة عروة، ابن عمّتي الذي استشهد قبل عام وهو في سن الخامسة عشر». قال عبد القادر حين سألته عن والده المعتقل منذ أشهر: «إنّه في سجن إيشل<sup>(270)</sup>، عند شقيقي ثائر، هذا ما استفاده

من السجنة». أشهر وأعتقل عبد القادر فالتحق بشقيقه ووالده.

## تصميم قاسٍ

في فيديو يوثق عملية طعن نفذها الفتى إسحاق بدر في حيّ المصرة بمدينة القدس، بدا التصميم قاسياً على وجه الصبي وهو ينتصب شاهراً سكينه، فيما شاب عربي يدعو له للهرب، وقد فرّ المستوطنون من الشارع. قال الفتى: «أريد أن أستشهد». ما الذي كان يدور برأسه في اللحظة الملتهبة؟ هل مرّت بخياله صورة الفتى أحمد مناصرة؟ هل خطر بباله حرق الطفل محمد أبو خضير، وحرّق عائلة دوابشة؟ هل؟ هل؟ عاود الصبي الهجوم، أطلق شرطي النار عليه. ظلّت جثته تنزف حتى فارق الحياة. الاحتلال شيخ التحريض.

عُقدت جلستان للمجلس الوزاري الإسرائيلي المصغّر في الأيام الأخيرة. طالب نتنياهو بالاستعداد لسيناريو انهيار السلطة الفلسطينية. بقاء السلطة مصلحة إسرائيلية، لكنّها ما عادت كذلك فحسب، إنّها مصلحة أصحاب النفوذ والامتيازات، وفي القاعدة الشعبية يخشى الناس على الرواتب، ويخشون إن دبّت الفوضى أن تتحكم العصابات بالشارع. معادلة جمعت الصديق بالعدو.

أطلق الشاب نشأت ملحم النار من رشاشه في حانة بتل أبيب. قتل اثنين من الإسرائيليين، أحدهما رجل موساد. اتصل والد نشأت بالشرطة الإسرائيلية التي يعمل متطوعاً معها، أبلغها أنّ الشخص الذي ظهرت صورته على الفضائيات ابنه.

هل كان قتل نشأت لرجل الموساد مصادفة أم أنّه ضمن مخطط؟ إن كان مخططاً، كيف عرفه؟ قيل إنّ نشأت كان يرتدي نظارة حمراء مكّنته من التملّص من الكاميرات، وإنّه غطى كفيه بأكياس بلاستيكية، وإنّ نوعية سلاحه غير

معروفة. قيل الكثير. إن كان ما قيل صحيحًا فنحن أمام شخص محترف، والعملية مخططة بإتقان، والهدف مدروس جيدًا. قال محلل أمني إسرائيلي عن الاحتمالات: «إمّا أن يكون العمل جنائيًا، أو أمنيًا، أو شيئًا ثالثًا لا أريد الإفصاح عنه، القاتل محترف». ما الاحتمال الذي لم يُرد الخبير الأمني الإفصاح عنه؟

قالت المخابرات الإسرائيلية إنّ نشأت أمضى في السجن الإسرائيلي خمسة أعوام، إنّهُ خطف سلاح جندي للثأر لابن عمه الذي قتله الشرطة الإسرائيلية. أمّا أبوه فقال إنّ ابنه كان مكتئبًا، وإنّ السلاح الذي استخدمه هو سلاح الوالد. عقّب ننتياهو على ما جرى: «من غير المعقول أن يتصرّف العرب بحقوقهم كإسرائيليين وبواجباتهم كفلسطينيين». كلمات تعيد تعريف الأشياء بمسمياتها الحقيقية، لا ولاء للفلسطيني لغير وطنه.

أسبوع من المطاردة وسقط نشأت شهيدًا. ارتبك وضع السلطة الفلسطينية حين أُحتسب شهيدًا في سجلاتها، فيما أنّنا أيام الثورة كنّا نقيم حفلًا حين نجند شابًا من الأراضي المحتلة عام 1948. أسقط اتفاق أوسلو «فلسطينية» هؤلاء، لكنّه أخفق في تجريدهم من عمق انتمائهم.

كتب يوثيل ماركوس في صحيفة هآرتس الإسرائيلية عن استشهاد نشأت: «كيف ينجح شاب أن يلقي بشرّه الأكبر على المدينة الأكبر والأبهج في الدولة؟ لم يدُم المشهد أكثر من بضع دقائق. ولم يوجّه أحد بطل فيلم الرعب كيف يتحرّك في الساحة. سار يحمل حقيبة وكيس نايلون، أفرغه في الرّف كمن قرّر ألا يشتري البضاعة، اتخذ بضع خطوات باتجاه الخروج، فيما كان يرتب شيئًا ما في حقيبته. انطلق إلى الخارج، كرمشة عين، إلى البار المقابل، وقتل في وضوح النهار. هذا كله في لبّ لباب المدينة العبرية الأولى. في اللحظة الأولى لم يعرف أحد من هو، وعندما خلّدتة كاميرا المحل فحسب، تبين لسكان رمات



أُفِيْفُ<sup>(271)</sup> أَنَّهُ الشَّخْصُ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ كَعَامِلٍ فِي مَحَلٍّ لِلخَضِرَاوَاتِ. غَيْرَ قَلِيلِينَ مِنْهُمْ شَخْصُوهُ كَمَنْ أُمَّ بَيْتَهُمْ وَجَلَبَ لَهُمُ الْخَضِرَاوَاتِ الطَّازِجَةَ، أُصِيبَ بَعْضُهُمْ بِفَرْعٍ لَاحِقًا، فَقَدْ كَانَ بِشَوْشًا وَعَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ صَاحِبَ نَكْتَةٍ. أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ، نَجَحَ شَخْصٌ وَاحِدٌ فِي فِرَاضِ حَالَةٍ رَعْبٍ عَلَى التَّلِّ أَبْيَسِينَ. اشْتَكَى قَدَامَى تَلِّ أَبْيَبٍ أَنَّهُ حَتَّى الْبَرِيطَانِيُونَ فِي عَهْدِ الْإِنْتِدَابِ لَمْ يَقْتَحِمُوا شَقِّ السَّكَانِ: 'قَلَبُوا لَنَا الْخَزَائِنَ وَكَأَنَّ الْمَخْرَبَ يَخْتَبِئُ عَلَى أَحَدِ الرُّفُوفِ'.

### قَالَتْ «سَعِير» كَلِمَتَهَا

صَبَاحُ الثَّامِنِ مِنْ كَانُونِ الْأَوَّلِ/ دَيْسَمْبَرٍ، قَتَلَتِ الْقَوَاتُ الْإِسْرَائِيلِيَّةُ أَرْبَعَةَ شَبَّانٍ مِنْ قَرْيَةِ سَعِيرِ<sup>(272)</sup>، أَحَدَهُمْ خَلِيلُ الشَّلَالْدَةِ -سِتَّةُ عَشَرَ عَامًا- طَعَنَ جَنْدِيًّا إِسْرَائِيلِيًّا عِنْدَ حَاجِزِ «بَيْتِ عَيْنُون» الْعَسْكَرِيِّ شَرْقِ الْخَلِيلِ. إِنَّهُ شَقِيقُ أَحْمَدِ الشَّلَالْدَةِ الَّذِي قَضَى شَهِيدًا قَبْلَ شَهْرِ. الشَّهْدَاءُ الثَّلَاثَةُ الْآخَرُونَ أَبْنَاءُ عَمِّ مِنْ عَائِلَةِ الْكَوَازِبَةِ؛ أَحْمَدُ تِسْعَةَ عَشَرَ عَامًا، مَهْنَدُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ عَامًا، وَعِلَاءُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ عَامًا، حَاولُوا طَعَنَ جَنْدِيَّ عَلَى مَفْتَرَقِ «غُوشِ عَتَصِيُونَ»، ذَلِكَ الْمَفْتَرَقِ الَّذِي أُشْتَهَرَ كَرَمَزٍ لِعَمَلِيَّاتِ الطَّعْنِ فِي هَذِهِ الْهَبَّةِ. قِيلَ إِنَّ اثْنَيْنِ مِنَ الشَّهْدَاءِ شَقِيقَانِ، وَإِنَّ الثَّلَاثَ ابْنَ رَجُلٍ أَمْنِ فِلَسْطِينِي. أَصْبَحَ عِدَدُ شَهِدَاءِ سَعِيرِ عَشْرَةٍ فِي هَذِهِ الْهَبَّةِ.

### إِلَى أَيْنَ تَتَجَهَّ الْأُمُورُ

أَعْدَمَتِ قَوَاتُ الْإِحْتِلَالِ الشَّابِينَ عَلَيَّ أَبُو مَرِيْمٍ وَسَعِيدُ أَبُو الْوَفَا. التَّهْمَةُ جَاهِزَةٌ، وَتَكَادُ النَّتِيجَةُ أَنْ تَكُونَ ذَاتَهَا؛ «حَاولُوا طَعَنَ جَنْدِيَّ عَلَى حَاجِزِ الْحَمْرَا، لَمْ يُصَبِّ الْجَنْدِيَّ بِأَذَى». تَسْتَرُ عَلَى الْجَرِيْمَةِ، وَمَحَاوَلَةٌ لِإِظْهَارِ عِزِّ الْفِلَسْطِينِي.

كُنْتُ مُسْتَعْرِقًا فِي الْكِتَابَةِ حِينَ سَأَلْتَنِي زَوْجَتِي:

- إلى أين تتجه الأمور برأيك؟

- لا أدري.

- هذه الكتابة والسياسة كلها ولا تدري!

- لست وحدي العاجز عن التكهن. أمس صرّح رجل أمن إسرائيلي كبير أنّ الوضع يتجه نحو التهدة. انظري ما جرى بعد ذلك، ثلاث عمليات طعن وستة شهداء.

كتب ألون بن دافيد في صحيفة معاريف: «نشر جهاز الأمن العام 'الشاباك'»

أمس معطيات تشير إلى استمرار الانخفاض في عدد العمليات، لكن للأسف الشديد لا توجد مؤشرات على أنّ الإرهاب والعنف يوشكان على الخبو. إحدى مزايا الانتفاضة الحالية هي الاحتقار الذي يُظهره الفلسطينيون لإسرائيل. في مواجهات مع الجيش أيام الجمعة، يمكن أن نرى فلسطينيين يرقصون، يسخرون. ليس لديهم أي خوف من صاحب السيادة الإسرائيلية. أعمال مثل فرض طوق على قرية، كانت في الماضي تستدعي استجداءات من جانب المختار، تُستقبل اليوم بعدم مبالاة. هم يرون كيف تغلق المدينة العبرية الأولى منازلها على نفسها ولا تبعث بأبنائها إلى المدارس، مجمّدة من ذاك الشخص الذي نجح هذا الأسبوع في هزّ الشرطة والمخابرات».

كتب حمدي فراج في صحيفة القدس المقدسية: «أخفقت إسرائيل في الضغط على ذوي الشهداء، بعد أن جوبهت برفضهم الجماعي النزول عند اشتراطاتها الصارخة المبنية على شيء مهين لا تقوم به دول منقرضة، مفادها: 'إنني أقتل ابنك وأشترط عليك كيفية دفنه'».

جاء في مقالة كتبها المؤرخ الهندي فيجاي براشاد في مجلة كاونتر بيتش: «يوم 17 كانون الأول/ ديسمبر الماضي كان ناصر يقود سيارته من نابلس إلى

رام الله في الضفة الغربية المحتلة. كان رذاذ مطر يتساقط عندما اقترب من نقطة التفتيش العسكرية الإسرائيلية في حوارة. كانت أمامه عربية أخرى تسير بحذر. على بعد حوالي خمسين مترًا كانت هناك عربية عسكرية إسرائيلية، والحذر هو شأن اليوم في فضاء الجيش الإسرائيلي، ولا فائدة تُرجى في التسبب بإغضابهم، لذلك حافظ ناصر على مسافة بينه وبين السيارة التي تسير أمامه بوتيرة بطيئة. على جانب الطريق، على العشب المقابل للرصيف الجانبي، مشى فتى باتجاه السيارات، لاحظ ناصر أنَّ الفتى بدأ يسير على العشب لتفادي الوحل على جانب الطريق.

توقفت العربية العسكرية الإسرائيلية، لا بد وأنَّ أمرًا ما صدر من الجنود. رفع الفتى ذراعيه في الهواء. لم يسمعهم ناصر، لكنَّه شاهد الفتى يذعن لهم. بدأت السيارة التي تسير أمامه بالالتفاف حول العربية العسكرية وتبعها ناصر. شاهد الفتى رافعًا ذراعيه، وفي الدقيقة التالية، وعبر المراة العاكسة في حجرة القيادة، شاهد ناصر الفتى على الأرض. في دقيقة كان الفتى واقفًا رافعًا ذراعيه، وفي الدقيقة التالية كان جثة هامدة. أوقف ناصر سيارته وكذلك فعل سائق السيارة التي أمامه، تبادل الرجلان المعلومات، لقد شاهد كلاهما عملية إعدام. بعد وقت ليس بطويل أعلنت وسائل الاعلام الإسرائيلية أنَّ جيشها قتل عبد الله ناصرة/ 15 عامًا من بيت فوريك.

قال الجيش الإسرائيلي إنَّ ناصرة: 'تحدّى القوات بينما كان متسلحًا بسكين'. قال ناصر إنَّه لم يشاهد أي سكين، ولم يشاهد ناصرة يتحدّى رجال الجيش. كانت أسلحتهم مصوبة نحوه، فلماذا يحاول مهاجمتهم بسكين؟ على مدار الأسابيع القليلة الماضية، استخدم الجيش وقوات الأمن الإسرائيلية القوة المميتة ضدَّ عدد من الأولاد الذين يتهمونهم بشنِّ هجمات بالسكاكين. وكان القادة السياسيون قد منحوا جنودهم تخويلًا على بياض بقتل أي

فلسطيني يرون أنّه يشكّل تهديدًا لهم. قال وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي جلعاد إردان: 'على كل إرهابي أن يعرف أنّه لن يتمكن من تنفيذ الهجوم الذي يوشك تنفيذه'. واتفق معه يائير لايبيد<sup>(273)</sup>، وزير المالية السابق في الحكومة الإسرائيلية، والذي قال بدوره: 'عليك إطلاق النار لقتل أي شخص يستلّ سكينًا أو مفكًا'. ونظرًا إلى أنّ الجيش الإسرائيلي هو القاضي والمحقق والمنفّذ في هذه الحوادث، فلا مساءلة لهم. عندما توجه كمال بدران بسيارة الإسعاف التي يقودها إلى المكان، منعه الإسرائيليون من الوصول إلى الجثة. لن تكون ثمة محاكمة، سوف تُقفل القضية بهدوء. يقول ناصر الذي توحى عيناه أنّه صادق ولطيف، وصوته يعكس أنّه غير هيّاب: 'لقد شاهدتهم يقتلون فتى'. لكن ماذا يستطيع ناصر أن يفعل؟ لغة جسده نفسها تلعن الاحتلال، لكن ليس ثمة جدوى هنا من الجسارة».

### «يهدمون وبنني»

استغل جيش الاحتلال حالة الطقس السيئة. اقتحم بلدة سردا شمال رام الله بأربعين آلية عسكرية وأربعمئة جندي. بين ركام حجارة منزل الشهيد مهند الحلبي تدور والدته صامته. يدعوها زوجها إلى منزل أحد الأقارب فتهمس له بالبقاء قليلًا. «هدمت الجرافات البيت، لكنّها أخفقت في تدمير صورة مهند». هذا ما همست به الوالدة وهي تشير إلى صورة نجلها الشهيد. تمسك المرأة المكلومة غصن شجرة لوز نجت من الموت: «وهذه زرعها مهند، لم يصبها أذى». في انتفاضة الأقصى كان الرئيس صدام حسين يدعم عوائل الشهداء. شكرًا للعراق. اليوم هبّ طلبة المدارس وطلبة الجامعات لجمع التبرعات لبناء منزل الشهيد.

كتب الدكتور أحمد عزم عن الحملة: «استغربت قليلًا البهجة التي سرت في

وسائل إعلام محلية فلسطينية، إثر انتشار صورة صليب ذهبي تبرعت به طالبة من جامعة بيرزيت، ضمن حملة إعمار بيوت الشهداء بدءاً من بيت مهند الحلبي. تتحدث الفتاة المتبرعة لراديو بيت لحم مشرطة عدم ذكر اسمها: 'بحثت في حقيقتي، لم أجد سوى 33 شيكلاً، لا تكاد تكفي لطريق العودة! لم أجد سوى القلادة التي أهداها إليّ أبي في عيد ميلادي، صحيح أنّ الصليب غالي عليّ، لأنّه هدية من أبي، الله يرحمه، لكنّه ليس أغلى من البطل مهند وعائلته'.

## وجعك وجعي

في خيمة عزاء الشهيد سرور أبو سرور في مخيم عايدة<sup>(274)</sup>، تساءلت والصديقين سيف تيم وعدنان أبو عيّا: «كأنّ الوطنية جينات!». قلت ذلك وأنا أتبع حركة المناضل أحمد أبو سرور، وهو يستقبل المعزين بولده، كأنّما يستقبل مهنئين بعرس الشهيد لا بعزائه! من أي عمق نبع تتدفق القوة الجبارة في صدور آباء الشهداء وأمّهم؟ لم يكن أبو سرور يمثل، كان صابراً. رجل خبير الكهوف ودروب المطاردة، وأكثر من عشرين عاماً من الاعتقال في سجون الاحتلال. شخص يعرف كيف ييلسم جرحه.

نهض عبد الرحيم النوباني (أبو النوب) متكئاً على عصاه. قال بانفعال عن رفيق دربه الطويل في السجون الإسرائيلية: «أبو سرور أستاذي في الثورة، معلّم في فتح. علّمني طهارة الدم وعمق الانتماء الوطني. تعرّض أكثر من غيره للتعذيب. ضريبة الوطن محفورة على جلده». تطلّع في عينيّ أبو سرور وأضاف بثقة: «أعتزّ أنّي أعرفك». جال بنظره على رفاقه المناضلين والأسرى القدامى: «سمعت في الأخبار أنّ شهيداً من عائلة أبو سرور سقط في مدينة بيت جالا. اتصلت بأبو سرور، قلت متنقلاً بحذر بين الكلمات: «كيف

حالك؟ كيف أولادك؟». ردّ بثقة: «الحمد لله بخير». ارتبكت، لم أعرف كيف أكمل كلامي حتى ساعدني قائلاً: «الشهيد ابني». قلت: «وجعك وجعي يا رفيق الدرب».

نظر أبو سرور في عينيّ رفيقه بتواضع المقاتل دون أن يعلّق.

قال شقيقي جمال وهو يناول أبو سرور الهاتف: «محمود طويط من الرمثا».

ما الذي أتى بأبو النوب من بلدة مزارع النوباني إلى مخيم عايده؟! رجل مريض، وطرق شاقة، وأحوال أمنيّة صعبة. ما الذي جعل الرمثاوي طويط يحرص على تعزية رفيق سجنه؟! الوفاء قوة راسخة في وجدان المناضلين.

قال أحد المعزّين مشيداً بأبو سرور: «قال المناضل الكبير أبو سرور وهو يؤبن ولده: 'أمل أن يكون استشهاد ابني ورفاقه سبباً في إنهاء الانقسام، الوحدة قدرنا'. في السجن كنّا نحلم أن نتزوج، وأن ننجب أطفالاً ونراهم يكبرون. ليس أمراً مفرحاً للأب أن يحمل ابنه على نقالة الموت إلى مثواه الأخير، كان أبو سرور ينتظر أن يحمله ابنه سرور إلى القبر وليس العكس. ما يواسينا أنّ هؤلاء الأبطال استشهدوا من أجل الوطن. نحن لا نفرح للموت، لكنه أملنا بحياة حرة كريمة».

في طريق عودتنا إلى رام الله سألت عدنان أبو عيّاش: «كم حصة بيت أمّ من شهداء الهبة؟». أجاب: «سبعة حتى الآن». أضاف: «الثورة في قريننا ميراث قديم؛ عام 1948 حرّر أهالي القرية منطقة كفر عصيون، وطرّدوا المستوطنين من المستعمرة. في تلك المعركة سقط شهداء من القرية ومن منطقتي بيت لحم والخليل<sup>(275)</sup>. بعد عدوان حزيران/ يونيو أعاد الاحتلال بناء المستعمرة. ثمّ إنّ البلدة محاطة بسبع مستعمرات أُقيمت على أراضيها، وهناك الحاجز العسكري على مدخل البلدة، هذه تفرض احتكاكاً يومياً مع قوات الاحتلال. وأخيراً هناك تجربة البلدة في المقاومة الشعبية».

في بلدة العيزرية ونحن عائدون إلى رام الله، صدفتنا زحمة سيارات على الدوار المؤدي إلى «وادي النار»<sup>(276)</sup>. بدا التوتر على وجوه السائقين. ضابطا شرطة فلسطينية أحدهما برتبة نقيب، وعدد من عناصرها، يحاولون فك اشتباك السيارات المتناطحة في الاتجاهين. عبرنا الدوّار بصعوبة بالغة. مشينا عشرين مترًا نحو الشرق. ففاجأتنا سيارة «حرس حدود» إسرائيلية تسير بعكس اتجاه السير. ماذا لو اصطدم بها سائق فلسطيني؟ سيطلقون النار عليه بتهمة محاولة دهس. تجرّ وإهانة مقصودة ويتساءلون عن المحرّضين! أمتار قليلة وبدا المشهد أكثر إذلالاً. رجال شرطة فلسطينية على أكتافهم بنادق أوتوماتيكية، يلوّحون بأيديهم للسيارات الفلسطينية دون أن يتطلّعوا في العيون. كيف تصرّف هؤلاء مع سيارة حرس الحدود التي مرّت بهم مخالفة للسير؟ لقد سهّلوا لها الطريق مرغمين. كيف سيتصرّف الضابطان الآخران ورفاقهما حين تمرّ بهم السيارة المعادية؟

## «جنون»

السابع عشر من كانون الثاني/ يناير عام 2016، طعن الفتى مراد دعيس -سنة عشر عامًا- امرأة في مستعمرة عتائيل<sup>(277)</sup>. في اليوم التالي طعن الصبي محمد أبو حلبية -خمسة عشر عامًا- امرأة في مستعمرة تقوع<sup>(278)</sup>. تمكّن الأول من الهرب، وأُعدم الثاني. لماذا يطعن القاصرون؟ لماذا يطعن بعضهم نساء؟ أفقدتهم جرائم الاحتلال صوابهم.

في الثاني والعشرين من الشهر ذاته، أعدمت قوات الاحتلال الفتاة رقية أبو عيد -ثلاثة عشر عامًا- على بوابة مستعمرة عناتوت<sup>(279)</sup>. «حاولت طعن حارس المستعمرة الأمني، لم يُصَب الحارس بأذى»، هذه رواية الإسرائيليين المتكررة. لماذا قتلتم الطفلة إذا؟

في الخامس والعشرين من الشهر نفسه، دخل الشابان إبراهيم علان وحسين أبو غوش إلى مستعمرة بيت حورون<sup>(280)</sup>، طعنا امرأتين، وقُتلا برصاص حارس المستعمرة. مضى يومان وطعن الشاب عروة أبو راس مستوطناً في مستعمرة جفعات زئيف<sup>(281)</sup>. وبعد ثلاثة أيام أخرى نُفذت عملية طعن في باب العمود.

الحادي والثلاثون من كانون الثاني/ يناير، أطلق الرقيب من حراسة الشخصيات في الشرطة الفلسطينية، أمجد السُّكري، رصاص مسدسه على جنود الاحتلال في حاجز بيت إيل، فأصاب ثلاثة منهم بجراح قبل أن يستشهد. الشهيد أب لأربعة أطفال، أصغرهم بعمر ستة أشهر. بعد ساعات نُفذ شاب عملية دهس على حاجز بيت عور التحتا<sup>(282)</sup>. الألم ذاته؛ احتلال وإعدامات ميدانية. والحلم ذاته؛ حرية وكرامة. والشهداء ذاتهم؛ فتية وفتيات.

باب العمود هو المدخل الرئيس لمدينة القدس القديمة. نقطة تكاد تختصر مشهديّ الرعب والجراحة في الهبة الراهنة؛ وحدات خاصة، قناصة، كاميرات، وجنود يفتشون المارة بدقة. ثكنة عسكرية يقابلها فتية وفتيات يتحدثون بفدائيتهم جبروتها. يأمر الجنود الشاب بالتوقف للتفتيش، فيرفع يديه للأعلى ويدير وجهه باتجاه الحائط. يصوّب جندي بندقيته إلى رأسه، ويبدأ جندي آخر بتفتيشه، وثالث يراقب من أعلى السور. تمتّ امرأة طاعنة في السن وهي تراقب المشهد: «حسبي الله ونعم الوكيل، يدفعون شبابنا للجنون». حتى الآن، قُتل في المكان خمسة إسرائيليين، بينهم ثلاثة جنود، واستشهد اثنا عشر فلسطينياً.

مساء الثالث من شباط/ فبراير، اجتاز ثلاثة شبّان من بلدة قباطية<sup>(283)</sup> حواجز الاحتلال المنتشرة بين جنين والقدس، ونفذوا عملية طعن وإطلاق نار ضدّ دورية لحرس الحدود في باب العمود. استشهد الثلاثة. لماذا اختاروا



باب العمود وهناك مواقع أقرب إلى منطقة سكناهم؟ إنّه التحدي ورمزية المكان. كيف تمكّنوا من اجتياز الحواجز العسكرية؟ إنّه التصميم وقوة الهدف. كيف وصلوا إلى المدينة المقدسة المحصنة بالمعابر الإلكترونية؟ كيف دخلوها متسلّحين ببنادق وعبوات ناسفة؟ ستعجز المؤسسة الأمنية الإسرائيلية عن الإحاطة بإبداعات المقاومة.

تجمّع أكثر من خمسمئة من طلبة جامعة بيرزيت أمام مبنى كلية الآداب. اصطفوا على طول المسافة الواصلة بين الكفتيريا وكلية الآداب، وكل منهم يحمل كتاباً بيده. قال والد الشهيد بهاء عليان بعدما حيّاهم فرداً فرداً: «تؤكد هذه السلسلة من القراء أنّنا شعب يعشق الثقافة».

في السلسلة الأولى التي بدأها الشهيد بهاء عليان في آذار/ مارس عام 2015، التفت عشرة آلاف مشارك حول أسوار القدس العتيقة بدءاً بباب العمود. قطع الاحتلال على بهاء رحلة حلمه، لكنّ فكرته ستظلّ حيّة. مئات الطلبة من جامعة الخليل شاركوا في سلسلة كهذه. وكان هناك سلسلة مشابهة في جامعة القدس، وها هي الفكرة تحلّق في فضاء جامعة بيرزيت. جسد بهاء في ثلاثة الاحتلال منذ أكثر من أربعة أشهر، وروحه تحفّق عالياً براية البطولة.

ظهر الثالث من شباط/ فبراير عام 2016 كنت في طريقي إلى قريتنا بلعين غرب رام الله. وسط قرية عين عريك شبّان يقفون على جانب الطريق، بعضهم تُطوّق أعناقهم كوفيات. وعلى بُعد خمسين متراً، قبل أن ننعطف صوب المسجد، فوجئنا بثلاثة جيبات عسكرية إسرائيلية. همس لي الشاب الجالس بجواري: «أشار ضابط المخابرات في الآلية المصفحة لسائقه بالتوقف عند الشبان». بالفعل، انحرفت الآليات يساراً وتوقفت بمحاذاتهم، هذا ما ظهر على مرآة سيارتي. «لم يُلَقَ ولو حجر واحد على الآليات!».

أين نحن اليوم ممّا كان يجري في الانتفاضة الأولى! في تلك الانتفاضة منع أهالي عين عريك المستوطنين من المرور منها إلّا بقوافل محروسة، وليس بعيد من الذاكرة ما آل إليه مصير «حاجزها» الشهير في انتفاضة الأقصى. ما يجري اليوم ليس انتفاضة جماهيرية، وإلّا لما تجرّأ الضابط على الوقوف وسط القرية. تعريف الأشياء مهم لتحديد كيفية التعاطي معها، لكننا نهوى الشعارات الكبيرة.

وأنا أتأمل المشهد تذكّرت ابنيّ القرية في الانتفاضة الأولى؛ المسيحي رمزي شاهين، والمسلم أنيس شكري. كانا في الرابعة عشر من عمرهما حين اندلعت الانتفاضة الأولى. عجزت مخبرات العدو عن القبض عليهما، فتسلّلا من الوطن عبر صحراء سيناء. وبعد عامين عادا بدورية عسكرية فاستشهدا على الحدود المصرية الفلسطينية.

## ويتدفق شلال الدم

في «عيد الحب»، أُطلقت النار على الصبيّة كلزار -سبعة عشر عامًا- أمام الحرم الإبراهيمي، فسقطت شهيدة. والحجّة ذاتها؛ «حاولت طعن جندي». آه يا كلزار، يا حديقة الزهور كما هو اسمك باللغة التركية، يا نبت البطولة. تنهمر دموع الفتى عبد الرزاق وهو يقلّب أوراق وكتب الشهيدة. كانت آخر كلمات عمّتي لي: «دير بالك على حالك يا عبد الرزاق».

في اليوم التالي نفّذت الطفلة ياسمين الزرو -أربعة عشر عامًا- عملية طعن في المكان ذاته. تُركت الفتاة تتلوى في بركة دمها حتى فارقت الحياة. وعلى بوابة مستعمرة شاكيد<sup>(284)</sup>، نفّذ الفتيان نهاد واكد وفؤاد واكد عملية طعن في اليوم التالي. ادّعت قوات الاحتلال أنّهما استشهدا في اشتباك مسلّح، لكن هناك من قال إنّ الصبيّين قُتلا بدم بارد دون أن يكون بحوزتهما سلاح. وفي

اليوم ذاته استشهد الفتى نعيم صافي من بلدة العبيدية<sup>(285)</sup> على حاجز «مزموريا» العسكري. كذلك ادّعت قوات الاحتلال أنّه حاول طعن جندي. في الوقت ذاته نفّذ عنصرا الأمن الفلسطيني، منصور الشوامرة وعمر عمرو، عملية في باب العمود. كيف وصلا إلى الموقع بسلاحهما؟ سؤال سيرهق أدمغة العاملين في أجهزة الأمن. ستة شهداء في يوم واحد.

في الثامن عشر من شباط/ فبراير، نفّذ الفتى قصي أبو الرب عملية طعن على مفرق بلدة بيتا<sup>(286)</sup>. وفي اليوم ذاته نفّذ الفتيان عمر الرياوي -أربعة عشر عامًا- وأيهم صباح -أربعة عشر عامًا- عملية طعن في فرع مجمع رامى ليفي التجاري بالقرب من قرية مخماس<sup>(287)</sup>. قتلًا جنديًا إسرائيليًا وأصابا آخرًا. أطلق مستوطن الرصاص عليهما فاستشهد أحدهما وأصيب رفيقه بجراح خطيرة. وقد أظهرت صور الكاميرات أنّ الصبيين قُتّسا عند مدخل المجمع. كيف حصلًا على السكاكين؟ هل اشتريها من المجمع؟ أم «سرقاها» منه؟ ستظلّ الأسئلة تقض مضاجع العاملين في أجهزة الأمن المستنفرة.

قال الفتى محمود بدران زميل الشهيد في المدرسة وهو يحدثني بحرقه عنهما: «كلاهما طالبان مجتهدان، وأوضاع أُسرتيهما المالية جيدة، ويحملان جوّالات [هواتف نقّالة]. والد أيهم مدرّس في المدرسة ذاتها 'مدرسة نور الهدى'. ووالد عمر مهندس. ظلّا يمزحان ويلعبان معنا حتى آخر لحظة، وحين انتهى الدوام المدرسي، اتخذّا سبيلهما لتنفيذ عمليتهما. لقد تركا فراغًا موحشًا».

التاسع عشر من الشهر ذاته، نفّذ محمد أبو خلف عملية طعن في باب العمود، فأصاب جنديين قبل أن تُطلق عليه النار ويسقط شهيدًا. في اليوم ذاته وقعت عملية دهس عند البوابة الغربية لبلدة سلواد، منفّذ العملية عابد حامد طالب بجامعة بيرزيت. أصاب جنديين قبل أن يستشهد. في النهار ذاته

استشهد خالد طقاطقة في أثناء محاولته القيام بعملية طعن.

في العشرين من شباط/ فبراير، اشتبعت قوات الاحتلال بشاب في باب العمود. وبعد تفتيشه عثرت بحوزته على سكين فاعتُقل بتهمة محاولة تنفيذ عملية طعن. نجا من الإعدام.

باب العمود، مفرق عتصيون، حاجز زعتر، نقطة التفتيش أمام الحرم الإبراهيمي، سلواد، قباطية، مخيم قلنديا، سكير، بيت أُمّ، قطنّة، مخيم شعفاط، جبل المكبر، كفر عقب، وغيرها. هذه عناوين كبيرة في الهبة، وما يزال سباق التميّز مفتوحاً على فضاءات البطولة.

«أحبط الجنود عملية طعن على حاجز زعتر. فتّشوا حقيبة فتاة فعثروا على سكين». هذا ما جاء في الإذاعة الإسرائيلية صباح الواحد والعشرين من شباط/ فبراير. اعتقلوا الفتاة ساجدة محمود -سبعة عشر عاماً- بتهمة محاولة طعن. وكانت الرواية ذاتها قد ساقتها إسرائيل بالنسبة للشاب في باب العمود أمس. بعد الظهر أُعلن عن اعتقال فتى حاول طعن شرطي أمام الحرم الإبراهيمي. أيام ونفذ مدرّس الرياضيات ممدوح عمرو عملية طعن في مفرق عتصيون. قُتل في العملية ضابط برتبة كابتن بنيران صديقة، فطالب رئيس الأركان الإسرائيلي الجنود بحمل أسلحتهم في أثناء الإجازات، ودعا وزير الأمن الإسرائيلي لحمل السلاح.

بماذا فكّر هؤلاء القادة وقد اجتاحت الشاب فادي قنبر من جبل المكبر بسيارته عشرات الجنود المدججين بالسلاح، فقتل من قتل قبل أن يستدير ثانية ويكرّر العملية؟! فيما فرّ أكثر من أربعين جندياً آخر من المكان، لماذا فرّوا مذعورين؟ تحوّل المجتمع الإسرائيلي إلى معسكر حربي؛ هلع، جنون، وهستيريا. يفرغون خمسين رصاصة في جسد صبي! يقتلون مريضاً نفسياً! يقتلون يهودياً أريترياً شكّوا بسحته! ويتكرّر قتل الجنود لرفاقهم.

ليالي مخيم قلنديا كلها صعبة، لكنّ ليلة الأول من آذار/ مارس 2016 كانت أقسى ما مرّ على المخيم حتى الآن، فعند منتصف الليل فوجئ الشبان بسيارة عسكرية وسط المخيم. بدأ إطلاق رصاص كثيف، وُسْمِع صوت طائرات هليكوبتر. أحالت القنابل المضيئة ليل المخيم إلى نهار، فأحرق الشبان السيارة العسكرية بعد أن فرّ الجنديان من داخلها، واستشهد الشاب إياد سجدية وأصيب عشرون آخرون.

فجر اليوم التالي دخل الفتيان محمد زغلوان ولييب خلدون إلى مستعمرة عيلي<sup>(288)</sup>. أصابا مستوطنًا بالهراوات قبل أن يستشهدا. وفي مساء اليوم ذاته هاجم شابان بالسكاكين جنديين على بوابة مستعمرة براخاه<sup>(289)</sup> القريبة، فأصابا الجنديين بجراح وفرا من المكان.

صباح اليوم التالي طعنت فتاة شرطياً إسرائيلياً في قرية العوجا<sup>(290)</sup>. أيام ونفّذت أمني سباتين عملية دهس على مفترق عتصيون، واستشهدت بعد أن أصابت جندياً بجراح.

الثامن من آذار/ مارس، قتل جنود الاحتلال السيدة الخمسينية فدوى أبو طير في باب العمود. والحجّة ذاتها؛ حاولت طعن شرطي. في اليوم ذاته نفّذ الشاب بشار مصالحة عملية طعن في مدينة يافا. أسفرت العملية عن إصابة أربعة عشر شخصاً بجراح، واستشهد المنفّذ. وفي اليوم ذاته نفّذ الفتى سامي إسماعيل عملية طعن في مدينة بتاح تكفا<sup>(291)</sup>. وفي شارع صلاح الدين في القدس أطلق شاب عشريني النار على الشرطة، فأصاب اثنين قبل أن يستشهد.

استنكرت وزارة الخارجية الأميركية عمليات الطعن. وأجرى نتنياهو مشاورات مع أعضاء القيادة الأمنية. دوران في الفراغ ذاته؛ تشديد للإجراءات، ومعاينة للعائلات، وإغلاق لقنوات فضائية. في اليوم ذاته قُتل

ضابط في جهاز الشاباك دون ذكر للتفصيلات.

في اليوم التالي نفذ عبد المالك أبو خروب ومحمد الكالوتي عملية في باب الجديد في القدس، واستشهد الاثنان. ونُفذت عملية في مستعمرة راموت<sup>(292)</sup> واستشهد المنفذ. إنه الشهيد الخامس عشر من مخيم قلنديا في هذه الهبة.

فجر الحادي عشر من آذار/ مارس، دهمت قوات الاحتلال مقرّ فضائية فلسطين اليوم المحسوبة على حركة «الجهاد الإسلامي»، وصادرت محتويات المحطة، واعتقلت مديرها وبعض موظفيها. وأبعدت عائلة الشهيد فؤاد التميمي عن العيسوية. وأصدر المجلس الوزاري الإسرائيلي المصغّر سلسلة قرارات أمنية وعقابية جديدة. وفي صباح اليوم ذاته انفجرت عبوة ناسفة على طريق مستعمرة عتائيل، وطعن شاب مستوطنًا في القدس القديمة. وجاء في الإذاعة مساءً: «أطلقت النار على حاجز عسكري على شارع 443».

كتب بن كسبيت في صحيفة معاريف: «وصل إسرائيل كاتس<sup>(293)</sup> إلى ستوديو أخبار 2 بمزاج قتالي، وأعلن الحرب، على من؟ ليس واضحًا في هذه اللحظة. أين العدو؟ في كل مكان. أين قيادة العدو؟ في موقع فيسبوك. هذه حرب ضدّ عدو معدوم الوجه، المراتبية، مواقع القيادة، أو مراكز القوة. عدو يقرّر ما يفعله، ويرتجل. حرب لا يمكن الانتصار فيها. الحلّ الحالي لكاتس ورفاقه هو قانون الإبعاد. هذا سيحلّ المشكلة بالتأكيد. أبعد يتسحاق رابين، في حينه، إلى لبنان مئات من رجال حماس. هل رُدعوا؟ هل تراجع حماس ووضع سلاحها؟ لا».

كتب ناحوم بارنيك في صحيفة ידיעות أchronوت: «يُقال إنّ إرهاب الأفراد ليس انتفاضة، إنّّه موجة، حسنًا، ليكون كذلك. هناك سبيلان للتصدي لموجة البحر؛ رفع الرأس فوق الموجة أو خفضه دونها. نحن نختر إدارة الظهر للأمواج فتلتقى الضربة إثر الضربة. تراكم عمليات أول أمس في يافا،

القدس، بتاح تكفا، استثناء يدل على القاعدة، يُثبت أمرًا واحدًا، أن استعداد الشباب الفلسطينيين للخروج إلى مهمات انتحارية لم يُخْبُ. كان الأمل لدى أصحاب القرار أن تتبدد الظاهرة من تلقاء ذاتها، أن يتعب الشارع الفلسطيني من السجود للانتحاريين، أن يتدخل الأهالي، أن يتعلّق الشباب بموضة أخرى، مرت خمسة أشهر ولا مؤشر على أن هذا الأمل يوشك التحقق. العكس هو الصحيح، كل يوم يخرج منفذ أو منفذة لعملية، مزوّدون بسكين، ببندقية معدّة محليًا، وبنزعة ثأر ليس لها حدود. إذا كنّا نسعى لصدّ هذه الموجه أو تلطيفها لا يمكننا أن نكتفي بالخطبات الملتهبة، ينبغي أن نفهم أنّه لا حلّ سحري يعيد السكاكين إلى جوارير المطبخ.

كتب عاموس هرتيل في صحيفة هآرتس: «يوم الإرهاب أول من أمس ليس الأصعب في الأشهر الأخيرة. لا يتصرّف الميدان بناءً على خطة. الفلسطينيون في معظمهم شباب، لا توجد صلة حقيقية بين الحوادث. المخربون لا يعرفون بعضهم».

## ما الذي يحصل بالضبط!

صباح الرابع عشر من آذار/ مارس، أسفرت عملية دهس عند بوابة مستعمرة كريات أربع<sup>(294)</sup> عن إصابة مستوطن بجراح. «قُتل مُنفّذا العملية، وعُثر في سيارتهما على مسدس ورشاش». هذا ما جاء في نشرة أخبار الإذاعة الإسرائيلية عند السادسة والدقيقة الثلاثين صباحًا. جاء في نشرة الأخبار التالية: «بعد ربع ساعة من تنفيذ العملية، نُفذت عملية دهس أخرى على بوابة ثانية للمستعمرة، أُصيب جندي بجراح طفيفة، وقُتل منفذ العملية برصاص الجنود». في نشرة أخبار العاشرة والدقيقة الثلاثين جاء عن العمليتين: «في عمليتي دهس وإطلاق نار أُصيب أربعة جنود إسرائيليّين بجراح طفيفة». أين الحقيقة؟ لماذا الارتباك؟ هل هذه عمليات دهس أم إعدامات ميدانية لعمّال

كانوا في طريقهم إلى أعمالهم؟

كتب المعلق العسكري رون بن يشاي في صحيفة ידיעות أحرونوت: «يجب أن نعترف أننا في مواجهة هذه الانتفاضة عاجزون. صحيح أن عدد ضحاياها ليس مئات القتلى وآلاف الجرحى مثل الانتفاضة الثانية، لكن لا يمكن مواصلة العيش من دون أمن فردي معقول لأمد طويل. الأخطر أن انتفاضة الشباب العفوية بنمطها الحالي يمكن أن تتحوّل في لحظة واحدة، من خلال حدث واحد إلى انتفاضة شعبية مسلحة شاملة، يشارك فيها تنظيم فتح بأعضائه المسلحين. دوافع هذه الانتفاضة سيكولوجية ودينية وثقافية. انتفاضة محركها كلمة واحدة 'الوعي'، يجب أن تكون وسيلة إحباطها من النوع عينه».

كتب عوز روزنبرغ في صحيفة معاريف: «بعد مرور نصف عام على موجة الإرهاب الحالية، يتفق مسؤولون سابقون كبار في الأجهزة الأمنية على شيء واحد: 'أعمال الإرهاب الفردية التي تميّز موجة الإرهاب هذه هي وجه السطح فحسب'. على حدّ قولهم، يختبئ خلف عبارة 'انتفاضة الأفراد' أو 'انتفاضة السكاكين' عامل آخر، الإنترنت، هو الذي يغيّر قواعد اللعب. هذا أيضًا ما يميّز الموجة الحالية عن الانتفاضتين السابقتين، وهذا من شأنه أن يجعل موجة الإرهاب الحالية تستمر طويلاً، ربما لأعوام. يقول العقيد المتقاعد موشيه جفعاتي الذي شغل في الانتفاضة الأولى منصب قائد لواء دان في قيادة الجبهة الداخلية: 'هذه المرة يدور الحديث عن مخلوق جديد. لا توجد أي صلة بين الانتفاضة الأولى وهذه. هذه انتفاضة إنترنت'. يقول اللواء احتياط غيور إيلاند، رئيس شعبة الاستخبارات السابق في الجيش الإسرائيلي في أثناء الانتفاضة الثانية: 'ما يحصل الآن يحركه الشباب أساساً، هم من يستخدم الشبكات الاجتماعية، لا يعملون ولا يهتمهم أهلهم، انهيار تام للمرجعيات؛



الأهل، المعلمين، القادة. غياب البنية التنظيمية يجعل الموجة الحالية غير مستقرة، وغير قابلة للتوقع تقريباً».

كتب أمنون أبراموفيتش في صحيفة ידיעות أحرونوت: «لا يعيش الجيش على الشعارات. والمقاتل الحقيقي لا يفرغ خزان رصاص على طفلة تحمل مقصاً. منذ حرب يوم الغفران<sup>(295)</sup>، لم ينجح الجيش الإسرائيلي في حسم أي معركة؛ حرب لبنان الأولى، حرب لبنان الثانية، الرصاص المصبوب<sup>(296)</sup>، الجرف الصامد<sup>(297)</sup>، و الحملات التي بينها. الانتفاضة الأولى انتهت باتفاق أوصلو. والانتفاضة الثانية انتهت بفك الارتباط عن غزة. والآن تجري انتفاضة ثالثة يقودها فتيات وفتية، وهي مستمرة منذ خمسة أشهر. متى انتهت هذه ستكون مرة أخرى بلا انتصار، لا يمكن أن ينتصر الجيش على فتيات وفتيان تحت الاحتلال. هل يتذكر أحد ما أُصطلح عليه 'أشبال الآر بي جي' في غزو لبنان عام 1982؟ في حملة سلامة الجليل<sup>(298)</sup> فوجئت قوات الجيش الإسرائيلي حين اصطدمت بفتيان يحملون قذائف 'آر بي جي'، ألقوا بأرواحهم ضدها، فتكوا بدباباتنا ومجنزراتنا. التقيت شأوول موفاز أول مرة حين كان قائد فرقة الضفة الغربية. طلبت إليه أن يصف لي جدول أعماله اليومي. في نهاية الوصف قلت له: 'هذا جدول أعمال لمنظم مواصلات في شركة إيجد وليس لقائد عسكري'. هزّ موفاز رأسه فحسب. التاريخ العسكري مليء بأمثلة عن تراجع جيوش الغزاة أمام مدنيين ومقاتلين محتلين. عُرف الجنود الإيطاليون كمقاتلين جسورين في حربهم التحريرية. في الحرب العالمية الثانية التي لم تكن وجودية من ناحيتهم، سارعوا إلى رفع الأيدي والوقوف في الأسر، وعُرفوا كطباخي 'باستا وبيتزا' لأسريهم جنود الحلفاء. في حرب البوير في جنوب أفريقيا، سخرت التنظيمات السرية الصغيرة والسريعة التي قاتلت في سبيل حريتها من آلة الحرب الهائلة للجيش البريطاني. وغني

عن الذكر أنّ هذا ما حصل للأميركيين في فيتنام، للفرنسيين في الجزائر، وللروس في أفغانستان».

## الطفل بحاجة إلى حضن أم

رافقت شقيقي جمال لتهنئة يوسف من قرية دورا القرع بتحرّره من السجن الإسرائيلي بعد اعتقال دام اثني عشر عامًا. تحدّث يوسف عن الوضع في سجن عوفر: «يتألف السجن من عشرة أقسام، يضم القسم ما بين مئة وعشرين ومئة وأربعين أسيرًا. سبعة أقسام لمعتقلي فتح، تضم ستين من حركتيّ الجهاد الإسلامي والجهة الديمقراطية، بينها ثلاثة أقسام لفتية تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشر والثامنة عشر. نعقد لهم جلسات أكاديمية، نحاول فيها تعويض غيابهم عن مدارسهم. شيء قاسٍ وأنت تسمع بعضهم يبكي وهو يحلم وينادي أمّه».

صباح السادس عشر من آذار/ مارس، جاء في الإذاعة الإسرائيلية: «كشفت قوات الأمن محاولة لعملية طعن حين لاحظ الجنود فتى فلسطينيًا يناور للتهرب إلى القدس. أُعتقل ابن الأربعة عشر عامًا، ووُجد بحوزته سكينًا، واعترف أنّه كان ينوي تنفيذ عملية طعن».

في اليوم التالي استشهد شابان من بلدة بيت فجّار<sup>(299)</sup> على بوابة مستعمرة أريئيل<sup>(300)</sup>، قيل إنهما طعنا مجنّدة على بوابة المستعمرة. وبعد ساعات اعتُقل فتى قيل إنّه حاول تنفيذ عملية طعن.

على أي نحو ستُكتب هذه الانتفاضة في التاريخ؟ شبكة واسعة لفتية وفتيات لا يربطهم هيكل ولا قيادة. يجمعهم الألم والحلم، كل واحد منهم ثورة وقيادة بذاته. شبكة يستحيل اختراقها، يصعب التصدي لها. يموّل كل واحد منهم نفسه بنفسه. يحدّد أهدافه الميدانية ويختار وسائله القتالية. شبكة

خارج نطاق التنظيمات والتعليقات، ومن ثمّ خارج نطاق الرصد.

كتب روني شاكيد في صحيفة يديعوت أحرونوت: «عنف الأفراد الذي تآطر مؤخراً، أصبح عنصراً جديداً في ثقافة كفاح المجتمع الفلسطيني. ليسوا أطفالاً يائسين محبطين، من القدس أساساً، يتناولون المقص والسكين ويبحثون عن الموت. إنهم شبّان، رجال ونساء من أرجاء الضفة كلها، ينفذون عمليات تنتقل أيضاً إلى الكفاح المسلح. النسغ الموحد للمجتمع الفلسطيني الممزق والمنقسم هو الإحساس بالكراهية لإسرائيل. هذه تكمن في العناصر النفسية والاجتماعية التي أساسها رفض واستنكار إسرائيل والاحتلال. قرارات الكابينت<sup>(301)</sup> لإغلاق الثغرات في الجدار، اعتقال ماكثين غير شرعيين، إغلاق محطات الإذاعة، وتسريع هدم المنازل، هي تغطية للقوى من أجل الجمهور الإسرائيلي، تكرار مزدوج، مثلت لقرارات اتُخذت في الماضي. يمكن أن نواسي أنفسنا بالقول إنّ الانتفاضة الثالثة لن تستمر إلى الأبد، الهدوء سيكون مهلة فحسب إلى أن تندلع الانتفاضة الرابعة، وهلم جرا».

كتب عمير ربابورت في صحيفة إسرائيل ديفنس: «تحاول أفضل أدمغة شعبة الاستخبارات والشاباك إيجاد خطوط مميّزة لموجة الإرهاب. مع مرور نحو نصف عام. ليس هناك اسم مُتفق عليه للحوادث عدا 'انتفاضة الأفراد' التي سادت في وسائل الإعلام. في عمليات يوم الثلاثاء التي تلاحقت من القدس إلى يافا، لم يكن بالوسع الإشارة إلى بروفيل ثابت للمخربين. لا تزال السكين الأداة الأكثر شيوعاً، هذه يؤمّن لها كل منفذ لنفسه. ليست هناك قيادة مركزية تصدر أوامر، هناك إلهام».

## «رزان وعلي»

قال شقيقي جمال متألماً: «جاءت أمس، إلى المدرسة التي أعمل فيها في بلدة

كفر عقب، طفلة بعمر تسعة أعوام اسمها رزان. قالت إحدى الطالبات وهي تعرّفني إليها: 'شقيق رزان شهيد ووالدها أسير. أبعد الإسرائيليون أسرتها عن القدس بعد تنفيذ شقيقها عملية طعن في باب العمود'. أضاف جمال: «طفلة أضعف كثيرًا من أن تحمل هذا الألم كله».

وأنا أستمع لشقيقي، حضرت في خيالي صورة شقيقتنا نعيمة. كانت في عمر هذه الطفلة يوم اعتقل جمال وطوردت أنا وهُدم منزلنا. يومها لم يكن مضى على وفاة والدتي سوى أربعة أشهر. نعيمة اليوم والدة ثلاثة أسرى هم: شرار، بلال، ووقاص. حضرت في ذهني أيضًا صورة الطفل علي دوابشة، الناجي الوحيد من العائلة التي حرقها المستوطنون. ظلّ الطفل يلحّ على جده: «بدي أمي، بدي أبوي، خذني عندهم». لم يجرؤ الجد على إبلاغ حفيده أنّه الناجي الوحيد من محرقة المستوطنين. ما عادت للطفل عائلة؛ لا أب ولا أم ولا أخ. سأل صحافي الطفل الذي خرج للتو من المستشفى عن وجهته فأجاب مبتسمًا: «إلى إسبانيا. بدي أشوف كرسنيانو». سأله: «مع من ستذهب؟». أجاب: «مع أمي وأبوي». ما ردة فعل الطفل البريء حين يكتشف الحقيقة؟ أنّه ما عاد له أب ولا أم ولا شقيق، كيف سيتصرّف حين يكبر؟ بعد أشهر من خروج علي من المستشفى، توفي جده. لك الله يا علي!

في عزاء الشهيد نهاد مطير في مخيم قلنديا، تصدر صورة الشهيد نهاد حائط قاعة العزاء. فتى بشعر أشقر ناعم وبعيون ملونة، شوارب رفيعة ولحية خفيفة. كأنّه ممثل سينمائي أجنبي. مرّ بجواري فتى كأنّه صورة طبق الأصل عن الشهيد. «يبدو أنّه شقيق الشهيد!». «لا. ابن عمته». قال رجل يجلس بجواري: «سمّي نهاد على اسم ابن عمته الذي استشهد قبل اثنين وعشرين عامًا».

كتب كوبي نيف في صحيفة هآرتس: «في كل مرة تكون فيها أزمة أمنية،

ودائماً هناك أزمة أمنية، تمتلئ الاستوديوهات بعدد لا يُحصى من محلّين قدامى وجدد، هم يعرفون ما لا تفعله الحكومة وأذرعها. ليس هذا فحسب، بل يعرفون ما هو الصحيح، ما الذي يجب فعله، جميعهم كانوا عميقاً في الداخل، في البئر، في مفاعل القرارات وقلب العمل، ومن مثلهم يفهم ويعرف الميدان والقدرات والعقلية والجيوستراتيجية. لسبب ما لا يسأل أحد في الاستوديوهات: 'لقد كنت هناك، كنت وزيراً في الحكومة، كنت جنرالاً في الجيش، كنت 'ج' في الشاباك، لماذا حين كنت هناك لم تفعل ما تقوله الآن؟'. في كل أزمة أمنية يقترحون ما اقترحوه في الأزمات الـ 1228 السابقة؛ العمل أكثر وبتصميم أكبر، الهدم أكثر بشكل مكثف. الحقيقة أنّهم ونحن والحكومة، جميعنا، لا حيلة لنا في وجه المقاومة الفلسطينية المصممة التي تلبس في كل مرة شكلاً آخر لإنهاء سيطرتنا التي تزداد بشاعة. كل شيء لأننا لا نريد، وبذرائع كثيرة، الحلّ السياسي والاتفاق. كلما أُستخدم الحلّ العسكري بشكل مصمم أكثر فإنّه لا ينجح ولن ينجح. لا يمكن أن يأتي بالحلّ حتى لو قال ألف محلل ذلك، ما نبته في الاستوديوهات والواقع هو قلة الحيلة المطلقة. هيا يا أصدقائي، دوسوا على البنزين، زيدوا من قلة الحيلة».

## وتستمر عمليات الإعدام

في الرابع والعشرين من آذار/ مارس 2016، أطلق جنود الاحتلال النار في تل الرميّة بالخليل. قتلوا عبد الفتاح الشريف ورمزي القصراوي، والحجّة أنّهما حاولا طعن جنود على الحاجز العسكري. استشهد رمزي على الفور، وأفراغ جندي رصاص بندقيته في جسد عبد الفتاح المهشم. حاول قادة إسرائيل التبرؤ من الجريمة بمواقف واهية، وبرّر القاتل فعلته بالقول: «خشيت أن المخرب يتمنطق بحزام ناسف». لماذا فكّر المجرم بذلك ولم تُنفذ أي عملية بحزام ناسف حتى الآن؟ هل هو حلم القتل بمصيرهم، كابوس

يقضّ مضاجعهم، أم أنّه مجرد تبرير للجريمة؟ ربما كلاهما وأكثر.

يتبجح قادة إسرائيل بأنّهم سينتصرون. نسوا ما قاله فخر عسكريتهم، موشيه ديان، قبل أيام من معركة الكرامة عام 1968: «الفدائيون كاليضة في يدي أكسرها متى شئت». بعنجهيته زجّ ديان بجيشه في محرقة الموت، في معركة الكرامة.

عند الساعة التاسعة مساء يوم الأربعاء، الثامن من حزيران/ يونيو 2016، دخل محمد مخامرة وابن عمه خالد مخامرة حانة في تل أبيب. كانا يرتديان بدلات وربطات عنق، وعرفّا عن نفسيهما كمحامين. جلسا، شربا شيئاً، وبهدوء فتح أحدهما حقيبة، وتناول كل منهما رشاشاً محليّ التصنيع، وأطلقا النار على الحضور. هذا أول اختبار لعنجهية وزير الدفاع الإسرائيلي أفغدور ليرمان<sup>(302)</sup> الذي تولى مهمات منصبه قبل عشرة أيام، وهو الذي اعتاد توعّد الفلسطينيين بالموت الزوأم. لن يُجدي الحلّ الأمني، ولن يعجز الفلسطيني، ربما أنّ هذه أبلغ رسائل العملية التي نُفّذت في مكان ليس بعيداً عن المجمع الأمني «هاكريا»، عميت عيون قادة إسرائيل فأوغلوا في الوحشية. أغوتهم القوة، ومنحهم الرياء الدولي شرعية التوحش.

قرارات المجلس الوزاري الإسرائيلي المصغّر تكرر للمكرر؛ حصار، إجراءات وحشية، تهديد ووعيد. لقد جرّب أسلافهم ما هو أشدّ فظاعة من ذلك وأخفقوا، لكنّهم لا يتعظون. ما معنى أن تقع العملية وسط مدينة تل أبيب؟ ما دلالة استخدام السلاح المصنّع محليّاً؟ على مدار حقب التاريخ كافة، وفي البلدان المختلفة التي وطأتها أقدام المستعمرين، كان هناك طغاة وقتلة، وأحياناً بدا أنّ هؤلاء لا يُقهرون، لكنّهم انهاروا في النهاية.

جاء في العدد 14 من مجلة أوراق فلسطينية الصادرة في رام الله، أنّ اليهودية الألمانية حنة أرندت<sup>(303)</sup> كتبت: «بعض القادة الصهاينة يقنع نفسه بأنّ اليهود

قادرون على البقاء في فلسطين ضدّ إرادة العالم كله، وأنّهم يستطيعون الاستمرار في سياسة الكل أو لا شيء، مع ذلك فإنّ هذا التفاؤل يخبر عن يأس كلي ورضى عميق بالانتحار». في سياق آخر كتبت: «إذا كانت هويتي الوحيدة هي هوية الضحية، الضحية الجاهزة والملعونة من العالم أجمع، فهذا يعني أنّي أستطيع أن أقوم بالأفعال البشعة جميعها، بما في ذلك طرد العرب من بيوتهم وغزو أرضهم، ذلك أنّي أنا الضحية وليسوا هم. وإذا كنت أعرف أيضًا كابن أو بنت شعب يتبجح بتاريخ عظيم عمره أربعة آلاف عام، كنت فيها دائمًا ضحية، فالمطلوب إذاً ألا أضطهد أبدًا هؤلاء الأكثر ضعفًا منّي».

## يصرّون على قتل البسمة!

أمضى رأفت بدران الموظف بوزارة الخارجية الفلسطينية نحو ثلاث عمره أسيرًا، خمسة عشر عامًا في سجون الاحتلال. لكنّ رحلة ألمه لم تنته، فما يتظره ربما أشد قسوة من سواد أعوام اعتقاله الطويلة. في منزله بقرية بيت عور التحتا، التقيت قبل أربعة أشهر نجله البكر محمود ابن الأربعة عشر ربيعًا. قصدت أن أسمع من الفتى شيئًا عن سيرة زميليه في الصف، عمر الريماوي وأيهم صباح؛ الفتيّن اللذين نفّذا عملية طعن في المجمع التجاري «رامي ليفي» بالقرب من قرية مخماس. يومها قال محمود بفخر يخالطه أسى وهو يتحدث عن زميليه: «ظلاً يوزعان الابتسامات علينا حتى أنهينا حصة الرياضة التي كانت الأخيرة». بدا مقهورًا وهو يقول عن الشهيد أيهم: «نظرًا لرشاقته وضآلة جسمه كنّا نسميه سنجوب». كان آخر ما قاله شقيقي جمال لمحمود في ذلك اللقاء: «دير بالك على حالك يا محمود، دراستك أولًا». أراد جمال امتصاص بعض ما يغلي في صدر الفتى من ألم على فقدان زميلٍ طفولته.

بعد أشهر، خطط محمود ورفاق له لقضاء يوم فرح في مسبح قرية بيت سيرا المجاورة لقريتهم. كيف للفتية أن يتخيّلوا أنّ شيطانًا يترصد ابتساماتهم

البريئة؟! أنه سيحيل فرحهم الحافل إلى مآتم! مساء يوم الإثنين، العشرين من حزيران/ يونيو 2016، هُشمت ثلاثون رصاصة جسد سيارة الفتية العائدين من المسبح. استشهد محمود وأصيب أربعة من رفاقه بجروح، أحدهم جراحه خطيرة. سيحل محمود ضيف شرف على «مائدة عشاء» صديقيه أيهم وعمر. جاء في نشرة أخبار الإذاعة الإسرائيلية باللغة العربية عن الجريمة: «قتل فتى فلسطيني وأصيب آخرون بعدما ألقوا حجارة وزجاجات حارقة على سيارات إسرائيلية على شارع 443، ما تسبب بإصابة ثلاثة إسرائيليين».

سبقت دموع الوالد المكلم كلامه وأنا أعانقه معزياً بابنه الشهيد:

«هل كتبت رواية محمود يا أبو علاء؟».

خنقتني الدموع.

استدار نحوي فخري البرغوثي الذي أمضى أربعة وثلاثين عاماً في السجن: «أمس زرت ابني شادي في السجن. هذه أول مرة أزوره منذ خرجت من السجن قبل أربعة أعوام ونصف العام». سأله رفيق سجنه الأسير المحرّر صالح السبتي: «هل قابلت أحداً من سجّانينا؟». رد: «نعم، إيتسك».

لم أسأل فخري عن مشاعر أسير سابق وهو يزور سجنًا، ولا عن مشاعر أب تجاه ابنه المؤبد في السجن ذاته الذي تجرع فيه هو نفسه مرارة القهر.

سيل بشر يتدفق على ساحة المدرسة المزدحمة بالمعزين، عشرات الأسرى المحرّرين وجمهور غفير، وهناك رسميون من السلطة والأجهزة الأمنية والفصائل المختلفة. تذكّرت الأسرى المحرّرين؛ أبو سرور، محمد أبو حبسة، وجمال جحجوح. أبطال قضوا زهر شبابهم في سجون الاحتلال، واستشهد أبناؤهم أو اعتقلوا أو أُصيبوا بعد ذلك. كأنّ الوطنية جينات. أسيرٌ وابن أسير! شهيد وابن شهيد!



كتب محمد مرشد فلنة في رثاء الشهيد محمود: «في حشد أثار فيّ الكثير،  
رُفعت صورة شمعة، أطفأ نورها نار حقد صهيوني بغيض، فارتقت البراءة  
شهيدة على جناحي روح الفتى محمود بدران. في مشهد أكثر من مثير، انحنى  
العلم فقبّل جبهته حتى ارتوى من حُمره القاني بنكهة المسك المطهم بالعبير. ثمّ  
رفرف كي يظلّ جبهة في مقلتيها دموع ثلاثين انتظار؛ نصفها عمر الشباب  
خلف قضبان الحياة، ونصف خلف جُدر الأمل الموعد بغد غرّته شمس  
محمود. وفي كبد الحالك من ليلة بدر محمود. فكان شهيدنا لأبيه المبدّد لظلم  
وظلام السجن والسجّان. وكان حرّياً بالاسم واللقب. الشهيد محمود رأفت؛  
بدران وليس بدرًا واحدًا».

عمليات فردية وشبّان صغار، أبطال الهبة يعرفون ما يريدون، جادون  
ويراكمون خبرات. ينفّذون عملياتهم انطلاقاً ممّا في رؤوسهم، لكنّهم يُظهرون  
إنسانية وانضباطاً في الميدان. السكاكين وعمليات الدهس أدواتهم الممكنة.  
ينتمي المنفّذون لشرائح اجتماعية متنوعة، ولأعمار ومناطق مختلفة. لماذا التركيز  
على قتل الجنود والشرطة والمستوطنين وفي القدس؟ لماذا النأي عن قتل  
الأطفال؟ ماذا يعني توزيع العمليات على المناطق المختلفة؟ ما معنى مهاجمة  
مجمعات «رامي ليفي» التجارية؟ لماذا لم تأخذ الأمور منحىً خطراً ضدّ  
السلطة؟

وسائل، أساليب، مواقع، سياسة، إعلام، اقتصاد، تعبئة معنوية. ما  
الاستراتيجية إن لم تكن هذه قلبها؟

هذه التجارب هي «المعمل الضخم» الذي تجري فيه عمليات التخمير  
والإنضاج، وهي تعكس مدى التصميم وصلابة الإرادة الولّادة لشعب يتطلّع  
للتحرّر. صحيح أنّها اجتهادات شخصية لشبّان معظمهم يافعون، وأنّ  
عملياتها تخبو أحياناً ثمّ لا تلبث أن تثور مجدداً وبقوة، لكنّ هذا لا يُقلّل من

قيمتها وأثرها في تأصيل مفهوم المقاومة وتعميق جذورها، وفي تحذير التجارب وتنويع أساليبها ووسائلها. هذه تُراكم تجارب وخبرات، وتولّد نماذج قيادية ورموزاً ثورية وأساليب مقاومة، وتعيد ربط حلقات السلسلة المقاومة. فناشطو اليوم لا يعرفون الكثير عن انتفاضة الأقصى، وأغلبيتهم ربما لم يعايشوها، هذا على سبيل المثال فحسب. وفي غياب توثيق التجارب وانحسار موجة التعبئة بموضوعات المقاومة على الصعيد الرسمي منذ اتفاق أوسلو، فإنّ مرّجل الوعي الشعبي والتصميم الشبابي سيظلّ يهدر كما القلب في الجسد.

### «تيمّ عبد الفتاح»

حين انتُخبت لأمانة سرّ إقليم «فتح» في رام الله والبيرة عام 1997، لفت انتباهي حسن القاضي، لؤي مسحل، وعبد الفتاح دولة. كان الشبان الثلاثة مسؤولين عن شبيبة المدارس في الإقليم. كتلة مبادرات متوهجة، وانضباط راسخ وروح وحدوية أصيلة. إنهم نماذج للفتى الشبيبي. كان حسن أنضجهم وعيًّا، ذو شخصية قيادية لافتة. لا أدري لماذا ارتسمت له صورة في ذهني كأنّه أصغرهم سنًا. فوجئت أنّه أمضى خمسة أعوام في السجن، أنّه اعتقل وهو في السادسة عشرة، وأنّه أكبر رفاقه سنًا. من يعرف الفتى الوسيم يصعب عليه أن يصدّق أنّ روحه الجميلة محمولة على واحد وعشرين عامًّا صُرف ربّعها في السجن.

مع اندلاع انتفاضة الأقصى عام 2000، تقدّم الشبان الثلاثة المتظاهرين على حاجز «بيت إيل»، لكنّ ذلك لم يكن كافيًّا لإشباع فضولهم. انضوا تحت لواء «كتائب شهداء الأقصى»، مع أنّ اثنين منهم عنصران في قوات الأمن الوطني. وضع الاحتلال اسميهما على قوائم المطلوبين، وتحت ضغط المحتلين رُقنت<sup>(304)</sup> قوات الأمن الوطني قيديهما. دنا في لجنة الإقليم هذا الموقف،

فتراجعت قيادة الأمن الوطني عن قرارها. بعد أسابيع استشهد حسن، وبعد أشهر ارتقى لؤي شهيداً كذلك. «تتّم عبد الفتاح».

قال عبد الفتاح الذي أُفرج عنه في الثلاثين من تموز/ يوليو عام 2016، بعد قضائه ثلاثة عشر عاماً في السجن، وهو يروي تجربته مع رفيقيه الشهيدين: «حسن يكبرني بخمسة أعوام، ولؤي يكبرني بعام واحد. تعرّفنا إلى بعضنا عبر نشاطنا في الشبيبة، كنت مسؤول الشبيبة في مدرسة بيتونيا، وكان لؤي مسؤول الشبيبة في مدرسة بني زيد في دير غسانة<sup>(305)</sup>. أمّا حسن فكان في الأمن الوطني منتدباً للعمل في الإقليم. بعد تخرجي ولؤي في المدرسة، تقرّر أن نقوم أنا وحسن وآخرون بإعادة بناء حركة الشبيبة الطلابية في المدارس. اختلفنا مع منظمة الشبيبة الفتحاوية على خلفية إهمالها للجسم الطلابي في المدارس، ولعقدتها لقاءات مع وفود شبابية إسرائيلية».

أضاف: «مع اندلاع انتفاضة الأقصى، نصّحنا مروان البرغوثي أن تقتصر مشاركتنا على الجانب الجماهيري، وأن نبتعد عن العمل العسكري. لكنّ عقلية حسن العسكرية جعلته يقول: 'نحن لسنا أقل من غيرنا'».

حول اعتقاله قال عبد الفتاح: «اعتقلت بعد أربعة أعوام ونصف العام من التخفي، وصدر ضدي حكم بالسجن لسبعة أعوام، أمضيت منها خمسة أعوام في سجن هداريم<sup>(306)</sup> الذي يُعتقل فيه الأخ مروان البرغوثي، ثلاثة منها في زنزانته. التقيت في السجن نخبة من مناضلي كتائب شهداء الأقصى؛ ناصر عويس، أحمد الفرنسي، إبراهيم إنجاوص، ماجد المصري الملقّب بـ'بزبز'، منصور شريم، عمّار مرضي، محمد أبو ربيعة، محمد أبو سطحة، (أبو رموز)، (أبو تركي)، جمال عبيات، وأبو سماح طقاطقة وآخرين. جميع هؤلاء محكومون بالمؤبدات. وهناك كثيرون غيرهم لم تتّح لي فرصة اللقاء بهم».

أضاف عن السجن: «مع الأسف فقدت الحركة الأسيرة في الأعوام

الأخيرة كثيرًا من القيم الاعتقالية، كالنضال المشترك، والبرامج الثقافية. تخلّت عن ذلك لمصلحة الفتوى والمناطقية. وكان تأثير الانقسام في الخارج فظيماً، استغلته السلطات الإسرائيلية للفصل بين معتقلي حركتي فتح وحماس في العديد من السجون. ولم يقتصر ذلك على الحركتين فحسب، بل طال الفصائل الأخرى؛ بعضها انحازت لفتح وأخرى انحازت لحماس. أضحى السجن صورة مصغرة عن مأساوية الواقع في الخارج. منذ عام 2004 وحتى عام 2016، لم يحدث أن أجمعت الحركة الأسيرة على برنامج نضالي مشترك. الأكثر إيلافاً موضوع الأسرى القدامى الذين تجاوزت فترات اعتقالهم ثلاثة وثلاثين عاماً كالأخ كريم يونس. وهناك ألم فقدان الأسير لأحد والديه أو كليهما. مثل هذه الأشياء تجعل الأسير يعيش حالة انتظار ورعب دائم. وهناك مسألة المعتقلين الأطفال والفتية الصغار، أولئك الذين تجري محاكمتهم عسكرياً كالبالغين. بعض هؤلاء لم يسبق له أن رأى والده الأسير. أُعتقل الوالد وترك ابنه رضيعاً، أو كان في بطن أمه. شاءت الأقدار أن يصبح الابن أسيراً كوالده، لكنّ 'فرصة السجن' لم تسمح بتلاقيهما، حيث لا يُسمح للوالد المحكوم بحكم عالٍ أن يوجد في سجن عوفر، وكذلك ممنوع على الطفل العيش في سجن الكبار. وهناك ألم الأطفال الناجم عن عدم زيارة ذويهم لهم في الأشهر الثلاثة الأولى. وفي سجن الرملة النسائي، هناك أمهات محكومات بالمؤبد وأبنائهن في الأسر كذلك، وهناك صبايا وفتيات يافعات بعضهن طفلات».

عن معاناته الشخصية قال عبد الفتاح: «حين أُعتقلت، كان مضي على زواجي خمسة أعوام، أمضيت منها أربعة أعوام ونصف العام مطارداً. لم نعيش كعائلة سوى أربعة أشهر. حيناً اعتقلت كان عمر ابني صبحي خمسة أشهر. وكانت زوجتي على مشارف وضع طفلتنا أميرة. لم يُسمح لزوجتي بزيارتي إلا بعد عام. حُكمت في البداية لسبعة أعوام، وقبل الإفراج عني بشمانية أيام تقرر إعادة محاكمتي، فأصبح الحكم اثني عشر عاماً. كانت صدمة لي ولزوجتي وقد

انتظرنا أن يلتئم شملنا بعد أسبوع».

## «نوران البلبول وحمدى شحادة»

شقّ محمد شحادة من مدينة بيت لحم طريق نضاله عضواً في حركة «فتح». أُعتقل وهو في عمر السابعة عشر، وأمضى أربعة أشهر في السجن. ثم أُعيد اعتقاله عام 1981 وحُكم 25 عاماً، وأُفرج عنه في عملية تبادل الأسرى عام 1985، وتكرّر اعتقاله في الأعوام اللاحقة. ثم التحق بحركة «الجهاد الإسلامي»، وكان من ضمن الذين أبعدهم سلطات الاحتلال إلى «مرج الزهور».

في آذار/ مارس 2008، استشهد ومعه أحمد البلبول وعماد الكامل وعيسى زواهرة، حين دهمتهم وحدة من القوات الخاصة الإسرائيلية. كانوا مطلوبين لقوات الاحتلال منذ اندلاع انتفاضة الأقصى. عشية استشهاده كان ابنه شحادة وحمدى فتيّن يافعين، أمّا نوران ابنة رفيق استشهاده البلبول، فلم تكن رأت عيناها النور. واصل شحادة وحمدى رحلة والدهما. فحُكم حمدى لثمانية عشر عاماً، أمّا شحادة فموقوف في السجن منذ عامين. نوران ابنة الثلاثة عشر ربيعاً واصلت وشقيقها الدكتور محمد والملازم أول في الأمن الفلسطيني محمود رحلة والدهم كذلك، أُعتقل الثلاثة.

حين أُفرج عن نوران بعد قضائها أربعة أشهر في السجن، تحدّث الفتاة اليافعة بثقة وبفخر عن شقيقَيْها الأسيرين المضربين عن الطعام، وعن ابنيّ الشهيد محمد شحادة الأسيرين كذلك. قالت والدتها وهي تروي بعض مراراتها: «أُعتقل زوجي عام 1982. أمضى في السجن ثمانية أعوام، ثم أُعتقل لعامين آخرين بتهمة الانتماء لحركة الجهاد الإسلامي. في انتفاضة الأقصى طارده سلطات الاحتلال حتى استشهد». أضافت: «مرّ عليّ شهر رمضان الأخير قاسياً للغاية، فقد بقيت وحيدة بعد اعتقال أبنائي الثلاثة. كان قلقي

على نوران شديداً. صحيح أنّ قسوة معاناة الأسرة صهرتها، لكنّها لم تزل طفلة».

## «لم يكن الشهيد ابن عيشة»

قال رائد وهو يعرّفني إلى الأسير المحرّر حازم الريماوي والد الشهيد أحمد: «أمضى حازم خمسة عشر عاماً في سجون الاحتلال، كان من ناشطي انتفاضة الأقصى، كما أنّ أحد أشقائه أمضى أربعة عشر عاماً في السجن كذلك». عائلة مناضلة.

في قاعة العزاء، مال رجل، جلس بجواري، برأسه صوبي. وراح يُطلعني، عبر شاشة هاتفه الذكي، على صور لفتى يعتلي ظهر حصان يكاد يطير وهو يقف على قدميه الخلفيتين محلقاً بقدميه الأماميتين في الفضاء: «هذا هو الشهيد أحمد، فتى لم يعرف الخوف طريقاً إلى قلبه، ظلّ يتقدّم صفوف الشبان في مقارعة جنود الاحتلال حتى استشهد فجر أمس».

أضاف عن الفتى الشهيد: «حين اعتقل حازم لم يكن ابنه أحمد أكمل عامه الثالث بعد، وها قد استشهد الولد بعد أقل من ثلاثة أشهر على تحرّر والده من السجن. أمّا الأعوام الثلاثة الأولى من عمر الفتى فربما لم يتذكّر منها أحمد شيئاً. في مثل هذا العمر لم تُتاح له ذاكرته الطرية فرصة رسم صورة لوالده». زفر الرجل متأوهاً: «لم يكن أحمد ابن عيشة، استشهد قبل أوانه، دون أن يبلغ الثامنة عشر من عمره».

في بيت عزاء حسين أبو غوش الذي قضى شهيداً في عملية دهس عند بوابة مستعمرة كوخاف يعقوب<sup>(307)</sup> الواقعة شرق مدينة رام الله. استدار شقيقي جمال نحوي، قال وهو يعرّفني إلى رجل اخترق صفوف المعزّين متجهاً صوبنا: «الأخ أحمد فريد شحادة، أمضى ثمانية وعشرين عاماً في الأسر». عقب المناضل

صبحي أبو شنب: «أمضى أحمد ثلاثين عامًا في السجن. ثم إن خمسة من أشقائه أمضوا أعوامًا طويلاً في سجون الاحتلال. عائلة مناضلة».

أضاف صبحي: «باستشهاد حسين بلغ عدد شهداء المخيم سبعة عشر. وهناك أكثر من خمس عشرة محاولة لتنفيذ عمليات طعن نجا منقذوها من الإعدام، وأغلبيتهم صبية». أضاف عن الشهيد حسين أبو غوش: «ربما أراد الشهيد أن يقتني خطى ابن عمه الشهيد الذي يحمل الاسم ذاته 'حسين' الذي نفذ عملية مشابهة قبل عام. أراد الانتقام له، فقد نفذ عملياته في الذكرى الأولى لتنفيذ ابن عمه عملياته».

## صرخة مقاتل

«جاءت الهبة الشعبية عام 2015، كما انتفاضة الأقصى عام 2000، كانعكاس للتناقض المحتدم بين المستعمر والمستعمر، كردة فعل صريحة على إخفاق خيار المفاوضات، فاتحة المجال لتصويب المسار وتوضيح الرؤيا. من المؤسف أن الهبة المتواصلة منذ أكثر من خمسة أشهر من دون أي إشارات لتوقفها، لم تجد بعد، محلياً وعربياً ودولياً، من يحتضنها سياسياً واجتماعياً وإعلامياً ومالياً. لم تجد من يدفعها للتحوّل إلى انتفاضة شعبية كبيرة، ويسلّحها بأهداف ورؤيا سياسية تقطع مع المرحلة السابقة برموزها وسياساتها البائسة. لقد أفقدتنا المفاوضات العبثية ومسارها السياسي، إلى حدّ كبير، مفردات الخطاب التحرري لمصلحة الخطاب الحقوقي والشرعية الدولية المنعزل عن واقع ما يجري على الأرض.

لقد أخفقت القيادة الفلسطينية في التقاط مغزى الهبة التي قدّمت بوصلة وطنية يمكن الاستعانة بها لتصويب المسار بعيداً من الأوهام وسراب التفاوض والسلام الزائف. لم تغتنم القيادة الرسمية اللحظة التاريخية، ما تزال

تراوح مكانها، تكرّر الخطاب والأداء ذاتهما، منعزلة عن الجماهير التي خطت  
أولى الخطوات لتصويب المسار».

مروان البرغوثي

نيسان/ أبريل 2016

زنزانة رقم 11 / سجن هداريم



(221) خطة وضعها الجنرال الأميركي كيث دايتون بهدف نزع سلاح المقاومة الفلسطينية في الضفة الغربية.

(222) قرية فلسطينية تقع شمال مدينتي رام الله والبيرة.

(223) الفلسطينيون الذين بقوا في الأراضي المحتلة بعد نكبة عام 1948.

(224) قرية فلسطينية تقع جنوب شرق مدينة القدس.

(225) بلدة فلسطينية تقع في منطقة النقب.

(226) مستعمرة إسرائيلية تقع بالقرب من مدينة نابلس. أُقيمت على أراضي قريتي بورين وعصيرة القبلية عام 1984.

(227) مستعمرة إسرائيلية تقع غرب مدينة مدينة القدس. أُسست عام 1950 على أراضي بيت نتيف قضاء الخليل، ودير إبان وجرش وبيت جمال قضاء القدس.

(228) قرية فلسطينية تقع بجوار سور مدينة القدس من الجنوب.

(229) قرية فلسطينية تقع شمال شرق مدينة القدس.

(230) أحد أحياء القدس، يقع شمال غرب المدينة.

(231) قرية فلسطينية تقع شمال مدينة رام الله.

(232) معتقل إسرائيلي، اقيم على أراضي بلدة بيتونيا وقرية رافات. يقع غرب مدينة رام الله.

(233) عملية فدائية فلسطينية. نفذتها خلية من حركة «حماس» في الأيام الأولى للهبة، قُتل فيها ضابط إسرائيلي وزوجته.

(234) أحد أحياء مدينة الخليل.

(235) بلدة فلسطينية تقع في محافظة بيت لحم.

(236) موشيه يعلون (1950 -). سياسي وعسكري إسرائيلي. انتخب عضواً في الكنيست لدورات عدة، وشغل منصب نائب رئيس الوزراء عام 2009، ورئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي بين عامي 2002 و2005، ووزير الدفاع بين عامي 2013 و2016.

(237) مخيم للاجئين الفلسطينيين، أُقيم عام 1965 بين قريتي عناتا وشعفاط القريتين من مدينة القدس.

(238) جهاز الأمن العام الإسرائيلي.

(239) بلدة فلسطينية، تقع شمال مدينة القدس.

(240) عبد الفتاح القلقلي. كاتب وعضو المجلس الاستشاري في حركة «فتح».

(241) أبواب دَوّارة.

(242) مستعمرة إسرائيلية تقع جنوب مدينة تل أبيب. أُسست عام 1954 على أنقاض قرية جت.

(243) مستعمرة إسرائيلية تقع شرق مدينة القدس. أُسست عام 1975، وهي مقامة على أراضي أبو ديس والعيزرية والطور وعناتا والعيسوية والزعيم والخان الأحمر. وتعدّ اليوم ثالث أكبر مستعمرات الاحتلال في الضفة الغربية.

(244) خيم للاجئين الفلسطينيين، يقع في مدينة نابلس.

(245) قرية فلسطينية تقع شمال غرب مدينة القدس.

(246) قرية فلسطينية تقع شمال مدينة الخليل.

(247) قرية فلسطينية تقع جنوب مدينة جنين وتتبع محافظة رام الله.

(248) قرية فلسطينية تقع شمال شرق مدينة رام الله.

(249) خيم للاجئين الفلسطينيين اقيم شمال مدينة رام الله عام 1949.

(250) مستعمرة إسرائيلية، أُسست عام 1975 على أراضي عين يبرود وسلواد ودير جرير ورمّون ودير دبوان والطيبة قضاء رام الله.

(251) عبد القادر الحسيني (1908-1948). قائد كتائب الجهاد المقدس في فلسطين. استشهد في معركة القسطل.

(252) قرية فلسطينية تقع غرب مدينة القدس.

(253) قرية فلسطينية تقع جنوب مدينة نابلس.

(254) مستعمرة إسرائيلية أُسست عام 1922 على أراضي غابة العبابشة وقرية تبصر «خربة عزون».

(255) قرية فلسطينية تقع شمال مدينة رام الله.

(256) خيم للاجئين الفلسطينيين، أُقيم على أراضي قرية عين عريك عام 1948.

(257) صرّة تُصنع من القماش تحتوي ملابس مستعملة ومواد تموينية.

(258) سمير القنطار (1962-2015). قائد عملية نهاريا عام 1979 التي أُسر في إثرها وحُكم بخمسة مؤبدات، وأُفرج عنه في صفقة تبادل أسرى بين إسرائيل وحزب الله عام 2008. استشهد بغارة

للطيران الحربي الإسرائيلي على مبنى في مدينة جرمانا جنوب العاصمة دمشق عام 2015.

(259) معتقل إسرائيلي يقع شمال مدينة القدس.

(260) خيم للاجئين الفلسطينيين، أُسس عام 1949، ويقع جنوب مدينة بيت لحم.

(261) منطقة تقع في مدينة البيرة.

(262) وتُسمى بـ«جبعات بنيامين». أو «غفعات بنيامين» مستعمرة إسرائيلية تقع شمال شرق مدينة القدس. أُقيمت عام 1983 على أراضي قرية جبع.

(263) قرية فلسطينية تقع شرق بلدة بيرزيت.

(264) قرية فلسطينية تقع جنوب شرق مدينة نابلس.

(265) صبحي ياسين (1920-1968). مناضل فلسطيني. أسس «منظمة طلائع الفداء» في مطلع الستينيات، ثم دُجبت مع حركة «فتح» عام 1968. اغتيل في الأردن عام 1968.

(266) يتسحاق رابين (1922-1995). شغل منصب رئيس هيئة أركان جيش الاحتلال بين عامي 1964 و 1968، ورئيس وزراء إسرائيل بين عامي 1974 و 1977 وبين عامي 1992 و 1995. اغتيل على يد متطرف يهودي بعد توقيع اتفاق أوسلو مع ياسر عرفات واتفاق وادي عربة مع الأردن.

(267) اتبع الاحتلال سياسة «تكسير العظام» في الانتفاضة الأولى عام 1987، حيث كان الجنود يخطفون المتظاهرين ويسوقونهم إلى مناطق منعزلة في الجبال ويبدأون بتكسير عظامهم باستخدام الحجارة وأعقاب البنادق. كُشفت هذه السياسة بعد انتشار مقاطع فيديو يظهر فيها جنود يكسرون بالحجارة عظام فنية مقيدين. هذه المقاطع سجّلها موشي ألبرت، مصوّر شبكة سي. بي. إس. الأميركية، وتناقلتها محطات التلفزة العالمية في ذلك الوقت.

(268) خالد مشعل (1956 -). رئيس المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية «حماس» بين عامي 1996 و 2017.

(269) قرية فلسطينية تقع شمال مدينة رام الله.

(270) معتقل إسرائيلي يقع في مدينة بئر السبع.

(271) مجموعة أحياء سكنية إسرائيلية تقع شمال مدينة تل أبيب.

(272) قرية فلسطينية تقع شمال مدينة الخليل.

(273) يائير لابيد (1963 -). سياسي إسرائيلي. أنتخب عضوًا في الكنيست لدورتين، وعُيّن وزيرًا للمالية بين عامي 2013 و 2015.

- (274). خيم للاجئين الفلسطينيين، أسس في عام 1950، ويقع بين مدينتي بيت لحم وبيت جالا.
- (275). وقعت معركة كفار عصيون التي عام 1948. حيث أُقيمت مجموعة مستعمرات إسرائيلية في منطقة كفار عصيون، واحتل المستوطنون بناية فيها وأخذوا يُطلقون منها النار على المارة. استمر المناضلون، خاصة من أهالي مدينة الخليل، بمقاومتهم إلى أن سقطت تلك المستعمرات وطُرد سُكَّانها في العام نفسه، بعد أن استشهد كثير من المناضلين وأهالي القرى المجاورة.
- (276). يقع جنوب مدينة القدس.
- (277). مستعمرة إسرائيلية تقع جنوب مدينة الخليل. أُسست عام 1983 على أراضي خربة الكرامة وخربة رابود في مدينة الخليل.
- (278). تقوع أو «تقواع»، مستعمرة إسرائيلية تقع جنوب مدينة بيت لحم. أُسست عام 1977 على أراضي عرب التعمارة.
- (279). مستعمرة إسرائيلية تقع شمال شرق مدينة القدس. أُقيمت على أراضي قرية عناتا. وهي تُستخدم اليوم كمركز اعتقال.
- (280). مستعمرة إسرائيلية تقع غرب مدينة رام الله.
- (281). مستعمرة إسرائيلية تقع شمال غرب مدينة القدس. أُسست عام 1977 على أراضي رفات والجيب والنبي صمويل قضاء القدس ونابلس.
- (282). قرية فلسطينية تقع غرب مدينة رام الله.
- (283). بلدة فلسطينية تقع جنوب مدينة جنين.
- (284). مستعمرة إسرائيلية تقع جنوب مدينة جنين. أُسست عام 1981.
- (285). بلدة فلسطينية تقع شمال شرق مدينة بيت لحم.
- (286). بلدة فلسطينية تتبع محافظة نابلس.
- (287). قرية فلسطينية تقع شمال مدينة القدس. أُقيمت على جزء من أراضي القرية وأراضي الخان الأحمر مستعمرة معاليه مخماس أو «مخماش» عام 1981.
- (288). مستعمرة إسرائيلية تقع شرق مدينة سلفيت.
- (289). مستعمرة إسرائيلية تقع جنوب مدينة نابلس. أُقيمت على أراضي كفر قليل عام 1983.
- (290). قرية فلسطينية تقع شمال شرق مدينة أريحا.
- (291). أول مستعمرة إسرائيلية. أُقيمت على أراضي قرية ملبس عام 1878، وهي تقع شرق مدينة تل

أبيب.

(292) مستعمرة إسرائيلية تقع في مدينة القدس. أُقيمت عام 1970 على أراضي قرية بيت إكسا وبقايا أراضي قريتي لفتا وشعفاط.

(293) يسرائيل كاتس (1955 -). سياسي إسرائيلي. شغل عددًا من المناصب الوزارية.

(294) مستعمرة إسرائيلية تقع شرق مدينة الخليل. أُسست عام 1971 على مساحة 4386 دونمًا. من أراضي مدينة الخليل.

(295) يقصد حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973.

(296) عملية عسكرية شنتها القوات الإسرائيلية على غزة عام 2008، واستمرت 23 يومًا امتدت من 27 كانون الأول/ ديسمبر 2008 حتى إعلان وقف إطلاق النار في 18 كانون الثاني/ يناير 2009. استخدم جيش الاحتلال في هذه العملية أسلحة محرمة دوليًا، وكانت حصيلتها استشهاد نحو 1500 فلسطيني، وتدمير البنية التحتية للقطاع.

(297) عملية عسكرية شنتها القوات الإسرائيلية على غزة عام 2014، استمرت 51 يومًا، وأسفرت عن استشهاد نحو 2147 فلسطينيًا، وتدمير أكثر من مئة ألف منزل. بينما قُتل من الجانب الإسرائيلي 72 جنديًا إسرائيليًا.

(298) حرب شنتها الجيش الإسرائيلي على لبنان في الرابع من حزيران/ يونيو 1982. وأدت إلى انسحاب المقاومة الفلسطينية من معظم الأراضي الفلسطينية ودخول الجيش الإسرائيلي إلى بيروت. انسحبت القوات الإسرائيلية على مراحل، كان آخرها الانسحاب من الشريط الحدودي عام 2000.

(299) قرية فلسطينية تقع جنوب شرق مدينة بيت لحم.

(300) مستعمرة إسرائيلية أُسست عام 1978 على أراضي قرى اسكاكا وسلفيت ومردة وفرخة وحارس التابعة لمدينة نابلس.

(301) المجلس الوزاري الإسرائيلي المصغّر.

(302) أفيغدور ليبرمان (1958 -). انتخب عضوًا في الكنيست أكثر من مرة، وشغل مناصب وزارية متعددة، منها وزير الخارجية عام 2009 ووزير الدفاع عام 2016.

(303) حنة أرندت (1906-1975). مُنظرة سياسية يهودية ألمانية. عُرفت بنقدها للسياسة الصهيونية، ولها العديد من المؤلفات المهمة والدراسات منها دراسة بعنوان «في تفاهة الشر».

(304) الترقين هو شطب القيود من السجلات.

(305) قرية فلسطينية تقع شمال غرب مدينة رام الله.

(306) معتقل إسرائيلي يقع بين مدينتيّ طولكرم ونتانيا.


(307) مستعمرة إسرائيلية تقع شمال مدينة القدس. أُقيمت على أراضي قرية كفر عقب في عام 1984.

# ملحق وثائق وصور

## رسالة من خليل الوزير (أبو جهاد) إلى أبو علاء منصور

[illegible]

رسالة من خليل الوزير (أبو جهاد) إلى أبو علاء منصور





١. هدف من هذا التقرير هو ...  
٢. تمكنت من اكمال العمل ...  
٣. ...  
٤. ...  
٥. ...  
٦. ...  
٧. ...  
٨. ...  
٩. ...  
١٠. ...

١٥/١٠/١٩٨٥

## قرار من ياسر عرفات بشأن المطاردين في الانتفاضة الأولى

STATE OF PALESTINE  
PALESTINE LIBERATION ORGANIZATION  
Office of the President

دولة فلسطين  
منظمة التحرير الفلسطينية  
مكتب الرئيس

الرقم :  
التاريخ :  
الذخ عا رى لى

بسم الله الرحمن الرحيم

مرحباً منادى موضح المطاردين في منطقة الدوحة

الذخ عا رى لى

١٥/١٠/١٩٨٥

اجتماع أمناء سرّ الأقاليم بتاريخ 17 / 5 / 2005

۱۱۱

القبم رام الله والبيرة : ٢٧/٤/٢٠٠٥م

انطلاقاً من ذلك ، فقد جاءت المبادئ الى عقد هذا الاجتماع ، بهدف دفع الاقاليم لأخذ دورها الطبيعي المفترض في سياق العملية التنظيمية ، من أجل الزج بطاقة القاعدة التنظيمية ، كي تصبح قوة فاعلة ومؤثرة في حياة الحركة وفي قرارات القيادة في هذه المرحلة الحساسة .

علينا اليوم أن نلتفت على الخطوط العامة للرسالة التي للشهداء ، والتي تهدف إلى حماية الحركة ، وأن نشترك بنهوض ، وبحبوبة وأن نطرح أهدافاً متواضعة ، لا تأثير الضجيج ، ويمكن تحقيقها . وأن نحتر من أن يثير تحركنا أي التباس حول مواقفنا وأهدافنا أو يترك انطباعاً سلبياً حول تحركنا .

- ١- أن يكون شعارنا لتفعيل دور القاعدة التنظيمية لحساب مستقبل الحركة
- ٢- أن نلهم اليوم أو في اجتماعات لاحقة موقفاً وتصوراً حاداً حول القضايا الملحة والمعروضة ونرسلها للجهات المعنية .

٣- أن ننلق على اجتماع دوري كل اسبوعين ، وفي البداية كل اسبوع  
٤- أن ندعولجان الاقلام إلى اجتماع مشترك لاحقاً ، كي نضعها في صورة تحركنا ، وحتى نعطلي  
تحركنا الزخم والقوة المطلوبة .

٥- أن نبادر إلى عقد اجتماعات مع الأخ هاني الحسن، وأبو مازن، ورؤساء الأجهزة، ومن يلزم بهدف تحسين تحركنا وإلحاق رأي عام مساعد لنا .

٦- علينا أن نوجد موقفاً حول جملة القضايا المطروحة اليوم : الانتخابات الداخلية لاختيار أعضاء الشريعة ، موضوع توزيع استمارات العضوية واستمارات الانتخابات الداخلية ، وموضوع تشكيل المجلس التنظيمي ،

بالمختصر : علينا أن نضع تصوراً عاماً مشتركاً ليهوم القاعدة وأن نتحرك كجماعة بصورة موحدة وفهم مشترك وبطريقة إيجابية وبناءة ، ١٠ علينا أن نجعل موقف القاعدة التنظيمية حاضراً على سائر لآلات الأمور القيادية وفي قراراتها .

أخوكم : أبو علاء منصور

## بسم الله الرحمن الرحيم

٢٠٠٥/٥/١٧م

اجتماع رقم (٣)

### الأخوة المناشطون ابناء سر الاقاليم

#### تدبة الدعوة وبعده ...

في نطاق خطتنا لتثبيت اجتماعاتنا الأسبوعية ، وضمن رؤيتنا للانفتاح والتواصل مع الجهات والأطر والأشخاص المؤثرين والفاعلين والمتنقلين ، ومن هم على صلة بعملنا فقد تم تحديد الاجتماعات التالية اليوم الثلاثاء ٢٠٠٥/٥/١٧م وعداً .

#### أولاً : اجتماع ابناء سر الاقاليم الأسبوعي

يهدف هذا الاجتماع الى تحقيق الغايات التالية :

١- تثبيت موعد الاجتماع الدوري ( الساعة الواحدة من ظهر كل يوم الثلاثاء ) في مقر القيم رام الله والبرية والتأكد على أهمية الحضور ، وتفعيل الاجتماع بالافكار ، والحوار الأيجابي ، ومنفعة ما يجري الاتفاق عليه بما يخدم تعزيز دور الاقاليم والتنظيم وضاح موقفه وحمل رسائله .

٢- اطلاق ابناء السر على الاجتماعات التي عقدتها خلال الأسبوع الماضي نوطنة لاجتماعات اليوم وعداً وهي ثلاثة اجتماعات :

أ- اجتماعات مع الاخ هاني الحسن وعدنان سمارة ، واتفاق على غداء عمل عند الساعة الثانية بعد ظهر اليوم ، وبعد اجتماعنا مياصرة ، وذلك في مقر التعبئة والتنظيم .

ب- اجتماع مع الاخ توفيق الطويلي جرى الاتفاق خلاله على عقد اجتماع مشترك الساعة الحادية عشرة من صباح غد الأربعاء في مقر المخابرات العامة .

ج- اجتماع مع الاخ رفيق الحسيني جرى خلاله الاتفاق على عقد اجتماع مشترك عند الساعة السادسة من مساء اليوم في مقر القيم رام الله والبرية .

٣- مناقشة الموقف القيادي غير الواضح ( المضلل ) من موضوع قانون الانتخابات التشريعية وموعدها والياتها ، والذي يبدو أنه يحاول حشر التنظيم في زاوية ضيقة لا تتيح المجال لإبداء الرأي والمشاركة في صياغة الموقف تجاه هذه المسألة ، حيث قبل أن الرئيس أبو مازن أرسل رسالة للمجلس التشريعي طالب فيها بتبني قانون القائمة الوطنية الموحدة .

٤- دراسة إمكانية إرسال رسالة للجنة المركزية والمجلس الثوري باسم ابناء سر الاقاليم الضعفة بخصوص قضية الانتخابات الداخلية ، والانتخابات التشريعية .

٥- الاتفاق على اجتماعات الأسبوع القادم والمقترح التالي :

أ- بعد اجتماعنا نذهب الى غداء عمل في بيت الاخ مروان البرغوثي ، ونجتمع هناك مع الاخ بشير نافع

ب- في المساء ن عقد اجتماع اما مع الاخ روهي فتوح أو الاخ د.محمد شنتة .

ج- ن عقد اجتماعاً في اليوم التالي يمكن أن يكون مع الاخ جبريل الرجوب أو غيره .

٦- التأكد من مدى ملائمة هذه الاجتماعات لأبناء السر أو اجراء تغيير عليها

ثانياً : الاجتماع مع الاخوة هاني الحسن وعدنان سمارة .

ويذكر - الاجتماع الى تثبيت جملة من المسائل ، تضمن سوية العلاقة بين الاقاليم ومكتب التعبئة والتنظيم وتتلخص في التالي:

أ- للتأكيد على وحدانية المرجعية المتبادلة ،

ب- للتأكيد على أهمية الحيوية في العلاقة بين الاقاليم والتعبئة والتنظيم

ج- بحث موضوع الموازنات وأهمية رفعها

د- احترام ما يصدر عن الاقاليم من كتب وتقييمات والتعامل معها بجدية والرد عليها في الوقت المناسب

هـ- أهمية أن تولي القيادة الاهمية لتنظيم بالرعاية وتلبية الاحتياجات

و- مناقشة موضوع الانتداب، للتدريسية والدخارية

ي- بحث موضوع الاستمارات

ك- الاستماع الى ملاحظات الاخوين : هاني الحسن وعدنان سمارة .

ثالثاً : الاجتماع مع الدكتور رفيق الحسيني رئيس ديوان الرئاسة

يهدف الاجتماع الى تحقيق الغايات التالية :

١- يدخل في نطاق خطتنا للانفتاح الايجابي على مؤسسات السلطة والحركة

٢- للتعارف المتبادل بين امراء سر الاقاليم ورئيس ديوان الرئاسة

٣- اكمال رسالة للاح أم مازن حول دورنا وتصورتنا

٤- الاستماع الى ملاحظات الدكتور رفيق

رابعاً : الاجتماع مع الاخ توفيق الطيراوي / مدير المخابرات العامة في الضفة الغربية

يدخل الاجتماع في نطاق سياسة الانفتاح الايجابي من جانبنا ، وضمن خطتنا لشرح مواقفنا ووجهات

نظرنا للجهات المعنية والمؤثرة ، التي تهدف الى تحصين موقفنا وخلق رأي عام حول تصوراتنا .

مع التحية والتقدير

أخوكم

أخو من إقليد راء الله والنبوة

أبو علاء منصور



جدول أعمال اجتماع أمناء سرّ الأقاليم بتاريخ 29 / 5 / 2005

بسم الله الرحمن الرحيم

جدول الأعمال المقترح لاجتماع أمراء مر الأقاليم في الضفة الفلسطينية

٢٠٠٥/٥/٢٩

اجتماع رقم (٥)

### الموضوع الرئيسي : الاجتماع مع الوفد الأمني المصري

- ١- الاجتماع مع الوفد المصري مهم للغاية فمصر هي التي ترعى الحوار الوطني الفلسطيني ، وهذا هي المرة الأولى التي يلتقي فيها أمراء مر الأقاليم في الضفة مع هذا الوفد الذي اقتضت برامجه حتى الآن على الاجتماع بالقادة الأمنيين في الضفة والقطاع ، ومسؤولي التنظيم في القطر ، بالإضافة إلى القيادة السياسية .
- ٢- منذ اعتقال الأخ مروان البرغوثي فقد تراجع دور الأقاليم والقاعدة للتعليمية عموماً في الضفة الفلسطينية ، وهذا الاجتماع وما سيقه يأتي في سياق استعادة الأقاليم لدورها .
- ٣- هذا يقتضي أن نوزع الأوراق فيما بيننا اليوم بصورة جيدة ، وأن نلتج الحديث الموجز لكل من يريد من أخواننا ، كي نعطي إعطاباً إيجابياً وقوياً عن أنفسنا ومواقفنا ومواقفنا ، وكس نوسع مساحة في ذهن محاورينا تتناسب مع ما نتحدثه من مسؤولية ، علينا أن لا نقامع بعضنا البعض ولا نسرح في الحديث ، وأن نلتج الحديث عن مشاكلنا الداخلية .
- ٤- سيطر هذا الاجتماع الحساسة مع بعض الأخوة والأقر سبماً في التعبئة والتنظيم ، وهذا طبيعي وشأننا لنا في الموقع الصحيح ولا نتأخر على أحد ، ولا نريد اعتصاب مكان أحد قبله هناك شكوك ، وعلينا أن نوضح رسائلنا موقفاً بصورة إيجابية لكل الجهات المعنية .
- ٥- علينا أن نواصل ردة تثبت إلتامنا وتعليقها التي بدأتها منذ شهر تقريبا وهذا يتطلب التالي :
  - أن نعمل بصورة جادة في إلتامنا ، وأن نتعامل مع ما نقوم به بمسؤولية .
  - أن نحرص على التواصل والتفاهم مع الجميع في الحركة دون استثناء
  - أن نلتج التحول في أي مراهات أو مشاحنات داخلية ، مع أي كان فعل هذه المسائل لا نلتج إلا الضرر .
  - علينا أن نحافظ على الثقة مع مكتب التعبئة والتعليم باعتبار مرجعيتنا .
- ٦- أظهر الأخ هاني الحسن أخطاء من الاجتماع ، ولذلك فضلت أن لا التقى به قبل الاجتماع وفيما بعده كي نلتج له دواعياً ونصوراتها ، بما لا يؤثر على الاجتماع بصورة سلبية .
- ٧- قراءة الكلمة التي جهزتها لإلقاها أمام الوفد المصري باسم أمراء مر الأقاليم في الضفة الفلسطينية .

أخوكم

أمين مر إلتامه راء الله والبيعة

أبو علاء منصور

## بسم الله الرحمن الرحيم

### دورة اجتماعات أمناء سر الأقاليم الأسبوعية

اجتماع رقم (٥)

٢٠٠٥/٥/٢٩م

#### الأخوة المناضلون أمناء سر أقاليم الضفة الفلسطينية

تحية الوطن وبعد ...

اليك فيما يلي ملخصاً لاجتماعكم التي جرت في رام الله والبيره يوم ٢٩/٥/٢٠٠٥م

أولاً : اجتماع أمناء سر الأقاليم في مقر إقتم رام الله والبيره .

أ- الحضور

- ١- الاخ أبو هزاع شريم / أمين سر إقليم قلقيلية
- ٢- الاخ عملا أبو رميلة / أمين سر إقليم جنين
- ٣- الاخ جمال دراغمة / أمين سر إقليم طوباس
- ٤- الاخ أبو فاروق / أمين سر إقليم طولكرم
- ٥- الاخ عصام أبو بكر / أمين سر إقليم نابلس
- ٦- الاخ بلال عزيز / أمين سر إقليم سلفيت
- ٧- الاخ صائب نعليف / أمين سر إقليم أريحا
- ٨- الاخ أبو علاء منصور / أمين سر إقليم رام الله والبيره
- ٩- الاخ أبو حسن جبارين / أمين سر إقليم شمال الخليل
- ١٠- الاخ أبو خالد الشرياتي / أمين سر إقليم وسط الخليل
- ١١- الاخ زياد الرجوب / أمين سر إقليم جنوب الخليل

ب- الغياب

- ١- الاخ صلاح زحبيكة / أمين سر إقليم القدس
- ٢- الاخ فواد كوكلي / أمين سر إقليم بيت لحم

ج- المناقشات

- ١- تمت قراءة جدول الاعمال المقترح والذي تضمن التالي :
  - شرح أهمية الاجتماع مع الوفد المصري
  - هناك تراجع في دور ومكانة التنظيم منذ اعتقال الاخ مروان البرغوثي
  - علينا أن نعطي للوفد المصري صورة ايجابية عن وضعنا كأمناء سر أقاليم سواء من خلال النقاش المنطقي ، أو من خلال توزيع الحديث ... الخ
  - قد تتبر هذه الاجتماعات حماسيات لدى بعض الاخوة ، سيما في مكتب التعبئة والتنظيم يجب نقيم ذلك ، وعلينا شرح موقفنا بصورة ايجابية .

- المطلوب منا مواصلة رحلة تثبيت دور الاقاليم وتفعيلها على كافة الصعيد وهذا يتطلب منا التالي:

أ- العمل بصورة جادة داخل اقاليمنا

ب- الحرص على التواصل والتفاهم مع الجميع ، سواء داخل الاقاليم أو خارجها

ج- تجنب الدخول في مشاحنات أو صراعات مع أي كان

د- المحافظة المستمرة على أجواء الثقة مع مكتب التعبئة والتنظيم باعتباره مرجعنا

- جرت نقاشات مفصلة حول العديد من المسائل الحركية

- وفي نهاية الاجتماع قرئت الورقة التي أعدها الاخ أبو علاء منصور لالتقاء في الاجتماع مع الوفد

المصري والتي تضمنت ثلاثة محاور كالتالي : المحور السياسي ، أهمية دور الاخ مروان البرغوثي ، قضايا الانتخابات الجارية في فلسطين .

ثانيا : اجتماع امعاء سر الاقاليم مع الوفد المصري .

حصل الاجتماع في فندق ( جراند بارك ) رام الله ، وحضره عن الجانب المصري كل من من اللواء

مصطفى البحيري واللواء محمد ابراهيم ، وباسر الغزاوي مستشار مكتب التمثيل المصري في رام الله ،

وحضره من جانب حركة فتح امعاء سر الاقاليم الواردة اسمائهم في الصفحة السابقة ، وقد دار الحديث على

النحو التالي :

١- تحدث اللواء البحيري باستفاضة وبصورة ودودة عن العلاقات المصرية الفلسطينية ، وعن حركة فتح

ودورها التاريخي في إقامة الثورة ، ومواصلة رحلة إقامة الدولة ، وعبر عن دعم مصر لحركة فتح ،

وحرصها على الوحدة الوطنية الفلسطينية ، ثم استعرض تفاصيلاً من اجتماعاته في غزة .

٢- تحدث بعد ذلك أبو علاء منصور باسم امعاء سر الاقاليم ، فرحب بالوفد الضيف ، وعرفه على امعاء

سر الاقاليم ، وأشار بالدور التاريخي لمصر في دعم ونصرة القضية الفلسطينية ، وبخصائص الشعب

المصري ، وأشار الى أن مصر لعبت دائماً دور الشقيقة الكبرى ، ولم تكن منافسة أبداً للقيادة الفلسطينية ، ثم

قرأ الورقة المتفق عليها ، وبسبب ضيق الوقت فإنه لم يكن هناك مجال للنقاش .

كان الاجتماع جيداً ، ومفيداً ، ودام ساعة واحدة .

٣- لم يذكر هذا الاجتماع في تقارير اللجان ما عدا في إحدى القوات المصرية التي أوردت اجتماع

الوفد المصري مع وفد من حركة حماس تلا ذلك الاجتماع مباشرة ، واعتقد أن السبب يعود إلى ترددنا في

الإدلاء بتصريحات للجان التي كانت تزدهم على باب القاعة .

الخاتمة

أمين سر إقليم رام الله والبيرة

أبو علاء منصور



تقرير مقدّم إلى اللجنة المركزية بتاريخ 26 / 6 / 2005

## بسم الله الرحمن الرحيم

### الأخوة أعضاء اللجنة المركزية لحركة فتح المحترمين

#### تحية الوطن ووجد :

لا يخفى عليكم أن الحركة تجتاز اليوم أزمة تكاد أن تكون شاملة : سياسية ، وتنظيمية وبنوية ، وقيمية ، وعملية ، ورغم ذلك فإن الحركة ما زالت قوية ، ولا زالت تلد مناضلين ولشبال ، وتحظى بثقة كبيرة في صفوف الشعب ، وينظر إليها باعتبارها الحركة الأولى ومحط آمال الجماهير .

وإن مبادرتكم الى وضع الحلول الحقيقية والاجابات الملائمة على التساؤلات ، بشكل ضمانة لحماية الحركة من الانفجار الداخلي الذي يهددها ، ولهذا فإن أبناء الحركة يعلقون على اجتماعكم آمالاً كبيرة ويتطلعون إليها باهتمام .

إن حماية المشروع الوطني أمانة في عنق حركتنا ، ولن تستطيع الحركة النهوض بمسؤولياتها ومواصلة دورها التاريخي دون المبادرة الى وضع أجندة تعالج القضايا الحيوية المطروحة وتجب بوضوح على التساؤلات الكبيرة .

وفي هذا السياق فإننا نرى بأن تأجيل موعد انعقاد المؤتمر السادس للحركة وتأجيل الانتخابات التشريعية الذي يضيع الوقت ويعر عن الارتباك قد مس بهيبة الحركة ومصداقية السلطة الوطنية ، ولن يسفر سوى عن ترحيل الازمات وتضخمها ، وتزود الآخرين بمسالة إعلامية قوية ومنطقية لمهاجمة السلطة والتشكيك بقدرة فتح .

نحن نعتقد بأنه لا سبيل أمام الفتحاويين اليوم سوى التحصن بالحركة وبالشعب ، في مواجهة الهجوم الاسرائيلي الشرس الذي أراد أن يجعل من اتفاق أوسلو فرصة لتثبيت الاحتلال ومضاعفة الاستيطان والتهام الاراضي تحت مسمى السلام ، مما تسبب في تفجر انتفاضة الأقصى المباركة ، والذي يريد اليوم فرض الاستسلام على قيادتنا وشعبنا من خلال الابتزاز ومواصلة العدوان ، وعبر نشر قيم وثقافة ومقولات الهزيمة ، كي يوصل أمامهم طريق المقاومة والصمود وينمر فيهم الروح المعنوية التي نعتبر الشرط الاول للمواجهة والنيات وتحصيل الحقوق .

#### إننا نتطلع أن يخرج اجتماعكم بقرارات واضحة حول المسائل التالية :

- ١- توحيد الموقف القيادي إزاء القضايا الهامة المطروحة داخلياً وخارجياً ، وتنظيماً وسياسياً بما يقوي الحركة ويصونها ويحفظ وحدتها .



٢- اتخاذ قرارات وتوجهات لدعم الاسر الفقيرة والمحتاجة ، والمناضلة بهدف تعزيز

صمود شعبنا في وجه العدوان .

٣- اتخاذ قرارات ومواقف واضحة وصريحة وعملية من قضايا الفساد والفاستدين

تطمئن شعبنا وأبناء تنظيمنا بصنق توجهنا نحو الاصلاح .

٤- حصر أملاك الحركة وتوضيح الموقف المالي لها .

٥- تحديد موعد ومكان عقد المؤتمر العام السادس للحركة ، ووضع آلية عادلة لتمثيل الاقاليم ، ومن خلال معايير واحدة ، تأخذ في الاعتبار حالة الشتات ، وانتقال

مركز الثقل القيادي والعملي الى الوطن .

٦- تحديد موعد الانتخابات التشريعية ، والبدء فوراً بالاعداد للانتخابات الداخلية

لتحديد ممثلي الحركة في انتخابات التشريعي .

٧- اتخاذ قرارات تضمن تقوية التنظيم ، وإحداث حالة من التفاعل بين القاعدة

لتنظيمية والاطر القيادية العليا .

٨- إعطاء قضية الاسرى الاولوية في اجتماعات ومواقف الحركة والسلطة ، ومع

كافة الجهات المعنية للمطالبة بالافراج عنهم ، وفي هذا السياق فإن الضغط للافراج عن الاخ مروان البرغوثي يعتبر أمراً في غاية الاهمية نظراً لأنه يشكل

عاملاً مهماً على صعيد وحدة الحركة ومنبط الكثير من التجاوزات .

٩- دعم الفعاليات الشعبية ضد الجدار العنصري

وبهذه المناسبة فإننا نود أن نضعكم في صورة جملة من همومنا وتصوراتنا :

**أولاً : انسحاب قوات الاحتلال من قطاع غزة**

ومنعت الانتفاضة الاسرائيليين في مأزق عدم القدرة على إلحاق الهزيمة بالفلسطينيين

أو تهجيرهم أو ابادتهم ، ومعنى ذلك فشل مفهوم الحل العسكري الذي طالما تشبثت به القيادة الاسرائيلية طوال سنوات الانتفاضة ، مما اضطر شارون وموفاز مؤخراً الى تكرار القول بأن إسرائيل لا تريد السيطرة على شعب آخر .

لقد كان المشهد الفلسطيني مذهلاً ؛ حيث احتشد آلاف الفلسطينيين بإصرار ولأكثر من شهر على حاجز رفح وهم يحاولون العودة الى مساكنهم التي تتمررها اليات الاحتلال وحيث واصل الأطفال الابرياء ملاحقة آليات الاحتلال في شوارع وأزقة المدن والمخيمات دون خوف ، ولا شك أنه كان لهذا تأثيره وانعكاساته الهامة على ذهنية قادة الاحتلال ، وأن

إن بشكل محدود على توجهاتهم ومواقفهم وقراراتهم .

نعم : لقد جاء قرار الانسحاب الاسرائيلي من القطاع رغماً عنهم ، وبفضل مسير وإصرار وسواعد أبناء شعبنا ، ومقاومتهم ، ولذلك فإن هذا الانسحاب سيسجل في التاريخ

باعتباره نصراً للانتفاضة التي سيمسجل لها أيضاً أنها انتزعت وإلى الأبد مفهوم وفكرة الرحيل والهجرة من ذهن الفلسطينيين •

ثانياً : الوحدة الوطنية

إن قوة الحركة وحيويتها تشكل الضمانة الرئيسية للوحدة الوطنية ، وتعتبر المصدر الرئيسي لمصمود وقوة الشعب الفلسطيني ، ولذلك فإن وحدة الحركة وتماسكها واستنهاض قاعدتها يجب أن تحظى بأولوية في اجتماعكم •

لقد دفعت التجربة المشتركة للفصائل الوطنية والإسلامية في انتفاضة الأقصى المباركة بالعلاقات الوطنية الى درجة من التضخيم لم تتوفر في الماضي ، فالمشاركة تعني الحراك والتفاعل الإيجابي وتقريب وجهات النظر على عكس العزل الذي يتسبب في التعصب والانغلاق وضيق الافق والنظرة السلبية للمعادية ، وقد أسفر الدور المميز للحركة في مجالي الانتفاضة والمقاومة عن محافظة فتح على مكانتها ودورها الريادي المتميز •

وقد أدى ذلك الى تبلور أفكار ومواقف إيجابية من قبل حركتي حماس والجهاد الإسلامي تجاه الحركة والسلطة مما أسفر عن الاتفاق على الهدنة ثم على التهينة ، وساهم في منع الانحدار نحو التدهور الداخلي ، ويسجل لقيادتنا ولحركتنا بدء من الاخ أبو عمار ووصولاً للاح أبو مازن موقفها الشجاع والواضح في تحريم الاقتتال الداخلي ، وعدم الرضوخ للمطالب والاشتراطات الاسرائيلية والأمريكية •

إن الظروف تنهياً اليوم لمزيد من الاتفاق وتعزيز اللحمة في ضوء المواقف السياسية الجديده لحركة حماس ورغبتها في المشاركة في الحلبة السياسية ، ويقع على عاتق فتح مسؤولية تشجيعها ودعمها لمواصلة هذا الطريق دون خوف أو تردد •

وفي هذا السياق فإن من واجب الحركة أن تعيد النظر في موازين المعادلة الداخلية وأن تأخذ في الاعتبار حركة الواقع ، فهناك قوى حية وناهضة ، وأخرى تتلاشى ، ومن غير المعقول أن تظل بعض القوى عينا على الحركة وعلى الشعب كما هو واقع اليوم •

إننا نرى أن الشراكة الحقيقية التي تقوم على أسس ديمقراطية تشكل حصانة للفلسطينيين ، ومصدر قوة لفتح وللسلطة ، وعلى فتح أن تبادر الى فتح الملفات والابواب بشجاعة ، دون أن نخشى نتائج العملية الديمقراطية ، وهذا أمر يحتاج الى أن نثق بأنفسنا وبحركتنا ومستقبلنا •

ثالثاً : كتائب شهداء الأقصى

إننا نرى أن الكتائب تعتبر الظاهرة الأهم في تراث الحركة ما بعد انطلاقها ، وقد أدى عدم دعمها ورعاية مناخاتها الى إضعافها ، وأسفر عن تسليم راية المقاومة لحركة حماس التي أصبح يرى فيها الناس ممثلاً للمقاومة ، وفي ذلك ظلم لحركة فتح وكتائب شهداء

الانحسار ، كما أدت محاولات استزلام قاداتها وعناصرها من قبل بعض المتطفلين عندنا الى تزييفها وإفسادها ، وكانت هذه أكبر الجرائم التي ارتكبت بحق الحركة وراثتها ونضالها في العقد الاخير .

رابعاً : الفلتان الامني

نجم هذا الامر بالاساس عن الفساد الممثل في الفلتان السياسي والمالي والاداري والقيمي ، لا بل أنه الانعكاس الطبيعي له ، فالمسلحون جميعاً ومن يفتعلون المشاكل فتحاويون محسوبون إما على التنظيم أو على أجهزة الامن ( على هذا الشخص أو ذاك ) ، وإننا نرى أن المعالجة الصحيحة لهذه الظاهرة تأتي عبر الإصلاح وتحسين الاداء ، ومن خلال كشف يد العابثين بهذه الضحايا وباستقرار وأمن المجتمع ، ومن خلال معالجة القضايا الشخصية للأشخاص وفرزهم لتمييز الخبيث من الطيب ، ، وليس من خلال نشر الدوريات المسلحة في قلب المدن فهذه وهي لم تجلب أمناً ، فقد استفزت مشاعر الناس أكثر مما طمأنتهم .

ولنتذكر بأن انتفاضة عام ١٩٨٧م ، التي لم يكن فيها لا سلطة ولا أجهزة ، حفظت أمن الناس وصانعت كرامتهم واستقرارهم ، على يد شبان من أبناء التنظيم لم يكونوا يتقاضوا رواتب أو يطمحوا في مناصب وهذا مما يؤكد ارتباط هذه الظاهرة بالفساد الذي استشرى مع إقامة السلطة الوطنية .

خامساً : محاربة الفساد

لا يمكن الحديث عن حركة قوية ، نون التخلص من الفساد في الحركة وفي السلطة كما لا يمكن الحديث عن سلطة قوية تحظى بثقة شعبيها بعيداً عن حركة قوية وفاعلة ايجابياً في حياة المجتمع ، وإن هذا يستدعي أن تبادر الحركة والسلطة الى فتح ملف الفساد بصورة جريئة وصادقة وعملية ، ومحاسبية للفاستين .

سادساً : المشاكل التي تعاني منها الاقاليم

- تنعكس البؤة الواسعة بين قيادة الحركة وقواعدها بصورة سلبية على التنظيم وهمة المناضلين والنضباطهم .
- تعاني القاعدة من التشويش في الرؤيا السياسية ، والمواقف الموحدة لزاء القضايا الحيوية المطروحة .
- تعاني القاعدة من الانعكاسات السلبية لفقدان الحيوية والمصادقية في الاطر القيادية العليا
- تنفع القاعدة فانورة الفساد ، وسوء الإدارة ، وسوء السمعة الملازمة للسلطة والاجهزة لدرجة بات يقال أن الشعب يعاقب فتح في صناديق الاقتراع .

- تتسبب قلة موازنات الاقاليم في تراكم الديون ، والشعور بالعجز ، وعدم القدرة على الاستجابة لمتطلبات العمل ، والحد من المبادرات ، وانتشار الخلافات والتوترات ، مما يضعف من قدرة الاقاليم على البناء والسيطرة ، ولا يعقل مثلاً أن تكون موازنة الاقليم اليوم ، أقل من نصف موازنته قبل عشرين عاماً وأن تكون الموازنة الشهرية للمنطقة التنظيمية التي تضم أربع قرى أو أكثر، مائة دولار لا تصرف بانتظام ، في ظل المنافسة الشديدة مع حركة حماس .

وفي النهاية ، فإننا ونحن نشد على أياديكم لاتخاذ مواقف شجاعة تستهض الحركة ، وتدعم وحدتها ، فإننا نؤكد مرة أخرى بأن حركتنا ما زالت قوية بما فيه الكفاية لقيادة مشرونا الوطني .

- بواسطة الاخ هاني الحسن مفوض التهيئة والتنظيم  
- نسخة لأمانة سر اللجنة المركزية

امناء سر الأقاليم الضفة الفلسطينية

٢٠٠٥/٦/٢٦



اجتماع أمناء سرّ الأقاليم بتاريخ 27 / 6 / 2005

## بسم الله الرحمن الرحيم

### دورة اجتماعات امناء سر الاقاليم في الضفة الفلسطينية

ت- ٢٧/٦/٢٠٠٥م

نورة رقم (٩)

#### الاخوة المناهضون امناء سر الاقاليم في الضفة الفلسطينية

##### تحية الوطن وبعد ...

إيكم ملخصاً لاجتماعاتكم التي جرت في رام الله بتاريخ ٢٧/٦/٢٠٠٥م والتي حضرها جميع امناء السر ما عدا الاخ زياد الرجوب الموجود في السعودية لأداء العمرة .  
أولاً : اجتماع امناء السر

كان من المفترض أن يجتمع امناء سر الاقاليم في مقر إقيم رام الله والبيرة قبل اللقاء مع الاخ أبو مازن ولكن تأخر عدد منهم في الطرق أدى إلى مناقشات عامة بسيطة .

##### ثانياً : الاجتماع مع الرئيس أبو مازن

جاء هذا الاجتماع بطلب من امناء سر الاقاليم ، بهدف الاستماع إلى ما جرى في اجتماعه مع رئيس الوزراء الاسرائيلي شارون .

في بداية الاجتماع رحب الرئيس بالحضور ، وأطلعهم على نتائج اجتماعاته مع رؤساء المجالس البلدية المنتخبة ، ومع المحافظين ، وقال أنه طرح عليهم قضية تقديم مشاريع تنمية في المحافظات ، وطلب من امناء السر التعاون وأخذ نورهم في هذا المجال ، وتطرق إلى رحلته إلى أمريكا وقال أن الزيارة كانت مهمة وأن الأمريكيين أعادوا النظر في بعض تعهداتهم لشارون ومن بين ذلك موضوع الكتل الاستيطانية ، وعن اجتماعاته مع شارون قال بأن الاجتماعات لم تكن جيدة بسبب اصطدامها بعدم استجابة شارون في موضوعي الاسرى ، وتسليح أجهزة الامن .

ثم تحدث أبو علاء منصور فأكد على أهمية التواصل بين الرئيس وبين الاطراف القيادي الميداني في الحركة المتمثل بامناء سر الاقاليم ، وشكر الرئيس على التزامه بالمؤسسة وقال بأن هذا اللقاء لا يمس بفكرة المؤسسة ، فأبناء سر الاقاليم على تواصل جيد وإيجابي مع مفوض التوعية والتنظيم ، ومتمرسون بالاطر ولكن العمل بنظام المؤسسة لا يجوز أن يلغي فعالية القائد وهو لا يتناقض مع دوره ، وإلا فإن الامر لا يضحى تمسكاً بالجانب السلبي من المؤسسة الذي لا يعني سوى الهروب من المسؤولية والقائه على ظهر الآخرين ، فعلق أبو مازن بالقول ( علينا أن نحترم المؤسسة ونفعل الأدوار ) .

وطالب أبو علاء بعد اجتماعات دورية ، وعند الحاجة بين هذا الاطراف وبين الرئيس ووافق الرئيس على ذلك ، كما طالب بأن يساهم الرئيس بحل جانب من المشكلات التي يعاني منها التنظيم ووافق الرئيس على ذلك أيضاً .

وتطرق الرئيس إلى موضوع الخلاف مع أبو التلطف ، ثم موضوع المؤتمر الحركي السادس ، وقال بأن مناقشة هذه المسائل ستتم في الاجتماعات المرتقبة للجنة المركزية وقال بأن هناك مقترحات لحل أزمة

فتح ، أما من خلال المؤتمر السادس ، أو من خلال (كونفرانس) أو من خلال تعبئة الشواغر في اللجنة المركزية والمجلس الثوري وتوسيع الاطاريح (إضافات) .  
وأكد الرئيس على أن الأمن يشكل جوهر المشكلة في بلادنا ، فإذا لم يكن هناك أمن فإنه لا يمكن أن يتحقق شيء لا سياسي ولا اقتصادي ولا غير ذلك ، فكل شيء يتوقف على الأمن .  
واشكى من تعامل الأعداء في موضوع المطردين ، وأن ذلك شكل المعوق الرئيسي لعدم البت في معالجة مشاكلهم .

وقد ركز أمناء سر الأقاليم على أهمية اجتماع اللجنة المركزية المرتقب ، وسلموا الرئيس رسالة باسمهم إلى اللجنة المركزية (نسخة عن الرسالة التي جرى تسليمها للاح هاني الحسن) .  
وقال الرئيس : هناك ثلاث مشكلات رئيسية سيجري بحثها في هذا الاجتماع ، وهي المؤتمر العام السادس للحركة ، والانتخابات التشريعية ، وقضية وزارة الخارجية .

وبالنسبة لوزارة الخارجية قال الرئيس أن هناك ثلاثة وعشرون سفيراً تجاوزوا سن التقاعد ، وأن هناك أربعين سفيراً مضى على وجودهم في دولهم أكثر من عشرة سنوات ، وهذا يتناقض مع القانون ، كما أنه علينا أن نعين سفراء وقناصل من الداخل .

وبدئاً من مشاكل حل مشكلة وزارة الخارجية .

وتطرق أمناء سر الأقاليم إلى الديون المترتبة على الأقاليم وأكدوا على أهمية قوة التنظيم وفاعليته وطالبوا بوجود خطاب سياسي واضح للحركة ، وضرورة تغيير قادة الأجهزة الأمنية كل فترة فرد أبو مازن بأن الوضع المالي للحركة يهبط .

ثم جرى التطرق لموضوع كتاب شهادة الأقصى فأكد أبو مازن بأن التنظيم هو مرجعية الكتاب .

وبخصوص تسديد الديون ، ورفع الموازنة اقترح الرئيس عقد اجتماع بين أمناء سر الأقاليم وبين الأخ عدنان سمارة لوضع تصور لمعالجة المسألة .

وطالب الأخوة في نهاية الاجتماع بضرورة التعامل بصرامة مع المجرمين والقتلة وعلى رأسهم فتلة للشهداء الشيخ علي فرح وشقيقه حسام ، ورجل الشرطة في جنين .

أخوه

أمين مر إلهام رام الله والبيروت

أبو علاء منصور



اجتماع أمناء سر الأقاليم بتاريخ 3 / 7 / 2005

بسم الله الرحمن الرحيم

دورة اجتماعات امناء سر الاقاليم في الضفة الفلسطينية

ت- ٢٠٠٥/٧/٣م

دورة رقم (١٠)

الاخوة المناضلون امناء سر اقاليم الضفة الفلسطينية

تحية الوطن وبعده:

إليكم ملخصاً لاجتماعاتكم ونشاطاتكم التي جرت في رام الله يوم ٢٠٠٥/٧/٣م والتي حضرها تسعة من امناء السر هم الاخوة : أبو حسن جبارين ، أبو خالد الشرباتي ، صلاح زحبيكة ، أبو علاء منصور ، بلال عزريل ، عصام أبو بكر ، أبو فاروق ، أبو هزاع ، عطا أبو رميلة .

ملاحظة : الاخ زياد الرجوب موجود في السعودية لأداء العمرة

أولاً : الاعتصام في مقر المقاطعة

شارك امناء السر في الاعتصام الذي جرى في المقاطعة ، لدعم الاسراع في محاكمة قتل الشيخ علي فرج وشقيقه حسام ، والتأكيد على خطورة الجريمة . وقد لوحظ بأن الحشد الجماهيري يقتصر تقريباً على القادمين من محافظة نابلس ، وقد سجل هذا كتقصير من جانب الاقاليم في هذه الفعالية الهامة ، سيما بالنسبة لإقليم رام الله الذي جرت الفعالية في منطقته .

واتفق على أن يرسل كل إقليم حمولة باص من أبناء التنظيم ، وذلك يوم الخميس القادم للاعتصام أمام مقر المحكمة في مدينة أريحا في أول يوم لمحاكمة المجرمين ، على أن ترفع لافتة باسم الاقليم المعني على كل باص

ثانياً : الاجتماع مع الاخ محمد دحلان

عقد الاجتماع في مقر وزارة الشؤون المدنية ، حيث شرح أبو علاء منصور في البداية فكرة إطار امناء سر الاقاليم وأهميته ، وطرح فكرة اجتماع امناء سر الاقاليم في الضفة مع نظرائهم في القطاع بهدف توحيد موقف التنظيم في الوطن .

وقال أبو علاء : إن فكرة الإطار جاءت بمبادرة شخصية ، هدفت الى توحيد الجهود ويجاد عنوان شرعي للتنظيم في الضفة الفلسطينية يمكن أن يساهم في تفعيل القاعدة التنظيمية وجعلها من مكونات الموقف والقرار القيادي ، وفي المحافظة على وحدة وتماسك الحركة في هذا الظرف الحساس سيما وأن هذا الإطار هو الإطار القيادي للتنظيم الذي يملك الشرعية وأن الاجتماعات التي يعقدها امناء سر الاقاليم مع المسؤولين في السلطة والحركة تهدف الى

تحسين الاطار وتوسيع قاعدته ، والتنسيق والتفاعل بين جميع القوات والاطر التي من شأنها أن تسبب في خدمة تقوية الحركة ووحدها ، والى الزج بالامكانيات المتوفرة لدى هؤلاء المسؤولين بما يخدم تقوية التنظيم وجعله عنواً للدعم الشعبي والمجتمعي .

وقد أعرب دحلان عن دعمه وتأييده لهذا الاطار باعتباره شرعياً ومهماً ، ووعد بدعمه بكل ما يستطيع ، كما أثنى على فكرة اللقاء بين أقاليم الضفة وأقاليم القطاع بما يخدم وحدة الحركة وقوتها ، ووعد بالحصول على التصاريح اللازمة لسفر امناء سر اقاليم الضفة الى القطاع .

ثم تحدث امناء السر وشكروا دحلان على ما أبداه من تفهم ودعم للاطار ، وأكدوا على أهميته وضرورته لتقوية التنظيم ، ودعم الحركة .

وفي نهاية اللقاء الذي انتهى بخداء عمل وعد دحلان بالتالي :

- ١- وضع ما يستطيع من امكانيات الوزارة في خدمة التنظيم ، فيما يتعلق بقضايا الدعم والمساعدة بحيث تصبح الاقاليم عنواً رئيسياً للدعم
- ٢- طرح فكرة أن يصبح امناء سر الاقاليم أعضاء في المجلس الثوري للحركة ، في ظل تراجع فرصة انعقاد المؤتمر العام السادس للحركة
- ٣- طلب من امناء السر احضار اسماء رجال أعمال من مناطقيهم لاعطائهم فيزا الى مصر لمدة ثلاث سنوات .
- ٤- وعد باعطاء حصة مهمة للتنظيم من وظائف البطالة
- ٥- دعا الى اتخاذ موقف حازم مع اللجنة المركزية بما يخدم المحافظة على الحركة وقال أن هناك عريضة موقعة من ثلاثة وستين من أعضاء المجلس الثوري تطالب بتشكيل قيادة طوارئ للحركة
- ٦- قال بأنه سيذهب لمقابلة الاخ مروان في سجنه خلال الأيام القليلة القادمة
- ٧- طلب صور هويات امناء سر الاقاليم لمحاولة الحصول لهم على تصاريح سفر للقطاع للاجتماع مع امناء سر الاقاليم هناك .

أخوهم

أمين سر إقليم راه الله والبيرونة

أبو علقا منصور



تقويم لتجربة أمناء سر الأقاليم خلال الشهرين الأولين بتاريخ 5 / 7 / 2005



## بسم الله الرحمن الرحيم

تقييم تجربة إطار امناء سر الاقاليم خلال الشهرين الاولين

### الاخوة المناضلون امناء سر الاقاليم

تحية الوطن وبعد ...

إليك تقييماً موجزاً لاجتماعاتنا في إطار امناء سر الاقاليم خلال الشهرين الاولين من

التجربة :

مع بداية شهر تموز ٢٠٠٥م يكون قد مضى شهرين كاملين على اجتماع امناء السر الاول وإذا ما حاولنا تقييم هذه التجربة ( المبادرة ) فإنه يجب الأخذ في الاعتبار ما يلي :

أولاً : الاسس التي تقوم عليها عملية التقييم

١- الاهداف الاولى التي انشئ من أجلها الإطار ، ومدى تحققها والمجهودات التي بذلت في سبيل تحقيق هذه الاهداف

٢- السياسات التي جرى اتباعها خلال هذه المرحلة ومدى جدتها وجنواها أو تعثرها

٣- انعكاسات التجربة على الجهات ذات الصلة وهي :

- القاعدة التنظيمية في الاقاليم

- مفوض التعبئة والتنظيم ومكتب التعبئة

- الجهات الاخرى ذات الصلة في الحركة والسلطة وغير ذلك

٤- الفعاليات التي نفذها الإطار

٥- الثغرات التي يعاني منها الإطار ، والاختفاء التي وقع فيها

ثانياً : المسيرة العملية والميدانية للإطار

أ- اجتماعات امناء السر

- تم عقد عشرة اجتماعات حتى يوم ٢٠٠٥/٧/٤م

- لوحظ التزام شبه كامل من قبل امناء السر بالاجتماعات

- يجري تسجيل محضر لكل اجتماع يرسل مباشرة الى كل الاقاليم

- هناك حيوية ومسؤولية في الاجتماعات ( فالاجتماعات بعيدة عن الروتين ، كما أنها

ليست مجرد لقاءات فاقدة للروح )

ب- اجتماعات امناء السر مع المسؤولين في الحركة والسلطة وغير ذلك

عقد امناء السر (١٣) اجتماعاً خلال الفترة المذكورة كالتالي :

- اجتماعين مع الاخ الرئيس أبو مازن
- اجتماع مع الاخ رئيس الوزراء أحمد قريع
- اجتماع مع الاخ رئيس المجلس التشريعي روجي فراح
- اجتماع مشترك مع مفوض التعبئة الاخ هاني الحسن ومسؤول المالية الاخ عدنان سمارة
- اجتماع مع الوفد الامني المصري برئاسة اللواء مصطفى البحيري
- ثلاث اجتماعات منفردة مع الاخوة قادة الاجهزة الامنية ( أبو حسين الطيراي ، بشير نافع ، زياد هب الريح ) .
- اجتماع مع الاخ رئيس ديوان الرئاسة رفيق الحسيني
- اجتماع مع الاخ وزير الاشغال العامة د . محمد شنية
- اجتماع مع الاخ وزير الشؤون المدنية محمد دحلان
- اجتماع مع اللواء مطلق حمدان (أبو فواز)
- كما عقد عدد من امناء السر بمبادراتهم الشخصية اجتماعات أخرى مع عدد من المسؤولين والكوادر ساهمت في تعزيز الاطار ، وتوسيع افاق تطور دوره وبرامجه

#### ٢- الفعاليات

- صدر عن امناء سر الاقاليم بيان تنديد بجريمة اغتيال القادة الشيخ علي فرج وشقيقه حسام
- نعى امناء السر باسم الاقاليم استشهاده الاخوين الشيخ علي فرج وشقيقه حسام
- شارك امناء السر في اعتصامين في مقر المقاطعة للمطالبة باتخاذ الاجراءات السريعة بحق القتل والمجرمين ومحاكمتهم
- رعى امناء سر الاقاليم جنازة الشهيد الشيخ علي فرج وشقيقه حسام ، ولقى الاخ أبو هزاع شريم كلمة باسم الاقاليم
- صدر عن إطار امناء السر ثلاثة رسائل كالتالي
- ١- رسالة موجهة الى اللجنة المركزية في اجتماعها المنعقد في عمان
- ٢- رسالة موجهة الى رئيس الوزراء
- ٣- رسالة موجهة الى وزير الداخلية
- كان من المفروض أن يرسل كل إقليم حملة باص من المناضلين للتجمع أمام المحكمة في أريحا في الجلسة الاولى لمحاكمة المجرمين قتل الشيخ طائر وشقيقه

حسام ، ولكن تقديم موعد المحكمة بيوم واحد وبصورة مفاجأة وغير معلنة الغى التحرك في اللحظة الأخيرة .

### ٣- النتيجة :

إن من يراقب نشاطات أمناء السر وفعاليتهم ، ومثابرتهم الحيوية على حضور الاجتماعات منذ انطلاق مبادرتهم يلاحظ أن هناك رغبة حقيقية وجدية في بناء هذا الإطار وأن هناك حرص وتصميم على مواصلة الاجتماعات وتقوية الإطار بما يخدم وحدة الحركة وتماسكها وصيانتها ، وتفعيل القاعدة التنظيمية .

كما أن المرء يمكن أن يلاحظ أيضاً أن الإطار شق طريقه ببسر وسهولة ، وفي وقت قياسي نظراً لشرعيته من جهة وللحكمة والالتزام والمسؤولية التي أدار بها أمناء السر توليد إطارهم الذي لاقى ترحيباً كبيراً في مختلف الأوساط .

وإذا ما قارن المرء بين الأهداف التي طرحت في أول اجتماع وبين ما جرى تحقيقه حتى اليوم فإنه يمكن الاستنتاج بأن اجتماعات الإطار ونشاطاته وفعالياته مرضية تماماً وشير في الاتجاه السليم ، فقد كان من أولى أولويات أهداف الاجتماع ، خلق عنوان شرعي للتنظيم في الضفة ، وقد تحقق ذلك في هذه المرحلة .

وكي يتمكن الإطار من تحقيق باقي أهدافه ، ومواصلة دوره فإن المطلوب مواصلة الرحلة بثبات وجد ، مع المحافظة باستمرار على شخصية الإطار واستقلاله .

### ٤- اقتراحات لتعزيز مكانة ودور الإطار

لا زال الإطار في بداية رحلة انطلاقه الأول وكى يحافظ على زخم وقوة تحركه ويؤدي رسالته فإنه يجدر بنا إنجاز التالي خلال الشهرين القادمين :

أ- الاقتراب أكثر من القاعدة التنظيمية ( تفعيل الاقاليم ) عبر التالي :

- عقد اجتماعات أمناء سر الاقاليم الأسبوعية في الاقاليم
- عقد اجتماع موسع ومخطط له جيداً لأعضاء لجان الاقاليم
- تفعيل القاعدة التنظيمية في الاقاليم من خلال ( عقد اجتماعات لجان الاقاليم والتواصل بين لجان الاقاليم والمناطق والمواقع ) .
- قراءة محاضر اجتماعات أمناء سر الاقاليم في اجتماعات لجان الاقاليم
- تعليق محاضر الاجتماعات ، وما يصدر عن أمناء سر الاقاليم على لوحات الاعلان في الاقليم .
- التركيز على معالجة موضوع الموازنات الشهرية والديون المترتبة .
- وضع خطة لمعالجة المشاكل المنتشرة في الاقاليم ، والاستعداد للانتخابات المحلية والتشريعية المقبلة .

ب- المحافظة على سلامة العلاقة وإيجابيتها مع مفوض التنمية والتنظيم ومكتب التنمية وكافة الجهات ذات العلاقة فالشرعية هي مصدر اجتماعاتنا ، وهي أهم عناصر قوتنا ووجدتنا واستمرارنا ونجاح إطارنا .

ج- استثمار ما زرعه حتى الآن ( خلال شهرين ) في استغلال الإمكانيات واستنهاض القاعدة ( كي لا تتحول اجتماعاتنا إلى مجرد علاقات عامة أو نقف نكهة وروحية انطلاقها الأول .

د- أن يظل التركيز منصبا على اجتماعات أمناء سر الأقاليم كي لا تأتي الاجتماعات مع المسؤولين على حسابها مما قد يتسبب في ضياع الرؤيا ، وفقدان الهدف والانحراف عن اتجاه البوصلة ، فاجتماعات أمناء سر الأقاليم وتفاعلمهم وقوة وحدتهم هي الأساس وهي التي ستقرر مستقبل ومصير الإطار ومدى جنواه وأهميته قبل غيرها .

هـ- علينا كأمناء سر الأقاليم أن نقرب من بعضنا أكثر فأكثر كي نفاعل معاً ونقارب بين تصوراتنا وموقفنا وذلك من خلال الاجتماعات الثنائية والثلاثية المساعدة بالاضافة إلى الاجتماع الرئيسي .

و- مواصلة رحلة الاجتماعات مع المسؤولين .

ز- فتح قناة مع اقاليم قطاع غزة بهدف توحيد الرؤيا وتعميم الموقف التنظيمي داخل الوطن .

ح- المحافظة على شخصية الإطار المتميزة ، وإبراز أهمية دوره ومستقبله ونقله بعين كافي وهذا يتطلب الانخراط بصورة جادة في العمليات التي تخدم تفعيل دور القاعدة التنظيمية والتي جاء انشاء الإطار اساساً لتحقيقها .

ط- الابتعاد قدر الامكان عن الميل إلى التسرع في قطف الثمار فنحن لا زلنا في المرحلة المبكرة للزرع واننا في حاجة إلى وقت كافي وجهد كبير كي نحصد .

أمل أن تعرضوا هذا التقرير في اجتماعات لجانكم في الأقاليم ، وأن يجري تعميمه على المناطق وأن نستمع منكم في اجتماعنا القادم إلى ملاحظات ومقترحات حول هذا التقييم لعلها تكون مساعداً لنا في رسم خطة المرحلة التالية .

أعوان سر إقليه راء الله والبيرة

أبو علاء منصور

٢٠٠٥/٧/٥



اجتماع أمناء سرّ الأقاليم بتاريخ 25-26 / 7 / 2005

## بسم الله الرحمن الرحيم

٢٥-٢٦/٧/٢٠٠٥م

دورة اجتماعات رقم (١٣)

### الأخوة المناضلون أمناء سر الاقاليم

#### تحية الوطن وبعد :

إيكم فيما يلي ملخصاً لاجتماعاتنا في دورة اجتماعاتنا رقم (١٣) خلال يومــــــــــــــــــــي  
٢٥-٢٦/٧/٢٠٠٥م .

أولاً : اجتماع أمناء سر الاقاليم في مقر إقليم شمال الخليل في بلدة حنحول .

حضر الاجتماع خمسة من امناء السر هم الاخوة :

زياد الرجوب ، أبو خالد الشرباتي ، أبو حسن جبارين ، أبو علاء منصور ، صائب نظيف  
إضافة الى نائب أمين سر إقليم بيت لحم نافذ الرفاعي .

وضم الاجتماع ما بين ( ٧٠-٨٠ ) كادراً من أعضاء لجان الاقاليم وامناء سر المناطق  
وامناء سر المكاتب الحركية والشبيبة والمرأة في أقاليم الجنوب ( بيت لحم ، شمال الخليل  
وسط الخليل ، جنوب الخليل ) .

وبعد ما رحب الاخ أبو حسن جبارين بالحضور ، وشرح لهم الهدف من وراء هذا  
الاجتماع ( للتواصل والتفاعل بين إطار امناء سر الاقاليم والقاعدة التنظيمية ) ، قدم الاخ أبو  
علاء منصور نبذة عن نشأة الإطار وتطوره ونشاطه خلال الشهرين الاولين من إقامته .

وتحدث الاخ زياد الرجوب وقال : علينا أن نفرق بين الطموح والواقع ، مع العمل  
على تحقيق الهدف آخذين في الاعتبار المشكلات القائمة في الواقع ، فمنذ سنين ونحن نرحل  
الازمات ، وأنا أعتقد أنه لن يجري عقد المؤتمر العام السادس ، فالمجلس الثوري قرر تأجيل  
الانتخابات دون تحديد سقف زمني .

ثم تحدث الاخ أبو خالد الشرباتي وقال : إن إطار امناء سر الاقاليم ليس ترفاً فكرياً  
ومطالب بأن ينصب النقاش على محورين الاول : الوضع التنظيمي ، والثاني : الانتخابات  
ودعا الى أن تكون الانتخابات شاملة من القاعدة الى القمة ولكن بعد تحديد موعد انعقاد  
المؤتمر العام السادس .

وبعد ذلك تم فتح باب النقاش : حيث تحدث معظم الحضور ، كما تم تقديم أوراق من  
قبل عدد من الحضور ، وقال الاخ عبد المجيد السويطي " إن حجم القرار يساوي حجم الموقع  
ومن هنا تأتي أهمية إطار امناء السر ، ونحن مسؤولون بمثل هذه اللقاءات ونأمل أن

تواصل " واقترح إنشاء مجالس حركية في الشمال والوسط والجنوب ، ومجالس مشابهة على مستوى الاقاليم بالاضافة الى اجسام أخرى ضاغطة .

وقال الاخ عزمي طيب : " أن لجان الاقاليم لا تعلم باجتماعات امراء السر بعد شهرين من انطلاقها وأضاف : أننا لم نقيم نتائج الانتخابات " واقترح عقد اجتماع موسع للكادر في كل إقليم للخروج برأي عام فتحاري حول المسائل المطروحة .

وقال الاخ صلاح الديري : " علينا أن نمتلك رؤيا كي لا نصبح أدوات هدم من خلال التركيز على السلبات والانتقاد ، فمثلاً الفلتان الأمني حالة نرعاها إسرائيل للتدخل من التزاماتها ، وليس انعكاس للفساد الداخلي ، والقيادة لم تمنعنا أن نكون الأفضل ، ولذلك ليس من الصحيح أن نرحل أزممتا الى اللجنة المركزية ، فهذا ليس منطقياً ولا موضوعياً " وأضاف " تلقت حماس أموالاً طائلة ، ولم يستفد منها الشعب الفلسطيني ، دون أن يتحدث أحد عن فسادها بينما الفساد موجود " .

وطالب بتفريغ كادر للعمل في التنظيم ، وإيجاد آلية لرفع مستوى الكفاءة التنظيمية . ثم تحدث الاخ تيسير أبو سنيّة وقال : " تسير فتح اليوم بقوة الدفع النضالي التاريخي ، وكل ما هو موجود اليوم فاقد للشرعية ، كونه فاقد للرؤيا السياسية ، والبرنامج السياسي " .

واقترح تفعيل النظام الاساسي للتعاطي مع الظواهر التي تبرز هذه الايام . وقال اسماعيل غنام : " علينا أن نعيّ استمارات العضوية لنادي الاسير ، ففي الوقت الذي يتراكم أبناء حماس على ذلك ، فإن معظمنا لم يسجل إسمه " .

وطالب بترتيب الامور في الهيئات العليا . وتحدث الاخ أنور جردات وقال : " يجب عقد المؤتمرات وإجراء الانتخابات الحركية من القاعدة الى القمة ، تمهيداً للانتخابات المختلفة المقبلة " .

وأكد على أن معظم الوزارات لا تخدم الحركة وضرب مثلاً على ذلك وزارتي التربية والتعليم والادارات الاسلامية ، وقال أن أعضاء حماس يقودون لجان الزكاة .

وقال الاخ عزمي عيادة : " إن ما يجري داخل السلطة يعتبر انعكاساً لما هو في فتح " وطالب بتعزيز الحضور الحركي في المؤسسات ، واحترام الاطر القيادية ، ووجود متفرغين للعمل في التنظيم وباقامة مشاريع اقتصادية لخدمة التنظيم ، واتباع مبدأ الثواب والعقاب ، وتوحيد الخطاب الاعلامي .

أما الاخ محمد مريش فقال : " لا يوجد تواصل مع القاعدة التنظيمية " وأكد على أهمية اتباع مبدأ المحاسبة في التنظيم .

وقال الاخ فيصل مبارك : " يجب مواجهة اللجنة المركزية بالواقع ، أو الانتظار حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً " .

أما الاخ نافذ الرفاعي فقال : نحن نشخص الخلل ونعجز عن إعطاء الحلول ، هناك مشكلة في عدم وضوح البرنامج السياسي .

وقال الاخ حازم قمصية : أدى تعدد المرجعيات الحركية الى ضعف الالتزام التنظيمي ، ولماذا نتهم غيرنا بالفتن الامني بينما بعض منا هم السبب فيه ، هناك ارتباك في الموقف السياسي ، فالذين ذهبوا الى جنيف حظوا بموافقة الرئيس ، والذين قاموا على الانتفاضة دعمهم الرئيس .

وأضاف : نحن لم نفقد الاهلية لقيادة الشارع ، والمشكلة تكمن في الكادر وهي ناجمة عن تصفية الحسابات الشخصية ، وعلى امناء سر الاقاليم أن يكونوا لسان حال الكادر التنظيمي .

وأكد على أهمية إجراء الانتخابات في الاتحادات الشعبية .

وتحدث الاخ جمال الديك وقال : " إنني متعاطف جداً مع إطار امناء سر الاقاليم " ، وأكد على أن هناك هموماً كثيرة ترزح تحت وطأتها القاعدة الحركية ، فلا عدل اجتماعي في الحركة وطالب بالفصل بين كل من فتح والسلطة ومنظمة التحرير ، وبإيجاد برنامج للعمل الاجتماعي ، وآخر تربوي للجيل الجديد ، وطالب بتحديد المرجعيات والمراتب والتوجه للقواعد وفئات الشباب .

وقال الاخ محمد حميدات : نحن قادرون على البناء ، وما ينقصنا هو الاهتمام بالعامل الاجتماعي والثقافي ، حيث طغت علينا الاهتمامات الشخصية .

وأضاف : لقد أحدث قطع رواتب خمسة وعشرون مناضلاً من بينهم عشرة مطلوبين (أحدهم سفيان قتيبي الذي اعتقلته قوات الاحتلال أمس بعد إصابته بجراح خطيرة ) بلبلة في صفوف التنظيم .

وقال الاخ لافي غيث : المطلوب لملمة الوضع التنظيمي ، وعلينا تكريس مبدأ الاحترام بين أبناء الحركة ، وأكد على أهمية إجراء الانتخابات في القواعد ولكن بعد تحديد موعد المؤتمر العام السادس للحركة .

وأضاف : لا قيمة لإطار امناء سر الاقاليم بعيداً عن القاعدة التنظيمية ، وأن فتح وقاعدتها تدفع فاتورة الممارسات السلبية داخل السلطة وفي الأجهزة الامنية .

واقترح أن يصدر بيان عن الاجتماع يدعو الى عقد المؤتمر العام السادس للحركة وتهيئة الآليات المناسبة لذلك ، والاعلان عن رفض مبدأ التعيينات .

وقال الاخ محمود طورة : أن سبب التزلزل في الاقاليم هو امناء السر ولجان الاقاليم ، بسبب عدم تواصلهم مع القواعد ، والمسؤولية هنا مشتركة بين اللجنة المركزية ولجان الاقاليم .

وتحدث الاخ فهمي الزعازير وقال : " يعتبر إطار امناء سر الاقاليم فكرة مبدعة يجب دعمها كي تستمر وتتواصل " واقترح أن يكون المؤتمر العام السادس للحركة انتقالياً ينتخب قيادة لمدة عامين .

وتحدث الاخ ياسين عريقات : " فأكد على أهمية التواصل والمتابعة ، ومطالب بمنع الاجهزة الامنية من التدخل في الشؤون التنظيمية ، وانتقد عدم وجود برامج للتعلم .

وفي نهاية الاجتماع قدم مجموعة من الاخوة أوراقاً ومقترحات كالتالي :

١- الاخ عارف درويش / عضو لجنة إقليم بيت لحم .

- محاسبة من يمارس الفساد من أبناء الحركة ، بهدف استعادة المصداقية

- وضع برنامج ثقافي ، سيما للاخوة الذين التحقوا بالحركة بعد أوسلو ، لإعادة وضع القيم والمفاهيم على أسس سليمة ، بعيداً عن الاسس الذاتية والاعتبارات الشخصية

- إفراز مناطق إعلامي باسم الحركة

- هناك فهم ردي للعضوية الحركية اليوم يقوم على الاخذ وليس العطاء

- بالنسبة لمثل هذا الاجتماع يقترح وجود جدول أعمال محدد ، وتقسيم المجتمعين الى مجموعات تناقش كل منها جانب من جدول الاعمال ، وتطرح المقترحات للنقاش العام ثم يصوت عليها للاخذ بها .

٢- الاخ محمد جبرين فردة

- ضرورة احترام المراتب التنظيمية ، بعيداً عن الاندواجية في التعامل

- عدم السماح بتبني أي مواقف بعيداً عن الموقع

- فصل العنصر السيء من الحركة

- وضع معايير للترشح سواء في انتخابات المناطق والاقاليم

- وضع آلية حوار تجمع كل لجان الاقاليم وامناء سر المناطق لمناقشة كيفية توصيل

مرشحين للاقاليم بمعايير متفق عليها .

واختتم الاخ أبو علاء منصور الاجتماع بالثناء على ما جرى من مناقشات وما قدم من مقترحات وقال : " لقد أدى الاجتماع معظم الاغراض والاهداف التي وضعت له والتي جوهرها التواصل وإجراء الحوار والتفاعل بين امناء سر الاقاليم والقاعدة التنظيمية "

وأضاف : " أن إطار امناء سر الاقاليم لن يحل أزمة فتح ، وهو لا يملك حلولاً سحرية ولكن الإطار يمكن أن يشكل بوابة للعمل من خلال التواصل وإثارة الحوار ، وإن امناء السر لم يهدفوا الى إقامة إطار إضافي ، ولكنهم قدموا مبادرة عملية وهي تتحرج اليوم بما فيه صالح الحركة ، وأن من الخطأ تحميل إطار امناء سر الاقاليم أكثر مما يحتمل .



وأكد أبو علاء : على أن القاعدة الحركية هي الملاذ الأخير لإنقاذ الحركة في ظل حالة العجز المستحقة الراهنة وأن مشكلة فتح من داخلها ولا علاقة لحساس والأحرين بذلك ولذلك يجب تسليط الضوء على تفعيل عملية البناء في الحركة بعيداً عن اتباع منهج الانتقاد السلبي سواء فيما يتعلق بحساس أو حتى داخل الحركة نفسها .

ثانياً : اجتماع امناء سر الاقاليم مع الدكتور حسن أبو لبدة وزير الشؤون الاجتماعية والعمل حضر الاجتماع عشرة من امناء سر الاقاليم هم : عطا أبو رميلة ، أبو هزاع شريم أبو فاروق ، عصام أبو بكر ، بلال عزريل ، صائب نظيف ، أبو علاء منصور ، أبو حسن جبارين ، أبو خالد الشرياتي ، زياد الرجوب .

وفي بداية الاجتماع قدم الاخ أبو علاء منصور نبذة عن فكرة إطار امناء السر ونشأته وأهمية الشوط الذي قطعه حتى اليوم ، سواء في تكريس الانسجام داخل الاطوار ، أو في التواصل مع المؤسسات الحركية والسلطوية أو القاعدة ، والتي يأتي هذا اللقاء في سياقها .

ثم تحدث الدكتور حسن أبو لبدة ، وأعرب عن سعائه باللقاء مع امناء سر الاقاليم وأشد بالاطار ، سيما في هذه المرحلة ، وتولى أن يأخذ الاطار دوره بشكل جدي خاصة من جانب امناء السر أنفسهم قبل غيرهم ، وأعرب عن تفاؤله من وجود الاطار ومستقبله وأبدى دعمه له لعله يساهم في استعادة بريق الحركة ، وشدد على أهمية أن لا يقتصر دور الاطار على الاسم فقط .

وقد شرحاً عن الخدمات التي تقدمها وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، والمشكلات التي تواجهها واشتكى من ضعف الوجود الحركي في وزارة العمل ، وطالب بخلق حالة من التنافس بين فتح وحساس لصالح خدمة الجمهور ، وأبلغ الحضور بأنه تم تشكيل شبكة أمان اجتماعي في وزارة الشؤون الاجتماعية(صندوق الرعاية الاجتماعية ) برأس مال مائتين وأربعين مليون دولار منها مائتي مليون من السلطة والباقي من الدول المانحة .

وتساءل : " كيف نستطيع أن نستفيد من إطار امناء سر الاقاليم في ترتيب موضوع البطالة من خلال الرقابة على البرنامج .

وتحدث عن البرامج الجارية في الوزارة وقال : لدينا برنامج شراكة مع القطاع الخاص يهدف الى ايجاد عشرة آلاف فرصة عمل ، وهناك برنامج آخر لخريجي الجامعات والمعاهد الجدد ، وهناك برنامج ثالث لدعم الجمعيات وبرنامج آخر للمساعدات الشهرية للأسر الفقيرة ، وبرنامج للارامل .

وتحدث امناء السر فأعربوا عن سعادتهم باللقاء ، وأعلنوا أنهم فوجئوا بالامكانيات المتوفرة لدى الوزارة وبالدعم الذي تقدمه للمواطنين ، وأعادوا عدم المعرفة الى حالة التفكك القائمة بين المؤسسات المعنية وبين التنظيم وإلى عدم التواصل بين التنظيم وهذه المؤسسات

والوزارات ، ومطالبوا باستمرار التواصل وإيجاد الآليات الملائمة لخدمة الجمهور وإتاحة المجال للتنظيم للمشاركة الفاعلة بما يخدم الحركة والمواطنين في ذات الوقت وسمعة الحركة والسلطة في أوساط الجمهور .

وقال الاخ أبو هزاع : أنه بينما تقوم السلطة ووزاراتها بهذا الدور فإنه لا ينالها وينالنا سوى السلبيات وسواد الوجه ، فالذي يقوم بتوزيع المساعدات يقوم بذلك باعتباره موظفاً في السلطة دون الاخذ في الاعتبار بأنه فتح ومن هذه الزاوية فإننا نطالب بأن يكون التنظيم شريكاً في عمليات الدعم بالشكل والصورة المناسبة .

وعلق الدكتور حسن أبو لبدة قائلاً : أن قوائم الدعم التي ترسل عبر المحافظين تسبب الازباك ، وهي تصرف من وزارة المالية .

وقال الاخ عصام أبو بكر : الحركة ليست تنظيمياً نخبوياً ومن واجبها التكيف مع سلبيات المجتمع ، فالتنظيم في غزة هو الذي يضع القوائم ، ونحن نرفض أن يكون دورنا رقابياً لأن معنى ذلك أن يقتصر دورنا على تلقي المسبات .

علق د . حسن أبو لبدة على الحديث وقال : إذا استسلمتم أن تأخذوا حصة المحافظين وتنتقل إليكم وهذا ما يجب أن تمنعوا للوصول إليه فأنا مستعد أن أعرض حصة المحافظين قال الاخ أبو خالد الشرباتي : أن الدعم من خلال المحافظ ، أو الوزير ، أو عضو المجلس التشريعي لا يسجل لصالح فتح على اعتبار أن هؤلاء يمثلون السلطة ، ومن هنا فإننا نركز على أن يكون للتنظيم دور في عملية الدعم .

وقال الاخ أبو حسن جبارين : " نحن بحاجة الي التعاون ، وبحاجة الي شركاء أوفياء لتحسين وضع الحركة وسمعتها ، وتأتي أهمية مخصصات البطالة من أنها تساهم في رفع المعاناة " .

وقال الاخ زياد الرجوب : " نحن في فتح مرتبكون ، ونحن حريصون على الإصلاح" وفي نهاية الاجتماع قال الاخ أبو علاء منصور : " اننا مجرمون ، فكيف تتوفر لدينا هذه الامكانيات دون أن نستثمرها كحركة فتح وتنظيم ، ولماذا لا نستخدم هذه الامكانيات في تحسين صورة الحركة بين الناس . ثم أعرب الدكتور حسن أبو لبدة مجدداً عن دعمه للأطراف واستعداده للتعاون مع امناه سر الاقاليم .

أمين مر إلهيه واء الله والبيرة

أبو علاء منصور





صحيفة القدس،  
2005 / 7 / 27



صحيفة الحياة،  
2005 / 8 / 1

رسالة إلى الرئيس محمود عباس (أبو مازن) بتاريخ 22 / 8 / 2005

بسم الله الرحمن الرحيم

الاخ الرئيس ابو مازن \*\*\* حفظه الله

تحية الوطن وبعده ...

اود ان اضعكم في صورة نشاطاتي في المهمة التي كلفت بها والمتعلقة بموضوع الانسحاب الاسرائيلي من عدد من المستوطنات في منطقة جنين ، والتحرك الشعبي المرافق للانسحاب .

في البداية عقدنا اجتماعاً لأبناء سر الاقاليم في الضفة ، في مقر إقليم جنين يوم ٢٠٠٥/٨/١م التقينا خلاله بأبناء سر المناطق التنظيمية ، والشبيبة ، والمرأة ، والمكاتب الحركية وعدد من الكادر . وكان الهدف من هذا الاجتماع ان تأخذ حركة فتح دورها المميز في مواكبة عملية الانسحاب وحث الجمهور على الاحتفال بالمناسبة ، على اعتبار ان الانسحاب من المستوطنات وتفكيكها يشكل حدثاً تاريخياً بالنسبة للشعب الفلسطيني فاسرائيل التي واصلت زرع المستوطنات على مدار اربعة عقود من الاحتلال مضطرة اليوم الى نزع مستوطنات وبالنسبة لنا فان هذا الامر رغم ضآلة حجمه الا ان مدلولاته كبيرة ، نظراً لتعقيد الظروف واختلال المعادلة وباعتباره مؤشراً هاماً على المستقبل .

وفي هذه الاثناء اتصل بي الاخ محمد نحلاص رئيس اللجنة العليا للانسحاب ومطلب مني ان اقوم بما استطيع كي تتواكب الفعاليات ومدى الاهتمام والاعلام في جنين مع ما يجري في القطاع لاهمية ذلك على المستوى السياسي والجماهيري والفهم الدولي ، وعلى الفور ذهبت الى جنين وعلى مدار اربعة ايام التقيت خلالها بكافة الفعاليات والجهات والاشخاص ذات الصلة . لوضع خطة للفعاليات الجماهيرية المقترضة ان تتراقق مع عملية الانسحاب .

وفي نطاق ذلك بادرت الى الاتصال بالاخ ابو علاء فربيع لعقد اجتماع وزاري سريع في جنين ، وقد استجاب مشكوراً للمبادرة التي كان لها اثرها الهام والطيب على كافة الصعد والمستويات والحالة الجماهيرية في محافظة جنين .

وبالرغم من ان الكثيرين حذروني من خطر المغامرة بعقد اجتماع مجلس الوزراء في جنين ، وما يمكن ان يترتب عليه من تفاعلات سلبية ، إلا انني كنت متأكداً من نجاح العملية التي بذلت في سبيلها جهوداً جبارة من قبل عدد كبير من الاخوة المناضلين والمسؤولين في التنظيم وكتائب شهداء الأقصى ولهذا سافرت مرة اخرى الى جنين وأمضيت هناك اربعة ايام اخرى حيات فيها مع الاخوة هناك الاجراء لاتعداد مجلس الوزراء الذي وقع يوم ٢٠٠٥/٨/٧ ولا زلت اواصل القيام بواجبي هناك اتجاه الاستعداد للفعاليات

الشعبية التي من المفترض ان تبرز دور فتح ومكانتها وتؤكد على أهمية الفرح والاحتفال  
بالمناسبة التاريخية

لقد اكتسب عقد مجلس الوزراء في جنين أهمية استثنائية عندما طوى صفحة سلبية  
ظلت تبيمن على الاجواء وبرز الصورة الحقيقية للمحافظة وزال الابتاس والتشويش الذي  
ظهر على صورة العلاقة وخلق ارتياحا عند اهالي المحافظة التي تكتسب رمزية خاصة نظرا  
لمجزرة مخيم جنين ، وباعتبار المحافظة خزانا نضاليا وفتحاويا .وبهذه المناسبة فأنني اود ان  
اقدم الشكر للاح ابو علاء لاستجابته لعقد مجلس الوزراء في جنين رغم التحذيرات والمخاوف  
واشكر الاخ محمد دحلان الذي بادر للاتصال بي وكلفني بهذه المهمة ، وقدم ما يلزم من  
الاحتياجات الضرورية لانجاحها . واشكر كافة الاخوة في جنين من رسمين وفتحاوين  
ومناضلين في كتائب شهداء الأقصى الذين لولا جهودهم وتفهمهم لاهمية الحدث لما تحقق  
النجاح . وانني لشعر بالمساعدة ان كنت على قدر المسؤولية فاديت دوري الوطني والفتحاي  
الذي كلفت به بصورة جيدة .

أمين مر إقليم راء الله والبيعة  
ممنق لجنة المسانحة والحماية الآملية  
أبو علاء منصور

٢٠٠٥/٨/٢٢





أُخذت هذه الصورة في سجن المحطة عام 1976. أبو علاء منصور في الوسط، والمُشار إليه بالسهم.



من اليمين: الشهيد حمدي سلطان وأبو علاء منصور.



من اليمين: باسل، محمد الشويكي، نسيم عبد الجليل (أبو العز)، جهاد  
العمارين، أبو زيد عيَّاش.



من اليمين: نسيم عبد الجليل (أبو العز)، محمد الشويكي، مروان زلوم، باسل،  
أبو زيد عيَّاش.



اجتماع لجنة إقليم رام الله والبيره مع الرئيس ياسر عرفات.



من اليمين: أبو علاء منصور، مروان البرغوثي، حكم بلعاري، الرئيس ياسر عرفات، أحمد عبد الرحمن.





من اليمين جلوسًا: أبو علاء منصور، زياد أبو عين. ومن اليمين وقوفًا: أحمد غنيم، أبو سليم.



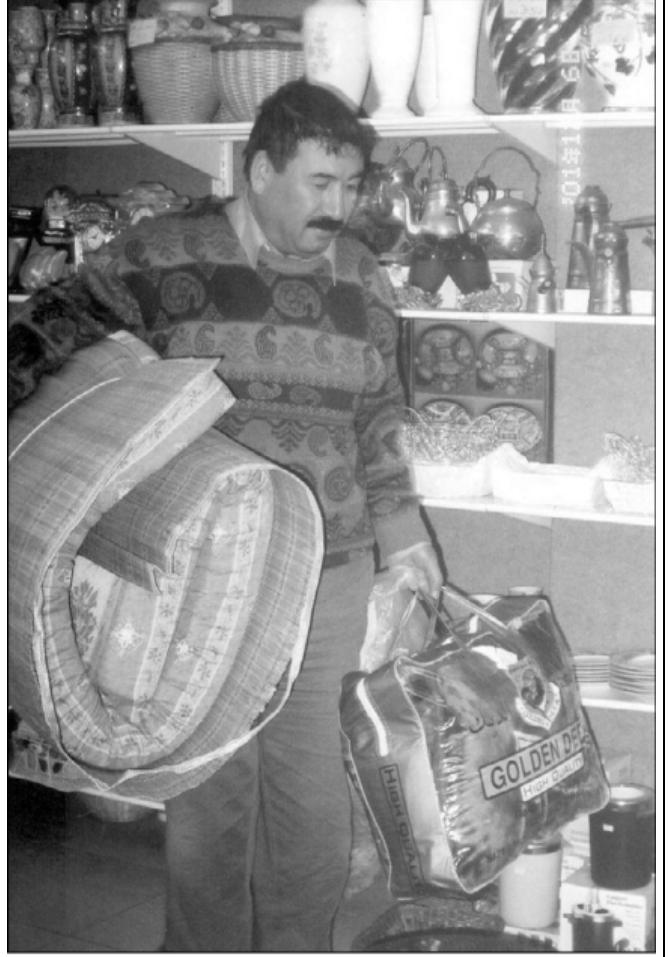
من اليمين: مروان البرغوثي، د. جمال الخطيب، أبو علاء منصور.



أثناء زيارة الرئيس ياسر عرفات لمروان البرغوثي في منزله، وفي الصورة نداء البرغوثي وأبو علاء منصور.



أُخذت هذه الصورة في أثناء انتفاضة الأقصى خلال زيارة الرئيس ياسر عرفات لمروان البرغوثي في منزله.



أبو علاء منصور في أثناء التخفي.



أبو علاء منصور في أثناء التخلي.



في اجتماع مع الرئيس محمود عباس.